ديوان الإنشاء

او

أسلوب الحكيم

في منهج الإنشاء القويم

تأليف

السيد أحمد الهاشمي

مدير مدارس فؤاد الأول ومراقب مدارس فكتوريا الانجليزية سابقاً
وصاحب كتابي جواهر الادب وجواهر البلاغة

دار الكتب العلمية

بيروت – لبنان

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

يطلب من دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص‌ب: ٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 L e

بسم الله الرحمن الرحيم

نتلو آيات الحمد والثناء على من أنشأ آدم وعلمه الاسماء. وأنطق بنيه باللغات البينات . في عموم الانحـــاء والجهات . ونروي أحاديث الصلاة والتسليم على سيدنا محمد المنزل عليه القرآن الكريم ، والمرسل بدينه القويم . ذي (**الأسلوب الحكيم**) صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الهادي إلى الصراط المستقيم .

أما بعد فإن العلوم وإن كثرت رياضها وتدفقت بالفوائد حياضها ، فأبهجها حديقة سقيت أدواحها بمـاء الكمال ، وأينعت أزهارها فأنبتت مكارم الاخلاق وحميد الخلال **(علم الانشاء)** الذي هو غريزة فطرية، تعززها ملكة اكتسابية ـ ولما عنيت بتدريس هذا العلم في المدارس الثانوية وضعت هذا الكتاب وسميته في الطبعات السابقة .

(**أسلوب الحكيم في منهج الانشاء القويم**) بيد أني دعوته في هذه الطبعة الجديدة **« ديوان الانشاء »** .

وأمتن سلفاً لكل أديب مخلص النية على مـــا يتحفني به من ملاحظاته ـ وأسأل الله تعالى أن يمنحني توفيقه وهو المستعان .

المؤلف

السيد أحمد الهاشمي

١ ـ توحيد وتمجيد المولى سبحانه وتعالى

سبحان الذي توحد بوجوب الوجود ودوام البقاء ، وتفرد بامتناع العدم واستحالة الفناء . دل على وجوده خلق الأرض والسموات العلى وشهد بوحدانيته انتفاء الفساد عن الأرض والسماء ، تنزه عن مشابهة الأمثال والأكفاء ، وتقدس عن الحدوث والانقسام والتأليف والأجزاء ، أحاط علمه بدبيب النمله السوداء على الصخرة الصماء . في دياجير الظلماء ، وأبدع المواد بقدرة قديمة ممتنعة عن الانتهاء . له الإعادة ومنه الإبداء ، دبر الكائنات ، وأحصى المخلوقات، وأحاط علمه بما لا يتناهى عده وإحصاؤه ، جلّت قدرته وتباركت أسماؤه وعظمت نعمته ، وعمت آلاؤه ، وقصرت عن إدراك ذاته أفكار العقلاء . وتحيرت في بيداء ألوهيته أنظار العلماء .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه الواحد

وقال ﷺ : «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا» فالنظر في الخلق يهدي بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ، ويضيء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره . وعليها تجلت أنواره وإلى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام .

كيفية المرء ليس المرء يدركها   فكيف كيفية الجبار في القدم

هو الذي أنشأ الأشياء مبتدعاً   فكيف يدركه مستحدث النسم

وكلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنها كال قدرة واجب الوجود ونهاية عظمته .

كل ما يرتقي إليه بوهم   من جلال وقدرة وسناء

فالذي أبدع البرية أعلى   منه سبحان مبدع الأشياء

٢ ـ الآثار العجيبة التي أبدعها مبدع الكائنات

﴿إنّ في خَلقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ «قرآن كريم».

ان من أجال فكره في هذه الموجودات. وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات، وما فيها من العجائب والغرائب، ومن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان، والمجيء والذهاب مع تعاقبها على ذلك بحالة منتظمة لا يتغيران مهما تعاقبت الفصول وتوالت الأعوام. ومن السفن التي تجري على الماء لينتفع الناس بها فيأمور معاشهم ومن أنزل الماء من السماء فتنبت به الأرض بعد يبسها وتنتشر فيها الدواب بما تأكله من ذلك النبات. ومن تصريف الرياح وتقلبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً حارة وباردة ومن الغيم المسخر بين السماء والأرض بلا علاقة تمنعه من السقوط ولا ممسك يمسكه يسير حيث شاء الله تعالى لاستدل على كمال قدرته ونهاية عظمته.

انظر إلى السموات وما اشتملت عليه من الكواكب وعجائبها ودورانها في أفلاكها بهذه الحركات المنتظمة مع اختلافها في الصغر والكبر والنور والظلمة ـ وغير ذلك.

وانظر إلى الأرض وما اشتملت عليه من البحار والجبال والأودية والكهوف والسهول والمعادن وخواصها ومنافعها.

وانظر إلى الحيوان الذي بلغ في الصنع أعلى منازل الغرابة وأسمى درجات الإحكام لو تأمل العاقل ما انطوى عليه من غريب التكوين وبديع الصنع وما اشتمل عليه من الأعضاء الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها واختلاف أبنيتها ودقائق صنعها لانبهر عقله وتحير لبه، لا سيما وقد اختلفت أصنافه ـ فمنه ما يعيش في الهواء وما يعيش في الماء وما يعيش على سطح الأرض وما يعيش في

اثنين من ذلك ومنه ما يمشي على أربع ، ومنه مـــا يمشي على بطنه . فسبحانه تعالت قدرته .

وانظر إلى النبات وتباينه في الاشكال والازهار والاوراق والثمار والبذور والروائح والطعوم والالوان والمنافع والمضار، قال الله تعالى : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ أفـــلا ينظرون إلى الإبل كيف ُخلقت . وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف ُنصبت ، وإلى الارض كيف ُسطحتْ ﴾ .

فلا جرم أن من أوجد هـــذه الموجودات المتقدمة وأحكمها وأبدع إيجادها على غايـــة الاحكام والاتقان يكون موجوداً وقادراً أتم القدرة فسبحان من لا يقدر قدر قدرته إلا هو ولا يحيط بعظمته سواه .

مليك عزيز لا يرد قضاؤه   حكيم عليم نافذ الامر قاهر

٣ ـ رأس الحكمة مخافة الله

مخافة الله هي الشعور بالقرب المعزّز بالخشية من الذات العلية يبعثنا ذلـــك الشعور إلى فعل المأمور بـــه وترك المنهى عنه في الاجتماع والعزلة وإلى التسلي والرضاء عند وقوع البلاء بينما الإنسان لا ساعد له سواه جـــل شأنه ـ وباشتراط القرب يعلم الفرق بين الخوف من الله والخوف من غيره ، فإن خوف الإنسان من غيره يستدعي بعداً لا قرباً ، وأما مخافة الله فتستدعي قرباً يجـــده الانسان من نفسه شاء أم أبى ، ولذلك قال ابو القاسم القشيري : من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب اليه . ويختلف خوف الناس منه سبحانه وتعالى .

فمنهم من يخافه هرباً من العقاب والعذاب وطلباً للأجر والثواب ، وذلـــك حاصل بأصل الايمان وعليه عامة الخلق قـــال عز شأنه ﴿ وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ومنهم من يخافه لذاته ولجلاله، ويراد من الخوف هنا الخشية وعليه العارفون

بالله ـ قال وهو أصدق القائلين : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أي العارفون بذاته وبجلاله . وقال عليه الصلاة والسلام : « انا اخوفكم إلى الله جل جلاله » .

وكذلك يختلف حب الناس له تبارك وتعالى مقداراً وكيفية فمنهم من يحبه لإحسانه وللنعيم .

ومنهم من يحبه لكونه تعالى مظهر الجمال والكمال ، وهذا هو الحب الحقيقي الذي هام به أهلوه الألى أشرقت عليهم شمس الحكمة فطربوا لها .

وبالجملة فالتعرف بالألوهية لا يحتاج إلى مرشد خارجي بل هو حاصل بالفطرة والطبيعة ـ وتعيين المعبود الحق جل شأنه هو المحتاج لا محالة إلى الإرشاد ولم يكن ذلك إلا بهدايته سبحانه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام ليتمموا معرفة الإنسان به عز وجل فيهتدي بهديه وينتهي بنهيه كي يحظى بالنعيم الأبدي المقيم ـ وأهم ما هدتنا إليه الرسل لا سيما المصطفى ﷺ هو محبة الله تعالى . وقد جعلها الشارع شرطاً في الإيمان بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ فمحبتنا لله سبحانه وتعالى لذاته ولكونه محسناً منعماً متفضلاً على جميع عباده بجلائل النعم .

وخوفنا منه تبارك وتعالى لجلالته وعظمته ، ولكونه مصدر الخير والكمال نأتمر بأمره وننتهي بنهيه حباً فيه لا خوفاً من عقابه ولا طلباً لثوابه ، فإن الخير كله فيما أمر الله به تعالى والشر كله فيما نهى عنه .

٤ ـ فوائد إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام

خلق الله سبحانه وتعالى الخلق وطبعهم على أخلاق حسنة تساعدهم على انتظام حالهم ، وأخلاق تخالفها لأجل أن يتسابقوا بها في عمارة هذا الكون الذي قدر وجودهم فيه إلى أجل معلوم ـ لكن لما كان تحديد الرغبة في السبق يوجب وقوف كل راغب عند حده ويأسه من مجاوزته وبذلك تتعطل حركة المسابقة لم تعدل الأخلاق في أصل الفطرة فصارت تلك الأخلاق السيئة في معرض الطغيان والوصول إلى حد يصبح به ضرها أكبر من نفعها ـ لذلك اقتضت رحمة الله بعباده

بمحض اختياره أن يرسل لهم إنساناً منهم فطرهم على الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة وأطلعهم على مكامن الأخلاق وأسرارها وكيفية علاجها ودرجة الاعتدال منها ليهدوهم ويرشدوهم إلى ما فيه صلاحهم وتقويم أخلاقهم أو تهذيب نفوسهم، ويبينوا لهم الخير ليتبعوه والشر ليجتنبوه، ويردوهم إلى حد الاعتدال في مثل هذه الأخلاق، قال تعالى: ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾. وقد بين الله تعالى وظيفة هؤلاء الرسل وحكمة إرسالهم في قوله: ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾. وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يجعل لهؤلاء الرسل من الآيات والعلامات الواضحات والحجج القاطعة والبراهين الساطعة ما يلجىء خصومهم إلى الأذعان والتصديق بكل ما جاءوا به من عنده جلّ وعلا، ويتركون ما هم عليه من العناد والحسد والتقليد، قال تعالى: ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴾. فهؤلاء الرسل والأنبياء مهدوا طرق الهدى وأوضحوا منار الحقيقة وطمسوا أعلام الجهالة فانتقلت الخليقة من الخشونة إلى النعومة ومن حضيض الهمجية إلى ذروة المدنية، ونادى منادي الخير في أهل الأرض أن أبشروا فقد غرست البركة « وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ».

وبالجملة إن نوع الإنسان يحتاج إلى المصالح الضرورية الكثير التي لا بقاء له بدونها مثل الغذاء واللباس والمسكن والآلات وغيرها، وإن الانسان الواحد لا يقدر أن يقوم بجميع هذه المصالح الضرورية، بل لا بدّ أن يكون معه آخرون من بني نوعه حتى بطحن هذا لذلك ويخبز ذاك لهذا، ويزرع لهما ثالث وهكذا الحال في البناء وغيره من الصناعات فهو يحتاج في تعيشه إلى اجتماعه مع بني نوعه للتعاون والتشارك في تحصيل تلك المصالح الضرورية لذلك قيل: (الانسان مدني بالطبع) فإن التمدن هو هذا الاجتماع وذلك التعاون والتشارك لا يتمان بدون المعاملات والمعاوضات التي تجري بينهم، ويقع فيها غالباً التنازع المؤدي الى الاختلاف والقتل واختلال أمور الدين والدنيا فلا بدّ لهم من قانون متفق عليه مبني على العدل والانصاف بعيد عن الجور والاعتساف مشتمل على نظام أمور معاشهم.

والعناية الأزلية وإن عمت جميع الحيوانات بحيث أعطت كل حيوان ما يليق من الآلات وهدته الى ما فيه بقاؤه وبـه قوامه ، لكنها في الانسان أشد لأنه أشرف الأنواع الحيوانية وما عداه من تلك الأنواع مسخر له فكيف يتصور أن الله مع تلك العناية الأزلية الشديدة في حقه لا يهديه الى قانون من قبله لينقاد له العوام والخواص ، ويحصل به انتظام أمور المعاش والمعاد ـ ذلك القانون هو (الشرع) .

ولما كانت ذات الله في غاية التقدس ، وذواتنا في غاية التدنس ، فلا يمكن وصول هذا الشرع بلا واسطة ـ ولا بدّ أن تكون هـذه الواسطة ذات جهتين تكون لها مناسبة بالله بجهة ـ وبنا بجهة أخرى ، ولهذا يلزم أن يكون الوسيط انساناً مقدساً متميزاً عن الآخرين بخصوصية فيه من الله ، مختصاً بأمر يدل على تصديقه حتى يطاع وينقاد الناس اليه .

٥ ـ ما هي الحاجة الماسة الى الأديان

ان الدين أقوى أساس تشاد عليه دعائم الروابط الاجتماعية بـين أفراد أمم النوع الانساني مهـما تباينت مشاربهم واختلفت أغراضهم وافترقت أهواؤهم وتعددت لغاتهم ، فرابطة الدين أقوى مؤثر في النفوس لأنها أحرزت الشرفين ، وهما اتصال سندها بمبدع الكائنات ودوامها الى آخر العمر ، فهي أجمـع من الجامعات الأخرى كالجنـسية والوطن واللغة ـ وذلك لأن رابطة الجنس وان دامت بدوام سببها وهي القرابة فمصدرها وهم الآباء أقـل مرتبة من الربوبية ـ قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . ولهذا نرى الرجل يقطع أقاربه برابطة الدين مهما تمكنت في قلبه ، وهـذا معلوم في كل زمان ومكان ، وكم في الحوادث من شواهد على ذلك ، واذا كانت الوحدة الجنسية بهذه المثابة من الضعف ، فمن باب أولى ما هو أضعف منها وهو الوطن واللغـة التي تترجم عن تلك النفوس المودعة في تلك اللطيفة فهي ترجمان عنها ، فرع لها ، تابعة لإشارتها .

فرابطة الدين اذا تمكنت من القلوب كانت حصناً حصيناً يلجأ اليه الخائفون

عند الدفاع عن أوطانهم والذب عن حياضهم ـ كما أرهب سيدنا معاوية رضي الله تعالى عنه قيصر الروم (وقد انتهز فرصة التشاجر بينه وبين سيدنا علي فكتب اليه يهدده بالحرب أو دفع الجزية) . يقول له: (ان لم تكف عن هذا والا سلمت الأمر لصاحبي وكنت أول سهم من سهامه يرمي به اليك) فكأنما ألجم فاه بهذا الخطاب بما أوقع في قلبه من الرعب مع اشتداد الأمر بينه وبين سيدنا علي رضي الله عنه ـ كيف لا وان الرابطة الدينية هي السبب في تقدم الفتح الإسلامي وانتشاره في بقاع الأرض في أقرب زمن .

أنظر الى ألفة الأوس والخزرج في زمن النبوة مع ما كان بينهم من شقاق وحروب دامت أعواماً كثيرة فألف الله بين قلوبهم بوحدة الاسلام .

وهؤلاء ملوك الغربيين أعمالهم شاهدة على ذلك باتحادهم على الشرقيين خصوصاً الصينيين وتألبهم أيام حروب اليونان واقتسامهم بلاد أفريقيا وغير ذلك مما لا يحصى في الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٤ م .

وبالجملة فالدين هدى وعقل ، من أحسن في استعماله والأخذ بما أرشده اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه ، وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لا يستطيع معه الأعمى انكاراً ، ولا الأصم اعراضاً ولم يدع هذا الدين أصلاً من أصول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أماً من الأمهات الصالحات الا أحياها، ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده حرية الفكر واستقلال العقل في النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها في سبيل السعي .

٦ ـ فوائد الاتحاد ومضار التنازع

انما الأمة الوحيدة كالجسـ ـم وأفرادها كالاعضاء
كل عضو له وظيفة صنع لا ترى الجسم عنه في استغناء

من أعظم الاسباب وألزم الوسائل لسعادة الامة هو وحدتها التي تجعلها كالجسم الواحد ، اذا شكى منه عضو تداعت له سائر الاعضاء ، قال تعالى :

﴿ انما المؤمنون اخوة ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تـداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقـال عليه الصلاة والسلام : « مثل الاخوين مثل اليدين تغسل احداهما الاخرى » .

ومن المعلوم ان الناس مدنيون بالطبع (أي لا بدّ لهم من الاجتماع والمخالطة) لأن الفرد الواحد لا يمكن أن يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة الى الاجتماع الذي يجلب الى أمته الخير ويدفع عنها الشر والضر.

الناس للناس من بـدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعر واخدم

فالاتحاد وارتباط القلوب ببعضها وتضافرها على أمر واحـد واجتماعها على كلمة واحدة من أهم أسباب السعادة وأقوى دواعي المودة والمحبة فكم به عمرت بلاد ، وسادت عباد ، وانتشر عمران وتقدمت أوطان وأسست ممالك، وسهلت مسالك، وقويت شوكة وأمنت غوائل وكثر تواصل ـ الى غير ذلك من فوائد الاتحاد الذي هو اعظم الفضائل وامتن الاسباب والوسائل ـ فمن تمسك بـه فقد استمسك بالعروة الوثقى وفاز بالسبب الاقوى فهنيئاً لامـة اتحدت . وعلى الخـيرات اجتمعت ، فتفوز على الامم الاخرى فوزاً عظيماً وتبلغ شأواً جليلاً وتخلد لها ذكراً جميلاً على صفحات التاريخ بكرة واصيلا . وقد آخى رسول الله ﷺ بين اصحابه كان احـدهم يرث الآخر دون قراباته وذوي رحمه ، وبذلك كانت نصرتهم على عدوهم مع قـلة عددهم فدوخوا الممالك وافتتحوا البلاد ومصروا الامصار ومدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك وسهلوا المسالك ، قال الله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ﴾ .

واما التنازع والتفرق في الكلمة والرأي فهو سبب الضعف والخذلان والفشل في جميع الازمان ، بل هو مجلبة الفساد ومطية الكساد وداعية الخراب والدمار وداهية العار والشنار، فكم شاهدنا من عائلات كبيرة كانت في رغد من العيش وبيوت كثيرة كانت آهـلة بأهلها حتى اذا دبت فيهم عقارب التنازع وسري سمعها في قلوبهم واخذ منهم الشيطان مأخـذه تفرقوا شذر مذر ، واصبحت بيوتهم خاوية على عروشها ـ وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ ولا تنازعوا

فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين ﴾ .

وبالجملة فمن نظر في مرآة التاريخ وتصفح غير قليل من أحوال الأمم وتقلبات الدهور وما حصل لها حتى آلت إلى هـــذه الدثور رأى ان عزها الذي كانت مغموسة فيه وفخرها الذي تلفعت بحواشيه ومجدها الذي تقنعت به وتحلت بسرباله إنمـــا هو نتيجة ما تمسكوا به وتعلقوا بأهدابه حتى شربوا من العمر سائغه ولبسوا من الدهر سابغه ، وذلك لأنهم قـد اتحدت أهواؤهم واجتمعت كلمتهم واتفقت وجهتهم وتواطأت أفكارهم ، فكان هـذا أقوى عامل في رفع شؤونهم وأشد ساعد في إعلاء سطوتهم وأكبر نصير لنصرتهم وحصن حصين لحفظ شوكتهم لا تنال أعداؤهم منهم مراماً بل يطأطئون رؤوسهم لهيبتهم اكراماً ، ويخرون للأذقان لهم تعظيماً واحتراماً ويبلغون في الحضارة والمدنية شأواً عظيماً .

تلك أمة لا غيب الله لها شمساً مشرقة ولا بلغ الله عدوها أنوارها ـ والويل والثبور لأمة دبت بينهم عقارب الخلاف فتسري فيهم ريح الشقاق ، حتى قضى عليهم بالتشتت والفراق .

٧ ـ فوائد التعاون والمساعدة

التعاون صفة تبعث الانسان إلى مساعدة أبناء جنسه وإلى الاتحاد معهم قولاً وفعلاً للحصول على المنفعة العامة .

وبعبارة أُخرى ـ هو تأثير الشعور بالوحدة الوطنية .

والمنفعة العامة كامنة ضمن المنفعة الخاصة إذا نحا نحوها الافراد وأخذ كل بيد الآخر وحافظوا على أسباب الائتلاف ، وتوطدت بينهم دعـائم المحبة ، وكانوا كبنيان واحد يشد بعضه بعضاً . قـــال عليه الصلاة والسلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » ، وأما إذا تفرقت قلوبهم ولعبت بهـــم الاهواء فلا ترى للمنفعة العامة لديهم محلاً ، ولا يكونون أمة بل آحاداً ، مجتمعين أجساماً مفترقين قلوباً وأهواء ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تستحكم فيها الميول فتتمكن في طباعهم العدوة والنفرة .

ان القـداح إذا اجتمعن فرامها بالكسر ذو حنق وبطش أيـّدِ
عزت فلم تكسر وان هي بددت فالوهن والتكسير للمتبدد

ويصيرون كما قيل : (غنماً متبددة في صحراء قد أحاطت بها أصناف السباع فبقاؤها مدة سالمة ، اما لأن السباع لم تصل إليها بعد (ولا بـدّ أن تصل إليها يوماً ما) ، واما لأن السباع أدتها المزاحمة إلى القتال وتمنعها شدة الجوع من المضي مع الغضب الذي ربمـا أذهبته شدة الجوع بالكلية أو يغلب فريق فريقاً فيصير الغالب غاصباً ويصير المغلوب سارقاً فتقع الغنم بين غاصب وسارق) .

ولا سبيل إلى التعاون على المنفعة العامـــة إلا إذا أشرب في قلوب الافراد (حب الوطن) وصار لديهم الوطن كمنزل واحد هم أهلوه وأعضاؤه ـ وقد جعله المشرع الاول عليه الصلاة والسلام من الخصال الدينية فقال : (حب الوطن من الإيمان) والآثار الصادرة عن الحكماء والسياسيين مؤذنة بطلبه ـ وقـد قصدوا بذلـك بعث الافراد إلى محبوب واحد وهو الوطن حتى تتفق أهواؤهم فتتألف قلوبهم فيعم الصلاح بينهم. قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ ، فالتعاون عليه مدار نظام الامم وملاكها وحياتها والاحتياج إليه أمر فطري في الانسان إذ لا يمكنه أن يقوم بمفرده بسائر وظائف الحياة البشرية فهو مضطر إلى الاجتماع بطبيعته ـ ولما كان الاجتماع لا يخلو من المنازعات المفضية إلى تغالب القوى المتنازعة كانت الحاجة ماسة، ولا بدّ إلى منع ذلك التغالب ـ ومن أهم الوسائط فيمنعه وأعظم الوسائل في دفعه التعاون والتناصر والتآلف والتضافر، فبالتعاون تدفع عوادي الطبيعة وتتقي مخاطر الوحدة ويتسابق فيميدان الحياة فيدعوه ذلك إلى المثابرة على العمل فيزرع ويستثمر ويعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران إلى غير ذلك ممـــا تدعو اليه الطبيعة البشرية ـ ولولا التعاون لثبطت همته وقعدت به عزيمته ، حيث يعتقد من نفسه العجز عن مطاردة العوادي ، ولا يقدر بمفرده على اتقاء مخاطر الحياة البشرية فيكتفي من العيش بنزره، ومن الحياة بقدر ما تقتضيه الطبيعة ، وهذا مناف للحكمة الإلهية التي أودع الله من أجلها في الانسان العقل.

وبالجملة يجب التعاون على فعـــل الخيرات بحيث يقضي البعض للبعض ما هو محتاج اليه ولا يمكنه الحصول عليه ـ وكذا التعاون على ترك المنهيات يرضى الله

عنهم فيمنحهم خيره ويكفيهم شره، فمن جمع التعاون بقسميه فقد كملت سعادته وطابت حياته وهنئت عيشته .

وقد نهى المولى تبارك وتعالى عن التعاون على فعل الشر والضر ، فإن في التعاون على ذلك مفاسد كثيرة ومنكرات فظيعة كبيرة وراءها عذاب أليم وعقاب شديد .

٨ ـ العقل وفوائده

وأفضل قسم الله للمرء عقله فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

غير خاف أن أشرف الخواص التي تميز بها الانسان من الحيوان (العقل) الذي هو سلطان القرائح ومصباح السوائح ومفتاح المصالح ورأس العلوم ، وسبب ادراك المعلوم ، ومادة الفهم وينبوع الحكمة وهو الموصل الى صلاح الدين والدنيا لا تستقيم الحياة الا به ولا تدور الامور الا عليه ، وهو نور موضوع في القلب كنور البصر في العين ينقص ويزيد ويذهب ويعود، وكما يفقد نور البصر من العين ولا يتغير من اشكالها شيء كذلك اذا عدم العقل من القلب لا يتغير له صفة ـ وكما تدرك بنور البصر شواهد الامور . كذلك يدرك بنور العقل كثير من المحجوب والمستور ، فعمي البصر كعمي القلب .

وكيف لا يكون العقل أجل موجود في البرية ، وأشرف موضوع في هذه الخليقة الآدمية. وقد خصه الله تعالى بالانسان لشرفه وكماله وعزته وجلاله ﴿ ان في ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

قال بعض الحكماء : العقل أمير والخصال رعية ، فإن قوي عليها أطاعته وان ضعف عنها خالفته . والجسم مدينة والعقل ملك يديرها وقواه وحواسه جنوده ، وأعوانه وجوارحه رعيته . والنفس الامارة بالسوء عبد ينازعه في مملكته ويسعى في هلاك رعيته ، له شيعة وأتباع من الشهوات ، فصار الجسد كثغر وموضع جهاد ورباط ، فإن هو ضيع ثغره وأهمل رعيته غلبته النفس

وقويت عليه بجنود شهواتها فأهلكته وأهلكت جنوده ، وان هو جاهدها حق جهادها وأحال بينها وبين شهواتها ومرادها كان ذلك سبباً لبقاء ملكه وعمارة حصونه هذا ـ والعقل ينقسم الى طبيعي معتاد ومكتسب مستفاد ، فالاول ما سبق الكلام عليه . والثاني ما تحصل بكثرة التجارب ، ومرور الأيام والليالي بالمواهب والنوائب . وليس المكتسب بمنفصل عن الغريزي ، بل هو نتيجته يزيده قوة وينميه ، ويشيد أركان مبانيه .

وبالجملة فالعقل يعقل صاحبه من شهواته لأنه نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل ، ومن آيات وفور العقل في الانسان تدبر العواقب والأخذ بالحزم في كل الأمور وترك الأماني والتودد الى الناس ومداراتهم والحياء وحسن الخلق وصدق الفراسة ومخالفة هوى النفس والاعتبار بحوادث الزمان ـ وقد روي عن جبرائيل أنه أتى آدم عليهما السلام وقال له: أتيتك بثلاث فاختر واحدة. قال: وما هي؟ قال : العقل والحياء والدين. قال آدم : اخترت العقل. فقال جبرائيل الى الحياء والدين راجعاً : فقد اختار العقل عليكما ، فقالا : أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان .

٩ ـ فوائد العلم ومضار الجهل

لا يخفي أن العلم أفضل مكتسب ، وأشرف منتسب، وأنفس ذخيرة تقتني، وأطيب ثمرة تجتني ، به يتوصل الى معرفة الحقائق ويتوسل الى نيل رضا الخالق وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها وأكرم فروعه وأزكاها، لا يضيع أبداً صاحبه ولا يفتقر كاسبه ولا يخيب مطالبه ، ولا تنحط مراتبه . والعلم لا يوصل الى معرفة فضله وجلالة قدره الا بالعلم، كما لا يجهل شرف مكانه وعلوّ شأنه الا أهل الجهل ، لقصور أفهامهم عن عظيم منافعه وكريم مواقعه ، وهو اسم من أسماء الله عز وجل وصفة من صفاته ـ وهو عظيم في نفسه وحامله عزيز في قومه ، ان قال فكلامه مرفوع ، وان أمر فأمره مسموع ، فهو وسيلة لكل فضيلة وذريعة لكل شريعة ، ونور زاهر لمن استضاء به ، وقُوت هنيء لمن تقوّت به ، ترتاح به الأنفس اذا هو غذاها وتفرح به الأفئدة اذا هو قواها ، والدليل على الخير ،

والعون على المروءة والصاحب في الغربة، والمؤنس في الخلوة والشرف في النسب ـ قال الله تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقال سبحانه وتعالى: ﴿شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: « أطلب العلم من المهد الى اللحد » وقال أيضاً: « كونوا للعلم وُعاة ولا تكونوا له رواة » . وقال أيضاً: « من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » ـ بخلاف الجهل فإنه رأس الفضائح ومعدن القبائح، ومضمار العثار، ومعيار الشنار، وسبب الخمول، ودليل التخلف وداعية المقت ـ ان نطق صاحبه تعرض للخزي والذم، وان تصرف صاحبه في حال سقط لليدين والفم، وهو دليل على غلظ الطبع وجمود الخاطر وفساد التركيب واعتلال الذهن وكدر النفس، وقد عصم الله تعالى منه أنبياءه وحذر منه أولياءه فقال: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: « لا فقر أشد من الجهل » وقال أيضاً: « الناس رجلان عالم ومتعلم ولا خير فيما سواهما ». وقال ابن المعتز: نعمة الجاهل كروضة على مزبلة.

وبالجملة فالعلوم كثيرة والمعارف جمة، وانواعها مختلفة وبعضها اشرف من بعض والاحاطة بجميعها محال. فحينئذٍ يختار من العلم ارفعه، ويستعمل منه انفعه، وما زال العلم من الانسان بمنزلة الروح من الجسد فكما يحيا الجسد بالروح كذلك يحيا صاحب العلم في الناس بعلمه.

وقد ابان الله عز وجل فضل العلم عن الجهل بقوله: ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وسئل رسول الله ﷺ عن رجلين احدهما عالم والآخر عابد، فقال: « فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم رجلاً » .

وقال المسيح بن مريم عليه السلام: عالجت الأبرص والأكمه فأبرأتها، وعالجت الجاهل فأعياني ـ ألم تر ان الانسان بالعلم استخدم انواع الموجودات وانتفع بأصناف الكائنات، واظهر غرائب الأعمال، واخضع شوامخ الاثقال وطار على البخار، واختصر مطولات البحار والقفار، واستخدم البرق رسول اخباره، والنور مصور آثاره، وجعل الكون بأجمعه تحت طوعه. ومادة فكره وصنعه فاستنبط واستخرج واستظهر واستنتج، وابدع وصوّر واحكم وقدّر، وبدّل

وغير ، وامسك وطير ، وحلل وركب واحضر وغيب وبخر وصعد ، وجسم وشكل ، واختصر وطول وصعب وسهل واكثر وقلل .

فالعلم هو الكنز الذي يقنى ، والثروة التي لا تفند ولا تفنى .

أجل ما يبتغي دوماً ويكتسب ... ويقتني من حلى الدنيا وينتخب
علم شريف عميم النفع قد رفعت ... لمن يزاوله بين الملا رتب
إن عاش عاش سعيداً سائداً أبداً ... لا يستضام ولا يشنا فيجتنب
وإن يمت فثناء شائع حسن ... وبعده رحمة ترجى وترتقب

فالبعلم تستنير الأفكار وتبصر الأبصار وتظهر الأسرار وتسمو المقاصد وتصفو الموارد وبه ارتقى الإنسان ونجح وكدّ وكدح وأدلى ومتح وأخذ ومنح وغرس وفلح وطار وسبح . فما العلم إلا كمال الانسان وحلية العقول والأذهان وسور الشرائع والأديان .

١٠ - المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه

هذا الحديث النبوي من جوامع الكلم ونوابغ الحكم أفاد أن المسلم الذي يعتد باسلامه (بحيث يكون سبيلاً لصلاح دينه ودنياه) هو من لا يصدر عنه أذى ولا سوء لأحد بقول ولا فعل ومن لا يصدر عنه السوء والأذى ، فإنما يصدر عنه الخير والنفع ضرورة أن الانسان إما نافع أو ضار فنفى أحد الوصفين عنه يستلزم ثبوت الآخر له .

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما ... يرجى الفتى كيما يضر وينفع

فمن لم يكن له من اسلامه ما يمنعه عن أذى اخوانه فهو جدير أن لا يسمى مسلماً فضلاً عما يلحقه من المذام - وآثر اليد واللسان بالذكر لكونهما أقوى آلات الجسم وأكثرها نفوذاً في الاعمال ، ولما كانت آلات البدن خادمة للإرادة منفذة لأوامرها فأينما وجهتها توجهت كان الإنسان عبارة عن قوتين احداهما آمرة والأخرى مأمورة ، فالآمرة معنوية لطيفة لا ترى لها عملاً ، وإن كنا نشعر بها بخلاف المأمورة فإن أعمالها مرئية محسوسة - مثلاً إذا تذكرت ان لك صديقاً تود أن تزوره فإنك تجد من ذلك في نفسك تأثراً وانفعالاً يبعث أعضاءك على

السعي إلى ذلك الصديق لزيارته، فهذا الانفعال الذي وجدته ليس شيئاً محسوساً بل الذي تحس بـه حركة أعضائك في السعي اليه ـ ومعلوم ان الإرادة النفسية هي كغيرها من اللطائف المودعة في الانسان ساذجة في مبدإ نشأتها قاصرة عن الجولان في الأشياء فهي لذلك محتاجة لأن تربي حتى لا تأمر إلا بما ينفع ، ولا تمضي إلا في ما ينبغي المضي فيه ، ولو تركت على سذاجتها وقصورها لم تهتد إلى ذلك إذ هي قوة روحانية والقوة الإرادية كأنها محصلة لعـدة قوى كلها مثلها في أنها خلقية في الانسان ، أو تتولد فيه بالاختلاط والتدريب .

وبالجملة كان نبينا ﷺ يتفرّس في أحوال الناس ويرى من أمراض قلوبهم وآفات نفوسهم ما لا يرون هم من أنفسهم فيرشد الانسان الى مـا يراه انجع في علاجه ويصف له دواء دائه فقط مع الرفق والتلطف به .

١١ ـ أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً

خلق الحق سبحانه وتعالى الانسان وقوّمه في احسن تقويم وجعـل له فضلاً على سائر المخلوقات في نفسه وجسمه .

أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بهـا العقل والعلم والحكمة والتدبير والرأي . وأما في جسمه فباليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدالة على استيلائه على كل ما أوجد في هذا العالم، وأما بالنسبة لقواه الجسمية فهو فيها أقل من كثير من الحيوانات ـ وأما القوى العقلية فهو متفرد بهـا ، ولذا كان له السلطان العام والتصرف التام في كل ما أوجد في هذا العالم فلا تغادر أوامره ما يطير في جو السماء ، ولا ما يسبح في لجج الماء ، ولا ما يدب على وجه البسيطة ، ولا ما استكنّ فيها .

ثم ان الانسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات ، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ، ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار ـ مـا فضله إلا العقل واللسان .

فمن صرف همته كلها الى تربية الفكر بالعلم والعمل فجدير بأن يسمى انساناً ومن دعته وحكمت عليه نفسه الشريرة بصرف همته الى تربية القوة الشهوية التي

تعود منفعتها على الجسم ـ فحقيق بـأن يلحق بأفق البهائم (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل) .

ثم ان الحكيم العليم جلت قدرته حـكم على الانسان بالسعي والعمل للحصول على ما به يقوّم وجوده ويطيب عيشه ، ويدفع عنه عوادي الحوادث .

ولما حكم سبحانه وتعالى على تلك المقومات بالخفاء تحت أستار حكمه وجب على الانسان أن يستخدم عقله وأعماله الجسمية في كشف الغطاء عن تلك المقومات فينتفع بها في قوام حياته ودوام لذاته ، ويحصل مـا به تزجية المعاش له ولغيره لأجل بقاء بني نوعه .

ولمـا عرف أنه غير قادر على الوصول الى تلك الغاية بنفسه ، بل لا بدّ من وسائط توصله الى ما استكن تحت طي الفكر عمـــد الى استعمال القوة العاقلة واستمال الخليقة واستعان بها فتوصل الى ما كمن بفكرته ، وأخضع بعض العوالم لخدمته ، فنال مقصوده وحصل على مرغوبه .

ومن البحث والتنقيب وأعمال الفكر وقياس المجهول على المعلوم انكشف له ما انكشف ـ لأنـــه كلما ارتقى في معارج التمدين والحضارة تزداد رغبته في استجلاء غوامض الأمور واستطلاع حقائقها وما استتر تحت حجب الحكمة فهو الى الآن مجد في طلبه كثير السعي والاجتهاد في استخراج غوامض أسراره وهذا مصداق قوله ﷺ : « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » . وحيث قصد الانسان افراغ عمل نافع يلزمه ان يتفرغ له بقلبه وقالبه ، وذلك لأجل ان لا تتوزع قواه الى غيره فيطول زمن العمل ، بـــل ربما تسارع الى العامل الملل والكسل ، ويدخل في العمل الخلل ، وحينئذٍ يتعوّد الانسان الضجر والكسل ويميل الى حب الراحة والهوينا فلم يؤد حقاً ولم يصبر على عمـل ولم يتوصل الا الى الفقر والفاقة كما قيل :

رأيت التواني زوّج العجز بنته   وساق اليها حـين زوجها مهرا
فراشاً وطيئاً ثم قال لهـا اتكي   رويـد كما لا شك أن تلدا فقرا

فمن ترك العمل ، او وعمل لم يتقن ، عـاد وبال ضرره على نفسه وعلى الهيئة الانسانية لأنـه عضو منها ، وكل عضو ترك ما لأجله اوجد يبطل نفعه ـ فحق

الانسان ان لا يذهب عامة اوقاته الا في اصلاح امر دينه ودنياه ، وفي موصلاته الى غاياته ، وذلك لا يكون الا بالعمل واتقانه لتتم الفائدة ويعم النفع ويرضى الخالق عليه .

ولما كان عمر الانسان ولو طال كزيارة ضيف ، او سحابة صيف ولا يعلم في أي وقت يكون منتهاه ، ولا مبلغ مداه . لزمه في كل لحظة من لحظات الحياة. ان يقرن عمله بتذكار لقاء مولاه ، فإنه هو الذي منحه القوة والقدرة على العمل والتمتع بنتيجة ما أتمه ونواه فيعمل عمل الدنيوي ، مع ملاحظة امره الاخروي وبذلك يكون في الزمن الواحد قد عمل عملين وفاز بمرتبتين فيكون في الدنيا منعماً بمحاسن اعماله المأثورة وبعد موته بحسن السيرة .

ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا   وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وهذه مرتبة عالية ومنقبة سامية لا ينالها الا الذين صرفوا اوقاتهم في تهذيب النفس وتربية العقل فتخلوا عما يشين من الرذائل وتحلوا بما يزين من الفضائل .

١٢ ـ فوائد تعميم المنافع

« لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

هي ولا مداجاة في الحق قوام العمران ، وسر نظام الاجتماع الانساني وطريق تقدم المدنية لا تقوم بدونها سعادة ولا تتم مع عدمها حضارة ـ ترتقي الامم بتمسك افرادها بها ، وتنحط بإعراضهم عنها أرأيت لو اهمل الانسان جانبها وصرف عنان عنايته عنها مكتفياً بالاشتغال بمصلحته الذاتية ومنفعته الشخصية لا يهمه غير نفسه ولا يعنيه سوى امره ان سلم فعلى الدنيا السلام او مرض فلا بريء احد من الانام ، هل تبقى بين الناس صلات ، او يقوم اتحادها على عمل مفيد ومشروع حميد ، هل يمكن ان يكون لأمة جند منظم يرد عنها طوارىء الاعداء ويبذل روحه في مواقف الكفاح صوناً لشرفها وحياطة لحوزتها ويفتتح لها البلدان ويقوم بكبح جماح اهل العصيان طلباً لتأييد منعتها وتقوية شوكتها واعلاء كلمتها لو لم تكن قلوبهم مشرّبة حب المنفعة العمومية، قال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن احدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ام هل يمكن ان يكون لهـــا من امرائها ووزرائها ومجالس نوابها سياسة يدبرون امرها ويرفعون قدرها يجهدون افكارهم في تحسين مستقبلها ويكدحون في توسيع نطاقها مع انهم يتيقنون انهم ربما لن يتمتعوا باجتناء ثمار تدبيرهم لبعد اجله عنهم وكان يمكنهم لو كانت المنفعة الشخصية عنايتهم ان يتفرغوا لإدارتهم الخاصة واستيفاء لذائذهم وادراك اوطارهم ــ ولا سيما اصحاب الثروة الواسعة منهم .

ام هــل يمكن اذا لم تكن للمنفعة العامة حقيقة تقصد ان تعاني العلماء مشاق الاسفار وتقتحم الاخطار في البحث على أثر يشاهدونه او خبر يروونه او علاج يجرّبونه او مظنون يحققونه ، وقـــد يتوقعون على اموالهم وانفسهم اتلافاً في غضون ابحاثهم واختباراتهم ويقدمون بعد ذلك عليه طمعاً في حقيقة تنكشف للخالفين ومخبوء يظهر للتالين :

تلك آثارنا تــدل علينا فانظروا بعــدنا الى الآثار

وبالجمــلة حب المنفعة العمومية رأس الفضائل واسُّ الخلال الحميدة ولو رُبّي الناشئون منا عليه وتعوّدوه من الصغر لما تعاقبت علينا الصروف الفادحة وألمت بنا النوائب الموهنة التي منها انتشار السرقة في البلاد والعبث بين العباد ، ومنها ظهور داء الرشوة ، ومنها التكاسل في الاعمــال الخطيرة والتهاون في الامور العظيمة وتفرُّق قلوب الرجال وذهاب كل في مجال وفقد عروة الارتباط وسوء الادارة كل ذلك لم ينشأ الا من حب المنفعة الخاصة والوقوف عند حدها .

ولو اني حُبيتُ الخلد فرداً لمــا احببتُ بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فالمرء المشغف بذاته ، العامل على لذاته ، اي مجد له اذا لم تتعد آثاره ، واي خــير فيه اذا اقتصرت مزاياه على نفسه ولم ينتفع به بنو جنسه ، واي فضل له في حبس آثاره في صحن داره .

اذا ما قضيتم ليلكم بمنامكم وافنيتمو ايامكم بمــدام
فمن ذا الذي يغشاكمو في ملمة ومن الذي يلقاكمو بسلام

فإذا أوتي المرء حكمة لقمان وفصاحة داود ومال هارون وجمال يوسف وقوة

عوج وعمر نوح ولم يشركه في هذه النعم احد ، فأي فائدة للدنيا من وجوده ، واي ذكر له يبقى له بعد مماته :

خلقوا ومـا خلقوا لمكرمة　　　فكأنهم خلقوا ومـا خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد　　　فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فمن جعل غايته مصلحته الذاتية ثارت فيه الشرور وهاجت عنده الشهوات، وانمـا تستر عن العيون بستار العجز ، وحجاب الضعف بخلاف من اتجه وجهة المنفعة العامة ، فـإن الفضائل تمتزج بلحمه ودمه ويحلو له مصافحة الحسنات ومكافحة السيئات ولو نافرته الايام وعانده الزمان (وكل ميسر لما خلق له) .

١٣ - لكل امرىء من دهره ما تعوّدا

وينشأ ناشىء الفتيان منا　　　على مـا كان عوّده أبوه

من المعلوم أن الطفل يولد مجرداً من كل الوسائل خالياً عن معرفة الاشياء عديم البصيرة، فارغ السريرة عارياً عن الوظائف العقلية لا يرى إلا ما يقع عليه بصره ولا يشعر إلا بما يؤثر فيجسمه ولا يسمع ضوضاء العالم ولا ينظر إلى أشباح الكائنات إلا بمرآة خيالية ، وهو حينئذ محاط من أهله بالشفقة والحنان فيربو جسمه وتنمو قواه حتىيستقبل الحياة الانسانية وتنتشر فيه مبادىء القوةالعقلية فينظر إلى العالم فيراه مشهداً غريب الأحوال ، ومرسحاً تلعب فيـه الآمال ، فتشمله شمول هـذا الظهور وتلعب برأسه نشوة تلك الأمور فيبيت بها مشغوفاً ويصبح اليها ملهوفاً - فإن لم توجّه قواه من مبدإ هـذا الظهور الذي يكون فيه كقطعة الشمع المرنة القابلة إفراغها فيأي قالب، وتشكيلها بأية صورة إلى وجهة حسنة وغاية نافعة استعملها كيفما توجه بهيمته ، فينشأ ضائعاً في مفازة العمر ، حائراً لا يلبث حتى يرى نفسه قائماً في وسط هذه الدنيا مغموراً بأمواج هـذا العالم تلطمه ضرباته وتأخذه ضجاته مع تزاحم حاجاته وتوالي حسراته فيندفع بخيالاته الكاذبة إلى مطامع خاسرة خائبة ، ويصير مضغة بين أضراس الاماني الخاطئة ومسقطاً لنوائب الزمان ، فيمكث يصارع الحال ، ويأسف على الماضي ويرتعد من المستقبل - ولو وجه أهله قواه من أول نشأته على التدريج إلى سبيل نفعه ونفعهم ونفع وطنهم لسار من مبدإ أمره فيهذه الطريق المفيدة حتى يعتاد

الأعمال النافعة ، ويصير عضواً عاملاً في أمته ، فيعيش وقد حصل على مزاياه نفعه ، وعلم خاصة نفسه، فينظر في أفراد الكائنات نظر حكمة وتدبير، ويسعى خلف اجتناء ثمراتها ، حتى يمد عليها ظلال رايته ويخضع الصعاب تحت رياسته ، ويسعى في طرق المكاسب فيحسن لديه المسعى ، ويطيب له المربع وما ذلك إلا لتربيته وتعويده من مبدإ نشأته سلوك طرق المنفعة والخير ـ فالمرء ابن عادته (ولكل امرىء من دهره ما تعوّدا) ومن شبّ على شيء شاب عليه ـ ألا ترى ان اولاد الفلاحين بتعويدهم مباشرة الاعمال ومعاناة الكدّ ينشؤون مولعين بفلح الارض وزراعتها والعمل فيها كآبائهم ، وكذلك الكاتب والخياط ـ وغيرهم .

وبالجملة الطفل يشبّ ويكبر على الشكل الذي أفرغ في قالبه والصورة التي منحها له أهله ، والعادة التي صادفها في طريق تربيته ان خيراً فخير ـ وان شراً فشر .

والابن ينشأ على مـا كان والده ان الاصول عليها ينبت الشجر

فيجب على الآباء وولاة أمور الأحـداث أن يقوموا بتربيتهم وتعليمهم على الوجـه الاكمل حتى يخرجوا من ربقة السؤال ويسلموا من تبعة التقصير وتوجه الإثم اليهم لو أهملوهم من ذلك وهم تحت تصرفهم وفي رعايتهم و (كل راع مسؤول عن رعيته) فضلاً عن أن يكونوا لهم عونـاً على المعيشة ونوال السعادة وأثراً حسناً يذكرون به ، ونعمة جليلة يغبطون عليها :

نِعَم الإله على العباد كثيرة وأجلّهن نجَابة الأولاد

وقال آخر :

لكل امرىء في الخير والشر عادة وكل امرىء جار على ما تعوّدا

ولو سلكت كل عائلة ذلك المنهج القويم ، وقامت بحقوق التربية والتعليم ، لم تلبث ان تؤلف أُمة سامية القدر . جليلة الذكر ، لا يشق غبارها ، ولا يضام جوارها ، ولا يقوم لها عنيت ، ولا يسطو عليها اصليت ، بل ينهض بها الوفاق وينحط دونها الشقاق ، وتكون أسّ حضارة ، ورأس عمـارة ـ ومن نظر الى الأمم وتأمل أحوالها وعـلم مبدأها ومآلها ، يرى العجب العجاب في التقدم والانقلاب نشأ ذلك من اعتنائهم بالتربية ، فنرى كثيراً من الأمم حـلوا أرضاً

مجدبة قحلة ومفاوز يابسة محلة بتربيتهم وعلمهم وحسن تدبيرهم وجودة تصرفهم أصبحت لهم جنـة مثمرة ، وروضة مزهرة ، وأغدقت عليهم بصنوف النعم ، وأظهرت شأنهم بين الأمم ، حتى عوّضوا الكهوف بالقصور ، والكلأ بالزهور ، والجلود بالحرير والحصباء بالسرير ، الى غير ذلك من أنواع التقدم والرفاهية .

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ويهديهم عند الفساد إذا فسد
يعظم في الدنيا لفضل صلاحه ويحفظ بعدالموت في الأهل والولد

فيجب علينا معشر الأمة المصرية أن نباريهم ونبذل أنفس ما لدينا حتى نجدد شرفنا التالد ، ونجلب حظنا الشارد ، ويستقيم الأود وتصلح البلد .

فلله الحمد ها هي المدارس قد قام سوقها وانتظم سيرها وأحكم أمرها مفتحة أبوابها مستوفاة أسبابها تنادي طالبيها وتمنح محبيها .

١٤ - فوائد المدارس

المدرسة دار التربية والتأديب والتمدين والتهذيب تصلح شأن المرء بما يتلقاه فيها من المعارف ومـا يكتسبه فيها من العلوم المفيدة التي تجعل عنده استعداداً لأن يكون في المستقبل رجلاً قديراً على القيام بما يوصله الى مطلوبه من الواجبات أحسن قيام وتبث في روحه حب الوطن وأهله وتزيد عنده قوة الإدراك وتربي له العقل وتجعل عنده من الخصال أحسنها ومن اللطائف أحمدهـا وترشده الى الطريقة التي يجب اتباعهـا والوسائط التي ينبغي اتخاذها للحصول على الشرف والكمال ومستقبل الآمال .

وبالجملة فالمدرسة مطلع شموس العلوم والمعارف ومشرق أنوار الفوز والسعادة ترضع الناشىء فوائد الادب من صغره وتقوّم ما اعوج من اخلاقه وعاداته حتى ينشأ كاملاً مهذباً عالماً بحقوقه عارفاً ما يجب له وعليه وتعدُّ له مستقبلاً يضمن له الرفاهية والسعادة وتصونه من طوارىء العلـل والآفات وتحفظه من أسباب الامراض والعاهات وتعلمـه كيف يطلب الثروة من حسن مواردها وأشرف طرقها وتهديه الى الطريق الذي يرقى به أوج الكمال .

١٥ ـ فوائد المعارض العمومية

المعرض مدرسة رجال التجارة وأرباب الصناعة فيـــه تخلع الناس ثياب الكسل ، وتتزين بحلل الجـد والعمل ، فهو ميدان تتسابق فيه الصناع وتتنافس فيه الزرّاع فيشمر كل منهم عن ساعد الجدّ والعزم ويطلق عنان العناية والحزم، فيه تعرض نتائج الآراء السديدة والافكار المفيدة ـ فمن حـاز قصب السبق في هذا الميدان يمنح وساماً دلالة بشرفه وعلامة بنشر اجتهاده وتنشيطاً له وتنافساً لغيره فكل يتسابق في اتقان عمله وابراز مخترعه واظهار ما اكتشفه من الآثار وما جناه من الثمار .

تلك آثارنا تـدل علينا　　　فانظروا بعدنا إلى الآثار

فبذلك يكون الإنسان أدى مـــا خلق لأجله وهو العمل وطرح التقاعد والكسل . فإذا نظرنا الى معرض باريس وما احتوى عليه من الصنائع المتنوعة والفنون المختلفة التي تدهش الأبصار وتحتـــار في كيفيتها الأفكار نستدل دلالة واضحة علىتمدين الامم الاوروبية واتساع دائرة علومها وصنائعها وزيادة ثروتها.

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم　　　ان التشبه بالرجال فـــلاح

فالمعرض مدرسة علمية صناعية تجارية زراعية لجميع الامم ومصباح يستضاء بـــه في تقدم الصنائع والفنون ومفتاح به تظهر جميع الخبايا ودقائق المعقول والمنطوق فهو ميدان تتسابق فيه الافهام وتتجلى فيه كفاءة الرجال ، والرجال بالأعمال .

وبالجملة فالمعارض مظاهر أعمال الأمم وبراهين تفاوت الهمم ومشارق أنوار الاختراع ومجمع أحاسن المصنوعات ونظام نفائس المبتكرات وتختلف باختلاف الممالـك ، وتباين حاجاتهم وحاصلاتهم ، ومبلغ علومهم وقوة مداركهم وميلهم إلى جليل الأعمال وعظيم الآمال .

١٦ ـ أي الأمرين أكثر نفعاً للمتعلم

(أتعليمه بالرغبة أم تعليمه بالرهبة)

لا خلاف فيأن الطباع ليست سواء في أفراد النوع الإنساني فهذا حاد الذكاء

سهل الانقياد ، شغوفٌ بالتحصيل ، لا يطلب سوى هديـه إلى طريق التحصيل والتهذيب ، إلا أنه لا ينبغي إرسال لجامه كيلا ينتج قبـل أوانه فتضعف قواه فيما بعد .

وذاك يكون حاد الذكاء ، ولكنه بطيء ، وهـــذا لا يلزمه سوى استعمال المهماز وحثه على صرف الجهد .

وآخر يكون حاد الذكاء مشغوفاً بالتحصيل ولكنه عنيد صعب المراس فيؤخذ بتلطيف طباعه وتهذيب أخلاقه .

وآخر يكون سهل الانقياد شغوفـــاً بالتحصيل ولكنه كاسد الفكر بطيء الفهم ـ وهذا يحتاج إلى رقة المعاملة والتنهيض تارة والمساعدة أُخرى كيلا يضعف جأشه أو ينبعث يأسه فيقعد الدهر ملوماً محسوراً ـ وربما وصل إلى الغاية المطلوبة .

وآخر يكون كاسد الفكر بطيء الفهم كسولاً عن العمل ، وهذا يمكن تقويمه مع الصبر وتوالي الزمن .

وآخر يكون مع كسادة فكره وبلادة فهمه خبيث الطبع شرير النفس ـ ومثل هذا لا ينبغي اليأس منه بادىء بدء ، بـل يحسن أخذه بالإصلاح والتقويم والتهذيب إلى أن تضيع فيه الحيل .

ومرتبة الاضطرار والرهبة ـ ومرتبة الاختيار والرغبة ، تختلف باختلاف استعداد القوى العقلية .

فالنفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة ، لا يستغني محمودها عن التأديب ولا يكتفي بالمرضيّ منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضداداً مقابلة يسعدها هوى مطاع ، وشهوة غالبة فإن من أغفل تربيتها تفويضاً إلى العقل ، أو توكلاً على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين ، وأعقبه التوكل نـدم الخائبين فصار من الأدب عاطلاً وفي صورة الجهل داخلاً ، لأن الأدب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة . ولكل قوم مواضعة ، وذلـك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد إلى الطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة وبالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيماً وزكي الطبع إليه مسلماً .

وان أوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى ، فـإن الناشىء بجوهرة خُلق

قابلاً للخير والشر جميعاً . وإنما أبواه يميلان به إلى حد الجانبين .

قال بعض الحكماء: (اقذعوا ـ ادفعوا ـ نفوس أبنائكم فإنها طلعة وحادثوها بالحكمة فإنها سريعة الدثور فإنكم إذا لم ترعوها تنزع بهم إلى شر غاية) . وهذه مرتبة الاضطرار والرهبة ، بخلاف مرتبة الاختيار والرغبة ففيها تقوي إرادة الناشيء بحكمة ما حصل عليه من التجارب والتأمل في الأسباب والنتائج ، فيرى ان اضطراره إلى طاعة البواعث النفسية والجسمية قد صار اختيارياً .

وبالجملة يحسن بالمعلم أن يتعرف كل ناشيء ليعلم أطباعه وأخلاقه واستعداداته الجسمية والعقلية كي يعامله بحسبها فلا يعامل الكل باللطف ، كما لا يسوق الجميع بعصى الخشونة . فإن منهم من تصلحه القساوة ، بينما الآخر يصلحه المعروف ، ومن ينفعه الإحسان بينما يسوء الآخر ، ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج إلى العصا كما قيل :

البعض يضرب بالعصا والبعض تكفيه الإشارة

ومنهم من يسوقه المهماز بينما الآخر يلزمه اللجام .

ولكن التعليم بالرغبة المبنية على أساس متين من العظمة العالية والحكمة البالغة أولى وأفيد من التعليم بالرهبة التي لا تجلب إلا الخبل والقنوط والملل ، بل تورث الخوف والجبن وتعوّد الناشيء على العمل في الجهر والكسل في السر ـ فإذاً سياسية الرفق واللطف قد تفعل ما لا تفعله سياسة الشدة والعنف ، ومن لم يكن له من نفسه زاجر ـ فهيهات أن تؤثر فيه الزواجر .

١٧ ـ ما هي الحاجة الماسة الى بناء المستشفيات للفقراء

الإنسان في هذه الدنيا عرضة للأمراض والعلل ، غير أن الناس منهم الغني والفقير ، فالغني بماله من الثروة قادر على دواء نفسه متى شعر بألم في جسمه فهو يحضر من أمهر الأطباء وأحذقهم من يرجو الشفاء على يديه . أما الفقير فإن المرض إذا ألمّ به لم يجد ما ينفقه على دوائه وشفائه ، فيمكث أسير الأدواء حليف العلل . لا جهلاً بالطب وفوائده ، ولكن خلت يداه وأعوزته الحاجة وقعد به الدهر عن ذلك ـ لهذا تدعو الشفقة والإنسانية أن يقوم أغنياء الأمة

وحكومتها بانشاء المستشفيات لهـــذه الطبقة يلجأ إليها مريضهم فيمد بالدواء ومساعدة الاطباء .

ولقـــد اعتنت الحكومات المتمدينة بالحيوان الأعجم وعرفت الحاجة إلى إنشاء جمعيات للرفق به ـ وحينئذ الإنسان أولى بهـــذه الشفقة وأحق بتلك المرحمة ـ ولا يخفى أن الفقراء هم السواد الأعظم من الامة فمتى اعتنت بهم ولاحظتهم في أمراضهم كثر أفرادها وصارت مهيبة قوية . على ان الاغنياء في أشد الحاجة الى هؤلاء الناس أهل البؤس والفاقة ، فهم القائمون بالاعمال العظيمة التي لا يباشرها الغني بنفسه ـ كيف لا وان لبناء هذه المستشفيات أكبر فائـــدة وهي منع انتشار العدوى بين أفراد الناس . فليخش الاغنياء من ذلك وليعلموا ان في أموالهم حقاً للفقراء والبؤساء فيجب السعي في إزالة ما يعتريهم من الامراض والآلام التي تذهب بحياتهم . واحـــترام هؤلاء الاقوياء في جسم الهيئة الاجتماعية وجلب الصحة اليهم حتى تكتسب البلاد منهم حياة جديدة وقوة عظيمة بفضل ساعدهم وتحملهم المشاق ومثابرتهم على العمل حتى إذا أصيب أحـــدهم بمرض لا يبيت يتقلب على فراش الشقاء بـين أولاده وأهله الضعفاء بعد ان كان يواصل ليله بنهاره في الحد والعمل ليصون نفسه عن ذل السؤال .

وبالجملة فالمستشفيات من أهم ما تحتاج اليه الامم لحفظ صحة افرادها من غوائل الامراض وطوارىء العلل المعرض اليهـا الانسان بطبيعة جسمه وحوادث الجو فهي التي حفظت النفوس في أجسامها وردت جيوش الادواء على أعقابها كيف لا وقـد ثبت (أن صحة الابدان مقدمة على صحة الاديان) . وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : « داووا مرضاكم بالصدقة » وقال أيضاً : « اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً » . وان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

١٨ ـ الجبال وفوائدها

الجبال هي تلك الاجرام والاجسام الشامخة التي لها أعظم مِنّة واكبر نعمة على الإنسان في كل زمان ومكان فهي التي يُتخذ منها مواد البناء على اختلاف انواعهـا فتشيد منها المنازل والقصور التي تقينا قيظ الحر وزمهرير البرد ويتخذ منها بناء القلاع والحصون التي بهـا ندافع عن اوطاننا وانفسنا واولادنا واموالنا

واعراضنا ، بل هي قد تكون في الواقع الحدود الطبيعية او الحصون المنيعة للبلاد المحاطة بها الحافظة لاستقلالها كجبال الحبشة في افريقيا وسويسرة في اوروبا.

وهي التي تستخرج منها المعادن الثمينة كالحديد والنحاس والقصدير ونحوها من الجواهر ذات القيم الكبيرة التي نقلت الإنسان من الاعصر الهجمية إلى نور العرفان والاستكشاف والاختراع فكلما تقدمت الأمم في الحضارة والمدنية كانت الحاجة ماسة في عدم الاستغناء عن منفعة تلك الجبال التي لها ايضاً دخل عظيم في تحسين حالة الجو وفي تنظيم انحدار المياه من قممها وفوقها بقوة في المجاري والانهار . فنشأ احياء موات الأراضي وري الشراقي منها فأخصبت واصلحت البلاد وأروت العباد . على انها واقيات للأرض من طغيان البحار عليها . قال تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم ـ والجبال أوتاداً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ .

وبالجملة خلق الله سبحانه وتعالى الجبال لمنافع وفوائد متعددة لا يحيط بجميعها إلا هو. فمن ذلك ان الله تعالى انزل من السماء ماء ليحيي به العباد والبلاد وجعل الجبال لتستقر في بطونها المياه ويخرج اولاً فأولاً بقدر معلوم . ومن الجبال ما ليس في باطنها محل للمياه فجعل الثلج محفوظاً على ظاهرها الى ان يحله حر الشمس فيكون منه انهاراً « صنع الله الذي اتقن كل شيء » .

ومن منافع الجبال ما ينبت فيها من انواع العشب والعقاقير التي لا توجد إلا فيها ، وما ينبت فيها من انواع الاخشاب العظيمة فيعمل منها السفن وتعمر منها المساكن، وما ينبت فيها من مزارع للأنعام ومزارع لبني آدم ومساكن للوحوش ومواضع لأجناح النحل .

ومن فوائدها ان جعلت اعلاماً يستدل بها المسافرون على الطرقات في نواحي الأرض ، ويستدلُ بها المسافرون في البحار على المين والسواحل .

ومن فوائدها ان الفئة الضعيفة الخائفة من عدوان من لا نطيقة تتخذ عليهم ما يحصنهم ويؤمنهم ويمنع عنها من تخافه فتطمئن لذلك .

١٩ ـ البراكين والزلازل

ان جوف الأرض حارٌ بطبيعته . فإذا حفر الإنسان وجد الحرارة تزداد ـ

وهكذا كلما نزل الى اسفل حتى اذا وصل الى عمق بعيد الفي حرارة كافية لتبخير المياه بسرعة مدهشة ، فإن صادف هـذا البخار أرضاً سهلة تصاعد من مسامها بدون ان تحدث براكين ولا تفجر ـ وان صادف جبالاً فلا يسعه إلا ان يخترق تلك الصخور العظيمة القاسية ويتخذ معه ما يجده في سبيله من طبقات الأرض كالحديد والكبريت والنحاس والقصدير ونحوها ويقذفه للناس ينتفعون به . وهـذا مشاهد كثيراً في الجبال التي على شواطىء البحار والمحيطات ، أو القريبة منها كشواطىء آسيا الشرقية وامريكا الغربية وجزر اليابان وجزيرة اسلندة وكثير من بلاد في اوروبا ـ ومن المعلوم ان الارض طبقات بعضها فوق بعض وكلها تسمح للمياه بأن تتخللها فتدخل فيها فتبخرها الحرارة ، والبخار من طبعه يتصاعد ، ولكنما الجبال تمنعه فيتراكم تحتها ويتزايد وهو شديد وخصوصاً عند ما يمتزج مع ما يقابله مما في جوف الأرض فيحدث الانفجار في باطنها على أثر تراكم تلك الابخرة المائية بدرجة تمـدد عظيمة فينشأ عنه انكماش الطبقة السطحية. وتتدحرج الصخور التي في باطنها بعضها على بعض فيحدث من انفصال أجزاء الجبل بعضها من بعض تمزق ورجة عظيمة واضطراب لسطح الارض يشعر به غالب العالم لأن القارات يتصل بعضها ببعض ، وكذا الجزائر بواسطة سلاسل عظيمة تخترق البحار والمحيطات .

وهذا الاهتزاز هو الزلازل التي تنشأ غالباً من البراكين. وقد لا ينشأ من ذلك كجهات الألب ـ وكما تحدث الزلازل براً تحـدث بحراً ويحصل لمائه مدٌ فيغرق البلدان ويدمرها وتعلو امواجه نحو خمسين متراً فيحدث مـا تقشعر له الأبدان ولا يخف سمعه على الآذان .

وبالجملة ان سبب اشتعال البراكين نفوذ الماء الذي على سطح الارض الى المواد التي في جوف الارض فيولد مقداراً من البخار فيدفع ما يكون امامه بقوة غريبة وبعض هذه البراكين هائج ابـداً كبركان استرمبولي الذي يبلغ ارتفاعه ٢١٧٥ قدماً ، وبعضها يهيج احياناً واحياناً يسكن كبركان فيزوف بالقرب من نابولي ، وفي العـالم ستمائة واثنان وسبعون جبلاً نارياً تتولد منها البراكين وتنشأ لأجلها الزلازل التي يخوف الله بها عباده في مشارق الارض ومغاربها .

٣٠ - ابو مسلم الخراساني

هو عبد الرحمن بن سالم الخراساني ، مقيم الدولة العباسية ، ومبيد الدولة الاموية ، وُلد بقرية (ما وانه من قرى خراسان سنة ١٠٠ للهجرة ، في خلافة عمر بن عبد العزيز ، ومات ابوه وهو حدث فتولى تربيته عيسى وادريس ابنا معقل العجلي ، واحبه عيسى كولده لما عرفه من لقانته وأدبه ، فلما اعتقل عيسى بواسط بتهمة التشيع للعباسيين ، والدعوة للإمام محمد بن علي العباسي . رأى ابو مسلم ان يكون قريباً منه ليخدمه في بعض شؤونه فاشتغل خرازاً بالكوفة وكان يختلف الى مربيه في (واسط) .

ولما علم الدعاة للعباسيين صلته بعيسى عادوا الى الإمام فوصفوا له حال أبي مسلم ، فطلبه من عيسى فاشخصه اليه ، ولما رآه اعجبه سمته ورجا ان يكون الفتح على يديه ، ثم مات الإمام محمد، فاتصل بابنه ابراهيم، وعليه تخرج في الفقه والادب والحديث وفصح في العربية مجوداً كأحسن ابنائها، ثم اراد ان يوجه الى خراسان زعيماً للدعاة مع صغر سنه ، فخطبه في وفد من وجوه خراسان ، خشية ان يعودوا فينفسوا على ابي مسلم منزلته فيفسد تدبيره . قال : (إني قد رأيت ان اولي الأمر هناك ابا مسلم لما جربت من عقله ، وبلوت من امانته وأنا موجهه معكم فاسمعوا له واطيعوا ، وقد رجوت ان يكون هو الذي يسوق لنا الملك فعاونوه وكاتفوه ، وانتهوا الى رأيه) .

ولما وصل الى خراسان شمر للدعوة ، موصياً اصحابه بالتنكر والتزيي بزي التجار ، فجاب البلاد سهلها وحزنها ، وكلما رحل من بلد او كورة ترك فيها نقيباً يحذو حذوه أمراً ونهياً ، وكان في دعوته حذراً . اخوف ما يخافه ان تعلم به عيون الامويين فيأخذوا عليه الطريق ، ولكن حزمه وكتمانه قد بلغاه ما امل ، فاجتمع له خلق يسمعون قوله فيتبعونه ، ويرونه فيعظمونه ، حتى بلغ من حبهم اياه ان كانوا يتحالفون به فلا يحنثون ؟ ويذكرونه فلا يملون .

ولما وثق بقوة اتباعه صدع بالدعوة في مفنون (قرية قريبة من مرو) . وفي ذلك الحين سمي بالإمام ابراهيم ، فاعتقله مروان آخر أُمراء بني أُمية بحران ، ثم دسّ له السم في السجن فقتله ، فاستشاط ابو مسلم ، وصمم على اخذ مرو وهي

اكبر كور خراسان وقبل ان يهاجمها علم ان بين اميرها نصر بن سيار ، وهو من هو شجاعة وبأساً ، وبـــين جديع بن علي المعروف بالكرماني زعيم اليمانية في خراسان تخاصماً وتدابراً ، فرأى ان يضرب هذا بذاك ويدافع الحرب مستبقياً جيشه ، حتى إذا جازت حيلته قضى على الغالب ، او ادخله في امره ، وقد تم له ما رأى، فقتل الكرماني واستأمن نصر حين رأى جنوداً اولي قوة وبأس شديد لا قبل له بها ثم فر على غفلة من ابي مسلم في ولده وحاشيته ليلاً .

ولما تم لأبي مسلم ملك خراسان وجه قواده غرباً وجنوباً ليقتفوا اشياع بني أمية ، وانتشر جنده ينتقصون ملكهم من اطرافه ، فتقابل قحطبة بن شبيب وأبو عون العكلي مع مروان على نهر الزاب فاقتتلوا وانهزم مروان الى الشام ، ثم الى مصر ، وتقفاه ابو عون حتى قتله بها ـ وبذلك ادال ابومسلم دولة بني أُمية واقام دولة بني العباس .

وكان ابو العباس السفاح واخوه المنصور واولاد عمهما علي قـــد هربوا الى الكوفة حينما قتل ابراهيم الإمام، واختفوا في دار ابي سلمة الخلال، فجاء ابو مسلم اليهم بعـــد ان طهر خراسان من اتباع بني أُمية ودخل عليهم معزياً مبايعاً ابا العباس، آخذاً بيده الى مسجد الكوفة ليصلي بالناس ويخطبهم فيبايعوه بالخلافة.

وتولى ابو مسلم خراسان عن السفاح، فنظم شؤونها ، وعظمت مهابته، حتى لم يتوجه لإخماد ثورة إلا انضم الثائرون اليه من غير ان يُصلت سيفاً او يشرع رمحاً.

مات السفاح فخرج عمه عبد الله بن علي على المنصور داعياً لنفسه بالخلافة ، زاعماً ان ابا العباس عهد اليه بها ، واستمال الناس حتى اجتمع له جند كالسيل ، فقال ابو جعفر لأبي مسلم : أيها الرجل إنما هو أنا او انت لهذه العظيمة ! فقال : بل أنا ايها الأمير ، وفصل في اثني عشر الفاً من جند خراسان ، حتى اذا تراءى الجمعان انحاز الى ابي مسلم من كان مع عم الخليفة ، وبقي وحده الى ان استأمن ابا مسلم ، فأمنه وعفا عنه .

وكلما تقـدم الزمان بأبي مسلم حسنت احدوثته ، وطار في الآفاق صيته ، وشعر بعظمة وجلال لم يحرزهما خليفة، من اجل ذلك توجس المنصور منه خيفة وقال في نفسه : (ان من اقعد دولة كان احـد ملوكها ينطق بالكلمة في دمشق

فيسمع صداها فيما بين الصين وجبال اطلس ، لجدير ان يسلبنا الخلافة ، ويقضي عليها في مهدها) واستشار بعض بطانته في امره، فأوغر صدره عليه، وحذّره غوائله .

ولما استقدمه المنصور لمناظرته في شؤون الدولة ، ادرك ابو مسلم نيته ، فأتمر اهل الرأي من قواده في اجابة الخليفة . فأباها بعضهم خشية ان يفتك بـــه ، ورضيها آخرون على ان يحتاط ، ففصل ابو مسلم ببعض جنوده متمثلاً :

(مــا للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيـلة الأقوام)

ولما وصل الى المنصور احتفى به ، وتلقاه بالاشراف وكبار القواد مترجلين حتى اذا ما اطمأن ابو مسلم ، وحسب الأمر لا يعدو البحث في امور الدولة ، بيّت له ابو جعفر ليأخذه بغتة، وفي اليوم الثالث من قدومه امر الخليفة حاجبه ان يجرد ابا مسلم من سيفه اذا استأذن عليه ، وأعد له كميناً خلف الستار .

دخل ابو مسلم بعد ان جرد فالتقى الدهاء بالدهاء ، وتقابلت القوة بالقوة، وظهر تنكر المنصور له ، فأيقن بالهلكة ، ثم تضرع واستكان ، وهو يقبل اليد والرجل ، وترجى البقاء ، مستشفعاً بسالف احسانه ، ومشكور بلائه، ولكن حمّ القضاء ، فصفق الخليفة ، وخرج الكمين ، فاخترطوه بسيوفهم ، وبضعوه تبضيعاً ولفوه في بساط ، ثم دفنوه برومية (مدائن كسرى على نهر دجـــلة) سنة ١٣٧ هـ .

ولمـــا بلغ منعاه جنده هاجوا ، واستلوا السيوف ، واعتزموا الأخذ بثأر وليهم ، ولكن المنصور استرضاهم بالمـال ، واقنعهم بخيانة ابي مسلم ، وفساد طويته ، فانصرفوا راضين .

وكان ابو مسلم جميلاً حسن التقاسيم ، قصيراً اسمر اللون ، نقي البشرة ، احور العين ، عريض الجبهة ، كثيف الشعر ، طويـــل الظهر ، قصير الساق ، وكان شديد البطش والفتك، يقتل بالظنة ، ويأخذ بالكلمة ، لا يحفل بالحوادث الجسام ، تأتيه من أي النواحي ، أمــا الدهاء فقد بلغ فيه الغاية ، وحسبك منه انه عمل للدولة العباسية واقامها بين اسماع بني أُمية وأبصارهم، يمر بهم فيحسبونه صديقاً ووليا ، ومـــا يمر بهم إلا ليسنى الطريق لأمته ، ويمهدها لدولته ، وهو

جدير ان يفخر بما نال وان يرفع الصوت بما قال :

(أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت   عنه مـلوك بني مروان إذ حشدوا)

في أبيات مشهورة .

ومن عجيب دهائه انه لما وجدت الدعوة في خراسان ، وظهرت المسودة على بني أُمية ، حار مروان ، وطلب إلى شيخ الكتاب عبد الحميد ان يرسل إلى أبي مسلم كتاباً يخلب اللب ، عـله يتلهى به ، فيفسد صنيعه ، ويحبط عمله . فمضى عبد الحميد يكتب حتى سطر وقر بعير وأنفـــذه إلى أبي مسلم ، فأدرك الحيلة ، وتسلم الكتاب فمزقه ، وكتب على جذاذة منه :

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى   عليك ليوث الغـاب من كل جانب

ولعل لنشأته مع الدعاة المتكتمين ، وصلته بالأئمة المتسترين ، أثرا في دهائه وتكتمه ، حتى بلغ ما بلغ .

وكان ابو مسلم كبير النفس أبياً طموحاً إلى المعالي ، يرى السعادة في نيـــل السلطان ، قيل له ما السرور ؟ قال : (ركوب الهماجة وقتل الجبابرة ، واقبال الزمان ، وعزة السلطان) ، ومن أجـل ذلك كان يعمل لرجع الملك إلى الفرس طامعاً ان ينال مأربه بالدعوة العباسية ، ولكن مصارع الرجال تحت برق الاطماع .

٢١ ـ أسباب ونتائج نهضة اوروبا

هي الحركة العقلية العظيمة ، التي انتظمت اوروبا منذ القرن الخامس عشر ، فأيقظتها من سباتها ، وابتعثت فيها حيـــاة أدبية فنية ، مكنتها ان تقبض على صولجان السيادة والعزة ، وان تبسط سلطانها ، وتمد نفوذها ، وتوسع ثروتها ، وترأب ما أسأته يد الجهل في القرون الخالية .

لهذه النهضة عوامل قوية ازاحت غشاوة الجهل عن اعين القوم ، بعد ان لبثوا يضربون في بيداء الجهالة ، ويرسفون في قيود الأوهام حقباً طوالاً ، وكان ذلـــك الجهل الشامل مبدأ العلم ، والسكون السائد اول الحركة ، ولا غرو فالظلام الحالك يسبق نور الفجر .

كان من أعظم العوامل في ظهور تلك النهضة (الجامعات) التي كانت منتشرة

في اوروبا منذ قامت دولة شارلمان ، وكانت وقفاً على التعليم الديني حتى القرن الثالث عشر ثم لما لاحت تباشير الاصلاح والنهضة اتسعت دائرة التعليم فيها بما أضيف إلى علومها ، فخرجت لأوروبا رجالاً من أولى الرأي والعمل، حملوا ألوية النهضة ، وعبدوا السبل لمن تلا تلوهم من قواد الآراء وذوي العزائم القوية .

وكان لاختراع (البارود) تأثير هام فيها إذ كان نظام الفروسية يقضي بحماية الضعفاء والانتصار للمظلومين ، وفي ذلك اخضاع لهم وذهاب بالنخوة والبأس من نفوسهم ، فلما ظهر هذا الاختراع استطاع الضعفاء ان يدافعوا عن انفسهم ، واستغنوا عن حماية الفرسان والأمراء ، كان ذلك مبدأ استقلال الارادة والفكر اللذين قامت عليهما قوة الابتداع والابتكار فيما بعد .

أضف الى ذلك تأثير الحروب الصليبية ، التي نشبت بين اوروبا والشرق من (١٠٩٦ – ١٢٧٨) في إيقاظ العقول وتنبيه العزائم وشحذ القرائح ، بما قبسه اهل اوروبا من آثار الحضارة العباسية في المشرق، فنظموا مدارسهم ، ونبغ من بينهم شعراء وعلماء وفلاسفة قلما تجد في تاريخ اوروبا من يدانيهم قبل تلك الحروب ، وكان لها أثر آخر أعظم شأناً ، هو جمع كلمة الاوروبيين ، واستلال سخائمهم وتناسى احقادهم ، وتألبهم على الشرق ، لمدافعة اهله ، بل مهاجمتهم في ديارهم .

ولما فتح الاتراك قسطنطينية هاجر كثير من علمائها وطلابها يحملون معهم أنفس الذخائر العلمية ، واقدم الرقوق التي تحوي بحوث العصور الخالية ، مما كانت مدارسته وقفاً على الخواص في دولة الروم الشرقية رحلوا بها الى اقطار اوروبا الغربية فرحبت بهم وخاصة اهل ايطاليا ، وانتشرت اللغة الاغريقية ، فقرأ الناس أشعار هوميروس ، وافكار افلاطون وغيره من فلاسفة يونان ، بعد ان درست من اوروبا ، فانطلق العقل من قيود الوهم ، ورجال الفكر في ميادين الحقائق ، وحبب الى الناس ان يتركوا الخرافات التي منعت عقولهم عن التفكير وغلت ايديهم عن العمل .

نعم ، كان للحروب الصليبية ودخول الأتراك اوروبا أثر قوي في توحيد الكلمة ، وظهور الحمية القومية ، والنعرة الجنسية والدينية والعمل على تنمية القوى الحربية حتى إذ احس الاوروبيون خطر الاتراك يتهددهم ، ظهر الروح

القومي ، وبرزت القوة الكامنة التي كسبوها بمجالدة المسلمين نحو قرنين، وعملوا على إخراج العرب من اسبانيا ، وضايقوا الأتراك في المشرق حتى فقدوا قوتهم تدريجاً ، فقام الغرب يجدد حملاته على الشرق بدعوى تعمير أراضيه المهملة ، وتعليم شعوبه الجاهلة، وكان في ذلك القضاء على استقلال الشرقيين وامتداد نفوذ اوروبا وعظمتها .

وقد أتاح الله وقتئذٍ للعالم اختراعاً كان له من عجيب الأثر في امتداد النهضة وشمول أثرها ، ما لا يعهد إلا للقوى السحرية ، ذلك هو اختراع (المطبعة) التي جعلت تداول الكتب يسيراً ، فأوقدت سراج الآداب في اوروبا ، وأحيت موات العقول ، فظهر النبوغ في طبقات كثيرة ، ومال الناس إلى البحث ، وشاركوا اصحاب العقول الراجحة في العصور المختلفة . ووقفوا على المذاهب والآراء المتباينة لم يركبوا لذلك صعباً ، ولا تجشموا عناء .

ثم ظهر الكشافون البحريون (دي جاما وكلمبُ وماجلان) فقاموا بأعمال جليلة . فتحت لأوروبا أبواباً للعمل والرزق فانتشرت التجارة وارتقت الثروة رقياً لم تحلم به أُمة ولا أمم من قبل .

وكان للاصلاح الديني الذي وضع أساسه (لوثير) في ذلك العهد اكبر الآثار في تحرير العقول من ربقة التقليد ، وتلك الحرية هي مفخرة التاريخ الحديث ، وعليها قامت المدنية الاوروبية ، وبها استطاعوا الافتنان في الأعمال المدهشة ، والاتيان بالاختراعات العجيبة، كما نظمت الحياة الأدبية والاجتماعية، ونبه الناس إلى التفتيش عن صحة ما يعلمون وما يعتقدون ، فقام دعاة الاصلاح والتجديد فيما بين يغيرون نظم التربية والتعليم ويدعون إلى التجديد فكثر التأليف وأنشئت المدارس وتقدمت الصحف . ولم يبقَ باب من أبواب الأدب والفن إلا سار فيه الإصلاح والتجديد سيراً حثيثاً .

وإن ما يظهر اليوم في اوروبا من مظاهر الحضارة الزاهية ، من نشر الآداب السامية وحرية الفكر والميل إلى البحث والاستقصاء في طلب الحقائق واتساع العقل وتغير نظم التعليم وأساليبه ورقي آداب الاجتماع وبسطة السلطان وضخامة الثروة ، كل اولئك من ثمار تلك العوامل التي ساعدت على نهوض اوروبا .

بدأت النهضة في ايطاليا التي أوت طلاب العلم والمهاجرين من أهل قسطنطينية

ثم سرت منها إلى فرنسا وجرمانيا وهولندة وانكلترة . وكان أساس الدعوة في ايطاليا وفرنسا احياء العلوم والفنون والآداب ، أمـــا في جرمانيا وهولندة وانكلترة ، فقد كان أساسها الإصلاح الديني ، وإن شملت الدعوة إلى طلب العلم والأدب ضمن ذلك .

ولقد درجت النهضة الاوروبية إلى الكمال منذ القرن الخامس عشر ، غير أنها أوسعت الخطى في القرنين التاسع عشر والعشرين ولا تعـــلم الغاية التي يقف عندها بجهود العقل البشري .

٢٢ - وصف سفينة تحترق ليلاً

قصدنا إلى طلب العلم في اوروبا فحزمنا امتعتنا، ولحقنا بالسفينة (فكتوريا) وهي سفينة كبيرة يجد المسافر فيها من أسباب الراحة والرفاهية ، مـا يجده في المدن العظيمة والامصار الواسعة ، فسارت بسم الله مجراها تمخر عباب البحر الأبيض تتهادى على صفحة المـــاء كما تتهادى العروس ، فقضينا فيها خمسة أيام بأحسن حـال وأنعم بال ، كان البحر فيها هادئاً والجو دافئاً ، والسفر يمرحون في أمن وبلهنية ، وكنت وصحبي نتجاذب اطراف الأحاديث فيما نكون عليه في الغربة مغتبطين بما هيأ الله لنا من الاستمتاع بعجائب الطبيعة ومحاسن الكون .

وبينا نحن في اليوم السادس ، وقد اجتازت السفينة مضيق جبل طارق إلى المحيط الأخضر إذ أحسسنا انقلاباً في الجو لم نعهده قبلاً، فهبت علينا ريح باردة شديدة عكرت علينا صفونا فغادرنا سطح السفينة إلى بهوها الأعظم نلهو ونتسامر ولما أرخى الليل سدوله أخذنا مضاجعنا ونمنا هزيعاً من الليل، ثم استيقظ بعض السفر بدخان سد المعاطس وضايق الأنفاس ، ثم اشتد وتكاثف فرأينا البحارة في هياط ومياط ، واذا أجراس الخطر تنذرنا بالحريق .

يا لهول تلك الساعة لم يكد القوم يستريحون حتى هبوا من نومهم مذعورين مروعين، لا يدرون ما يأتون ولا ما يذرون، ملك قلوبهم الجزع وطار بأحلامهم الفزع فوقفوا مبهوتين حائرين يصيحون وقد عز عليهم البكاء ، وينادون ولا من يجيب النداء .

استحوذ اليأس على المسافرين وفقدوا الأمل وهو سراج النفوس ، ولولا ما

قام به البحارة والمهندسون من المعاونة على انقاذ السفينة فاقتحم بعضهم النيران وساعدهم بعض المتطوعين الأبطال لالقاء مـــا اشتعل في اليم فخنقهم الدخان ونكصوا على اعقابهم خاسرين ، وقـد أسرع آخرون الى المضخات فأداروها ، ولكن ضاعت جهودهم بمناوأة الريح وحبط ما صنعوا فيها .

ظلت النار تمتـد في السفينة شيئاً فشيئاً والملاحون عاجزون عن مغالبتها ، فلم يسع الربان الى ان استصرخ السفن القريبة منه بالبرق الأثيري وأمر ان تلقي زوارق النجاة في الماء ونادى الركاب ان اهرعوا اليها ان كنتم ناجين .

لم يكد المسافرون يسمعون هذا النداء حتى طارت نفوسهم شعاعاً وأيقنوا ان الموت مدركهم لا محالة ، بالماء او بالنار .

في وسط تلك المناظر المحزنة ترى رجالاً مستبسلين لا يهابون الموت يجودون بحياتهم لإنقـاذ السفينة وركابها ، اولئك هم البحارة اللذين لم يدخروا وسعاً في مكافحة النيران الا بذلوه ، ثم لم ينالوا منها مأرباً ولا شفوا نفساً .

ووقف الضباط وسط القوم يحملونهم على النظام كرهاً وينزلون الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة قبل الشبان والكهول والقادرين فخفقت القلوب ووجمت النفوس وسالت العيون تذرف الدمع الهتون، وصاحوا جميعاً الى اللقاء، ان أذن الله بالبقاء .

أما السفينة فقد أتت النيران على اكثرها ولم يبقَ من خشبها الا دكان صغير وقف عليه المهندسون والبحارة ينظرون الى عروس البحار وهي تصعد زفراتها، ونادوا بإبعاد الزوارق عنها حتى لا تجتذبها اليها وهي تهوي الى مستقرها ، وما هي الا هنيهة حتى سمعنا صوتاً اصم الآذان ، حسبناه رعداً قاصفاً ، فـــإذا مراجلها قد انفجرت ، وإذا الربان وبحارته آخر من يغادرونها .

اشتعلت السفينة كلها وصارت كجبل من نار ، فكان لهـا منظر عجيب في ذلك الليل البهيم ، ولم تلبث ان هوت الى قرار المحيط وساد الظلام والسكون .

اخذت الزوارق تخبط في هـــذا الظلام الحالك حتى اودي كثير ممن بها جوعاً وبرداً واشفاقاً ووجداً ،ولما استيأسنا من النجاة وايقنا بالهلاك انسنا ناراً من بعيد ، تقترب منا شيئاً فشيئاً ، فعلمنا انها سفينة آتية لإنجائنا فأحيت ميت

آمالنا ، وانتشلتنا من اهوال البحر ، وواسانا ركابها وهنئونا بنجاتنا ، وسارت حتى ألقت مراسيها وبلغتنا مأمننا فحمدنا الله على سلامتنا .

٢٣ ـ وصف البرتقال

هي فاكهة من الفصيلة الليمونية ، حلوة الطعم ، عبقة الرائحة والبرتقالة في حجم جمع اليد او اكبر منه قليلاً ، كروية الشكل صفراء اللون غزيرة الماء ، ظاهرها قشرة خشنة طرية ، ثخينة او رقيقة وباطنها فصوص متراصة متضامة كالأهلة ، يتألف من جملتها اللب ، ويختلف عدد هذه الفصوص بين سبعة واثني عشر فصاً ، وكل منها غلاف رقيق شفاف يحتوي اكياساً صغاراً مستطيلة بها ماء اصفر حلو ، وفي بعض الفصوص بذور الى خمس وبعضها لا بذور فيه .

وموطنه الأصلي شمالي الهند وغربها وجنوب الصين ، ولا يزال ينمو في هذه الجهات برياً . ثم نقل الى فارس بعيد المسيح ، ولم يذكر في الكتب المقدسة ، ولا عرفه العرب الا بعد فتحهم فارس ، ونقل من فارس الى اوروبا في القرن التاسع الميلادي ، والى امريكا في القرن السادس عشر ويزرع الآن في المناطق المعتدلة الى الدرجة ٤٤ شمالاً و٣٥ جنوباً ، واشهر جهاته ممالك بحر الروم ، وما في عرضها من الامريكتين وجزائر الهند الشرقية والغربية .

وشجرة البرتقال جميلة معتدلة الساق ، كثيرة الاغصان مورقة ، نضرة ، لامعة ، يبلغ ارتفاعها الى اربعين قدماً وتثمر بعد سبع سنين ، وقد تُعمّرُ طويلاً ففي اسبانيا اشجار مضى عليها نحو ستة قرون ، ولا تزال تؤتى اكلها كل حين بإذن ربها ، وازهارها صغيرة عبقة الى البياض ما هي ، تظهر في مارس وابريل ثم تكون ثمراً يجنى في اكتوبر او نوفمبر ، ويبقى نحو ستة اشهر ، وقد يبقى اكثر من ذلك ، لوروده من بلاد يتأخر نضجه فيها . واذا اريد اصداره الى ممالك بعيدة جمع من اشجاره قبل ان يتم ينعه حتى لا يعطب ، وقد يشاهد في الشجرة اكام وازهار وثمار يانعة وغير يانعة في وقت واحد .

وانواع البرتقال كثيرة واسماؤه مختلفة ، حسب اختلاف منابته ، واكثرها شيوعاً في مصر البرتقال البلدي واليوسفي واليافوي ، اما الأول فيمتاز باستدارته ورقة قشرته وملاستها وكثرة مائه وشدة حلاوته ، ومنه نوع يمتاز

بعصارة حمراء قانئة ، يسمى البرتقال الدموي . واما اليوسفي فهو اصغر من سابقه حجماً واظهر انبعاجاً وارق ماء واضوع شذىً وقشرته خشنة ، تحتوي كثيراً من زيت عطر ، وتكاد تكون مفصولة من اللب ، لولا خيوط واهنة تصل بينهما، واما اليافي فهو اضخم حجماً من البلدي واغلظ قشراً واشد حلاوة واقل بذراً ، واجود انواع البرتقال عامة اليافي والمالطي [1] وما يخرج في جزائر الهند الغربية .

والنارنج نوع من البرتقال، اصله من اشبيلية ، ولا يختلف عنه الا في الطعم فهو شديد الحموضة والمرارة . والليمون من هذه الفصيلة ايضاً ، وهو نوعان : حلو وحامض ، وهو اصغر من البرتقال .

والبرتقال فاكهة تنقي الدم وتنعش الجسم، وقد ينتبذ او يضاف الى الكعك ويعمل من قشره رُبٌ (مربى)، ويعمل النارنج مربى ويخلل ويعصر على بعض الأطعمة كالليمون ليكسبه طعماً مقبولاً ، اما زهره فيستقطر منه ماء عطر ، وتزدان العرائس به ويتخذ من شجره اثاث نفيس متين، وقد تطعم به مصنوعات من خشب آخر لنفاسته .

٢٤ – وصف يوم قائظ

اصبحنا يوم الخميس السادس عشر من شهر يوليه ، والشمس ساطعة ، والسماء صافية الأديم ، ورقة انفاس النسيم ، تذكرنا بمحاسن ايام الربيع ، ولم نزل كذلك حتى كانت الشمس في رائعة النهار ، فإذا الجو قد اكفهر وجهه ، وتغيرت خلائقه ، فعبث وبسر ثم احتدم وزفر ، فكان له حر ينضج الجلود ، ويذيب الجلمود .

ما كادت الشمس تستوي في كبد السماء حتى اوقدت نارها واذكت اوارها وارسلت الينا اشعة حامية ، كشواظ من نار فعادت البسيطة من وقده الحر بساطاً من الجمر ، ينبعث الفيح منها ومن كل ما عليها .

---

(١) كان هذا قبل ظهور (ابو سرة) الأمريكي والمصري والمغربي أجود أنواع البرتقال ، ومصححه عبد الوصيف محمد .

خمدت قوة الإنسان وضعفت حيلته ، وجنح الى الدعـــة والكسل وجفت شفاهه ونضب ريقـــه وتصبب عرقه واحمر وجهه من وهج الشمس ، ووهنت مفاصله من الم الحر ، فكان لا يطيق عملاً ولا يجـــد راحة ولا تهنوه حركة ولا سكون :

(واصابت نبت الرباعين شمس اورثته مـــذلةً واصفرارا
كلما جال طرفهـــا ترك النا س سكارى وما هم بسكارى)

ونام بعض التجار والصناع في حوانيتهم ، واوى بعض العمال الى الاشجار فناموا تحتها ، وتفيئوا ظلالها ، وجالت عجلات المـاء ترش الأرض لتكسر من شدة الحر ، فلم تجد نفعاً :

وهاجرة صادق حرها تكاد الثياب بها تلهب
كأنالحر ابى منحرها تلوّح بالنار او تصلب

ولم تكن البيوت احسن من الشوارع حـالاً ، فقد اغلقت منافذها فصارت اشبه بالسجون : لا ضياء ولا هواء .

لم يستمرىء الناس في ذلك اليوم طعاماً ولا اطاقوا عملاً ، لكن حبب اليهم البارد من كل شيء ينقعون به الغلة ويبرئون العلة ، فلم يزدهم الا كرباً وتحرقاً :

يعلو به الكرب ويشتد القلق وتنضح الأبدان فيه بالعرق

وكانت الريح تركد احياناً فتضيق الانفاس ، وتحرج الصدور وتثور احياناً فتفلح الوجوه : وتسفي التراب من التلال ، فاغبر الجو ، واكفهر وجه السماء ، وفسد الهواء ، وقذيت العيون ، وشجيت الحلوق ، ولم يبق في قوس الصبر منزع.

ولما فاح الحر واشتدت الهاجرة ، اضحت الشوارع خلاء وخشعت الاصوات فلا تسمع الا همساً . وكنت ترى الحيوان قـــد تتابعت رفراته وتوالى نهيجه واخرج لسانه من فمه ، وحاول قطع الرباق وخلع القيود ليأوي الى حظائره. وعادت الطيور الى اوكارها وجثمت في مقارها واختفت الهوام في اجحارها وان تعجب فعجب ان يجمع الحر بين ضدين ، ويؤلف بـــين متعاديين فترى العصفور يستظل كرهاً مع الضب ، والقط ينسى عداوة الكلب .

اما الأشجار فقد صوحت وتساقطت ثمارها وذبلت اوراقها والتوت اغصانها وحالت نضرتها وضاعت بهجتها .

في زمان يشوي الوجوه بحر ويذيب الجسوم لو كن صخرا
لا تطير النسور فيه اذا مـا وقفت شمسه وقـارب ظهرا
ويود الغصن النضير بـه لو انه من لحائه يتعرى

ونصلت الوان الثياب وقل رواؤها وتقفعت اطرافها واصيب خلق كثير بضربة الشمس ، ومرض اطفال بالحمى من شدة الحر ، ولم يبق حيوان ولا نبات ولا جماد الا مسه اذاه .

ولما حان الأصيل خرج الناس من بيوتهم ، وكأنما نشروا من قبورهم يطلبون الخلاء والمنازه وضفاف الأنهـار ، وكانت الليلة راكدة الريح والأرض تتنفس أنفاساً حارة ثقيلة .

(فعادت كتنور الإماء سجرته وألقين فيه الجزل حتى تضرما)

فلم يطب لهم مغدى ولا مراح ، وآبوا إلى بيوتهم حائرين ، وصعد كثير إلى سطوح المنازل ينامون عليها ، وهاجت دواب الأرض وهوامها ، وضاق الناس بها ذرعاً حتى بلغت الروح الحلقوم .

(من عقرب تسعى كسعي اللص سلاحهـا في أثره كالشص
وحية تنفث سماً قاتلا تزود الملسوع حتفاً عاجلا)

وأصبح الناس يتحدثون بمـا لاقوا في أمسهم من هول ، ويضرعون إلى الله تبارك وتعالى ألا يصيبهم بمثل ذلك اليوم .

٢٥ ـ الاحسان جند منصور بين يدي المصلح

الاحسان هو إسداء المعروف لبني الانسان ، ويظهر في بذل المال للمحرومين وفي الجاه يستشفع به ذوو الحاجات، والإرشاد إلى الخير ينقذ به الجاهل المغمور وفي القوة نبذل في إغاثة الملهوف وحماية الضعيف وهو من أوضح الأدلة على شفقة الإنسان وتقديره نعمة المنعم عليه .

وإذا كان الناس متفاوتين في طبائعهم وقدرهم ، فمنهم الخامل والعامل والغبي والذكي والضعيف والقوي ، حق على غنيهم أن يسعف فقيرهم ، فليس من الإنسانية أن يرى الرجل أخـاه مجدوداً يتضور جوعاً ، وتقضقض عظامه برداً ، وينظر اليه بعين جامدة وقلب كالحجر أو أشد قسوة .

(وحسبك داء أن تبيت ببطنة   وحولك أكباد تحن إلى القد)

ولا من الدين أن ترى صاحب الحاجة معذباً حائراً ، وفي طاقتك أن تشفع له فيما لا يضر بالدين أو المروءة ، وتتركه يحرق الأرم ويبكي نفسه وأهـله ولو أسعفته لوجدت منه عبداً يدين بالمعروف ورجلاً نافعاً أمته ، عاملاً في رقيها .

الإحسان بجميع مذاهبه ووجوهه مفيد للمجتمع أيما فائـدة ، فهو ينقي أدرانه ، ويقيه العلل الاجتماعية المدمرة ، فـإذا تواصى الناس بالمعروف وأغاثوا ذا الحاجة الملهوف ، نجحوا مما تجره الفاقة والزمانة وفراغ الأيدي من العمل من الأمراض الفاتكة بالأرواح والجرائم المقلقة للنفوس .

ارجع بصرك إلى أهـل الغرب تجد بلادهم خالية من تلك المناظر التي تقذي بها العيون ، وتحرج الصدور ، فلا ترى جيوش السالبين يلبسون الظلام ويكمنون في الأحجار والأشجار ! ولا جماعات المتكففين يناكبون السابلة ، ويأخذون عليها الطريق ، ولا أهل الزمانة والأمراض القتالة يخالطون الصحاح ، ويلابسونهم في الغدو والرواح .

تأمل حكمة الزكاة في الإسلام تجـد فيها ترفيهاً للمحروم وتخفيفاً لآلامه وتطهيراً للنفس من رذيلة الشح والحرص ، (خذ من أموالهم صدقـة تطهرهم وتزكيهم بها) . وتداركاً لما عساه أن يحـدث في قلب الفقير من الضغينة والحقد على أخيه المليء فيتنازعان ويؤول أمرهما إلى قتال يهلكهما معاً ، ورغبة أن يتآلفا ويتعاونا على البر والتقوى .

وما خزائن الغني تفيض بالنضار ، وبيادره تجتمع فيها الغلال والأثمار وسلعة تجوب الأقطار ، إلا عرق العامـل سال فأخصب وأجدى ، وجهده بذل فأنمى وأزكى . فـإذا لم يكافئه أولو النعمة ذهبت قوته وشلت يده فوقف دولاب الأعمال وغاض معين المال .

الزكاة وقاية من المذاهب الاشتراكية الجائرة التي تفسد على الجساد تدبيره وتأخذ على العاقل تفكيره وتريد أن تجعل من الناس أمة واحدة . وجنة من التخاصم بين الموسرين والمعسرين وما نبتت المذاهب الاشتراكية إلا حيث تمكنت الأثرة من نفوس الأغنياء فغلوا أيديهم عن بني قومهم وضنوا عليهم بما يخفف عنهم نكد العيش وآلام الحياة .

وليس الإحسان إلى كل الناس مثمراً، ولا في كل المواضع جائزاً فقد تنعكس آثاره فينقلب نفعه ضراً كالإحسان إلى المتكاسلين ومن يتصنعون الأمراض حباً في الراحة واستدراراً للمال من أسهل طريق واللئام الذين يجحدون آلاء المنعم وينكرون فضله بل يناصبونه العداء ، ويقاتلونه بما أعطاهم إن أمكنتهم الفرصة « اتق شر من أحسنت إليه » . والمحسن الحازم من يتخير لمعروفه منبتاً حسناً ، وقلباً كريماً ، من ذوي الحاجات والآلام الواضحة، ومن أذلهم الزمان بعد العزة ووضعهم بعد الرفعة .

(ان الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع)

وخير وجوه الإحسان إنشاء المدارس لنشر التعليم والتربية وإقامة الملاجىء الناهضة بأعباء العجزة والمستضعفين ، وتأسيس دور العلاج للمرضى والمعتلين ، وبناء المصانع والمعامل للمتعطلين وإعانة الجيوش الزائدة عن بيضة البلاد ، وغير ذلك من أعمال البر العامة .

وللإحسان تأثير عظيم في النفوس فهو يبعث على ائتلاف القلوب وتضافرها للمصلحة العامة ، ويدعو إلى الوئام ونبذ الخصام وينشر لواء الهدوء والسكينة، وإذا ما شعر المحسن إليه أن غيره يفيض عليه من خيره امتنع عن اجتراح السيئات، وحافظ على المحسن ودمه، كما يحافظ على نفسه، وأثر ذلك فيه فأعطى مما أخذ من هو أشد منه بؤساً ، وأخلى منه يداً .

(يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود)

والإحسان دليل على كمال الإيمان وحسن الظن بالله ، وعدم الركون إلى الشيطان الذي يعد الناس الفقر ويأمرهم بالبخل ، وعلامة على الشجاعة إذ يقدم المحسنون بلا مبالاة ، فيؤثرون الناس على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ولا يخلو بلد من محسنين يعشقون المعروف ، وينفقون في سبيله التالد والطريف، ولكن نظام الإحسان يختلف باختلاف البلاد تقدماً وتأخراً ، فسبل الإحسان في بلاد الغربيين والمدارس والملاجىء، ودور العلاج وتشجيع الباحثين والكاشفين ، وإقامة المعامل ، وبناء البيوت للعمال ، إلى غير ذلك . أما نحن في مصر فلا نسلك السبيل السوي فيه مع سخائنا وكثرة برنا ، وإلا فما هذه الطرق الغاصة بالعجزة والمتكففين ؟ وما أولئك الصبية الذين تعافهم النفوس يجوبون الطرقات والقهوات، ويلتقطون فضلات اللفائف وإلا تعجب فعجب أن تجد من بين المتكففين قوماً يلبسون الأسمال والمرقعات ، ويتعامون أو يتباهون ، حتى إذا جن الليل خلعوا شباك نصبهم واحتيالهم، وارتدوا أخرى فعاثوا في الأرض فساداً وأهلكوا الحرث والنسل،وهم يستمرئون ذلك المرعى الوبيل، ويخرجون أولادهم في مهنتهم فيقعدون عن العمل ، ويكونون عالة تعم بهم البلوى ويزيد الفساد .

لو أحسنا لأنفسنا وأمتنا ، لاصطفينا لمبراتنا أبواباً أحسن أثراً وأعم نفعاً ، واحتذينا الغربيين فنظمنا جماعات للإحسان تصرفه في وجوهه ، واكتتبنا في مصانع وشركات تؤوي القادرين على العمل ، فتنتفع مصر بمجهودهم ، ويعيشون بمنحى عن الصغار والهوان وحق على أولي الأمر أن يضربوا على أيدي الملحفين في السؤال وهم في غنى لتصان كرامة الأمة وتزيد فيها الأيدي العاملة لرفاهيتها.

ومن سعد حظ المرء وجدان زوجه   تطيب بها هذي الحياة وتعذب

التربية هي إيصال الاحياء إلى ما يمكن من كال ، وقد عالج الإنسان فنونها منذ نشأته ، إذ عرف حاجته إلى النبات فاستنبته وإلى الحيوان فاستأنسه واتخذ منها غذاءه وكساءه ، وكنه وعونه بضروب من الصناعات ابتدعها ، وربى ذراريه ليخلفوه في الأرض فورثهم تجاربه في سبيل الحصول على القوت ومدافعة عدوه من الحيوان .

ثم لما تألفت الجماعات ، واتسع العمران ، انقسمت تربية الإنسان أقساماً ثلاثة هي تقويم الجسم بالغذاء ، وتثقيف العقل بالمعارف ، وتهذيب الخلق بحب الخير والعمل به .

كان الإنسان يقوم بتربية أولاده في المنزل، فلما انتظمت المجتمعات أعانه على

التربية عوامل أُخرى قللت من عنائه تلــك هي المدرسة والمجتمع والدين والحكومة ، والمنزل أهم تلك العوامل وأوضحها أثراً في إنمــاء القوى الجسمية وتربية الملكات العقلية والخلقية ، لأنه الأساس الذي تقوم عليه العوامل الأخرى إذ يتعهد الأطفال إبان المرونة واللدونة ، فتكون نفوسهم مستعدة لقبول ما يعرض عليها من صور الخير والشر ، وأقبــل للتأديب والزجر لعدم رسوخ الملكات وتمكن العادات .

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلــين إذا قومته الخشب

فإذا أخذهم المربي وقتئذٍ بالحسن ألفوه ودرجوا عليه ، حتى يصير لهم عادة وطبعاً .

وينشأ ناشىء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه

ويقتضي نظام الحيــاة أن يقوم رب الأسرة بالعمل لجلب الرزق وأن تتفرغ ربة الأسرة لأداة البيت وتربية الأبناء ، إذ التربية أهم أعمالها ، بل وظيفتها التي خلقت لهــا ، وسعادة الأسرة وشقاؤها متوقفتان على قيام الأم بوظيفتها ، فهي إن شاءت جعلت منزلها جنة يمرح فيها ولدانها أصحاء الأجسام ، مهذبي العقول ، يفيضون بشراً وسروراً ويأوي إليهــا زوجها ، فيجد نعيماً مقيماً ، وسعادة تذهب بمتاعبه وآلامه ، وإن شاءت جعلته جحيماً يأوي إليه شياطين الإنس الذين يقوضون بنيان المجتمع ، ويفسدون كيانه .

وما الأمة إلا أُسرة كبيرة ـ أعضاؤها الأسر الصغيرة ، فإذا فسد عضو منها تداعى له سائر الأعضاء ، وشقيت الأمة ، فرأيت في أبنائها عجزة لا يستطيعون عملا ، وجهالاً لا يغنون فتيلا ، وأشراراً لا يعرفون إلى الخير سبيلاً .

قلب نظرك في التاريخ تجد أمثلة كثيرة ، تنبىء بما للأمهات من أثر في صعود الأمم وهبوطها ، وإليــك مثل من تاريخ الأمة العربية المجيدة التي كانت المرأة فيها من أكبر العوامل على مــا بلغته في جاهليتها وإسلامها من عزة قعساء وهمة شماء ، أحدثتا في العالم انقلاباً لم يعرف له التاريخ مثله .

وقفت الخنساء بنت عمر بن الشريد يوم القادسية تشد إزر بنيها الأربعــة ، ليصدقوا القتال وينصروا دين الله ، ولما حميت المعركة استشهدوا جميعاً ، فــلم

تذرف عليهم دمعة ، ولا أسالت عـبرة وهي التي علمت النساء من قبل كيف يبكين الأعزاء ، ويندبن النصراء ، وكان لتلك التضحية الغالية وأشباهها أعظم الآثار في ارتفاع كلمة الإسلام وخفوق أعلامه على ممالـك كسرى وقيصر ، ولا غرو فالتي تهز المهد بإحدى يديها تهز العالم بالأخرى .

عرفت الأمم أثر المرأة في تربية أبنائها، وفي إسعاد العالم فأقبلوا عليها يعلون من شأنها ، ونادوا بتعليمها وتهذيبها لتؤدي وظيفتها حق أدائهـا ، ووضعت كل أمة خطة لتعليم المرأة تلائم حاجتها وعوائدها ، وخـير ما يناسب المرأة عندنا تعليمها العلوم المعينة على النجاح في ترقية الأسرة وترقية حالها .

الأم مدرسة إذا أعددتهـا أعددت شعباً طيب الاعراق

وأول ما ينبغي أن تعلمه البنت فن تـدبير الصحة ، لتحافظ على صحتها وأبنائهـا ، فتخرج للمجتمع رجالاً أقوياء أصحاء ، يضطلعون بالاعمال المثمرة كالزراعة والصناعة والذود عن حياض الوطن ، ومـا تتطلبه الحياة من جهد وقوة . وان الامهات الجاهلات ليقتلن بجهلن من الاطفال كل عـام ما يربو على قتلى الحروب الطاحنة . ثم لا بدّ من تعلم (الحساب) لتضبط الدخل والخرج ، وتدبر ثروتها وثروة بعلها ، فتستغني عن غـيرها ، وكذلك فن (تدبير المنزل) لتقتصد في النفقة فتعيش آمنة على مستقبلها ، ولا ترهق الزوج بسرفهـا وينبغي أن تعلم من الجغرافية ما تعرف بـه علاقة بلادها بغيرها ، وتقف على مختلف الحاصلات ، وما بين الامم من منافع متبادلة . وحاجة المرأة الى معرفة التاريخ والدين ماسة شديدة . ففي التاريخ المثل الصالح تضربه لابنائها، ليشبوا على حب الوطن . أما الدين فهو منبع الاخلاق الفاضلة التي ينبغي أن تأخذهم بهـا منذ نعومة أظفارهم وهو يرعها ويحصنها من نزعات الشيطان .

وأساس ذلك كله ان تعرف القراءة والكتابة لانهما من الادوات التي لا غنى عنها ، فإن شاءت ان تتوسع في بعض العلوم كالتاريخ والجغرافيا واللغات ، او حذق الفنون كالتصوير والموسيقى والشعر ، فـلا ضير الا اذا شغلتها عن تربية الولد أو أضرت بمجال الزوج .

وصفوة القول انه لا بدّ ان تعلم المرأة كل ما تنمو به قواها الجسمية والعقلية والخلقية لتسعد في حياتها ويسعد بهـا ابناؤها وزوجها ، وتزول عوامل الحزن

والهم وأسباب الخلاف والشقاق التي يجلبها رأس فارغ ويد متعطلة .

ولقد تنبه الرأي العام في مصر الى تعليم البنت ، واخذت الحكومة تبث المدارس المختلفة في المدن والقرى ، وانا لنرقب هذه النهضة المباركة بعين الامل في صلاح المستقبل ، فان تعليم البنت وتربيتها لخير ما تعالج بــه امراض الشرق وآفاته .

٢٦ ـ الألعاب الرياضية وما ينجم عنها

اللعب من الغرائز القوية في الحيوان يظهر فيها منذ نشأته فترى صغاره تعدو يمنة ويسرة تقفز وتطفر ، وتستخفي في حظائرها وتظهر ، وتناغي امهاتهــا في عملها وراحتها وترى الطفل يركب القصب خيلاً ويجمع الاحجار بيتاً ويخط الارض حقلاً ولا تخمد حركته او يجن الليل فيخاف الظلام .

ويكاد اللعب يكون مميز الحياة الاولى وقوامها ، واشد ضروراتها وهو مقدمة حياة العمل وصورة المستقبل ، ولا يستطيع مربٍّ ان يحول بين الصغار وبينه .

وكلما كبرت الاطفال ترقت العابهم وتغير نظامها ، فمن حركة لا قصد لها ، وعبث بكل ما يقع تحت الحس ، الى نظام يجمعهم في سلك واحد ، ويحسون فيه ضرورة التآزر .

والالعاب جسمية وعقلية ، فالجسمية كالسباحة والتجديف وركوب الخيل والسبق والرمي والمبارزة والمصارعة ورفـــع الاثقال والقفيزي والقلة وانزلاج الجسم والجري بالقبقاب والكرة تدهده بالرأس او تدفع بالايـــدي والارجل والصوالجة وهي اكثرها ذيوعاً .

والعقلية : كالشطرنج والنرد والورق ، وهي بنوعيها اقـل الاشياء تغيراً ، فاللاعبون اليوم يتناولون العاب اليونان والرومان والهند والفرس والعرب دون ان يحدثوا فيها تغييراً يذكر .

ويرى بعض الناس ان اللعب مضيعة للزمن ، مجلبـــة للشر عقبة في سبيل التربية حائــل دون العمل لكسب الرزق ، ولكنهم واهمون ، لان اللعب من ضروريات الحياة ، ومن اقوى عوامل التربية والإصلاح .

اللعب ينفس عن الجسم ، يخرج القوة الزائدة على الحاجة ، ولو بقيت لآدت الجسم وآذتــه ، ويقوي العضلات ويفتلها ، ويمرّن الاعضاء فتصلب وتشتد ، وينقي الدم من خبث الاطعمة والفضلات السامــة فتنشط دورته ، ويقوي على درء الجراثيم الفتاكة ، والامراض المنهكة ، وفي صحة الجسم سلامة العقل ، اذ انهما مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، فكلما صح الجسم ازداد العقل قوة ونشاطاً .

واللعب مظهر للميول الكامنة في نفوس الأحداث : من طاعة أو عناد، وهمة أو خمول ، باعث للغرائز الدافعة إلى العمل في أطوار الحياة الأولى : كالحركة وحب الاستطلاع وما إليهما ، ولو لم يقوها اللعب لخمدت جذوتها ، فخرج الطفل بليداً هزيلاً ، وإنا لنرى المعاقبين بــين اللعب والعمل ، والجاعلين للجد ساعة ، وللهو أُخرى ، يفيدون من أوقاتهم وأعمالهم أضعاف ما يفيده المنبتون (فإن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى) ويجدون في أجسامهم نشاطاً وقوة على درء الضعف والعلل .

واللعب مقوم للأخلاق مهذب للطباع ، ولقد عنيت الامم الحديثة بــــه إذا كانت الحياة تحتاج إلى جهاد وكفاح مستمر ـ وذلـــك يتطلب العقل المدبر ، والرأس المفكر ، والجسم الأيد فافسحت لها مجالاً واسعاً ، وشجعت القائمين بها وكذا يعني المصريون الآن بالألعاب لما لها من الفوائد التي لا تحصى ، ولكن ينبغي ألا تشغل الألعاب المرء عن العمل لأنها وسيلة لا غاية .

(كل من في الوجود يطلب صيدا   غـــير أن الشباك مختلفات)

قضت إرادته جل وعلا اختلاف الأعمال والآمال بـــين الرجال ، فالملك والسوقة والعــالم والجاهل والزارع والصانع والتاجر وغير أولئك لهم أماني في هــذه الحياة ومطامع ينظرون إليها ويجاهدون ويجالدون وراءها ، فهذا يطلب ملكاً أو جاهاً أو صيتاً أو ربحاً أو لباساً أو انتقاماً أو سرقة إلى غير ذلك من أغراض النفوس وميولها .

كل له غرض يسعى ليدركه   والحر يجعل إدراك العلا غرضا

والناس شتى في المسعى واتخاذ الوسائل فقد يتخذ بعض الناس القوة وإنفاق المال لنيل وطره ، والآخر يأخذ حرفــة الذكاء والفطنة واتقان العمل وجودته

مع الاخلاص لله سبحانه وتعالى ولهذا الواجب القائم به ، وغير هذين يتخذ النفاق وسوء الأخلاق وبذاءة الأقوال والمكر والمهارة في الاحتيال وسلب الأموال . فهذا يستخرج السمك من البحار وغيره يقتنص الطيور من الهواء ويصيد المفترس من الغابات أو يتخذ من الزرع مأكله وملبسه ومسكنه ، أو يستخرج المعادن ويستخلصها بثقاب فكره ويستخدم البخار والكهرباء ويسبر غور البحار وينتزع الاسفنج واللؤلؤ والمرجان أو ينشر سطوته وسلطانه بالقوة والرجال والسياسة وبذل المال أو يطمح إلى الرقي بجده وأمانته سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

٢٧ - اتق شر من أحسنت إليه

اتخاذ الأصدقاء محمود ومحبوب والإحسان إلى الإنسان مأمور به وجميل . والعاقل يحترس مهما أعطى وأجاد فيحفظ سره ولا يودعه لمن لا يستحقه ولا يعقله ولا يوقفه على دخائله (فأي الرجال المهذب) وكم من صديق حميم انقلب عدواً فيكون عالماً بالأسرار واقفاً على الدخائل عارفاً بأماكن الضعف ـ وقد قيل حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة والثقة نكبة .

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديـ ـق فكان أعرف بالمضرة

وإذا كاشف العدو ببغضائه اتخذت له العدة اللازمة للوقاية من ضرره وأضر الأعداء من أظهر لك الصداقة ليستدر بمعروفك ويتمتع بخيراتك وأنت غفل عن مكايده . واللبيب من أخذ الحيطة من الناس وعاملهم بالحسنى وقدم لهم الخير مع الاحتراس من شرورهم ولم أرَ أحسن عاقبة وألذ مغبة من اتخاذ الاصدقاء وكسب محبة الناس مع اتقاء شرورهم وتحمل هفواتهم ، والغض عن سيئاتهم والعفو عن سقطاتهم وعدم إفشاء السر لهم ، إفشاء يؤدي إلى اظهاره في يوم ما ، ولا يبقى على حال إلا الله سبحانه وتعالى ، وما أقرب نسيان المعروف من الإنسان ، فينقلب الصديق عدواً ، ويعلن الحرب العوان على أخدانه ، ويضربهم في حصونهم الكامنة ، ويعرف الداء الخفي، وقد قال رسول الله ﷺ : « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما » .

كن بذئب صائد مستأنساً   وإذا أبصرت إنساناً ففر
واجعل الناس كشخص واحد   ثم كن من ذلك الشخص حذر

٢٨ ـ المثابرة والصبر سر النجاح

قد ينال المرء مـا يتمنى إذا عمل بجد وثبات وصحبه الحزم والعزم وإجادة الرأي وقوة العقل وصواب الفكر ! ومشي بحكمة وتؤدة وتأنّ وقوة عزيمـة وأخلص لله في عمله وأتقنه بقدر ما يمكن ، لأن اجتناء ثمار الأعمال يأتي بالثبات ولا يحصل على الفائدة العظيمة إلا بالروية والتحلي بمكارم الاخلاق ! وأكثر الناس ثباتاً ونجاحاً ورقياً أهل العزم والصبر .

وقـل من جدّ في أمر يحاوله   واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

ان الذين نالوا المراكز العالية ، وتربعوا على دست الوظائف السامية ، هم الذين تحملوا آلام الحياة ، وتكلفوا مشاقها ؟ وقابلوها بعزيمة تهدّ الجبال هـداً وتدك العوالي دكاً ، حتى صعدوا الى قمة السعادة ، وبلغوا ذروة المعالي وفازوا بالنعيم والمدنية وتمتعوا بالحضارة والخيرات الجمة .

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته   ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وأمـا اليأس فهلاك وتأخر وضعف ، وسوس ينخر في عظام الرقي ، ومن استسلم اليه هوى وساء حاله ونكد عيشه ولا خير في حياته ، لأنه مـا أتم عملاً ولا أدرك مطلباً (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) فاليأس أقبح شيمة ، ومن صبر ظفر أو كاد (واصبر ومـا صبرك الا بالله) (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) (ان الله مع الصابرين) .

٢٩ ـ فوائد التاريخ

التاريخ عزيز المذهب ، جم الفوائد ، كثير الفرائد ، شريف الغاية ، يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حـتى تتم فائدة الاقتداء بهم ، في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا ، فهو محتاج لمآخـذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبها الى الحق ، وينكبان بـه عن المزلات والمغالط ، وينظر الى

الأعمال الصادرة من أبطال ذوي النفوس الزاكية والقلوب الصافية ويرى دقائق سياستهم وطرق كياستهم، وكيف ارتفعوا الى منصة الرياسة والقيادة، فلا يشق غبارهم ولا يدرك مجدهم ، الا من عمل مثلهم ، وسبر غور أخلاقهم ليتحلى بها .

ليس بإنسان ولا عاقــل　　　من لم يع التاريخ في صدره
ومن دري أحوال من قد مضى　　　أضاف أعمــاراً الى عمره

والتاريخ رسول السلف الى الخلف ، ومدرسة الغافل وموعظة العاقل ومعلم الملوك والرعايا وميدان تجارب ومجل عبر .

نبني كما كانت أوائلنا　　　تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقال الإمام علي كرم الله وجهه :

« أي ُبنيّ، اني وان لم أكن عمرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وتبصرت في آثارهم حــتى عدت كأحدهم ، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره » .

٣٠ ـ ما هي الطرق الموصلة الى نجاح التلميذ

اذا شاء التلميذ أن ينجح في أعماله ويـبرز على أقرانه ، فعليه أن يصغي الى ما يلقى عليه من الدروس والنصائح . وألا يدعها عرضة للنسيان والإهمال .

وأن يؤدي أعماله في أوقاتها المعينة لها ، ولا يتركها حتى يتراكم بعضها على بعض فتثقل عليه ، ويعجز عن القيام بهــا ، فتنصرف نفسه عن أدائها ويضيع وقته سدى .

وأن يعتمد على نفسه في الاعمال التي لا يصح أن يكلها الى غيره ، فــإن كل انسان مشغول بعمله الخاص به، ولا تنتظر من أحد أن يقوم بأعمالك تمام القيام.

ما حك جلدك مثل ظفرك　　　فتولّ أنت جميع أمرك

« ولا تكل الى غيرك ما يختص بمباشرتك » .

وانمــا رجل الدنيا وواحدها　　　من لا ُيعوّل في الدنيا على رجل

وكيف تنتظر ممن ينافسك في ميدان المباراة أن يعطيك من النصح واتقان أعمالك ما يريد أن يسبقك فيه .

وعليه أن يقسّم أوقات المذاكرة ، ويجعل لكل علم وقتاً معيناً يتعهد فيه ما أخذه من دروسه .

فإذا خفي عليه شيء منها سأل عنه استاذه في الوقت المناسب ولا ينبغي له أن يدع دروسه بلا مذاكرة الى قُبيل الامتحان بأيام معدودة ثم يكد ذهنه في مراجعتها بحال قد تؤدي به الى ضعف الجسم عن أداء الامتحان ، كما يحب لنفسه ويحب له أولياء أموره .

وأن يأخذ نفسه وقت الامتحان بالروية وانعام النظر فيما يلقى عليه من الأسئلة ، ولا يبتدىء في جواب حتى يعلم علم اليقين أنه هو المراد من السؤال ، وألا يدع للوهم والجزع واليأس على نفسه سبيلاً .

فإن جمع تلميذ كل ما سبق فبشره بعد ذلك بالنجاح والفوز المبين .

٣١ ـ فوائد المطالعة

انك لن تستطيع أن تكون أديباً أو كاتباً مجيداً طلق اللسان سلس البيان، الا اذا كنت واسع الاطلاع على أساليب اللغة ، متضلعاً من فنونها ، فتختار من جزل الالفاظ ورائع العبارات ما تملك بـه على المخاطب سمعه وعلى القارىء فؤاده ولبه، فتستيل القلوب والنفوس بسحر لفظك ، وتسترق العاصي وتستدني القاصي بآيات وعظك ، فتنبه الغافل وتهز الخامل الى مراقي السؤدد والكمال .

تشرف بالمطالعة على ما أودع في بطون الكتب من ثمرات العقول والافكار، ونتائج العلوم والأنظار، وديعة السلف الى الخلف، وميراث الآخرين من الأولين بها تستعرض أمام عينيك بدائع المخلوقات وخواص الكائنات ، ومـا تجشمت الأخطار ، ولا ترامت بـك الفيافي والقفار ، فتقيس الاشباء والنظائر بعضها ببعض فيصح منك الاستنتاج ويشحذ فكرك ويكمل عقلك ويصيب حكمك .

واعتبر ذلك بحال طالبين أحدهما أمعن في الاطلاع على خبايا الكتب وتحلى بما فيها من علم وأدب ، والآخر حجب نفسه عن أسرار الحكمة ـ تجـد الأول ارتفع به فضله الى أعلى عليين ، والآخر هوى به نقصه الى اسفل سافلين، وحرم ميزة الانسان وكأنه ما كان .

٣٢ ـ البحار وفوائدها

المراد بالبحار ما يشمل تلك المحيطات التي تغمر ثلاثة ارباع الكرة الارضية بالماء وما اودع فيها من بدائع المخلوقات واحاسن الموجودات خلقها جل شأنه وجعلها مصدر الحياة ومنشأ الغيث وقوام المعيشة ونظام العمران وسبل التراسل وحلية الكون .

فاذا سطعت عليها أشعة الشمس تصاعد من مائها بخار ينعقد في اعالي الجو سحباً تحملها الرياح الى حيث منابع الأنهار التي يزول بها الجدب ، وتنشر بها بشائر الخصب ، ويحيا بها الانسان والحيوان والنبات (وترى الارض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) .

وعليها تسير الجواري المنشآت فيها كالاعلام ، مترسلة بين الممالك والقارات حاملة انواع البضائع واصناف المصنوعات ونتائج العلوم وثمرات الافكار .

وفيها تسبح الاسماك المختلفة الانواع التي نتغذى بلحومها ونتداوى بزيوتها .

ويستخرج منها اللؤلؤ والمرجان المستعملان في الحلية والزينة ويستخرج منها ايضاً الاسفنج المستعمل في نظافة الاعضاء والادوات .

وقد يستخرج من مائها ايضاً الملح بواسطة احواض صناعية كما في ملاحات رشيد، ولا يخفي ماله في اصلاح الاغذية التي هي قوام الجسم وسبب بقائه ونمائه.

وان الجهات التي حرمت من البحار لا تتوفر لها كل تلك الفوائد ولا تكاد تصلح للإقامة فيها .

واعتبر ذلك بالصحراء الكبرى وجهاتها الشاسعة ، فلما ان خلت من البحار كانت مهب رياح السموم وخلواً من الحيوان والنبات ، اللهم الا في قليل من جهاتها صلح بواسطة جواري العيون فيه .

وقد نبهنا جلت حكمته على جماع فوائدها بقوله تعالى : ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

٣٣ - الشوارع وتنظيمها وتجميلها

الشوارع طرق عامة يسلكها الناس مُشاة وركباناً بين مبكر لتجارته وغاد لصناعته ، وطاو مديدها في بطون المركبات وسريع المخترعات ، إلى حيث جليل الأعمال ومعاهد التعليم والعرفان ، ومتردد فيها ذهاباً وجيئة لحمل الأثقال وأنواع البضائع ونفائس الاموال ، وهكذا تظل الطرق جمع النهار ، وناشئة من الليل ، مزدحمة بالمارين وغاصة بالمترددين .

وإن سُبلاً هذا شأنها لجديرة بالاتساع والتمهيد ورصفها بدقاق الحصىومتهدم الاحجار ، فلا تضيق بأهلها ، ولا تتسخ بانسكاب الامطار فيها ، وأن تنظف بالرش والكنس تخفيفاً لوطأة الحر وإخماداً لما يثور على الأعين والأفئدة منالأتربة المحملة بجراثيم الامراض ، وأن توشي جوانبها بباسقات الاشجار وتزين ميادينها (ساحاتها) ببدائع الأزهار استجلاباً للظل وترويحاً للنفوس وتنقية لما فسد من الهواء بتنفس الإنسان والحيوان ، وأن تنار ليلاً تعميماً للانتفاع بها ، ودفعاً لما عساه يحصل من الأخطار وشرور أهل العدوان ، وأن يقوم عليها من رجال الشرطة من يصد هجمات المغيرين ويدفع أخطار المجرمين ويميز ذوي الشمال من أهل اليمين .

وعلى الجملة ـ انتظام الشوارع شأن من شؤون الأمم الراقية فكمال تنسيقها وتمام ترتيبها تابع لكمال ترقيتهم وتقدم حضارتهم .

٣٤ - كيف يختار الانسان لنفسه صديقاً

يميل الإنسان إلى معاشرة بني جنسه ويحن إلى وطنه ويشتاق إلى اخوانه ويكره الوحدة ويسأم العزلة وخير صاحب يركن إليه بعد الخبرة ، من يوافق الطبع ، ويبعث على إخائه حسن الخلال ، فيتوسم فيه الطباع الكريمة ، والصفات الطيبة ، ويتجلى فيه كمال المروءة وحب الخير والانصاف والشهامة والصراحة في الرأي والصدق في القول ورجاحة العقل وقوة الرأي مع فكر ثاقب وسماحة النفس وكرم العاطفة ، ولطف الذوق والاخلاص في العمل واتقانه ، وأداء الواجب واستقامته وسيرته الطيبة .

والشدائد مسبار الإخاء ، فالصديق الصدوق من ساعد في الشدة وعاون وقت الحاجة ودافع بالنفس والمال .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

فاختر أيها العاقل أخاً كرُمت أخلاقه وطهُرت أعراقه وحسنت آدابه واستمسك بوده وحافظ على إخائه ، وإن بدت لك منه هفوة فاسترها ، وإن وقعت زلة فاغتفرها وعامله بالحسنى وساوره وقدّم له المحبة والإجلال وأطع أوامره واهجر أعداءه وتخلق بأخلاقه وأرض له ما ترضاه لنفسك .

٣٥ - مقارنة بين المتعلم والكسلان في الهيئة الاجتماعية

المتعلم له درجة عالية ومستقبل حسن يسود على قومه ، ويبلغ المنزلة السامية في نفوسهم ويشرف ، وكم متعلماً اتسع أمامه ميدان الرزق الواسع ، وأغدق الله عليه بالخيرات والبركات ، وابتسم له الثغر وانفتحت له أبواب الخير والسعادة ، ورفرف عليه العز فيربح في تجارته بعلو همته وحسن تدبيره، وينجح في صناعته بثاقب فكره وقوة عقله وثبات عزمه ، وأنه ممتلىء نشاطاً وغيرة وذو مكانة وتجلة واحترام ، على أن المتعلمين هم عماد الحكومة وقضاتها وولاة أمورها وساستها وزعماؤها . وأما الكسلان الذي فترت همته عن طلب العلم فجهول خاب مسعاه وساء حاله وارتمى في بحار الشقاء والمسكنة وعيشه رديء وحالته بؤس ويتجرع كأس الآلام ويتفتت كبده أسفاً على حرمانه من معاهد التربية ، ويسكب الدمع ندماً على ما ضيع ولات ساعة مندم .

والعلم طلابه فضلاء ــ أمر الله بــه النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ وقل ربي زدني علماً ﴾ .

وقال حكيم : « تعلموا العلم فإن كنتم سادة فقتم أو وسطاً سدتم » .

العلم يرفع بيتاً لا عماد له والجهل يهدم بيت العز والشرف

٣٦ - العوم والسباحة من لوازم الحياة

العوم والسباحة من أنواع الرياضة البدنية التي تقوي العضلات وتنمي الجسم

وتزيد الفكر قوة ونشاطاً ، وقد اعتنت الأمم الراقية بالسباحة وعلمت أبناءها فنها ليكون لهم دراية بضروبها فيركبون البحر ويعبرون النهر بقلب مطمئن فلا يخشون غرقاً أو خطراً ، وتمخر السفينة عباب المـــاء وركابها في سلام وأمان ، وإذا طرأ حادث الغرق سبحوا إلى شاطىء السلامة ونجوا ـ والعوم من حيــل صائدي الاسماك وحرفة الملاحين ، فيساعدهم على أداء مهنتهم ويزيدهم قوة ونجاة وكسباً حلالاً ـ فكم من غريق تقاذفت به الامواج ونجاه الماهر في السباحة وأزال عنه الخطر الداهم ، وكم من سفينة جاءها ريح عاصف وأدركها الغرق ، فنجا من يعرف السباحة ومات الآخرون الذين لا يعومون ، والسباحة تمكـّن صاحبها من الفرار من حريق أو حيوان مفترس أو عدو كامن له ، وقــد وجد عبور البحار نجــاة له فيصل إلى الشاطىء الآخر بحسن سباحته ـ والماهر في السباحة يغوص البحر لاستخراج نفائسه ودرره وانتشال ما وقع فيه من متاع وحلي ثمين ويخرجه بصدر رحب منشرح بلا تعب .

وان من واجب الحكومات أن تدرّب جنودها على العوم حتى إذا قذف بهم العدو (والحرب خدعة) إلى ساحل بحر أو ضفة نهر سبحوا في هــذا البحر أو النهر واطمأنت نفوسهم وقويت عند الدفاع قلوبهم وتحققت سلامتهم بمعرفــة السباحة ـ وللسباحة عظيم المزايا في الصحة ، وفي النجاة للقاطنين بجوار البحار والساكنين على شواطىء الأنهار .

٣٧ ـ كيف تختار لنفسك بيتاً صحياً تسكنه

البيت الصحي هو البيت المقـــام على جفاف الأرض وصلابتها بعيداً عن المستنقعات والمراحيض والمعامل والمستشفيات والاصطبلات تدخله أشعة الشمس ويتجدد هواؤه الطلق النقي وفيـــه النوافذ الكافية والحديقة الغناء ، ومرافقه مستوفــاة وجواره حسن ، وتنظف حجراته وأثاثه وجدرانه وسقفه بالمحسات اللازمة لإزالة ما علق بها وتكنس أرضه وتخرج القمامة منه ويزال ما على أبوابه ونوافـــذه من الأتربة ، ويكون على نهر جار أو طريق متسع أو شارع كبير ليسهل الوصول إليه .

٣٨ ـ الغد ليس في اليد

الغد أقدارٌ مكتوبة وغيوب يعلمها الله سبحانه وتعالى ، وأعمار موهومة أو منهوبة ، وأرزاق مقـــدرة أو مسلوبة ، وآجال محدودة وموعده أول النهار وقبيل الاسحار ، فترى فيه الفجاءات والاخبار ويقضي المحتوم ويظهر المكتوم وينفجر المختوم ، وهو مصدر الآمال ومظهر الاعمال ومصرف الاموال وميدان سباق الرجال يدأبون ويسرحون ويمرحون في نوره الساطع وبهائه وجماله، فالغد اليوم الثاني وفيه المخبآت ـ قال تعالى: ﴿ وما تدري نفسٌ ماذا تكسبُ غداً ﴾ وقال الشاعر :

وأعلم عـلم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمى

٣٩ ـ وصف طيارة

الطيارة سفينة الهواء وقاطرة الفضاء تسمو إلى العلا وتصعد إلى العلياء وتسير في الرياح كالطـائر الذي يحلق في الجو وتئز أزيزاً وهي طائرة ، وتجتاز الأفق بآلة يدفعها ربانها كما يشاء ولها جناحان يساعدان على الطيران، وعدة كالصندوق مخزن السائل الذي يولد الحرارة ويدير آلتها ويحرك عدتها فترفرف بجناحيها ولها في المؤخر ما يشبه ذيل الطائر لتركن إليه عند الهبوط وتنزل من أعلى بلا ضرر وقـد أغنت الإنسان عن السفر في البر والبحر ، ووفرت عليه المشقات التي كان يتكبدها، والأموال الطائلة التي كان ينفقها هذا إلى سرعة الوصول وراحة البال والتنزه في الهواء النقي ، وقـد تكون نقمة في الحرب ومصيبة على الاعداء ، بما ترسل عليهم شواظاً من نيران قنابلها وقذائفها ، فتبيد الجيوش وتهـدم المنازل والمدائن وتغرق السفن وتعطل القطارات ، وتوقف حركة الاعمال وتتلف الزرع وأول من فكر في الطيران (عباس بن فرناس) الأندلسي فإنه صنع لنفسه جناحين وغطاهما بالريش وطار .

ولكنه لم يحترس فسقط على مؤخره فتهشم، ثم صنع (ريت وأخوه) طيارتهما وطارا بها مائتين وخمسين ميلاً سنة ألف وتسعمائة وخمس م، وقد ارتفع (غارو) الفرنسي نحو خمسة آلاف وأربعمائة متر .

٤٠ ـ وصف سيارة

السيارة مركبة جميلة تسير بقوة الدفع ذلولة المركب حسنة المنظر سريعة العدو ، توصل الإنسان إلى غرضه بأقرب زمن وتقرب البعيد وتقصي القريب ، يجلس فيها السائق وخلفه الراكب متكئاً على النمارق ذات بوق ينفخه السائق فيظهر صوت يعلم المار في الشارع فيخليه ويتجنب طريقها لتمر مرّ السحاب أو البرق اللامع ولها أربع عجلات لكل واحدة إطار من منفوخ المطاط على شكل المحيط لتكون سريعة السير والجولان ، ولها عدة في صدرها يوضع بجوارها السائل الذي يولد الحرارة في علبة ثانية لتنشأ القوة الكامنة التي تحرك هذه العجلات وفائدتها سهولة المواصلات وربط بعض الجهات ببعض وانتهاز الفرصة لأصحاب الاعمال ونجدة المستغيث وعون على الامن والنظام في البلاد .

هذا ، وقد أفادت فائدة جليلة فيالبلاد التي لا يمر فيها القطار فتنتقل الركاب بأجر قليل إلى الجهات النائية بلا مشقة .

٤١ ـ وصف مصر

تقع مصر في الشمال الشرقي من قارة افريقية ـ ارضها زراعية مخصبة نباتها حسن وخيراتها جمة وماؤها عذب وهواؤها جيد وسكانها هادئون كرماء لضيوفهم يحبون الغريب ويقدمون له صنوف النعيم والاحترام ويحسنون وفادته ويبذلون قصارى جهدهم في قضاء مآربه ويعطفون عليه بصدر منشرح وثغر بسام وطيب خاطر وحسن نية ـ ولذا يؤمها من البلاد النائية الوف من الزوار والسياح ينظرون إلى مناظرها البديعة وآثارها الخالدة وعاديات ملوكها القدماء كالأهرام العظيمة والتماثيل وبقايا الفراعنة والصور والنقوش والمباني والمساجد والكنائس من آثار العرب وتماثيل اليونان والرومان السابقين ـ وحاضرتها القاهرة ومن ثغورها الاسكندرية وبور سعيد وفيها اربع عشرة مديرية ، ويزيد عدد سكانها عن اربعة عشر الف ، يشتغل أغلبهم بالزراعة وللصناعة فيها نصيب وافر ـ ولكن لا تقوم بحاجات أهلها وتجارتها واسعة ونيلها حياتها عليه انشئت القناطر والجسور ، ومنها فتحت فوهات الترع والمصارف لسهولة ري الارض وسقي الحيوان وفيها السكك الحديدية تربط جهاتها ببعض وتقرب

بعيدها والاسلاك البرقية والمسرة والمركبات الكهربائية بالقاهرة والاسكندرية.

وهي من أقـــدم البلاد حضارة وتقدماً دخلها كثير من الانبياء والعلماء والحكماء كسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام، وكثير من اصحاب سيدنا محمد ﷺ وهي كنانة الله في ارضه ومحط رحال العلمـــاء وكعبة الفضلاء وفيها اكبر جامعة هي الازهر الشريف بناه جوهر الصقلي احد قواد المعز لدين الله الفاطمي ثالث خلفاء الفواطم سنة ثمـان وخمسين وثلاثمائة من هجرة الرسول ﷺ . وسميت بالقاهرة نسبة إلى القـــاهر (المريخ) برج الطالع السعيد الذي اختاره جوهر الصقلي لمبدأ بنائها وتخطيطها .

٤٢ - وصف الاهرام

بنى ملوك مصر القدمـــاء الاهرامات العديدة وجعلوها حصناً حصيناً متيناً لتحفظ جثثهم بعد الموت من عبث العابثين ، اعتقاداً ان حفظ الجسم بعد الموت على صورته يبقي الروح متمتعاً بالحياة. وهي تدل على دقة البناء وفخامته وجمال التماثيل ، وإنه لبناء معجز ومنظر غريب ووضع عجيب وشكل بديـع وآية من آيات البراعة والتقدم في فنون الهندسة والمعمار والنقش والتصوير ، بني من اعظم الحجارة والصخور وهو بناء بديـع الإلصاق مربـع القاعدة مخروط الشكل تحيط به مثلثات اربعة اضلاعها متساوية واطرافها محدودة تنتهي بنقطة واحدة يمكن الصعود إليها بتعب وعناء ـ بناء لا يتأثر بهبوب الرياح وهطل الامطار وزعزعة الزلازل مع إحكام الصنعة واتقان الهندام وحسن الوضع ـ منها الهرمان العظيمان بالجيزة ، يقال منقوش عليها : « إني بنيتها فمن يدعي قوة في ملكه فليهدمها ، فإن الهدم أيسر من البناء » . وقد فتح بعض الملوك مدخليها بعـد مشقة وكد فوجدوا ممراً طويلاً يقطعه الإنسان منحنياً تعظيماً للملك بعد موته كما كان يعظم في حياته ، وفي منتهى الممر مرقى إلى حجرتين على اليمين منها حوض عظيم هو قبر الملك عليه كثير من النقوش والتصاوير ، وقد احتمل الملوك تماثيل من ذهب وفضة وزينوا بهـا المتاحف ، وبنى الملك خوفو هرم الجيزة الأكبر الذي يقرب منه صورة من صخر رأسها رأس إنسان وجسمها جسم أسد وهـذا رمزٌ للعقل والقوة ويسمى (أبا الهول) .

٤٣ - وصف ليلة عرس

اجتمع صفوة الأحباب وخيرة الأخدان وعلية القوم وزينة الخلان والاصدقاء في ليلة انس وسرور وفرح وحبور ، فأخذ حسنها بمجامع القلوب وقد سطع نورها وتم بهاؤها وطلع بدرها على أعلام منشورة وثريات منثورة ورحبة فسيحة واسعة الارجاء حوت الجمال والرونق والصفاء في أرض صفراء فوقها نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وعين جارية وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة وكراسي صفت صفاً محكماً للزائرين المشرفين ، ومنسوجات هذه المقاعد مزركشة وحللها بديعة قد نصبت عليها موائد الكرم والطعام الشهي ليتناوله أهل الود والوفاء واخوان الصفا .

٤٤ - من عمل صالحاً فلنفسه

آية كريمة تدل على أن العمل الصالح يكسب صاحبه السعادة التامة والنعمة العامة في الدنيا ويجعل له النعيم الدائم في الآخرة .

والحياة الطيبة والعمل الصالح هو المتقن الذي يجلب رضا الله تعالى والناس - والقول الطيب والأخلاق الحميدة وحسن المعاشرة والذكر الحسن والسيرة الطيبة - وعمل النافع المفيد الخالد الأثر مثل إنشاء المستشفيات ومعاهد العلم واطعام الفقير وتشجيع العاملين .

وكل امرىء يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

أما من أنفق حياته في اللهو واللعب وصرف ماله في شهواته وزينته أو جاد بـه تفاخراً فهو من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وباؤا بكره الناس لهم ، ومات وهو مذموم في الدنيا والآخرة - وأما العاملون المجدون الصالحون فنضرب بهم الامثال في حسن الاعمال والهدى والنور والعلم والعرفان بما تركوه مدى الدهر .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
وما للمرء خير في حياة إذا ما عُدّ من سقط المتاع

ولنا قدوة بخير الخلق ﷺ ، فحياته كلها عمل صالح وفضل وخير ، وحذا حذوه الخلفاء الراشدون والعاملون المتقون .

تدول أحاديث الرجال وتنقضي ويبقى حديث الفضل والحسنات
الناس قــد مالوا إلى من عنده مال

المــال مجلب الفضائل وسبب مكارم الاخلاق وزينة العقلاء ومصدر الكرم والإحسان يكثر الإخوان ويدعو إلى الاصدقاء والخلان ، وبـــه ينقلب العدو حبيباً والبعيد قريباً ويصير الصعب سهلاً .

وإن قــلّ مال المرء أقصاه أهله وأعرض عنه كل إلف وصاحب
وكذّبه الأقوام في كل منطق وان كان فيهم صادقاً غير كاذب

المال يقضي الحاجات ويجلب اليسر والرخاء ويكسب الثناء والحمــد بمواساة الفقراء وتربية اليتامى واعانة المساكين وبناء دور العلم والمستشفيات وبه البذخ والترف والاسراف والعجب والبخل وكسب الرذائل والقبائح ، وهنا تضيع منه الفائدة ، لأن الخير لا يأتي الا بالخير كما قال النبي ﷺ . وصاحب المــال ان أنفقه في وجوه الخير سبب له الخير والمدح والذكر الحسن والسيرة الطيبة وكان ذخيرة عند الله سبحانه وتعالى ينفعه في الآخرة (مـــا عندكم ينفد وما عند الله باق) .

أما اذا أنفقه في الموبقات فوبال عليه لأنه يهوي بـــه الى الهلاك والدمار ويقوده الى الضياع والمذمة ويسبب له العذاب الأليم .

فالمال نعمة كبرى لمن حافظ عليه وأنفقه في طلب المحامــــد وأعمال البر وتشييد معاهد التربية ودور الصناعة ، وجاد بـــه على الفقراء وتحلى بالمكارم والكرم ، وأرضى الله سبحانه وتعالى والناس أجمعين .

خير الصنائع في الأنام صناعة تنبو بحاملهـــا عن الإزلال

الصناعة في اليد أمان وسلامة من الفقر وباب التقدم وعامل النجاح وينبوع الفلاح ومصدر الثروة وطريق الغنى وهي عماد الامم وحضارتها وسبب رخائها ويسرها وسعادتها . والصناع هم الذين يوصلون أمتهم الى الراحة وذرا الحضارة ،

وهم العضو العامـــل في جسم الشعب ، اذ الطعام والأثاث والمصابيح والآلات البخارية ، وغـير ذلك صنع النجار او البناء او الحداد او الفلاح او النحاس او صانع الأدوات التي تسد حاجتنا الضرورية وتسهل علينا سبل المعيشة والحيــاة الرغدة . ولقد اعتنى بالصناعة الامم الراقية وانشأوا لهـا معاهد التعليم للنبوغ والاختراع والابتداع ، وأوجدوا لهـا ما يرقيها من المعادن والوقود ، واغدقوا على العمال الأجر الوافر والرزق الواسع ، فيصنع العامل الى بلاده ما يلزم لهـا ويرفع مقامها الى العلا ويبعد عنها المشقات ليكون لهـا الحظ الأوفر ، وتصبح ذات نفوذ عظيم وسلطان وملك كبير ، ولا تفتقر الى غيرها ، وبذلك يزيد مالها وتعظم ثروتها ويضحي أفرادها أغنياء قادرين على الأعمال الجسيمة وابرازها في أسواق العـــالم ليعيشوا عيشة راضية متمتعين باليسر والرخاء والسعادة الكاملة والنعمة الشاملة .

٤٥ ـ فوائد إنشاء المتنزهات في المدن

المدن أحوج البلاد إلى حدائق زاهرة ورياض نضيرة ومتنزهات أنيقة ، وجنات غناء ذات أشجار فيحاء تهدي أريجهـا إلى الأفق فتعطر النسيم وتنقي الهواء وتكون مستراحاً لأصحاب الاعمال العقلية يهرعون إليها بعـــد انتهاء أشغـالهم فينعمون النظر ويمتعون البصر ويستنشقون الهواء الجيد وعليل النسيم فيشفي منهم العليل ويبرأ السقيم وتزول عنه الاكدار وتنصرف الهموم ووساوس الافكار ويشحذ ذهنه وتصفو قريحته وينعم باله ويحسن حاله ـ وذلك لأن المدينة مملوءة بالسيارات والمركبات ، ويمنع ارتفاع مبانيها تخلل الهواء النقي في أرجائها ـ لهذا وجب مراعاة للصحة وجود هذه البساتين في المدينة لتزيل الأضرار والهواء الفاسد فتحيا الناس حياة طيبة وتحفظ صحتهم من الجراثيم التي تؤذي أجسامهم وتكاد تهلك أبدانهم على أنها تشرح الصدر وتبسط النفس وتجلب الأفراح بحسن منظرها وجمال طبيعتها .

٤٦ ـ فوائد الخيالة (السينما توغراف)

تظهر الخيالة صوراً متحركة تمثل الوقائع أيمـا تمثيل وترسم الاشباح مرات عديدة في أوضاع مختلفة ليتجلى منظرها ويعظم وقعها في النفوس لتكشف عمـا

وراءهـا من الاخلاق والعادات والافعال ـ وتمثل جيشاً جراراً وجنوداً زاحفة على الاعداء لتحث على الشجاعة وتثير الهمم العالية لاقتحام الأخطار بلا وجل ، وهكذا ترسم كبار الاعمال وقواد الجنود والملوك والأمراء وغيرهم ليرى الشعب المنزلة العالية التي نالوها والدرجة السامية التي وصلوا إليها بأعمالهم ، هـذا إلى رسم الرذيلة وإظهارها بمظهر الدناءة والقبح وبعض مرتكبيها ، وهي تمثل الصور غالباً بحجمها الطبيعي. وإذا أريد تكبيرها وضعت بلورات مكبرة أمام المصباح فتظهر بحجم كبير يسر الناظرين وهي تمثل الحوادث والوقائع الحربية لتكون عظات وعـبراً يتخلى عنها العقلاء المفكرون وهي تبهر اللب وتستوقف البصر برسم صور على الآلة كأنها اشخاص حية تروح وتغـــدو وتصعد وتهبط وتشير وتأكل وتشرب وتفرح وتحزن وتكر وتفر وترسم صور الابطال والمغنين وعظماء الرجال والفاتحين والمخترعين والمؤلفين الافاضل .

٤٧ ـ فوائد دور لتمثيل عند الامم الراقية

دور التمثيل الحق معاهد للتربية الصحيحة لأنها تمثل الاخلاق الفاضلة بأجلى معانيها وتبعث على حب الخير والميل إلى الفعل الجميل اذا كان المثلون علمـاء في الاخلاق منزهين عن الدنايا والقبائح وهي درس عظة بالغة وذكرى حميدة وحكم رشيدة ومنبع سرور معين يشرح الصدور ويبسط النفوس بما يتلى فيه ـ ويرى من المشاهد البهيجة والمناظر النضيرة ، عظة تتلوها عظات وعبرة اثر عبر فيتأمل الفكر وتسمع الاذن وترى العين حوادث الاقدمين وشجاعة القادة العظماء وافعال الملوك والامراء وحكم الشعراء ونثر الادباء .

التمثيل مرآة العصور الغـابرة ينعكس على أشعتها التاريخ الماضي والتمثيل استاذ ماهر يقوّم المعوج ويرد الضال ويرشد الخاطىء ويلقي على شباب المستقبل صحفاً من اخلاق آبائهم وأجدادهم وآرائهم ليسير بهم الى مستوى الكمال وقمـة العلا وذرا السعادة والمجد والعز والفخار اذا كان القائمون بـه أهل فضل وأدب وعلم وتأثير عظيم .

نبني كما كانت أوائلـنـا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وبالجمـلة ـ فالتمثيل يهذّب العواطف ويرقي الوجدان ويطهر الاخلاق من

الادران ، ويشذّب الذاكرة من الاذى والقذي وينقي النفوس والضمائر ، وانه لتاريخ صادق يهدي الى الحق والى الصراط السوي .

٤٨ ـ مدنية الشرق لها التقدم والسبق على مدنية الغرب

إذا ما خلا المرء بنفسه وحاسب ضميره قال : إن مصر خاصة والشرق عامة لهما اليد الطولى في رقي الأمم الأجنبية ، ولا تزال المدنية الشرقية ذات القدح المعلى والتأثير الفعال في مدنية الغربيين من الوجهة المعنوية والاخلاقية ـ فالسيد المسيح عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام شرقي وشريعته شرقية ، وهو الذي أعطى مثلاً أعلى للرقي وإقامة العدل المؤسس على دعائم الحق مع حسن الشمائل وكمال الآداب ومكارم الاخلاق .

٤٩ ـ من فتح مدرسة أغلق سجناً

المدرسة تهذّب أبناء الأمة وتربيهم تربية شريفة بعيدة عن الإجرام وتطهّر أخلاقهم من جراثيم الشرور وأدران القبائح وتتعهد هذه الاغصان الغضة فتنميها على نزاهة النفس ونقاوتها من اللؤم والمكر ، فتترعرع على الفضائل والكمال وتنمو على حسن الخلال وتزهو بالآداب في إبان عمرها وفي عنفوان شبابها وتقوّم معوج الاخلاق وتنهى عن ارتكاب الخطايا وتزودهم بالنصائح الغالية وتعلمهم الشرائع السماوية والوضعية والصنائع المختلفة ـ فيجد الابناء حياة جديدة فيها الاخلاق الحميدة والمعاملة الحسنة والأمانة والصدق والوفاء وحب الخير وعدم الأذى ، وهكذا من الصفات المحبوبة وتضم المدرسة آلافاً من الابناء المتعلمين فينشئون على التربية المكتسبة وجمال الآداب بعيدين عن الرذائل والشرور ، وحينئذٍ تغلق السجون إذ لا جرائم تقع ولا حوادث ترتكب تخلُّ بالأمن ، وبذلك تأمن الحكومة جانب الأشرار وتطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم فرحين مستبشرين .

٥٠ ـ القطن المصري

من نعم الله جل شأنه أن جعل أرض مصر بلاداً زراعية يجود فيها كثير من الحاصلات النباتية وأهمها القطن الذي هو روح الحركة الاقتصادية فيها ، وعليه

يتوقف غالب شؤونها سعداً وشقاء وشدة ورخاء ، ومنه يتخذ كثير من أنواع الملابس والفرش ، ويستخرج من بزره زيت يستعمل في بعض لوازم الإنسان .

ولهـذا يجب علينا معشر المصريين على اختلاف درجاتنا أن نبذل كل ما في طاقتنا في تنمية محصوله وتحسين نوعـه لكي تنمو ثروة القطن ـ وذلك بنشر التجارب والآراء المفيدة في اختيار الوقت الملائم لزرعه وتعهده بالسقيا والخدمة ـ وقد دلت التجارب ان أولى الازمان بزرعه هو شهر مارس ، وان ما يلائمه من مرات السقيا سبع قبل فيضان للنيل وثلاث بعدئذ ، ومن الواجب أن نتعهد أرضه بالعزق والتقليب وموالاة الخدمـة إلى أن يبتدأ في جمعه ـ أواخر شهر سبتمبر وأوائل شهر أكتوبر ـ فهو إذا راعى زراعة هذه الأمور وسلم من الآفات السماوية در على القطر الخير والبركة ، وإن أُصيب بأدهى آفاته وهي الدودة وجب على الزراع المبادرة بإبادتها وهي في صورة بويضات لئـلا تطغى وتصير ديداناً غلاظاً لا تبقى ولا تذر ، ثم تصير فراشاً يبيض ويتضاعف . كما أنه يجب على ولاة الامور وأولى التجارب أن يساعدوا الزراع في استئصال هاته الآفة .

وقصارى القول ـ ان القطن أهم مورد لثروة المصريين عامة فقد يبلغ ثمنه كل عام خمسين مليوناً من الجنيهات فيكاد يكون قطب رحى الدولة المصرية ، فـإذا أُصيب أو تدهور ثمنه ساء حال الأمة والحكومة .

٥١ ـ وصف الأمم الراقية

لأن لها الحديد على صلابته وشدة بأسه ، فاتخذت منه سجناً حصيناً لعدوين متضادين هما الماء والنار ، فكان من كفاحها في ذلك السجن أن تصعدت زافرات الماء وغلت مراجل غيظه فالتمس الخلاص منه فـلم يستطع لذلك سبيلاً فطار بسجنه في الفضاء ـ فاستعمل الإنسان تلك القوة الفائقة (قوة البخار) في طي المسافات السحيقة وتقريب الأمم المتنائية وكسر نخوة البحار بامتطاء ظهورها وشق أحشائها ، وفي تحريك دواليب الصناعات المختلفة تحريك خفف من أوصاب الصناع ومتاعب العمال ، وغمر أسواق التجارة بضروب المصنوعات البديعـة ، فأصبح الفقير شريكاً للغني في الاستمتاع بها بعد ان كان محروماً منها ، واتخذت لها من الحديد قذافات ترد هجمات الاعداء ولا تقف أمامها شجاعة الشجعان ،

ولا تغني عنها مصاولة الفرسان فملكتها نواصي الاعزاء وبسطت لها السلطان في جميع الارجاء لفتها قصيف الرعدووميض البرق وغيرهما منآثار القوى الكونية التي طالما مرت على من غبروا من أجيال الأمم وهم عنها معرضون فحدست ان فيها قوة عظيمة لم تخلق سدى وأنها لو ملكت تصريف زمامها لاستفادت منها ما استفادته من البخار ـ فانبرى طلاب الحقائق من أبنائها الذين أثمرت فيهم التربية الصحيحة للبحث عنها في مكامنها، وما زالوا يصلون الليل بالنهار فيتتبعها حتى اهتدوا إلى ينابيعها وحاصروها في مجار ضيقة لا قبل لها بتعديها ، ثم لقوا مقاليدها إلى الأمة فكان من تصريفها في مرافق الحياة ما ترى من الآيات الكبرى على كمال قدرة الخالق وسعة إمكان عقل المخلوق وعدة تحيل الماء هواء وتقلب الليل نهاراً ، ونبض أقرب من لمح البصر يصير تارة مناجاة كتابية مطوحين في مطارح الغربة تستنجز بها الأمور وتقضي بها المآرب . وطوراً تكون مخاطبة شفهية تميز فيها أصوات المتخاطبين على ما بينهما من بعد الشقة .

وكرّة تدفع جاريات تطير طيراناً على سطح الأرض مقلة ما شاءت أن تقل من الناس والمتاع .

٥٢ ـ وصف الأمة العربية

رباها مرشدها الأكبر رسول الله ﷺ بسيرته السنية على حب العدل والإيفاء بالعهود وانفاق الاموال في وجوه الخير والتآخي في نصرة الحق والترفع عن سفساف الأمور، وأوجب طلب العلم من المهد إلى اللحد على أفرادها نساء ورجالاً غير مخصص علماً بعينه فنبغ فيها رجال لم تسمح الأيام بنظائرهم ولن تلد الوالدات أمثالهم . منهم من ساسوا الرعية أفضل سياسة لم يعدها التاريخ في غيرهم من السواس، حرموا أنفسهم فيها ملاذ العيش وصيروها على مصلحة الناس وحاسبوها على القيام بها أشد محاسبة ، ومنهم من قادوا الجيوش وفتحوا البلاد ودوخوا أكبر دول الأرض لعهدهم مع تمام العدل في معاملة المغلوبين وبذل الأمن للمستأمنين ومنهم العلماء والحكماء الذين صدقت عزائمهم في طلب الحقائق فلم يدعوا باباً من أبواب العلم إلا دخلوه على ما كانوا يلاقونه في ذلك من صعوبة التحصيل لندرة الكتب وتباعد معاهد التعليم ـ يشهد لهم بذلك ما خلفوه من آثارهم التي تزدان بها دور الكتب في معظم البلدان ، ومنهم مهرة الصناع الذين أقاموا من معالم

الحضارة ما يحكم لهم بالتبريز على أقرانهم ويوجب لاخوانهم حق المفاخرة بهم .

٥٣ - وصف الشرف للامام المرحوم الشيخ محمد عبده

الشرف بهاء للشخص يحوم عليه بالانظار ويوجه إليه الخواطر والافكار ، وجمال يروق حسنه في البصائر والانظار - ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه يكون له أثر حسن في أمته أو بنى ملته أو في النوع الإنساني عامة كانقاذ من تهلكة أو كشف لجهالة أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو إرشاد لخير يعم أو تحذير من شر يغم أو تهذيب أخلاق أو تثقيف عقول أو جمع كلمة وتجديد رابطة .

من أتي عملاً من مثل هذه الاعمال له أثر من تلك الآثار فهو الشريف وإن كان يسكن الخصاص والاكواخ ويلبس الدلوق والاسمال ويقتات بنبات البر ويبيت على تراب القفر ، هذا له حلية من عمله وزينة من فضله وبهاء من كماله وضياء من جده يهدي إليه ضالة الالباب وتائهة الافئدة تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره وتكتنفه ذرات القلوب المتطايرة إليه ولا تنفصل عنه، له من روحه قصور شاهقة وغرفات شائقة ومناظر رائقة وجمال باهر ونور ظاهر لا يكاد يخفى حتى يظهر ولا يكاد يستتر حتى يبصر إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى عليين حياة طيبة في القلوب وغرة مشرقة في جبهة الزمان - ولمثل هذا فليعمل العاملون .

٥٤ - ليس الرجل بماله وإنما الرجل بأعماله

الاعمال كثيرة متفاوتة في أهميتها وكثرة فائدتها ، وبحسبها تتفاوت العمال في الفضل والمقام إذ الفرق بين رجل يجري في الطرق أمام العجلات ، ورجل يرشد الخلق ويهذبهم ويعلمهم ما يفيدهم في دينهم ودنياهم، كالفرق بين ذرة من الكائنات والكون كله فمشهوروا الرجال الذين قادوا الامم إلى ما فيه نجاحهم وثروتهم وراحتهم وسعادتهم لم ينتشر صوتهم في الدنيا إلا بما يبينوه للناس من المعارف التامة والفوائد العامة حتى استنار بهم الكون ، فمنهم هداة الخلق إلى خالقهم ، ورجال السياسة الذين ساسوا الناس إلى طرق الخير وضبطوا أعمالهم وأحوالهم، ورجال العلم الذين رفعوا مناره وأظهروا عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات،

فكثرت الارزاق واتسعت أبواب المعيشة ، واستقام الناس وانتظمت احوالهم .

فهؤلاء هم رجال الاعمال الذين أفادوا البلاد ، ونفعوا العباد فسعدت بهم الاوطان وافتخر بهم الزمان والمكان ، ولئن كان في العمل التعب والمشقة ففيه اللذة والشرف .

اصرف حياتك في جد وفي عمل   تعد حياً ولا تركن إلى الكسل

والعمل هو الدليل إلى حاجات الإنسان وعلى نسبته إلى الطبيعة ، ولولاه ما كان الإنسان ولا كان العمران ـ وكل عظيم مما يملكه الإنسان جاء به العمل القعلي والجسدي .

فالاكتشافات والاختراعات والمبتكرات والشرائع والنواميس والقوانين كلها نتيجة العمل والتعب . وأتعب الناس وأشقاهم من لا عمل له فإنه لا يرجى منه نفع لنفسه ولا لغيره ـ والذين أوصلوا العمران إلى حالته الحاضرة هم أصحاب الحرف ورجال العمل والتعب سواء أكانت أعمالهم جسدية أو عقلية ـ والعمل وإن كان لا يقوم بلا مال ، بل هو الذي يدير دولاب الاعمال ويوسع نطاق العمران ، ولكن المال وحده لا يجعل للرجال أثراً يذكر ولا تاريخاً يؤثر ولا صيتاً يشهر ، فكم من ذي كنوز لا يعرف اسمه جاره ، وكم من فقير عامل له صوت في أمته ، وكم من ذي فاقة يشار إليه بالبنان وتلهج بذكره الالسنة في كل زمان ومكان .

هؤلاء الأنبياء والخلفاء والعلماء والملوك والأمراء هل كان تخليد اعمالهم لوفرة اموالهم كلا ثم كلا . فإنما العمل هو الذي اوجب على التاريخ ألا ينكر ما لهم من الفضل والعمل الصالح .

وبالجملة ـ لم نرَ أديباً من الادباء ولا حكيماً من الحكماء يحث الناس على جمع المال لذاته كما انه لم يقع نظرنا على عاقل يفتخر بماله ، وإنما المأثور عن الفلاسفة الحث على العمل والمثابرة عليه ، وما ذاك إلا لأن العمل هو الذي له قيمة في الحياة وشأن عظيم في رفع الرجال .

نعم ان المال قد يرفع ، ولكن مركزه مركز المساعد الذي يمكن الاستغناء

عنه ، ولا شك في ذلك فإن التاريخ لم يخلد ذكر الناس لوفرة مالهم ــ ولكن لما قاموا به من جليل اعمالهم .

هؤلاء الأمم الغربية التي لها القدح المعلى في مضمار الحضارة والعمران قد انبعثت منها أنوار العرفان فأفاضت على بني الإنسان بما لم يكن في الحسبان ، ذللت الارض بالبخار والكهرباء ، وسيرت الجواري المنشآت على سطح الماء ، وطيرت نسور المناطيد في الهواء استجلاباً للرزق وتوفيراً للسعادة والهناء، وهي مع ذلك لا تزال تدأب وتستطلع من الاسرار المودعة في الكون ما يجلي القدرة الإلهية في أجلى مظاهرها ويبرز العمل الإنساني في اكمل معانيه ــ وربما في المستقبل يتعلق الإمكان بأبدع مما كان ــ ويخلق ما لا تعلمون .

٥٥ ـ أساس نجاح المرء في حياته اعتماده على نفسه وعدم الثقة بغيره

افضل ما يتحلى به العاقل اعتماده على نفسه في جميع أموره وقيامه بحاجاته في عموم شؤونه بدون ان يتكل على صاحب او يعتمد على مساعد .

وإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

كيف لا ـ وان طبيعة العمران وزعت الاعمال على الناس فأصاب كلا منها على قدر طاقته ــ فإذا اتكل زيد على بكر فكأنه اضاف حمله الى حمل بكر ، وهذا لا يستطيع ان يحمل اكثر من حمله ــ واذا كان الناس كلهم متكلين فمن هو المتكل عليه منهم ــ فـإذاً قاعدة الاتكال فاسدة طبعاً ــ على ان الإنسان له مطالب خاصة ومكلف بأداء اشياء يباشرها بنفسه ان اعتمد علىغيره فيها تعسر قضاؤها وباء بالحرمان والخسران ، وكم من مقاصد للمرء ترك حبلها على كاهل غيره فضاعت وولت الادبار وقضى عليها بالهلاك والدمار . مع انه لا يتيسر للمرء ان يجد في كل وقت من يساعده في اعماله ، كما ان بعض الأمور لا ينبغي ان يتولى شأنها سوى صاحبها والمطالب بهـا ــ ورب امرىء يعتمد عليه الإنسان وحينما يفتش ضميره ويرى ما ابطنه واسره يظهر له جلياً ما يسوءه ، ويعلم ان خذلانه احب إليه من نصره .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم

فيجب على العاقل ألا يعتمد في قضاء مآربه الا على نفسه ولا يظن ان غيره يهمه أمره فيثق به فإن ذلك دليل على ضعف عقله وعلى كسله وخموله ، فلا يلبث أو يقات ولا تمر عليه سويعات إلا ويكون عالة على غيره واضعاً نفسه موضع المسكنة والمذلة والاحتقار .

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا

وأيضاً يكون من اعتمد على غيره جاهلا حكمة خلقه جهولاً بقول الشاعر العربي الحكيم :

ما حك جلدك غير ظفرك فتول أنت جميع أمرك

نعم ان في الاتحاد والتعاون مزايا شريفة غير أن ذلك يكون في الاعمال العامة العظيمة التي تحتاج إلى المساعدة ، ولا يقوى الفرد بنفسه على القيام بها ، فما أشد حاجة الامة إلى أفراد يعتمدون على انفسهم ، ويقوم كل منهم بتأدية ما كلف به فإذا دعاهم داعي التعاون والتعاضد لبوا نداءه وأجابوا دعاءه .

نعم — ليس للإنسان إلا ما سعى إليه بجده وبحثه معتمداً في عمله وأداء شؤونه على نفسه . فمن باشر اعماله وأشرف على اشغاله وشمر عن ساعد جده ، ودأب في عمله واعتمد على كده وتعبه وعول على يده ولسانه فاز ونجح وكسب وربح — فلا بر إلا ما كسبته يداك ولا خير إلا ما سعت إليه قدماك ، ولا نفع إلا ما دبره رأيك ، ولا ثمرة إلا ما غرس اصولها عقلك ، ولا نجاة من غمرات هذه الدنيا إلا بسفينة عملك التي توصلك إلى شاطىء السلامة وترفعك فوق سماء العرفان .

وقصارى القول — ان الاعتماد على النفس ملكة فطرية في النفوس يعتادها المرء منذ نعومة اظفاره ان وجد مقوماً قديراً ومرشداً حكيماً وهي تنمو بالتعهد وحسن الرعاية ، وتقف بالترك وعدم العناية .

وكما تكون في الافراد تكون في العائلات ثم في الأمم .

أما في الافراد — فإن نشأوا عليها شبوا على النفس وكبر الهمة وقوة الإرادة يبتعدون عن الدنيا ترفعاً واستنكاراً ويعملون الخير لذاته حباً واختياراً . فهي جماع خصال الخير تكسب صاحبها الشجاعة والإقدام وتجعله سيداً مطاعاً في

قومه وعشيرته عزيزاً نفسه وأمته لا يرهبه في الحق صولة صائل ولا يخشى فيه لومة لائم .

ومن نظر نظرة صادقة في سبب رقي بعض الافراد الذين ذاع صيتهم في اقطاب الأرض شرقاً وغرباً ، وجد انه هو الاعتماد على النفس في الأمور التي لا يليق فيها إلا الاستقلال ـ وكلما تشبعت الأفكار بأن قيام المجتمع الإنساني متوقف على عمل كل فرد أحس كل واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه وعدم الاتكال على غيره ، ومال الى استعمال ما أوتيه من الهمة والإرادة والإجتهاد .

﴿ وكل نفس بما كسبت رهينة وليس للإنسان الا ما سعى ﴾

وليس للإنسان الا ما سعى	نعم وان سعيه سوف يرى
قليل المال تصلحه فيبقى	ولا يبقى الكثير مع الفساد

المال ثمرة الأشغال العقلية والأعمال الجسدية ، وهو قوام العمران والتمثال الذي تتجلى به الحكمة والقوة ـ والاكتساب اصل المال والاقتصاد سوره . قال الإمام عمر رضي الله عنه : « ان الله يحب القصد والتقدير ويكره السرف والتبذير » وقال أيضاً : « أصلحوا أموالكم التي رزقكم الله فإن اقلالاً في رفق ، خير من اكثار في خرق » . وقال معاوية : « حسن التقدير نصف الكسب » وهو قوام المعيشة ـ فالرجل المكتسب المقتصد هو الغني القوي والأمة التي يتعود أبناؤها حب الاكتساب والاقتصاد والادخار هي الأمة الغنية الراقية مراقي الفلاح، ومن يكتسب ويقتصد يسعى في خير أُمته، ومن لا يكتسب أولا يقتصد يسعى في خرابها ـ والاقتصاد ليس غريزة فطرية في الإنسان ، بل هو خلق اكتسبه بالاختبار وتمكن منه بالتربية والممارسة ـ ومعلوم ان الناس مراتب ودرجات فمنهم اغنياء يعيشون بالراحة والرخاء ، ومنهم فقراء يعيشون بالتعب والعناء، وليس اختلافهم في الغنى والفقر ناشئاً من اختلافهم في الاجتهاد والمقدرة على الاكتساب ـ بل الحقيقة ونفس الواقع ان منشأ هذا الاختلاف اختلافهم في حسن التقدير والاقتصاد .

فكم من رجل يعيش بالراحة والرفاهية ويربي عائلة كبيرة ودخله قليل جداً.

وكم من رجل يعيش بالتعب والعناء وتظهر عليه علامات الفقر المدقع ودخله وفير وكثير جداً .

وطرق الاكتساب على أنواعها هي من لوازم الحياة ومن مسراتها .

كل من في الوجود يطلب صيداً غــير ان الشباك مختلفات

فالإنسان لا يحيا ما لم يصارع الطبيعة من جهة ويستعين بها من جهة أُخرى ، فهي تدعو الى العمل والكدح لأجل تحصيل المعيشة ودفع الحر والبرد، وهي التي تعيننا بإنمـــاء الحبوب والأثمار والأصواف والأقطان لأجل الغذاء والدفء ـ والناس متعاونون في الاكتساب فهذا يحرث الأرض وذاك ينسج الصوف وذلك يخيط الثياب أو يبني البيت أو يمهد الطرق أو يفتح الخلجان أو يعمل غـير ذلك من الأعمال ولولا الاكتساب لنفد المـال الذي في أيدي البشر ، وبارت الأرض وهلك الناس جوعاً ـ فالاستعداد للمستقبل هو الحكمة العملية ، ولكن كثيرين من الناس لا يهتمون بالمستقبل ولا يعتبرون بالماضي ، بـــل هم أبناء يومهم فإذا اكتسبوا الكثير أنفقوه كله واذا اكتسبوا القليل اكتفوا به واذا أخنى عليهم الدهر بكلكله احنوا له ظهورهم وتوسدوا التراب واذا وافـاهم الموت وأولادهم صغار تركوهم عالة على الناس ليربوا في الفقر والشقاء ـ وهؤلاء لو انصفوا انفسهم وأولادهم لعاشوا بالكفاف والاقتصاد وذخروا الى وقت الحاجة ـ ومـا يصدق على آحاد الناس يصدق على عامتهم . فالأمة التي ابناؤها مجتهدون مقتصدون في نفقاتهم هي الامـــة الغنية التي لا تهمها تقلبات الأيام والامة التي يعيش أفرادها بالكسل والإسراف تبقى فقيرة لا صولة لها ولا قوة .

وبالجملة ـ ان الإنسان مهما كثر ماله لا يضمن بقاءه الى آخر حياته ، بل ربما افتقر ومد يده الى السؤال او انحط عن درجته وصار مادحه هاجياً وصديقه له معادياً فيلزم والحالة هذه كل قادر على التكسب ان يقتصد من ماله جزءاً ينفعه وقت الحاجة وينفقه وقت الضيق فإن آفات الدهر كثيرة .

ولادخار والتوفير أمر حسن مـا لم يصل الى درجة الشح والبخل والتقتير فيكون مذموماً ـ كذلك انفاق المال في سبله يكون حميداً ما لم يصل الى درجة التبذير فيكون مرذولاً (وخير الأمور الوسط) .

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد   كلا طرفي قصد الأمور ذميم

٥٦ ـ الدين أشد أنواع الفقر

ان تستدن تمش حقيـ   ـراً والمداين كالأمير
من ليس يكفيه القليـ   ـل فليس يكفيه الكثير

الاجتماع الإنساني جسم حي نام متحرك وهو عرضة للقوة والضعف والراحة والتعب والصحة والمرض ، ويعتري بعض اعضائـه داء عضال يذهب براحتهم ورفاهيتهم ويغـل أيديهم عن العمل ويغادرهم عبيداً وهم من اهل السيادة وهو داء الدين الذي خربت بـه بيوت كثيرة وتورطت فيه بعض الممالك فاستنزفت ثروتها وزالت قوتها وهو كغيره من الادواء الكبيرة يصيب اهل الجاه والوجاهة اكثر مما يصيب الفقراء والصعاليك .

وان منشأ الدين وأساسه غالباً الترف الذي هو من شر ملمات هـذا الزمان وأقوى مقوضات دعائم العمران ـ والاغنياء والفقراء متهافتون عليـــه تهافت الفراش على السراج ـ والمال إله معبود وعباده قـــد حادوا عن جادة الحق ، وساروا في الترهات فيطلبون الغنى بالمقامرة والسعة بالمخادعة ، ويتظاهرون انهم اغنياء ولو كانوا فقراء لا يملكون شروى نقير ـ ويزعمون ان الإنسان بحسن بزته وكثرة ولائمه ، وان الاعتبار والاكرام لمن يكرم الانام .

والدين خِـدن الترف ومعاونه على فساد شؤون الناس وتبذير اموالهم وهو البلية الشديدة التي اصابت الرؤساء والمرءوسين والحمل الثقيل الذي يئن منه دول الارض العظيمة كما يئن منه صغار الفلاحين .

والناس طبقات ـ وكل طبقة تأنف من الامتزاج بالطبقة التي تحتها وتتوخى الصعود الى الطبقة التي فوقها وتبذل النفس والنفيس في طلب الوجاهة التي ليست مذمومة ولا عاراً ـ ولكن العار في استعمال الوسائط غير المحللة لنوالها ـ ومن العجيب ان الناس يحسبون الغنى فضيلة وكياسة ، وعندهم ان الفاضل الكيس هو الغني أو المتظاهر بزي الاغنياء .

ولقد أخطأ وافى زعمهم هـذا لأن الفقر بلا دين هو الغني التام ، فليس الفقر

عاراً ولا منقصة اذا كان الفقير حراً شريف النفس ، بـل كثيراً ما يكون الفقر شرطاً للنجاح والشهرة والراحة .

وتاريخ الناس أصدق شاهد على صحة ذلك فإن ابسل الناس واصدقهم عزيمة وأكملهم مروءة اكثرهم من الفقراء ـ ولا يعاب الفقير الا اذا ابطل الكدح وقصد التعيش بأموال الصدقة او التسوّل .

وبالجملة ـ اذا تمكن الدين من صاحبه لم يقف في طريقه مال قارون ولا ينجو منه الا بالمنون . وفي الخبر الصحيح « لا وجع كوجع العين ولا غم كغم الدين » وقال عليه‌السلام : « الدين شين الدين » ولهـذا يقال : « صاحب الدين ذليل بالنهار ومهموم بالليل » وقـال بعض السلف : « الدين غُل الله في ارضه واذا اراد الله ان يذل عبداً جعل منه طوقاً في عنقه » . وقال العتبي : الدين عقله الشريف ، وقال ابن المعتز : كثرة الدين تصير الصادق كاذباً والمنجز مخلفاً ـ وقال الشاعر :

اذا استثقلت او ابغضت شخصاً … وسرك بعـده حتى التنادي
فشرده بقرض دريهمات … فإن القرض مقراض الوداد

٥٧ ـ حب الوطن من الايمان

الوطن طينة المرء التي نبت فيها اصله ونمـا فرعه ونشأت حياته التي تغذت بهوائه واستظلت بكنفه ودوائه ومقره الذي تتجاذبه عوامل الشفقة عليـه والحنين اليه اذا شط بـه مزاره وبعدت عنه داره ، وكنه الذي يأوي اليه اذا نبت به البلاد ويتوسع فيه اذا ضاقت عليه الارباض .

ان حب الوطن شعور نفساني واحساس وجداني ، ليس بسلعة يباع ويشرى فهو اشرف خلق يتحلى بـه الإنسان وأحسن شيمة ينطوي عليها الجنان ، وهو من اخلاق الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام . وقـد كان النبي صلى‌الله‌عليه‌وسلم بعد هجرته الى المدينة يحن الى وطنه (مكة) حنيناً كثيراً مع انـه خرج منها وهو غـير راض عن اهلها لمعاداتهم له وايصالهم الاذية اليه حتى وعده الله سبحانه وتعالى بأن يريه إياها ويرده إليها ـ وذلك في قوله تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾. ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « حب الوطن من الإيمان » . ولذا قال الشاعر :

بلادي وإن جارت عليَّ عزيزة ولو أنني أعرى بهـــا وأجوع

فمن جعل نُصب عينيه محبة وطنه العزيز والعكوف على خدمته فقد رفـع عماد أُمته وشيد ركن دولته .

وما المرء إلا حيث يقضي حياته لنفع بلاد قـــد تربى بخيرها

فحب الأوطان سلطان فوق كل سلطان ، وأثره لا ينمحي عن صفحات الجنان ، فكم بيعت في سبيله النفوس بيـع السماح ، وكم رخصت دونـــه ارواح وغلت ارواح ــ بـل كم يرفع لرجال ذكراً كان خاملاً وشيد لأعمالهم أثراً ماتوا وظل باقياً .

ولي وطن آليت ألا ابيعــه وألا أرى غيري له الدهر مالكا

فسعادة الإنسان مرتبطة بسعادة بلاده، والإنسان العامل في وطنه هو الامة لأن الامة هي العمل ، ومن لم يعمل في وطنه فعدمه خير من حياته، ومجد الوطن وسعادته ببنيه وبنوه بالتضحية والعمل حتى يبلغوا الأمل .

فيا وطني ان فاتني بك سابق من الدهر فلينعم بساكنك البال

اجـل ــ ان الوطن أبٌ رحيم شفيق نتقلب في نعمه ، فهو اعز عزيز تسفك لأجـله الدماء وتخضب السيوف وتخاض المعامل وتشعل الحروب وتباع النفوس وتقاد الجحافل وتدك الحصون وتنسف المعاقل . فأرق شعور واجمـل احساس يثير النفوس حمية تحل بالقلب هزة وتنزل بـــه خفقاناً هو حب الوطن ــ شعور يستصرخ اللب ويناجي الفؤاد فيردد نداءه من اعماق القلوب واقاصي الاذهان ــ صوت وجـــداني خافت لكنه يرد النفوس مرهفات او اشد قطعاً ــ والعزائم مهندات او اكبر وقعاً .

كفاني فخراً ان اموت مجاهداً وحب بلادي قائدي منذ نشأتي

الوطن عائلة اذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً ، واذا نزل بهم بـــلاء اقتسموه (الواحد للجماعة والجماعة للواحد ، والفرد يفدي الأمة والامة تحمي الفرد) .

والوطنية اعظم سياج لاستقلال الامة التي تصبح بدونهـا تحت رحمة العدو

وسلطانه ـ فالوطني الحق لا يرى بلاده مهما اجدبت الا جامعة للخير العـــام ولمنابع سعادته يشعر نحوه بكل انعطاف وحنو ، اذ يرى فيه ذكرى حياته الماضية كما يتمثل فيه آمال المستقبل .

بلادي هواها في لساني وفي دمي   يمجدها قلبي ويدعو لهـــا فمي
ولا خــــير في من لا يحب بلاده   ولا في حليف الحب ان لم يتيم

٥٨ ـ العاديات والآثار القديمة

انمـــا تصل الأمم الى ذرا الحضارة وتتسع مداركها في الصناعة وتبلغ شأواً بعيداً في الارتقـــاء وتنهض من الهجمية الى المدنية وتحصل على الرفاهية والنعيم بما تظهره من المصنوعات المختلفة وما تبتدعه من المخترعات المتنوعة ومـــا تخلفه من الآثار المحكمة الصنع ومـــا تتركه من المتاحف المتينة الوضع ـ وبديهي انه كلما كان اساس الصناعة قائماً بين ايدي الصناع امكنهم زيادة الاتقان واحكام العمل وتسهيل الانتفاع ـ لهذا ترك السلف للخدم آثاراً شهدت ببراعتهم وحسن اختراعهم فكانت كمرآة رأى المتأخرون فيها تمدينهم ورفاهتهم ورغد عيشهم ـ وكان لسان حالهم في اجداثهم يقول :

مضوا والدور باقية وأودوا   وليس شخوصهم بالموديات
فما ذهبوا ولكن في اغتراب   وما ماتوا ولكن في ثبات

حقاً إن الآثار غير مرشد للصانعين وخير معلم للمتعلمين وخير دليل للمبتدعين.

تلك آثارنا تـــدل علينا   فانظروا بعـــدنا إلى الآثار

ولهـــذا اعتنت الحكومة المصرية بجمع شتاتها وتجديد ما درس من معالمها لتكون مرشداً للمسترشدين ومصباحاً للمتفننين ونموذجاً للمخترعين ينسج على منوالها الناسجون ويحذو حذوها اللاحقون ، وقد أدرك هذا السر العدد الكثير من الناس فخرجوا من ديارهم يؤمون دور الآثار ليستفيدوا من دقة الصنع وإحكام الوضع وحسن الاختراع وجمال المبنى ورونق المعنى ما لم يستفيدوه من قبل .

وبالجمـــلة ـ فالمقياس الوحيد لتقدم الأمة ومبلغ رقيها هو مبلغ اهتمامها بآثار

من سبقها من الآباء والأجداد ـ كيف لا ـ وان الناس الذين يبحثون في آثار آبائهم وأجدادهم هم بلا شك المتشعبون بمبادىء المدنية .

٥٩ ـ لا خير في علم بلا عمل

العلم مناط الحياة الاجتماعية رأس الحضارة والعمران وأول المقومات التي لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات فهو طريق السعادة للدارين ومحور مجد الأمم وينبوع ثروة الشعوب، وما أزل المشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأقفر أوطانه بعد ان كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه إلا إهمال أهله للعلوم واسترسالهم في الشهوات فلا تستقيم أعمال الإنسان إلا بالعلم اليقيني الذي هو ترقي العقل إلى درجة الإحاطة بما يكتنف الإنسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذي هو حياة القوي بموت الضعيف ، وإنما يتيسر أصول العقل إلى هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب إذا روعي فيها جانب الفضيلة على وجه يشعر منه المتعلم أنه إنما يتعلم ليعمل فينفع نفسه وبني جنسه بالعلم .

وكأي من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل، فهذا عالم ولكنه لم يعمل بما علم ، فعلمه وجهله سيان . لأنه ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول بالعمل ، فيعمل بما رزقه الله من العلم ، وأولى بمثل هذا العالم أن يخشى الله بكذبه على العلم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

فالعلم هو الميزان الذي تتكافأ به قوى الشعوب المتنازعة في مضمار الحياة المدنية ، ما دام العمل به متبادلاً بين المتنازعين ، ومتى وقف أحدهما عن العمل واستمر الآخر في عمله رجح هذا على ذاك بالضرورة فنازعه البقاء وغلبه عليه .

فالعلم بلا عمل لا يغني عن الحياة شيئاً، بل لا يكون العلم علماً إلا إذا ظهرت آثاره في الخارج ، وإنما تظهر آثاره بالعمل ، وإلا فأي فائدة من علم المرء ان الزراعة مثلاً من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها ـ ومن وجه نظره إلى الآثار العملية الصادرة عن العلم التي تفيضها على أرجاء المشرق الأمم الاوروبية الآن يحكم حكماً جازماً،ان لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بإزاء تلك الأمم المتمدينة ما لم يجارها في ميدان العمل مجاراة لا يعتري صاحبها

الوهن ولا الكلل ولا يطرأ عليها الخمول والكسل .

لا خير في العلم إن لم يرقَ صاحبه ... على أساس من الاخلاق في الصغر
كم من عالم فاسد ضلت مذاهبه ... وقد غدا علمه شراً على البشر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة ... والناس تلعنه في البدو والحضر
العلم كالغيث والأخلاق مزرعة ... إن تخبث الأرض تذهب نعمة المطر
والنفس تأبى ورود الماء إن وجدت ... في الماء رجساً ولو كانت على نهر
والجهل أفضل من علم يدنسه ... نضح الرذيلة من أخلاق مقتدر

وبالجملة ـ ان الأعمال هي قطب دائرة الحياة الدنيا ومدارج مرقاة العلا الى المراتب العليا وسبيل الوصول الى السعادة الأبدية ، ودليل الحصول على الشرف والسيادة وبها تدرك الغايات وتملك النهايات وهي ثمرة العلوم ونتيجة المنطوق والمفهوم ، فالعلم بغير العمل فاسد والعمل بغير علم باطل ، والمجرد منهما عاطل ـ هل رأى أحد صلاح عمل بغير علم ينشر أو سمع بفلاح رجل من غير عمل يذكر ـ كلا ـ هذا الحاكي (الفونغراف) الجماد نطق بالقرآن والآذان والغناء والإنشاد ـ ما ذاك إلا من ثمرات العمل بالعلوم والمعارف .

٦٠ ـ لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله

الصحبة نسبة بين صديقين ، مشؤها ميل طبيعي أو كسبي ـ وهي حالة مطلوبة مستحسنة ، ودليل على كال فطرة الإنسان وأصله من اندفاعه بالطبع الى التعارف ـ وبواسطتها يكون الانس وتحيا النفوس وتتصافى في القلوب .

فإن حصلت الصحبة عن الميل الطبيعي سميت صحبة اتفاقية وسببها التجانس والتشاكل ، قال عليه الصلاة والسلام : « ان الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . وقال الشاعر :

ولا يألف الإنسان إلا نظيره ... وكل امرىء يصبو إلى من يشاكله

وقال آخر :

وقائلٍ كيف تفارقتما ... فقلت قولاً فيه انصاف

لميك من شكلي ففارقته   والناس أشكال وآلاف

وإن حصلت الصحبة عن القصد والإرادة سميت صحبة اكتسابية ـ وينبغي لمن يريدها الكمال بحيث لا يلقي بنفسه الى المهالك بصحبة الأشرار أو ذميمي الاخلاق والطباع ، بل يجب الاختبار والاختيار . فالقرين يقتدي بمقارنه ، والصاحب تنسب اليه اعمال صاحبه ، فإن كانت حسنة شرف بها الصاحبان ، وإن كانت قبيحة أفهمت الناس أنهما على ضلال .

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينة   فكل قرين بالمقارن يقتدى

فمن تبصر في العواقب وانتقى لنفسه خير صاحب يعين على دفع الشدائد ويغفر الذلة ويقبل العثرة صديق صدوق في السعة والضيق فلا مراء في أنه يعيش مع صديقه هذا عيشة راضية .

ومن اتخذ صاحباً من غير تجربة واختبار واختيار حسب ما شاءُ كما شاء فقد كتب على نفسه العناء والشقاء .

لا تركنن الى ذي منظر حسن   فرب رائقة قد ساء مخبرها

ما كل أصفر دينار لصفرته   صفر العقارب أرداها وأنكرها

وقال بعض الحكماء: «اصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة فكافأته بجميلة واحدة فنسى جمائله وبقي شاكراً ناشراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الجميل ، ويجعل أنه ما بلغ من مكافأتك القليل » .

فالوافر العقل هو الذي لا يصادق إلا من أجمع الناس على أنه من أهل الخير والاستقامة حسن الطباع جميل النوايا .

ويبتعد عن اللئيم الذي أجمعت العامة على خبثه وعدم صلاحيته للمؤاخاة ولا يغتر بما يبديه ذلك الخائن من البشر والبشاشة .

لا تغترر بالهش والبشر من فتى   وحفظ ولين مثل مس الأفاعيا

وقال آخر :

لا تثق من آدمي بوداد أو صفاء
كيف ترجو منه صفواً وهو من طين وماء

وبالجملة ـ ان الصحبة الكاملة تستلزم التعاون والتناصر على الخير والصداقة وخلوص النية وكتم السر وحسن المعاشرة واعظام القدر في الحضرة والغيبة والبر في القرب والبعد والعفو عن بعض الزلات .

إذا انت لم تترك أخــاك وزلة   اذا زلهـا أوشكتما أن تفرّقا

٦١ ـ ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه

وعلاج الأبدان أيسر خطباً   حين تعتل من علاج العقول

المربي هو انسان يحاول ان ينقل صورته ونظام احواله الى غـيره وهو من المسترشدين بمنزلة العود من الظل فلا يستقيم الظل والعود أعوج ـ فالمربي لا يؤثر بأمره بل يفعله ـ ومثل الذي يفظ ويفعل كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك يطيب غيره وهو طيب ـ ومثل الذي يعظ ولا يفعل كالقمر يضيء ولا يدفىء ، فربما سطع القمر والليلة صقعاء ـ أو هو مثل هذا المسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع ـ والإبرة تكسو غيرها وهي عارية وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق .

ما هي إلا ذبالة نصبت   تضيء للناس وهي تحترق

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ . وقال بعض الحكماء : اذا كان الرجل طاهر الأثواب كثير الآداب حسن المذهب تأدّب بأدبه وصلح بصلاحه جميع أهله وولده . وقال الشاعر :

رأيت صلاح المرء يصلح أهــله   ويفسدهم رب الفساد اذا فسد

فيعظم في الدنيــا لفضل صلاحه   ويحفظ بعدالموت في الأهل والولد

ولذا وجب على المعلم ان يكون فعله مطابقاً لقوله : فليكن كما يحب أن تكون تلاميذه وليفعل ما يلزم ان يفعلوه وليلزم ما يلزم ان يتركوه ، وليبدأ باصلاح نفسه قبل اصلاح تلاميذه ،فإذا عظم قويت رغبتهم فيه وانقيادهم لأوامره والعكس بالعكس ـ ولا بدّ ان يكون المعلم مائلاً بجانبه الى تلاميذه محباً لهم شفيقاً عليهم شغوفاً بتكميلهم كالوالد لولده اقتداءاً بمعلم الأنام عليــه الصلاة

والسلام حيث قال : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » ويتبع الميل القلبي لطف الجانب وبشاشة الوجه ولين القول والإحسان اليهم ،قال بعض الحكماء: «البشاشة مفتاح القلوب » ومتى فقد الميل القلبي خاب الأمل وضل المسعى فإن المعلم العبوس الوجه القاسي القلب لا يكسب الناشىء علماً ولا أدباً بسبب نفورهم عنه وعدم ميلهم الى جانبه ويتطرق ذلك الى اخلاقهم فتسوء وتخبث. قال الله تعالى: ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وقال تعالى : ﴿ لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي احسن ﴾ .

وينبغي ان يكون المعلم ثابت الجأش حازم الرأي نافذ الحكم قوي الإرادة ، لا يريد هذا تارة وذاك أخرى ، فلا يأمر تلاميذه بأمر يتساهل عن تنفيذه او يقول قولاً يرده .

القول كاللبن المحلوب ليس له ... رد وكيف يرد الحب اللبنا

أو ينذرهم بعقاب لا يقيمه او يأمرهم اليوم بأمر ينهاهم عنه غداً وبالعكس ـ لأن للناشئة شعوراً دقيقاً بإرادة المعلم ، فمتى كان ثابت الإرادة اسلموه ازمتهم واعنتهم ، ومتى تقلبت شردوا عنه ونبذوا طاعته وراءهم ظهرياً ولم يكترثوا بأمره او نهيه .

فيجب ان يكون المعلم حكيماً متبصراً يضع الأمور في مواضعها عارفاً كيف يأخذ المتعلمين حتى يبلغ بهم الى الضالة المنشودة والغاية المقصودة عالماً بوسائط التربية والتأديب ، فلا يعاقب قبل تهديد ، ولا يهدد قبل انذار ، ولا ينذر قبل تذكير .

قال بعضهم : (العتاب قبل العقاب فليكن ايقاعك بعد وعيدك ووعيدك بعد وعدك) .

ولا يعامل الكل باللطف كما لا يسوق الجميع بالعنف .

فإن منهم من تصلحه القساوة بينما الآخر يصلحه المعروف ومن ينفعه الإحسان بينما يسوء الآخر .

ومن يؤثر فيه النظر بينما الآخر يحتاج الى العصا ـ كما قيل :

البعض يضرب العصا والبعض تكفيه الاشارة

ومنهم من يسوقه المهاز ، بينما الآخر يلزمه اللجام .

وقصارى القول – إن من تلقى إليه أعنة الابناء الذين هم ثمرات الافئدة والمستحق لثناء الامة ورضا الآباء، هو الذي عرف واجباته فقام بأعبائها وترقب نفسه ففاز بمعرفتها واستفاد فأفاد واستهدى فهدى وبلغ فأبلغ وتأدب فأدب ، ونال النهاية فأنال الغاية حتى يكون مصباح الظلماء ووارث الأنبياء .

٦٢ – على من تلقى مسؤولية التربية أعلى الوالدين أم على المدارس

من المعلوم ان الإنسان مخلوق أدبي لا يمكن نمو قواه الادبية إلا بفعل متميز عن الفعل الذي يؤثر في بنيته بخلاف الحيوانات فـلا تطلب سوى نمو جسمها – ومن ثم لا يكتفي الإنسان في تربيته بالاحوال الطبيعية المكملة لتربية الحيوانات ، بل نراه مضطراً إلى أحد من جنسه يعرفه الغاية الإنسانية ليأخذه بتربية روحه وعقله – ولذلك ألقى الحكيم جل شأنه في قلوب الآباء رأفة طبيعية ومحبة فطرية إلى أبنائهم ، ومن هنا يعلم ان الوالدين هما أول مرب للإنسان – والعائلة هي أول مقامات التربية .

ولما كانت الهيئة الوطنية بما لها من التعارف والاجتماع تطلب من الافراد الطاعة لناموس الوطن والتعاون على الاحوال المعيشية حاجيتها وكاليتها حتى تمكن حفظ بقاء الأمة وسرورها بالحياة ، يعلم بالضرورة ان العائلة مدينة للهيئة الوطنية – وبحكمة ان الحكومة هي المهيمنة على الهيئة الوطنية والناظرة في شأن الافراد من جهة الخصوص وفي احوال المجموع منجهة العموم طلباً لحفظ التناسب بينها حتى تكون الحكومة مدينة أيضاً للعائلة والأمة بحيث يجب عليها تمهيد سبل التربية والتعليم وتنبيه الأفراد إلىواجباتهم ولا يحصل ذلك إلا بوجود عدد كاف من المدارس تتخرج بها الأبناء علماً وعملاً وعقلاً وأدباً .

ومن ذلك ينتج ان المدرسة هي الواسطة لجمع دائرتي العائلة والحكومة ، وهي مع ذلك ليست إلا مكملة لنقص التربية في العائلات ضرورة ان للعائلة المقام الأول من مقامات التربية ، كما لها النفوذ الاعظم على الابناء – بصلاحها تصلح الناشئة وبفسادها يفسدون وهي الجو الاول الذي يتنفس فيه الناشيء ،

فمتى كان الجو خالص الهواء تربى الناشىء سليم البدن والعقل والعكس بالعكس. والحكمة في ان للعائلة التأثير الأعظم في تربية الناشئة ان خيراً وان شراً ـ أمور.

منها سلطة محبة الوالدين لأبنائهما فإنها تورث في الابناء المحبة إلى الوالدين ، ويتطرق ذلك إلى محبة غيرهما ، وتلك المحبة المشتركة تعتبر أول أساس للتربية العمومية والحصول على الفضائل .

ومنها سلطان التقليد حيث يؤثر في تربية الابناء ضرورة أنهم يصرفون عامة أزمانهم في العائلة ، فمن كان أبواه مشغوفين بالنظام والترتيب محبين للوطن متكملين بالفضائل كالكرم ورقه الجانب والرأفة ونحو ذلك خرج متطبعاً بتلك الخصال والعكس بالعكس .

ومنها الاحوال العائلية التي هي المدرسة الاولية الاساسية للناشىء فيقف بها عند حد محدود .

ويجب أن يكون المنزل والمدرسة سائرين في طريق واحد هي غاية الحصول على المقصود من التربية العامة ـ والمدرسة لها النفوذ الاعظم بالنسبة الى التعليم ، بينما المنزل له التسلط الاكبر بالنسبة إلى التربية ضرورة ان بالمدرسة وسائط للتعليم يفقدها المنزل كما ان المنزل أقدر على التربية بحكمة تصرف الآباء .

ولكل من المدرسة والمنزل حقوق يجب القيام بها .

فأما حقوق المدرسة على المنزل فهي أن ترسل الآباء أبناءهم إلى المدرسة في المكان والزمان المقرر لهم بالضبط ، وأن يعدوهم بمـــا يلزمهم مادياً وأدبياً وأن يساعدوا المدرسة بالقول والفعل .

وأما حقوق المنزل على المدرسة فهي أن يلاحظ المعلمون الاحوال العائلية ، وما يلزم أن تقوم به أبناؤهم لهم من الفضائل ومكارم الاخلاق .

ومن حقوق الحكومة على المدرسة أن تثبت في نفوس الابناء الطاعة لقانون الوطن وحبه والتعاون وتشريف العوائـــد والآداب الوطنية وحب الراعي والرعية وغير ذلك .

ولذا ينبغي أن يختار لوظيفة التعليم العلمـــاء المؤدبون المستكملون لمكارم

الاخلاق الذين يقدرون على ضبط إرادتهم وحفظ أميالهم خصوصاً الذين يميلون الى حب الوطن وتربية أبنائه تربية وطنية .

٦٣ - الحرية وأثرها في الهيئة الاجتماعية

الحرية كلمة : لهـــا معنى جليل يسحر العقول ويدهش الألباب تصبو إليها النفوس من أحقر وحشي إلى أرقى مدني - يبذل كل في سبيلها ما ملكت يداه، إذ هي تنير قلب الطفل حـــين ولادته كما تملأ فكر الكهل ، وتشغل ذهنه على وسادة موته .

والحرية للبشر ركن السعادة وروح الكمال - فلا جمال في حياة لا نتمتع فيها كما نريد ونختار ، ولا خير في جسم يريد أن يعمل فيركض ، ولا خير في ذهن يريد أن يتفكر فيضغط ، ولا خير في قلب يريد أن يشعر فيجرح - وما فائدة كل هذه المواهب اذا سلبناها عنوة واكراهاً .

ان الانسان لم يخلق لأن يثقل بالسلاسل والاغلال ، وانما كان كماله النوعي في اطلاق مداركه وقواه للعمل والحركة .

فالحرية ، هي القدرة ، هي الحركة ، هي الحياة ، هي العدل ، هي الإخاء ، هي المساواة، بل هي السبيل للوصول الى أرقى مطالبنا ، والحرية ليست مطلقة اذ لا مطلق في هذا العالم، بل كل ناموس له حدود ومستثنيات ، فهي مقيدة بهذا المبدأ وهو (انه لا يجوز أن تكون حرية شخص مجحفة بحرية آخر) هـذا هو المبدأ الذي يجب أن يكون أساساً لتعامل الناس وأصلاً للروابط فيما بينهم .

والحرية حق يقابله واجب وهو المسؤولية ، فإذا أساء شخص استعمال حريته بهضم حقوق الغير يكون مداناً ومطالباً بإصلاح ما أفسد كما ان الغير مسؤول عما يلحق به من الضرر .

ولا ينكر أحد ان منح الحرية لأمة هو من الأمور التي تحتاج لدقة المراقبة واطالة النظر لأنه يجب التدرج فيها والتدرب عليها شيئاً فشيئاً - ولذا يقال ان عنوان الحرية التي تمنح لأمة بحيث لا تنذر بضرر أو سوء هو درجتها من التربية ونصيبها من المعارف التي تضيء سبيل الحرية وتحيي الشعور بالمسؤولية - فالرجل

الذي لا يقدر نتائج اعماله ولا يدري حقيقة حاله نحـــكم بأنه لا يحسن استعمال الحرية .

لهذا ـ كان أهم واجب على الحكومة هو ان تدرب الامة تدريجياً على الارتقاء في الحرية عملاً بقول الحكماء : (ازدد نوراً أزدك حرية) وقال آخر : (أحسن الدرجة التي أنت بها أرفعك لغيرها) .

فالحرية تشبه السلاح ـ ان مسكته يد حازم كان فيها ماضياً وان تناولته يد جهول كان عليها قاضياً ـ وأنواع الحرية كثيرة .

منها حرية الفكر وهي أجـــل حرية فطر عليها الانسان ولا يمكن اعدامها أصلاً . فالفكر لا يقتل أبداً والمذاهب الصحيحة والآراء القوية لا تعدم حتماً .

ومنها حرية العمل لأن الانسان محتاج للسعي وراء الرزق طلباً لقوته وملبسه ومسكنه فيجب ألا يمنع ولا يحرم من قواه ومزاياه الشخصية ، بل يترك حراً في عمله ما دام لا يمتهن حرية الغير وما دام عمله ليس من الاعمال المحرمة حفظاً للأمن وحرصاً على الآداب العمومية .

ومنها حرية الاجتماع فـــلا تتم حرية الفكر ولا تقيد حرية البدن اذا لم يمنح الانسان حق الاجتماع باخوانه على مرأى من الأمة والحكومة مبادلة للأفكار في الشؤون العمومية حـــتى يتبين صحيح الأفكار من سقيمها أو طلباً لحاجاته حتى يتيسر لمن لا يجد في نفسه القدرة على القيام بعمل وحـــده أن يجد من اخيه ومواطنه نصيراً وظهيراً ، فحرية الاجتماع ضرورية لأن (الانسان مدني بالطبع).

ومنها حرية الاعتقاد وهي من أقدس الحريات اذ يتوجه الدين لأخلص شعور في الانسان فيخاطب اللب ويناجي القلب ويستصرخ العقل وهو المنقي للنفس من الشوائب والادران وهو الذي يرفع لأرقى الفضائل حيث يجد الانسان لذة واطمئناناً ـ يجد تسلية وتعزية في الحياة الحالية وأملاً وهناء في الحياة الاخرى ـ وانما تقيد هذه الحرية بألا يجبر أرباب دين أهل دين آخر على اتباعهم (لا اكراه في الدين) .

ومنها حرية اللسان او الخطابة وحرية القـلم او الصحافة ، وهذان النوعان من الحرية يرتبطان ارتباطاً تاماً بحرية الفكر والاجتماع فليس للإنسان فقط عقل

يفكر به بل له لسان يعبر عن تلك الافكار ويفصح عما يكنه الضمير ـ لهذا وجب ان يكون من حقه التكلم والمراسلة وكتابة ما يعن له من كتب وصحف اظهاراً لآرائه ونشراً لأفكاره اذ كل هذه صور للكلام البشري، وليس من حد لهذا سوى احترام حقوق الغير ـ فإذا أضرّ شخص جاره بكلامه او احدث هياجاً عاماً بخطابه فهو مسؤول عن خطئه معرّض للجزاء عليه .

وليس ثم اشد استبداداً وأكثر اعتسافاً مما وصلت به الحكومة لمحاربة الافكار ومكافحتها والتضييق عليها بهذا الحد من الظلم وبهذه الدرجة من القساوة حيث لا نسوّي بين الافراد بل تفرق بين الجمع ـ فلهذا قامت الحكومات الجمهورية والديموقراطية وبعض مشوية تناضل عن حرية الصحافة والخطابة امام المحاكم لما فيها من النفع متى حسن استعمالها .

ومما لا شك فيه ولا مراء ان الحرية من أجل النعم التي وهبها الخالق لنا ولا يجوز ان تقام في وجهها الحدود الا لباعث وضرورة، فكلما زادت الامة عرفاناً بحقوقها وواجباتها (بالتربية الوطنية) كلما خفت قيودها وقربت من الحرية الصحيحة. فعنوان درجة الامة من التهذيب هو ما تتمتع به من الحرية فقد قال (نومادروز) فقيد سويسرة : (ان من الدلائل الصادقة ان تقاس درجة الامة في التقدم والارتقاء او التأخر والانحطاط بمقدار نصيبها من الحرية التي تتمتع به أبناؤها) .

فالامة التي لها الحظ الاوفر من الحرية ولها أبناء يحسنون استعماله هي أرقى الجميع بلا خلاف مهما صغر اتساع أراضيها وقلّ عدد سكانها ـ فإن في ذلك قوة أدبية عظيمة تسمو بها فوق الممالك الاخرى وتضمن لها حياة طيبة وسعادة مرضية ، بل تحميها وتذود عن استقلالها اكثر من قوة المدافع والنيران .

وبالجملة ـ ان الحرية (من حيث هي) استقلال العقل والإرادة وانطلاق اللسان من قيد العبودية لاي شيء الا الله سبحانه وتعالى فهي واجبة له تبارك وتعالى لانه خالق الانسان وواهب له العقل وتنقسم الحرية بالتعريف الاعم الى حرية عمومية وحرية شخصية .

فالحرية العمومية تكافؤا الامة بالحق في مشاركة الحكومة بالرأي وتكافلها على قيام الشرائع والقوانين حتى لا يعبث بها عابث او تصرف على غير وجهها

المقصود تبعاً لاغراض النفوس وغلبة الشهوات عند الحكام، وقد قررتها الشريعة الاسلامية ولها من الاثر العظيم في ترقي الامم ونشر لواء العمران ما يشاهد عند الحكومات الاوروبية المعتدلة الآن ـ وما بلغ من المسلمين في الصدر الاول مبلغاً من القوة والمدنية والمجـد يقف دونه النظر حائراً والانسان مقراً بفضل شريعة وضعت هذه القاعدة منذ ثلاثة عشر قرناً للمسلمين .

ولم يتوصل إليها غيرهم من الأمم إلا في القرون الأخيرة بعد مكافحات شابت لها نواصي الولدان وانصبغت هامة المغرب بنجيع الإنسان .

والحرية الشخصية أمن الانسان على نفسه وعرضه وماله وتمتعه بسائر حقوقه الشخصية التي تخولها له طبيعة الاجتماع باعتبار كونه عضواً عاملاً فيه .

٦٤ ـ الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان ؟

أجل : إن الحرية هي استقلال العقل وانطلاق اللسان من قيود الاستعباد المطلق ومتى أخذت الحرية من ذلك وسطاً بين طرفي الافراط والتفريط حملت النفوس على الغيرة وبهت فيها حب العزة والكرامة .

والنفس الكريمة تأبى الاحجام وتنشأ على الاقـدام فتطلب جلائل الأعمال وتنبذ طرق الدنايا وتطرح راحة الاخلاد إلى المسكنة والذل ولا يصدر عنها أثر من آثار الحرية إلا مسبوقاً بالروية مقروناً بالفضيلة دالاً على الثبات لما تأصل فيها من الرزانة الناشئة عن عزة نفس، إذ من توابع العزة الرزانة والثبات وهما حياة الأمم ومبعث مجد الانسان وعكسها الرعونة والطيش .

وهذان الخلقان يلازمان طرف الافراط في الحرية كما يلازم طرفه الآخر وهو التفريط في الذل والمسكنة ـ والوسط بينهما هو الرزانة والثبات .

أنظر إلى بعض الشعوب الاوروبية الذي تناهي عنـدهم الآن الافراط في الحرية الذي دعا إلى التفريط بالفضيلة حتى انطلقت النفوس في ميدان الشرور وانغمست في الرذائل تحت اسم الحرية وأيضاً ما يصدر عنهم من الضوضاء والجلبة عند كل حادث سياسي وكل هذه أمراض وبائية ليس أسرع من تفشي ضررها في ربوع المدنية وفتكه فتكاً ذريعاً في الانسان ـ ولقـد أحس الغربيون ببلاء

الافراط بهـذه الحرية وما تأتي عنها من المضار التي أقلها انتشار الفوضى والاشتراكية في ربوع المدنية وتهديدها لها بالخراب والتدمير .

وأما المفرطون في الحرية فمثلهم مثل الأمم الشرقية التي فقدت مزايا الاستقلال العقلي وسيقت بعصا القهر سوق الانعام وناهيك به ذلاً قاتلاً للنفوس مميتاً للهمم مفقداً للإقدام نشاهده الآن بالعيان ـ لهذا جاء الاسلام هادماً لأركان الاستبداد ومرشداً لحرية العقل ليحمل المؤمنين على عزة النفس الداعية إلى الرزانة والثبات الباعثين على العمل الممهد لسبل المجد والسؤدد ـ وقد نال المؤمنون من ذلك حظاً لم تنله أمة من الامم حتى بلغوا من العزة مكاناً رفيعاً ، وإنما انحطوا الآن إلى درك الضعة لما علم من ان العزة ملازمة للحرية وقد فرطوا بها وخضعوا للاستعباد فاتخذوا أولياءهم أرباباً من دون الله ومن يدع مع الله إلهاً آخر فحسابه على ربه ﴿ ولن تجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ .

وبالجملة ـ فالحرية حياة الأمم ودعامة التمدين وأساس الرقي العقلي في هـذا الوجود البشري ـ وشرطها الاعتدال، وبه جاء الاسلام وبها عمل المسلمون زماناً قامت لهم به الدول وشيدوا دعائم العمران ونشروا راية العـلم وأخذوا بجماع القوة فهدموا بها بنيان الاستعباد وحطموا صروح الاستبداد فملكوا قلوب البشر واجتمع تحت رايتهم الشعوب على اختلاف عناصرهم وتباين مشاربهم ، قال عليه الصلاة والسلام : «لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

والعيان أعظم شاهـد وبرهان على ان الحرية الشرقية والحرية الغربية لا يستويان ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور ﴾ . وحرية الغربيين الآن يفرق فيها بين الشرقي والغربي والمسلم والنصراني ، بـل والبروستانتي والكاثوليكي ـ والحق فيهـا للقوة يسحق القوي بقوته الضعيف ويستهين بحقوق من عداه فمثل هذه الحرية تقابل بالسخرية والنبذ والاستهجان لأنها استعباد تأباه الانسانية والانسان ولا ينطبق على قانون الحرية في كل عصر وزمان .

٦٥ ـ المساواة وأثرها في الحضارة

إذا كانت الحرية عزيزة على الانسان فالمساواة لا تقل عنها معزة ، ولكن

وجوه مساواة كاملة تامة مطلقة في هـــذا العالم مستحيل إذ أن قوانين الفطرة ونواميس الكون أشد وأقوى من أن تذعن لسلطان إرادتنا ورغباتنا ـ فليس في قدرتنا ما يجعل أفراد البشر في مرتبة واحدة،وليس فينا ما يمنع وجود أناس أشد بأساً من غيرهم وأعظم قوة وأحد ذكاء ، إذ الناس رجلان ـ رجــل عرف كيف يسلك أحسن سبيل في الحياة ويتقن عمله فيه بحرصه على النظام ومحافظته على الاقتصاد ـ ورجل ضعيف صعب عليه جهاد الحياة والمزاحمة فيها فضل عن السعادة « وما كان من المهتدين »

وهذه الاختلافات التي لا محيص عنها الواقعة بـين الرجال واقعة بعينها بين الأمم ، فلا تتمتع جميعها بالنعم الوافرة والخيرات العميمة .

منها من تسكن الأقاليم المعتدلة فتنهض للعمل والسعي وراء الرزق فتنال أعظم نصيب من خيرات تتدفق ونعم تتوالى .

ومنها من تقطن الأقاليم المثلجة فلا تنعم لها حياة ولا يرغد لها عيش اذ قد تكون اكثر نصباً وتعباً وأكبر بلاء وعناء وأنقص كسباً ورزقاً وأقـــل جزاء وأجراً .

ومنها من تعيش في البلاد الحارة وليس عليها الا أن تتمتع وتعيش ـ فالحاجات مقضية والارزاق قريبة واسعة .

وهكذا في الاقليم الواحد كلما تباينت الاوضاع اتسع نطاق الخلاف ـ فالامم الجبلية وأمم الصحاري أكثر قناعة وأعظم بأساً وبطشاً من أهل البلاد المستوية أهل السهول والوديان ـ وكلها اختلافات اقتضتها ارادته تعالى ليس للانسان أن يعارضها ولا أن يقف أمامها ـ فما دام القطبان ما دام خط الاستواء ما دامت الشمس والظل والحرارة والبرودة ما دامت أرض خصبة وأُخرى قحلة .

فإن الاختلافات تبقى بين الرجال والأمم كالاختلافات الواقعة بين الحيوان والنبات .

وحينئذٍ فالمساواة الحقة هي التي يتيسر للانسان الحصول عليها هي الكافلة لحاجات الجميع جهد المستطاع ـ هي المساواة في الحقوق وتتنوع الى أنواع .

منها المساواة أمام القانون (لا فرق بـين فقير وغني) بحيث يكون القانون

واحداً للجميع . والمتأمل يجد أن الشريعة الاسلامية وضعت المساواة أساساً في العبادات والمعاملات .

وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى أبي موسى الاشعري يقول له : « سوِّ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا ييأس ضعيف من عدلك ولا يطمع شريف في حيفك » . ولكن من ألقى نظره للعهد القريب لا يجد أثراً لها في بلادنا .

فقد عرف عندنا المماليك مرة والشراكسة أخرى ، كان الحاكم مفهم أمة بتمامها . وكانت الابناء منهم تتولى أمور الناس وراثة عن الآباء فلم يحتاجوا لأن يبرهنوا على كفاءتهم وسعة معارفهم حيث ميزهم القانون ورفعهم فلا تمسهم نوائب الحدثان ولا طوارىء الازمان .

ولا شك ان كل هذه المؤلمات المبكيات مما يناقض العدالة وينافي المساواة ـ ولذا وجب على كل ذي شعور حي أن يعمل لإزالة هذه الفروق والامتيازات ومحو هاته الدرجات .

ومنها المساواة في التعليم فبعد أن تمنح الامة أبناءها المساواة في الحقوق يجب عليها أن تبعث : ١ ـ روحاً تعدد لديهم المطالب وتزيد آمالهم اتساعاً . ٢ ـ روحاً تمكنهم من الوصول الى مساواة أرقى . ٣ ـ روحاً تمحو كل امتياز اجتماعي غير عدل وتلك الروح هي (التربية) فالفقير يحسن مستقبله بها كما يسوء حال الغني اذ عدل عنها .

ولكن المساواة المطلقة في التربية متعذرة حيث تتفاوت المدة التي يخصها كل فريق للتعليم ـ انما تكون المساواة في العلوم والمعارف الضرورية التي يلزم كل وطني الالمام بها .

ومنها المساواة في العمل وهي جعل كافة الوظائف مفتوحة للعموم ـ فلا احتكار ولا التزام ، فالغني والفقير سواء في حرية العمل اللهم الا حدوداً مفروضة حرصاً على الآداب او الامن العام ، وأما وظائف الحكومة فلا تعطي الا لكل ذي أهلية واستحقاق .

ومنها المساواة السياسية وهي تخويل الحق لكل فرد أن يعطي رأيه في

تدبير الحكومة ويرفع صوته في جلّ المسائل العامة .

فالصوت العام وإن كان له عيوب وأوجه نقص إنما هو أفضل نموذج وأحسن أسلوب تهتدي بـه الحكومات لسلوك أحسن سبيل في السعادة ، فالمستقبل في الحكومات له وحده .

ومنها المساواة في الواجبات ـ فكل وطني عليه واجبات نحو عائلته ووطنه عليه لذويه الغذاء والنفقة والتربية والتعليم ، ولا يمكن إعفاء أحد من هـذه التكاليف التي تكلفنا بها الطبيعة وتدفعنا إليها الغريزة ـ وعلى الإنسان لوطنه تكاليف .

ومنها خدمة العسكرية ودفع الضرائب فكل مطالب بهذا الواجب حسب قوته وثروته .

ويجب أن يكون القانون عادلاً في هذه المسائل نافذاً على كافة الاهالي ، إنما يختلف باختلاف أحوال الرعية ، فمن كان أوسع إيراداً دفع مبلغاً من الضرائب ، ومن كان ضعيفاً أعفى من الخدمة العسكرية ـ ولكن متى اتحدت أحوال الناس وظروف معاشهم تساوي الجميع أمام القانون .

٦٦ ـ الاخاء ضروري للبشر

إن الناس إخوة تتقاسم الأحزان ، فتتعاون عند كل ملمة ويغرس في القلوب من حسن الشعور وشريف العواطف ما يوجه الأفئدة لمساواة الاخوان ومحاسنتهم ويبين ان الدقة في المعاملة وعدم التساهل والضبط في الحقوق وعـدم التسامح يؤديان إلى حب الذات مع ان كمال الانسان في كرم النفس وطهارة الروح .

هـذه المؤاخاة دعت الغني لبذل المال تخفيفاً لآلام الفقير وبعثت القوي لمساعدة الضعيف ، والسليم لعيادة المريض وتقوية آماله ، ولهـذا رأينا الأفراد تتعاون على إقامـة دور البر وأماكن الخير (ملاجىء) للفقراء ومستشفيات للمرضى وبيوت لتربية الاطفال ومآوي للمجانين وغيرها ـ واستمرت هـذه الاعمال الخيرية عدة قرون ـ ولا نصير لها غير أيدي المحسنين .

ولم تتنبه الحكومات لهذه المسائل إلا في العهد الأخير (ما عدا الحكومات

الإسلامية فكان بيت مال المسلمين فيها منشأ لهـذا الغرض) فقد اعترفت (بأن عليها واجبات للفرد وله عندها حقوق) ، فعلى الحكومة التي ترعى حقوق بنيها وتسعى وراء سعادتهم أن تقبل من يعثر منهم وتواسيه وتشارك المصاب وتؤازره وتأخذ بيد الضعيف وتخفف عنهم ويلات الزمان ونوائب الحدثان بجميل الشفقة والرحمة بطريق الاعتدال .

والذي يستحق المعونة ـ إما صغير تحفظ ثروته أو كبير متلف لماله أو فقير أو عجوز أو مريض أو عامل ضعيف .

فالصغير ـ للحكومة الحق في معاقبة أبيه إذا أساء إليه بحرمانه من الحقوق العائلية، ولها أن تنصب القوام والأوصياء لحفظ أموال الصغير القاصر أو الكبير المبذر السفيه أو المعتوه .

ومساعدة الفقير بأن تفي الحكومة بنفقته متى تحقق لديها عجزه عن أي عمل يؤديه ، وإلا إذا أعانت كل فقير تكاسل الناس وانصرفوا عن أعمالهم إلى (تكاياها) حتى تنفق عليهم وأولادهم ـ وهذا مما يثبط همم العاملين المقتصدين ويخمد عزائمهم حيث تثقل الحكومة عليهم الضرائب ليتيسر لهـا الانفاق على هؤلاء الفقراء وبهذا يحرم العاملون من ثمرة تعبهم فينال العقاب من استحق الثواب.

وعلى الحكومة مساعدة الطفل الذي نبذه أبواه في الطرق بغير ذنب اقترفه ـ وعليها أيضاً أن تقيم المستشفيات العامة للمرضى والملاجىء للأطفال والمآوي للعجائز الذين أقعدهم الكبر وعائلات الجنود الذين استشهدوا في ميادين الحروب وأن تعتني بإيواء المجانين ومراقبتهم وحمايتهم .

والعامل الضعيف نصرته محتمة على الحكومة التي هي وصية الضعفاء بحيث تتخذ الاحتياطات اللازمة والتدبيرات الضرورية لمنع وقوع الحوادث في المناجم والمعامل وغيرها كالانفجار والحرائق والتهدم ـ فتلزم (المدير) بما يتلف صحة العملة أو يفقد أحدهم الحياة وتحديد ساعات العمل وتعيينها رفقاً بهم ورحمة .

وبالجملة أن التسامح والاعتدال يحسمان كثيراً من المنازعات ويفضان أبواباً من المشاكل في الأمة وهما يستلزمان الشعور باحترام حقوق الغير وآرائهم ومعتقداتهم الدينية والسياسية، وان من أنفس المبادىء الأدبية التي تحث عليها الأديان وترفع

صوتها من أجلها الحكماء هي « حب لأخيك ما تحب لنفسك » و « عامله بما تحب أن يعاملك به » .

٦٧ ـ الاجتماع ضروري لنوع الانسان فما يلزم لصلاح هذا الاجتماع

ان الإنسان لا قدرة له على استيفاء حاجياته الضرورية بمفرده ولا استطاعة له على تكميل لوازمه الذاتية بنفسه، بل لا بدّ لهمن معاونة ومساعدة قوم كثيري العدد يتمم بهم ما ينقصه ويكمل ما يحتاج إليه في حياته .

فالمعاشرة لازمة بحكم الضرورة فما خلق الانسان ليعيش وحيداً لأنه بطبعه لا يمل إذا لم يجد بجانبه أنيساً يحادثه ـ ولذلك سمي (إنساناً) او جليساً يبث اليه شكواه او صديقاً يواسيه ويسليه .

فلا صديق اليه مشتكى حزني ... ولا أنيس اليه منتهى جزلي

وقد قال بعض حكماء الافرنج : (ماذا تعمل النفس الوحيدة حتى في الجنة) وذلك مصداق لقول شاعرنا العربي أبي العلاء المعري :

ولو أني حُبيت الخلد فرداً ... لما أحببت في الخلد انفرادا

فالإنسان للإنسان كاليد تتوسل باليد ، والعين تستعين بالعين ، بل هو ساعد وعضده (وان الذليل الذي ليست له عضد) .

قال ابن مسكويه : إذا كان الانسان محتاجاً إلى غيره بالطبع فكيف يؤثر الانسان العاقل العارف بنفسه التفرد والتخلي ولا يتعاطى ما يرى من الفضيلة في غيره ، وقد أخطأ الذين رأوا أن الفضيلة في الزهد وترك مخالطة الناس بملازمة المغارات في الجبال وبناء الصوامع في المفاوز ، فقال انه لا تظهر فيه العفة ولا النجدة ولا السخاء إذ القوى تصير باطلة فلا تتوجه لا الى خير ولا الى شر وإذن يصيرون بمنزلة الجمادات والموتى من الناس ولذلك هم يظنون انهم اعفاء وليسوا باعفاء وانهمعدول وليسوا بعدول فإنما الفضائل افعال وأعمال تظهر عند مشاركة الناس ومبادلتهم صنوف المعاملات وضروب الاجتماعات .

وبديهي ان في الانفراد اخلالاً للنظام وتحليلاً للمجتمع وتقويضاً لدعائمه، فإنما

المجتمع كجسم انسان كل فرد منه بمنزلة عضو من اعضاء البدن وقوام البدن بتمام اعضائه .

فإذاً الاجتماع ضروري وعن الاجتماع تنشأ المعاملات ويضطر الناس للأخذ والعطاء وتبادل المنافع ـ ولذلك كان للتكافل اركان هي الألفة بين الناس ـ والعدالة فيما بينهم .

أما الالفة فوجه لوازمها انها اذا تمت نشأ عنها التعاضد والتوازر والتضافر والتظافر والتناصر والتألب والائتلاف والاتحاد وصار التعامل بينهم على احسن نهج واقوم منوال فانه لا تعامل الا بين متآلفين ، واذا تآلفوا وتحابوا اتفقت مشاربهم واتحدت أغراضهم وابتعد عنهم النفاق وانعدم الخلاف الذي هو أصل كل بلاء وأس كل شقاء، واذ ذاك تنشأ الثقة بينهم ويحصل الأمن في تبادل المنافع فيقوون على نيل الخيرات وينهضون لاستخراج الغوامض وابراز المخترعات وتستسلم لهم الصعاب وتدين لهم المطالب على اختلاف انواعها طوعاً او كرهاً ، فان ما هو عزيز المنال صعب المرام بالتعاون والمساعدة والتناصر يصبح ميسوراً قال سقراط الحكيم اليوناني : (اني لأكثر التعجب ممن يعلم اولاده اخبار الملوك ووقائع بعضهم ببعض وذكر الحروب والضغائن ، ومن انتقم او وثب على صاحبه ولا يخطر ببالهم امر المودة والالفة وما يحصل من الخيرات العامة لجميع الناس بالمحبة والأمن وانه لا يستطيع احد من الناس ان يعيش بغير المودة وان مالت اليه الدنيا بجميع رغائبها، فان ظن احد ان امر المودة صغير فالصغير من ظن ذلك ـ وان قدّر انه موجود ويسير الخطب يدرك بالهوينا فما اصعبه وما اعسر وجود صداقة يوثق بها عند البلوى) .

وأما العدالة فلأنها حياة المجتمع وروح العمران فاذا انعدمت من أُمة اسرع اليها الفناء وحلّ بها الدمار حتماً، فتتقهقر وتتلاشى شيئاً فشيئاً حتى اصبح أثراً بعد عين ـ ألا ترى انه اذا ساد العدل استتب الأمن العام وتوطدت اركانه، واذا ما استتب الأمن العام اطمأنت النفوس وهدأت القلوب وارتاحت الخواطر فأمن كل فرد على نفسه وماله وعرضه ـ ألا ترى انه اذا انتشر العدل امن الضعيف جور القوي والصغير حيف الكبير وعاشوا اخواناً ، وحينئذٍ تحيي الآمال وتقوي العزائم وتنهض الافكار وتنتشر الهمم ويكثر العمران .

وينقسم التكافل الى تكافل عائلي ـ وتكافل اجتماعي .

فالتكافل العائلي هو مشاركة ذوي القرابة في الخيرات ومعاونتهم في السراء والضراء وتضافرهم في تدبير أمورهم المعيشية ولوازم حياتهم فيقوم الرجل بتحصيل الغذاء وتقوم المرأة بتدبير المنزل ، ثم يتعاونان الاثنان على تربية اولادهما وتثقيف عقولهم ـ وايضاً يجب على كل من كان قادراً على الكسب ان يساعد غير القادر عليه من ذوي لحمته ـ فعلى الابن مساعدة ابيه الذي اوهنه الكبر والشيب اهرمه او الذي منعته عاهة واقعده داء عضال كالمزمن والمقعد والمفلوج وغيره كما انه يجب على كل فرد مساعدة اقربائه البائسين منهم والفقراء والمعوزين ، قال تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « تعلموا من انسابكم ما تصلون به ارحامكم » .

والتكافل الاجتماعي اعم من الاول وهو قيام كل شخص بوظيفة وتأدية كل عمل من الاعمال الدنيوية ـ يستوي في ذلك الكبير والصغير والأمير والحقير والغني والفقير ، فالملك يسوس البلاد بعدله والوزير يدبر شؤون المملكة بحزمه والمشرع يسن القوانين واللوائح والمهندس ينظم والطبيب يعالج العلل والفلاح يفلح الأرض . وهكذا من احقر عامل لأكبر مخلوق تكون بينهما الحركة دائمة متواصلة والعمل مستمراً ،ولا يخطر ببال احد ان هناك عملاً حقيراً وآخر عظيماً فكل ما يؤدي الى المجتمع فهو نافع لاعضائه ، والكبير يترتب على الصغير ـ اذ المجتمع كجسم انسان لا يقوم إلا اذا قام كل عضو بوظيفة خاصة بـه فالعامل البسيط قد يرشد أمته الى طريقة جديدة لإتقان اي عمل حقير صغير لا يقل في السعادة والمنفعة عن اعظم رجل اتى بما جعل شهرته تطبق الآفاق لأن كليهما قد افاد بني نوعه ـ فسعداً لمن كانوا مفيدين لبني نوعهم فقد ادوا وظيفتهم في الوجود ، فماتوا مرتاحي الضمير مطمئني الخاطر مكتسبين ثناء الجميع وعرفانهم بفضلهم ـ وسحقاً للمتقاعد الذي يعيش عـالة على غيره ، وما اكفره بالنعم لا يقاسم ابناء جلدته الاتعاب ولا يشاركهم في الاعمال ، بل يكون كما قال الامام علي : « كالبهيمة المربوطة همها علفها او المرسلة شغلها تكترش من اعلافها وتلهو عما يراد منها » .

وبالجملة ـ اذا اراد الله بأمة خيراً ووفقهم الى اعمالهم وتم فيهم التكافل تمت

لهم بذلك السعادة وارتقوا إلى أسمى ذرا الكمال وبلغوا شأواً لم يبلغه غيرهم في كل آن ، أما إذا اتكل كل على غيره وانتظر كل شيء من غيره ولم يعمل لغيره ما استطاع ، انحطت مكانتهم وذهبت ريحهم ورموا بأنفسهم إلى الهلاك ـ فإذاً الأمة تتبع في رقيها وانحطاطها مقدار ما تمهدها إليه نفوس أفرادها المكونين لها.

٦٨ ـ الاستقلال ـ وأثره في نفوس الأمم والشعوب

الاستقلال كلمة غالية ولفظة عالية تهتز لها القلوب فرحاً وسروراً وتميل إليها الأعضاء شفقة وانعطافاً وتطأطىء لها الرؤوس خضوعاً وخشوعاً وتتقبلها الأفواه لثماً وتقبيلاً .

فسعادة الأمة متعلقة بعيشها في بلادها على الوجه الذي تريد وتختار ، فلا تقهر على الخضوع لقوانين أجنبية أو على التخلق بعوائد غير وطنية .

والأمة المستقلة هي صاحبة السيادة التامة في بلادها وهي التي تتصرف بحرية في تدبير شؤونها وسن قوانينها ، بل هي بيدها حظوظها وبيدها مستقبلها ـ فلا يسوغ لأجنبي التداخل في شؤون الأمة المستقلة بحال من الاحوال مهما قل عدد السكان فيها أو صغرت مساحة أراضيها ـ فالأصل إذاً في الأمور ان كل أمة تستقل في شؤونها استقلالاً داخلياً ـ يشعر العامي في نفسه بذلك فيقول : (كل واحد أمير في محله) ، ولكن من الحزن المؤلم أن نرى كثيراً من الأمم غير مستقل بأموره ، تلك أمم مرت بها ظروف وألمت بها حوادث وأسباب أوقعتها في يد الأجنبي وتحت نيره وحملها سوء استبداده .

ومعلوم ان الأمم التي لا نراها اليوم في هذا العالم لم تكن على الدوام بالحالة التي هي عليها الآن ، فمنها ما اتسع نطاقها ومنها ما ضاقت املاكها ومنها ما تلاشى وانتهى أمره فانقطع شأنه في التاريخ ، وبتتبع تلك التغيرات ترى الأمة تعمر وتتقدم ما دامت وطيدة الدعائم ما دام فيها الشعور متحداً والمبدأ واحداً ـ وأن الأمة التي تنقرض وتتلاشى هي المتفرقة أفرادها الفاسدة آدابها ـ وأن تكون الأمم الحالية لم يكن على نسق واحد وعلى وتيرة واحدة ، حيث ان بعضها حسن خلقه فكتبت له السعادة، وبعضها بني على غير أساس متين فكتبت عليه الشقاوة والتعاسة . وإن أشد هذه الأمم عصبية وأطولهم دولة وأعزهم

سلطاناً هي التي لا يقتصر في توطيد دعائمها على مصالح الأفراد العامة ، بل على المشاعر والخواطر الواحدة ، فـإن الروابط القلبية العقلية أمتن وأبعد انفصاماً من الروابط المادية إذ يتجه بهـا حظ الأمة نحو السعادة نحو البأس والمنفعة والشوكة .

وقصارى القول ان العالم في تغير وتحول متواصل في تقلب وتبدل مستمر ، فان الأمة تبدو صغيرة وتنشط عزائمها للعمل وتتحد مطالبها فيزداد بأسها وتعظم شوكتها وتصبح أمة عظيمة معززة الجانب ،ثم لا تلبث أن يدخلها الغرور ويملأها العجب فتهمل شؤونها ويطأ قدمها باب التنعم والرفاهية فتحيط بهـا ظلمات تكون بلاء وعناء لا تسلم من مرضه ، بل ربما قضى عليها تلك سنة الله في الأرض يسميها الحكماء (قانون التاريخ) فمـا يحصل من التغيرات في قرن واحد ليس بالقليل ـ فليتيقظ من يقول : (كما مرَّ اليوم يمرُّ الغد ـ غدي كأمسي) وليتعظ بأن هناك تغيراً يقوم بالأمة في يوم كشروق الشمس وغروبها . وأنه قـد تكون الدقيقة الواحدة سبباً لسعادة الحياة أو علة لشقائها .

وبالجملة ـ انه لا يسوغ لأمة أن تتصرف في أُمة أُخرى بمـا يخالف اختيارها وإرادتها ، فالسيادة الداخلية للأمة محترمة لا يجوز التعدي عليها ـ اللهم إلا إذا سارت الأمة في طريق ممقوتة طريق تجعلها أبداً مهددة لراحة الأمم واطمئنانها فحينئذ يسوغ التداخل في شؤونها فيجوز اخضاع قبيلة وحشية تعيث فساداً في أرض جيرانها من قتل وحرب وسبي ونهب ـ وكذا إذا اعتادت أُمة السلب في البحار فللجميع الحق في ردعها لأنها تهدد البحر طريقهم العام ـ إلى غير ذلك مما يخل بالآداب واستتباب الأمن العام .

٦٩ ـ ومعظم النار من مستصغر الشرر

يلزم العناية بصغير الاشياء قبـل عظيمها وقبل أن يتسع الخرق على الراقع ويتسرب الإهمال فيصبح الشيء الصغير كبيراً يحتاج إلى عناية ومجهود لإخماده وإزالة ضرره . ورب حادثة صغيرة أثارت حربـاً عواناً حمي وطيسها واشتد خطبها وزاد لهبها وطالت أيامها واستحصدت فيها الرؤوس وقصرت الآجـال وأهلكت الحرث والنسل ، وكان يمكن تدارك اطفائها وإخماد نارها بكلمة طيبة أو إجابة سؤال بالتي هي أحسن .

والأمة إذا أهملت صغار أُمورها تولد من ذلـــك كبارها واضمحلت وسار الفساد في بنيها واختلفت كلمتها وانحطت شوكتها وطمع فيها أعداؤها، فالزارع إذا أهمل في سقيا أرضه أعوزته الحاجة وحصد محصولاً قليلاً جزاء تقصيره ، والموظف إذا ترك عمـلاً ضئيلاً ولم ينجزه في وقته تمر عليه الايام فتتراكم أعماله ويقع تحت مسؤولية التأخير وربما عجز عن تأديتها لكثرتها . وكذا المريض اذا أهمل في ابان سقمه ولم يعالج زاد ألمه وربمـــا استعصى علاجه وبعد برؤه لأن الدواء يكون نفعة قريباً قبل استفحال الداء .

٧٠ ـ الرياء وأثار ضوره في النفوس الكريمة

الرياء خصلة ذميمة تدعو الى النفاق وسوء الاخلاق ورداءة التمويه والخداع ـ والمرائي الذي يخادع الناس ويداهنهم هو حقير عندهم رذل سيء المعاملة كثير الخطأ كاذب القول لا يوثق به قبيح الفعل .

ثوب الرياء يشفُّ عمـا تحته فاذا التحفت بـه فانك عاري

وكثير التملق وعابد الوثن مثلان في القبح والضلال واساءة الاعمال ، فاذا كان عابـــد الوثن يشرك بالله ويعبد من دونه عز وجل ما لا ينفعه ولا يضره كذلك الملاق المنافق يتخذ من الناس الهـاً يظهر له المحبة والنفاق مهما كلفه ذلك من اضاعة الأدب وفساد الاخلاق وسوء التربية والوشاية والغيبة والنميمة والاذى.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم

قـــال الاحنف : « لأن ابتلى بألف جموح لجوج أحب اليَّ من ابتلى بمتلون واحد » . ذلك لأنه على باطل ومنطو على الاذى، والحق أبلج (يتردد دون أن ينفذ) فينكشف عن ود كاذب وباطن فاسد وضمير سوء فهو صديق عين وعدو غيب .

والنفوس العالية التي تربت تربية حسنة تتنزه عن الرياء وتترفع عـــن الملق والمداجاة ، قـــال ﷺ : « ان شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » . وقـال تعالى في ذم صاحب الرياء : ﴿ همّاز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم ﴾ .

٧١ - أثر المحاباة والرشوة في المجتمع الانساني

المحاباة خصلة ذميمة وسوس ينخر في عظام العمل واتمامه على الوجه الاكمل والمحاباة ربما تقدم الجاهل على العالم والعاجز على القادر والكفء المستحق. والمحابي ضار لبلاده خائن لوطنه لأنه يفضل قريبه أو صاحبه أو من يقدم له رشوة على الاكفاء العاملين ويزف اليهم المناصب العالية والرتب السامية ولا يخشى رقيباً أو عقاباً حباً في الذهب والفضة وميلاً الى اكتساب مودة الاقربين وان اختل النظام واعتل العمل وتأخر الوطن. والمحاباة تجلب البغضاء والشقاق في نفوس أبناء الامة وتبعث على الجبن والكسل اذ يجد العامل المتقن والمجتهد المتفنن محاباة تؤخره وتضعه وتقدم من دونه في العمل والذكاء والمحاباة تجلب سوء العاقبة وتفسد النظام والقوانين، وهي من اخلاق السفلة الذين لا يخافون الله ورسله ولا يتقونه في أبناء الامة المجدين الذين يعملون عملاً صالحاً متقناً بمهارتهم وثاقب فكرهم وعلو مداركهم وهي تجر الى الظلم وتدعو الى الخيانة والمذمة وخلف الوعد والذل والإستكانة وتبعد الرئيس عن مرؤوسيه وتخلق الشقاق والنفاق وسوء الاخلاق.

٧٢ - الوقت نقد

حكمة جليلة ترشدنا الى أن الوقت ثمين وغال يجب ان نحافظ عليه فلا يضيع في اللهو واللعب، بل في الجد والعمل وطلب العلا ودرك المراد ونيل المطالب فالعاقل اللبيب من ينفق عمره في الصالحات الطيبات والعمل الخالد الذي يكسبه الذكر الحسن والصيت الشريف واذا أسند اليه عمل قام به خير قيام وأتقنه وأدى واجبه ولم يهمل فيه ولا يؤخر لتحبه رؤساؤه وتحترمه أصدقاؤه.

دقات قلب المرء قائلة له ان الحياة دقائق وثوان

لعمري ان الوقت نفيس، وأنفس منه ان توجد فيه أعمال الخير وتكتسب العلوم والمعارف وتحصل الإفادة والاستفادة وتنتشر التجارة لتربح ربحاً وافراً وترقي الصناعة وتؤلف المؤلفات وتخترع المخترعات وتنجز الاعمال ويتسابق العاملون في ميدان الفخر والعز والمجد ـ والمحافظة على الوقت من صفات

الصداقة والامانة والوفاء بالوعـــد وقوة الإرادة والعزيمة والحزم ، لان المهمل ضعيف النكاية وقليل العزم يضر نفسه وغيره باهماله وكسله ، ويذهب وقته بـلا فائـدة وتنحط منزلته عند رؤسائه وتكرهه اتباعه وتعده الناس مخاتلاً جباناً خبيث النفس كسلان وعيشه نكد لا رغد فتراه دائماً في شقاء وبؤس ـ أما من يحافظ على وقته فنشيط وسعيد وفرح وعيشته راضية .

٧٣ ـ مقارنة بين أيام السلم والحروب

أيام السلم رخاء وسعادة ويمن ويسر وعمل وكد واختراع وجد وتجـــارة وصناعة وزراعة ، ويذهب العامل الى مقر وظيفته ومعهده وحانوته قرير العين منشرح الصدر ساعياً على معاشه وتحسين حاله وجلب قوته وأداء واجبه . وأما أيام الحرب فشقاء وبؤس وعناء ودماء مسفوكة واموال ضائعة واعمال معطلة وثمرات قليلة وتجارة كاسدة وصناعة واقفة وفاسدة وتدمير وتخريب وضنك وفقر ونيران تتأجج ومدافع تـــدك الحصون وطيارات ترمي شظايا النار ورصاصات تخترق الصدور وسوائل محرقة وقذائف مخربة وغواصات ونسافات وطرادات وحراقات وبارجات . فالحرب توقع العـالم في عسر وضيق وتسبب التعذيب والتنكيل والأسر ـ لم يسلم من ضررها أحد ، وتجلب غلاء الحاجيات وتزيد سعرها أضعافاً مضاعفة وتصرف الناس عن أعمالهم الخيرية إلىقتال بعضهم وتدمير بيوتهم وحرق مصانعهم إلى غير ذلك من المصائب ـ وقـد قال ﷺ : « لا تتمنوا لقاء العدو وصلوا الله العافية » .

٧٤ ـ من لم ينظر في العواقب فليس الدهر له بصاحب

الحازم من نظر في العواقب وتأنى فيعمله وفعل بروية وتؤدة وفكر فيخواتيم أعمال وعرف المورد والمصدر وعجم عيدان العمل قبل الاقـدام عليه والدخول فيه ليأمن المكروه ويضمن النجاة ويقرب من الرشاد وينطق بالحكمة والحق .

واحزم الناس من لو مات من ظمإ   لا يقرب الورد حتى يعرف الصدرا

ويقولون : « من تأنى نال ما تمنى » لأن الاناة من صفاة الكمال وضرب من ضروب رجاحة العقل وحسن التدبير وعلو الآداب وسمو التربية. والقائد الحازم

المدبر من يفكر في أمره قبل اقتحامه ويعرف عواقبه قبل اجتيازه ويلتمس طريق النجاة قبل النزال ومقارعة الابطال، والامم الراقية دأبها التأني في أعمالها ليعز شأنها ويعظم سلطانها وتقوي حكومتها وتعيش آمنة سالمة من أذى جيرانها سديدة الرأي ـ والأمة الطائشة يغلظ لسانها ويزل جنانها ، فلا تحكم الرأي فتنتابها الحوادث ويطمع فيها العدو ، والقائد العجل يقتحم غمار الحروب بلا تفكير وتؤدة ، ولا يفكر في عواقب إقدامه ولا يعلم مكامن عدوه وعدته وحصونه فيهزمه عدوه ويصبح أحمق مخذولاً مدحوراً مهما كانت قوته .

٧٥ ـ النظام والترتيب يتوقف عليهما العمران

من أراد أن يكون عمله متقناً فليكن النظام رائده، لأنه يدل على كمال العقل وترتيب الفكر وحسن الرأي وجودة العمل ووراءه الخير واليمن والسعادة وبه تنجز الأعمال ، وهو يكون في العمل والمأكل والمشرب والملابس والمنازل والمصانع والمعاهد ، فمن ينظم ملابسه يحترمه رؤساءه وترضى عنه أصدقاؤه ، ويكون موسوماً بحسن الخلال وكرم الفعال ومن نظم أكله سلم من جميع الامراض وبعد عن العلل ، ألا ترى ان النفس ترتاح للبيت المنظم أثاثه ، وتتقدم المعاهد التي يرفرف عليها شارات النظام وحسن الترتيب، وتروج التجارة وتنشر الصناعة في الحانوت المنظم وكل موظف يرتب أعماله ويحسن أفعاله ويجيد ما أسند إليه ويقوم به خير قيام ساد وارتقى وأحبه الناس وبلغ منزلة عالية . فللنظام دلائل حسية على بلوغ الكمال لمن تحلى به ، ومن سار بغير نظام هوى كوكبه وأفل نجم عمله وانحط قدره وضاع زمنه بلا ثمرة تجني وظل عرضة للهزء والسخرية وباء بالخيبة وتحوطه المخاوف وتساوره الهموم لأن فكره معتل وفعله مختل .

فالنظام جميل وأجمل منه أن ترى آثاره بادية تتجلى للناظرين بترتيب أنيق رشيق يبسط النفس ويجلب الانس .

٧٦ ـ وصف الكتاب

الكتاب نعم الانيس في الوحدة والرفيق في الخلوة يمتعك بجميل مواعظه ويهديك بجليل فوائده ويرشدك الى طريق الخير ومسالك البر ويبين لك الضار

من النافع ويشرح لك احاديث السالفين وقصص الأولين تستعيد بـه العصور الماضية والأيام الخالية وتبعث بـه رفات الماضين وأجساد الغابرين فتجعل منهم رجـالاً يخطبون ويعظون ومرشدين ينطقون بلآلىء الحكم وبديع الكلم وكأنما انت بجانبهم تسمع وترى .

مـا تطعمتُ لذة العيش حتى | سرت في وحدتي لكتبي جليسا

أدخل مكتبك تر أصدقاء قـد تباينت اعمارهم ، وتقادم عهدهم وتبلبلت ألسنتهم العربي منهم الى جانب العجمي ، والرومي بجوار الهنـدي إن دعوتهم أجابوك وإن أقصيتهم لم يعادوك ، تخاطب من تشاء فلا يأبى عليك حديثك ولا تأخذه العزة في مخاطبتك لا يخفي عنك آراءه الثاقبة وأفكاره السامية ، ثم انت لا تتكلف لهؤلاء الاصدقاء إلا حجرة يأوون إليها او قمطراً يستترون به ، فهم في ضيافتك الى ما تشاء ، ترجع إليهم فيما ينوبك وتسترشد بهم في خطوبك .

اجعل انيسك دفتراً في نشره | للميت من حكم العلوم نشور
فكتاب عِـلم للأديب مؤانسٌ | ومؤدّب ومبشرٌ ونذير
ومعيد آداب ومؤنس وحشة | وإذا انفردت فصاحب وسمير

وصفوة القول ان الكتاب معـلم ماهر وطبيب بارع وصديق ناصح لا يريد منك جزاء ، ولا يكلفك شكراً مع غزير مادته وبالغ حكمته وناجع نصيحته .

أشر مكان في الدنا سرج سابح | وخير جليس في الزمان كتاب

فتخير الكتاب كما تتخير الصديق فهو قوام ادبك وعماد فضلك وملاك امرك .

في طيه غرر الآداب قد نقشت | وفي صحائفه للكون اسرار
أوفى من الناس عهداً في صحابته | نعم الرفيق على الأيام والجار
ولي جُلساءٌ ما املّ حديثهم | ألباء مأمونون غيباً ومشهدا
إذا ما اجتمعنا كان حسن حديثهم | معيناً على دفع الهموم مؤيدا
يفيدونني من علمهم علم ما مضى | وعقـلاً وتأديباً ورأياً مسددا
فلا رقبة اخشى ولا سوء عشرة | ولا اتقي منهم لساناً ولا يـدا

فإن قلت احياءً فلست بكاذب   وإن قلت اموات فلست مفندا

٧٧ ـ ما هي الصفات التي تحب أن يتصف بها صديقك

الإنسان في حاجة إلى اصدقاء يعينونه في شدتـــه ويشاطرونه السرور في رخائه ، وكلما ازداد عدد اصدقائه احسن بسعادة في الحياة وراحة في النفس .

عاشر اخاً ثقـــة تحظى بصحبته   فالطبع مكتسب من كل مصحوب
كالريح عاصفة مما تمر بـــه   نتناً من النتن وطيباناً من الطيب

فالأصدقاء هم الاعوان في النائبات والعدة في الملمات ، وأولى الناس بالغبطة من عمر ربعه باخوان الصفا وخلان الوفاء .

وليس كل الناس ممن توفرت فيهم الفضائل وتمكنت في نفوسهم المروءة . فلا بدّ لمن يتخير منهم الاصدقاء ان ينقدهم نقـــد الدراهم ويبلوهم في الشدائد فانها مسبار الرجال ، وان يميز بين وضيعهم وشريفهم ، فمن عُرف بين الناس بالمروءة والوفاء والشرف وصدق العهد وكرم الجار فهو الجدير بأن يتخذ صديقاً ويصطفي خليلا .

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الاردى فتردى مع الردى

امـــا من يعرف صاحبه في الرخاء وينكره في الشدائد ، فذاك الذي يخدع الناس بمظاهر خـــلاب ولسان عذب ، ولكنه يخفي وراء ظاهره باطناً مظلماً وضميراً خرباً لا تستقر في جوانبه مودة ولا تطمئن الى البقاء فيه صداقة . ولقد احسن القائل :

جزى الله الشدائـــد كل خير   عرفت بها عدوي من صديقي

ان الصديق الحق والأخ الوفي هو من يواسي في الشدة وينفع في الملمـات ويسر لسرور صديقه ويحزن لحزنه ، وهو كما قال الشاعر :

ان اخاك الحق من كان معك   ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك   شتت شمـــل نفسه ليجمعك

٧٨ - سرك أسيرك

السر هو الخبر الذي تستودعه عند صاحبك وتدخره عند صديقك فأحر به ان يحله من نفسه مكاناً حصيناً ، وان يحتفظ به فلا تحدثه نفسه يوماً ما باذاعته ليكون حفيظاً اميناً .

ان افشاء السر خيانة كبرى وجريمة لا تغتفر فانه قد يكون سبباً في وقوع مودعه في المخاطر ومهاوي الشقاء ، وتكون انت الذي جنيت عليه بخيانتك واذاعتك لسره بعد ان لجأ اليك وجعل سره بين يديك ووكل امره الى اخلاصك المعهود .

اتحب ان تناجي غيرك بما في نفسك وتطلعه على نواياك وتستودعه خباياك ، فلا يلبث ان يبدد اسرارك ويذيع اخبارك وينشر افكارك ، فلا تجد محيصاً من الوقوع في المهالك والشقاء وركوب الصعاب .

كلا ، ثم كلا . فكيف بك تكون منزلتك منزلة اللص ، بل أسوأ حالاً منه فإنه يختلس المال ، وأنت تختلس أسرار الرجال، فكن لإخوانك كما قال الشاعر العربي :

يظلون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال أنصداعها

٧٩ - الفقير الصابر والغني الشاكر

الفقر سجن النفوس الكريمة ومثبط الهمم العالية وهو مجلبة الذل وقرين الهم وموت الحي وأدوأ الأدواء ، يترك العزيز ذليلاً والصحيح سقيماً ويجعل الحياة الدنيا سلسلة شقاء وقرارة أكدار ، ولقد كاد الفقر أن يكون كفراً .

الفقر أثقل أحمال الحياة وأمر اوصابها وأشق خطوبها قد ابتلى به قوم فوهنت بحمله عزائمهم وضعفت عن الصبر عليه نفوسهم فراحوا إلى الشكوى ولبثوا ثياب الذلة والمسكنة وأراقوا ماء وجوههم في الاستجداء والسؤال ، وتعرضوا لذوي المعروف يبسطون أيديهم في ضعة ويطلقون ألسنتهم في مسكنة وهؤلاء قد جمعوا إلى ذل الفقر مهانة الاستجداء .

وابتلى به آخرون فاعتصموا بالصبر وتمسكوا بعروة العفاف الذي هو زينة الفقر ولبسوا ثوب التجمل ، وعلموا ان الحياة وان طالت إلى نفاد ، فبسطوا إلى الله وحده يد الضراعة وكفوا أيديهم عما في أيدي الناس ، فلم يدعوا في عنقهم قلادة منة لمخلوق فهم أعزة على الناس بغنى نفوسهم وقناعة قلوبهم ورضاهم بما قسم الله لهم يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، قد زانتهم العفة وهي زينة الفقراء وأغنتهم القناعة وهي كنز المقلين .

ومن الناس من هم أسعد من أولئك حظاً وأوفر في الحياة غنماً ، قد بسط لهم الله الرزق وآتاهم من نعمه وفضله مالاً وافراً وأمدهم بالخير ، فهم من النعمة في ثوب سابغ وعز ظاهر ، ثم جعل من هؤلاء الشاكر على ما آتاه من فضله المحدث بنعمة ربه الباسط يده للخير المتوج غناه بتاج الشكر ، المجملة بجمال البذل وحلية السخاء ، يرى ان خير المال ما اكسب حمداً واورث ذكراً واعلى قدراً ويسر عسراً ، ثم كان منهم من جمع ماله وعدده ، ورد نفسه عبد الدينار والدرهم ، فما يزيده الغني إلا فقراً ولا يكسبه اليسر إلا عسراً فهو على وفرة ماله في فقر دائم وذل مقيم ، لم يصل بالعفة إلى منازل الفقراء الصابرين ، ولا بالثروة إلى مراتب الأغنياء المحسنين .

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

من الناس من وهنت عزائمهم وصغرت نفوسهم وحببت إليهم الحياة في أي صورة من صورها ، لا يبالون بما يمس كرامتهم أو يثلم شرفهم ، همهم أن يبيتوا في مساكنهم ملء عيونهم ، وان بعدت الكرامة عن مضاجعهم وقرت المذلة بين جنوبهم ، وسامهم الناس الخسف وسوء العذاب ، تراهم لا يذودون عن حوضهم ولا يدفعون في صدور أعدائهم مهما مسهم من هوان ولحقهم من صغار .

أولئك قوم منعهم الخوف وغشي على أبصارهم الجبن ، فلم تدفعهم نخوة إلى حوط كرامتهم وصون عزتهم ممن نالها بسوء خشية أن ينالهم في سبيل دفاعهم ذل جديد أو عناء طارىء فيرضون بالمهانة حتى لا تتلوها مهانة ، وبالذلة حتى لا تلحقها أُخرى ، عندئذٍ تنتهك الناس حرماتهم ويستضعفونهم ويستلينون عودهم ويعرفون أنهم من الخوف والذل في رهبة دائمة واستكانة لا تبرح فتتواتر عليهم المهانة وتذهب ريح شرفهم ولا يجدون من أنفسهم لأنفسهم نصيراً . ضربت عليهم

الذلة والمسكنة ، وهانوا فما ترى فيهم نخوة ولا تحس لهم ركزاً .

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيـلام

ولو أنهم غضبوا لحرمتهم وتمسكوا بكرامتهم وعلموا ان الحياة في ذل خير منها الموت في شرف وكرامة ، وعرف لهم الناس هـذه النفس العالية والعزة الأبية لما وردوا حوضهم واعتدوا على كرامتهم ، وإذاً لعاشوا في عز دائم ونعيم مقيم ، ولقد أحسن زهير إذ يقول :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه   يهـدم ومن لم يظلم الناس يظلم

ومن الناس من اسبغ الله عليه نعمه وأولاه من فضله فغل يـده إلى عنقه وامسك نعم الله ولم يمتع بها نفسه وآله ولم يبتغ فيها سعادة عاجلة ومثوبة آجلة، إذا دعي إلى مكرمة أعرض ونأى بجانبه ، وإذا رأى موضع عرف أعمى عنه بصره وصرف عن الرغبة فيه نفسه يضن بالخير على نفسه خشية الاملاق فهو عبد الدينار والدرهم ، كل همه أن يمتع بها نظره وقد يحرمه من ذلك ضناً بما اكنه من دينار وصانه من درهم ان تقع عليه الابصار وترمقه الانظار تكاد نفسه تذوب أذى وحسرة لدرهم ينفد ودينار ينقد ، فما اشقاه بما له وما أفقره بغناه .

فأعجب به منغني فقير وسري حقير يتمنى له الموت من يحمل به ان يطلب له الحياة ومن ولد محروم وأخ معدم ، وهو من نعمة الله فيما لو شاء لجعل حياته وحياة آله عيشاً رغيـداً ونعيماً مقيماً ، ولكن نفسه الفقيرة الضنينة تركته يتقلب في فراش الفقر ومهاد الذل ، فما اشقى الرجال بعبادة الأموال .

٨٠ ـ كفاءة الانسان تقاس بما ينجزه من جلائل الأعمال

لا زينة المرء تعليه ولا المال   ولا يشرّفه عم ولا خـال

وإنمـا يتسامى للعلى رجل   ماضي العزيمة لا تثنيه اهوال

جدير بالإنسان وقد سخر الله له ما في هذا العالم ومكن له في الأرض وجعله سيد مخلوقاته وفطره على افضل صورة واحسن تقويم ومنحه عقلاً مرشداً ونفساً تواقة، ان يفسح لنفسه مجال الأمل ويوسع سبيل العمل وان يعلو بهمته الى حيث يراحم النجوم ويطاول الغيوم ، فإن الهمة ابعد منها مرتقى وارفع أفقاً أجل ،

حقيق بـه ان يطلب المجد وان يجري مع همته الى ابعد مدى وأسمى غاية وألا تثنيه عقبة تعترضه او مشقة تلحقه ، عن درك امنيته ونيل بغيته .

ومن تكن العلياء همـــة نفسه　　　فكل الذي يلقـــاه فيها محبب

ان العظيم لا تزيـده المشقات إلا مضياً في سبيله واقداماً في طريقه يتخطاها بعزيمة صادقة وهمة فائقة لا يركن الى الراحة ولا يأنس بالدعة .

ذلك طريق المجد ومجال العظمة لمن شاء ان يكون عظيماً. قال امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا تصغرن همتك فـإني لم أرَ اقعد بالرجل من سقوط همته » . وقال الشاعر :

حاول جسيمات الأمور ولا تقل　　　ان المحامـــد والعلا ارزاق

وارغب بنفسك انتكونمقصراً　　　عن غـــاية فيها الطلاب سباق

فمن اراد ان ينال مراتب الكمال ويبلغ ما بلغه اولئك العظماء ذوو النفوس العالية من العلماء الاجلاء والصناع الحاذقين وذوي الثراء الوافر والاقدار السامية فليدفع بنفسه الى مواطن الجد ومسالك العمل ، وليصبر على ما يمسه من عناء او يناله من نصب ، فمـا ادرك نعيم إلا ببؤس ولا نيل عظيم إلا بجسيم ، والمكارم موصولة بالمكاره .

فقل لمرجى معالي الأمور　　　بغير اجتهاد رجوت المحالا

قال يزيد بن المهلب : « ما يسرني اني كفيت امر الدنيا لئلا اتعود العجز » . وقال الأحنف بن قيس : « إياك والكسل والضجر فانك ان كسلت لم تؤد حقاً وان ضجرت لم تصبر على حق » .

لا تضجرن ولا تدخلـك معجزة　　　فالنجح يهلك بـين العجز والضجر

وإذا نحن نظرنا الى العظماء الذين سجل التاريخ اسماءهم وابقى ذكرهم مخـلداً وجدنا انهم اضنوا اجسامهم وافنوا اعمـارهم في طلب المجد واقتحموا الاخطار وجابوا الاقطار ورافق حظهم جدهم واضاءت لهم همتهم مناهجهم فبلغوا الغاية وادركوا المنى ، فمـــن اقتفى أثرهم اوشك ان يلحقهم ، وكل من سار على الدرب وصل .

وأما من خاف المتاعب وتهيبها وزينت له نفسه الرضا بما هو فيه ، فليس خليقاً بالمجد ولا جديراً بالشرف ، يعيش خامل الذكر ساقط المنزلة .

إذا لم يكن للفتى همة تبوئه في العلا مقعدا
ونفس بعودها المكرمات والمرء يلزم ما عودا
ولم تعد همته نفسه فليس ينال بها السؤددا

٨١ - أكثر من الاخوان فانك على العدو قادر

الإنسان في اشد حاجة الى اصدقاء يشدون ازره حتى يطيب له في هذه الحياة الدنيا مقامه ويعيش عيشة راضية لا تؤلمه الوحدة ولا تكدر صفوه العزلة .

وهو لذلك في حاجة الى جانب لين ورأي جزل وبصيرة نافذة بأخلاق الناس ليتعرف ما يسرهم فيتقرب به اليهم ويسعى في بذر صالح الكلم وحميد الفعل في قلوبهم ، ويتعهده بالمودة والبشاشة حتى تعظم منزلته في نفوسهم ، ويكون فيهم كالأخ الشفيق محبة وعطفاً . وقد قيل : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق » .

فمن عجز عن ذلك كان عجزه دليلاً على ضعف إرادته وعدم خبرته وتقصيره عن مدى كثير ممن اصابوا كنوز الصداقة بجدهم ووفائهم وصائب رأيهم ومخالطتهم لبني جنسهم .

واعجز من هذا من فرط في جنب صديقه فلم يرع وده ولم يحفظ صحبته ، بل اعرض عنه ونأى بجانبه فغرب نجم صحبته وافل كوكب سعادته .

وإنما مثل هذا كمثل رجل اصاب كنزاً نفيساً ، فلم يلبث ان بدده ، فلما اضناه الفقر اخذ يقلب كفيه على تفريطه ويندم حين لا ينفع الندم .

ألا سامح اخاك اذا تعدى وألق اليه في الحرب السلاحا
فمن يعتب على الاخوان يتعب ومن لزم المساحة استراحا

فعلى العاقل ان يسعى في اكتساب الاصدقاء والاخوان، وان لا يفرط فيمن ظفر به منهم ليحلو له مرّ العيش ويهنأه طعم الحياة .

فما بكثير الف خل وصاحب وان عدواً واحداً لكثير

٨٢ - المروءة راية الهمم العالية

اذا المرء اعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد

المروءة كلمة تجمع خصال الخير وتدل على الفضل والشرف وهي مطلب النفوس الكريمة وراية الهمم العالية لا تنال عفواً ولا تدرك من كثب فهي غاية محفوفة بالمكاره وامنية وعثة الطريق، لا بد لطالبها من عزمة صادقة ونفس طموحة وهمة مواتية .

ولا شيء يعين على نيلها كالشباب اذا اقترن بـه الحزم وكالفتوة اذا صحبها صدق العزم فالشاب بفطرته طموح الى العلا واسع المنى عظيم الأمـل في حياة سعيدة وعيش رغيد تحفزه همته الى المجـد وتسوقه الى المنى، فيجد من قوة الشباب دافعاً ومن صدق العزيمة مساعداً، كلما امسك من المكارم بطرف تجدد نشاطه وعظم امله، فلا يزال يجمع اطراف المكارم ويجدد عظيم المغانم لا تفتر همته ولا تكل عزيمته حتى يدرك الغاية وينال المنية، وهو في كل ذلك يستعذب مرارة الألم غير هياب ولا وجل حتى تنسيه حلاوة الظفر مرارة الطلب .

فأمـا من ادركه الكبر فوهن عظمه وتضاءلت قوته وركنت الى الخمول، فقلما يدرك من المروءة غايـة او ينال من المعالي سبباً، وأين له قدرة الشباب وعزيمة الفتيان وفي جسمه وهن وفي عزمه خور .

انه لبعيد ان يستطيع سبيلاً الى بلوغ المجد ودرك المروءة بعد ان نضب معين شبابه وذوت زهرة صباه .

٨٣ - ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياته

العلم غـاية يسعى إليها العقلاء ويبذلون في سبيل تحصيلها نفائس الاموال وزهرة الشباب ويسهرون الليالي الطوال منكبين على الدرس لا همّ لهم إلا الأخذ منه بنصيب وافر يحسبون السعادة كلهـا في تكميل نفوسهم وترقية مداركهم وإنبات عقولهم نباتاً حسناً، وكثيراً ما يلاقون الاخطار ويتحملون تعب الاسفار في سبيل طلبه والاستزادة منه، ويخضعون لمن تولى تعليمهم خضوع الإبن البـار

لوالده الرحيم ، فلا تأخذهم العزة إذا أمروا ولا الحمية إن اهينوا ، فكل ذلك هين ما دامت الغاية شريفة والنتيجة سارة .

العلم كلمة تزين صاحبها وتجمل المتصف بها ، فهي حلية الإنسان التي يتصف بها بين الناس ، وكنزه الذي يربو على الإنفاق ومكانته التي يسامي بها النظراء ويفاخر الأقران ويسمو بها إلى منازل الاشراف ومراتب الملوك والأمراء ، فطالما رفع العلم وضيعاً في نسبه وأغناه أدبه عن حسبه ، فلا عجب إذا أكبرت العيون صاحبه إجلالاً وعظمته القلوب رفعة وكمالاً ، فقليل ما يبذل في سبيله وما يحتمل في تحصيله فذل طلبه عز وعناء نيله راحة .

والمرء ينزع منه كل ولاية إلا ولاية علمه لا تنزع

وقد تنحط همة الطالب وتتلاشى عزيمته عن تحمل تلك الصعاب والصبر على ذل الدرس حتى إذا شب جاهلاً اقتحمته الانظار واستخفت به القلوب وأنكره عظماء النفوس وتجرع مرارة الجهل وذل الضعة ما دام حياً ، وتمنى إن كان صغيراً فبدأ حياته بالعلم ويصطبر على مضض الدرس ويندم على ما فرط في صباه وشبابه يوم لا ينفع الندم ولا تغنيه عما هو فيه من الحسرة .

(وبعد) فإن العز كله في ذل الدرس ، والراحة كل الراحة في تعب العلم ، والحياة الحقة إنما هي حياة ذوي الألباب! فالعاقل من سلك سبيل الجد، ووطن نفسه على احتمال المشقات في سبيل إدراك الغايات .

لا يدرك المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا
ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطرا

٨٤ ـ القدوة الحسنة والمثل الأعلى

إذا أعجبتك خصال امرىء فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على المجد والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك

من الناس من ظهرت فضائلهم وكملت خصالهم وتجلت فيهم شيم حميدة وأخلاق طاهرة ، فإذا رأيتهم أعجبك فيهم أدب ظاهر وصدق وافر ومروءة

بالغة ومنزلة سامية تغبطهم عليها وتود ان تجـــد في نفسك مثل اخلاقهم وتحلى صدرك بزينة كالهم .

وليس بعزيز عليك إذا صدق عزمك وصحت إرادتك ان تبلغ مـــا بلغوا وتدرك ما أدركوا وتعلو كما علوا منزلة وقـــدراً وسماحة وفضلاً ، فادأب في تقليدهم والزم نفسك مناهجهم وتخلق بصفاتهم الحميدة تعجبك اخلاقك وتحسن في رأيك ورأي غيرك نفسك .

ولا تحسبن المكارم مقصورة على أفراد من الناس لا تتجاوزهم الى غيرهم، فإن الله تعالى قد جعلها سهماً شائعاً وغرضاً منصوباً لكل طالب ، فمن أمها وسلك سبيلها ، فهو لا ريب مدرك أمله ونائل غرضه ، فما اتخذت الفضائل حجاباً ولا منعت طلاباً والسعيد من جعل المجد غايته والشرف حليته ، فنعم زينة الرجال كرائم الخلال .

٨٥ ـ نعم المؤدّب الدهر

من الأنباء من يشب بين أبوين تحملها الشفقة عليه والمبالغة في تمهيد أسباب الراحة له على غفران ذنوبه وتهوين سيئاته والتسامح في زلاته يظنان ذلك رأفـة وعطفاً ومحبة وكرماً ، فيشب الابن وقـــد ألفت نفسه عادات ممقوتة وأخلاقاً مذمومة تتأصل في نفسه وتخالط لحمه ودمـــه ، فتكون طبعاً لا يغلب وفطرة لا تقاوم .

ولا يزال مغموراً في عطف أبويه يدفع بهما المكروه ويرد بوادي الدهر حتى اذا ما فقدهما او فارقهما بدأت يد الدهر تعبث بـه وحوادث الأيام تعدو عليه ولا نصير له من فضيلة خالصة أو عزيمة صادقة أو إرادة متمكنة فيصير ألعوبة في كف الحوادث وريشة في مهب الأخطار وفريسة للأقدار ، لا ملجأ ولا وزر يستدفع به الخطوب ويرد نوب الكروب ، كذلك يغالب الأيام وتغالبه ويجالد الحوادث وتجالده .

ومن غالب الأيام لأمن مريره وأسلمه طول المراس الى الوهن

ثم لا يزال الدهر يردعه بزواجر الخطوب، ومؤلم الحادثات حتى يرده مكرهاً

الى رشده ويدفعه الى هداه ويبعده عن غوايته ويصده عن هواه، والدهر أعظم مرب وأوعظ مرشد ، من عصاه أوقع بـه ومن خالفه مسه بسوئه لا يلين قلبه ولا يشفق لبه فهو أبو العبر وحامل راية القضاء والقـدر ، ومن لم يؤدبه والده أدبه الليل والنهار .

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فطر الناس على حب انفسهم والذود عن مصالحهم والدفاع عن آرائهم ، فهم لذلك يمقتون من خالفهم ويجاهرون بالعدوان من نال منهم في رأي او منفعة . فطرة الله التي فطر الناس عليها ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فجدير بمن شاء ان يكسب مودتهم ويستميل قلوبهم اليـه ويدفع أذاهم عنه ان يحتال في معاملتهم ويسلك سبل مودتهم ، فـلا يجاهرهم بخلاف ولا يباينهم بعزلة، بل يعاملهم بالتي هي أحسن، ويدفع السيئة بالحسنة ويغفر الذلة ويتجاوز عن الهفوة ، فعندئذ ترى القلوب له وامقة والعيون اليـه طامحة والنفوس في صداقته راغبة فيسلم من الأذى ويعيش عيشاً رغداً .

فأما ذلك الذي يأبى إلا جماحاً ولا يبالي أساء ام احسن،فإنه لخليق بصريح العداوة جدير بالاحتقار والامتهان . إن زل زلة لم تغفر وإن كبا كبوة لم ينجح من عثاره ولم يسلم من أذى اعدائه وانصاره تسلقه ألسنة حداد وتحتقره نفوس العباد ، لا يجد خلاً يدانيه ولا رفيقاً ينتشله مما وقع فيه .

وقصارى القول - ان مداراة الناس ومصانعتهم وسيلة للراحة لا تطلب بدونها ولا تدنو بغيرهما ، وقد قيل :

من سالم النـاس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العـين جذلان

٨٦ - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

يشعر المرء أحياناً بسعادة نفسه وصفاء قلبه كما يشعر بصحة بدنه وتمام قوته ويحس آونة بضعف يعتري نفسه وملل يتردد في جوانب قلبه ، وقد يكون مع ذلك في صحة من جسمه وقوة من بدنه ، ولو انـه احس في جسمه الضعف ، وأدرك في قوته الوهن لوجد من الدواء شافياً ومن الطبيب آسياً، ولكن الاطباء

يصلحون الأبدان ويشفون بدوائهم مستعصي أمراض الأجسام، ولم نجد للأرواح مداوياً نصب نفسه لشفائها ، وأعمل طبه في استئصال أدوائها ، فإن الارواح أعز وأسمى من ان تنزل عن أوج عظمتها الى متناول الادوية والعقاقير او تترك لنطس الاطباء تدبيرها والنظر في اصلاح أمرها .

إن الارواح وهي من العالم السماوي وهي سلطان الاجسام ومدبرة العقول وهي الصلة بين الإنسان وخالقه ، والنعمة الإلهية التي دونها كل نعمة لأرفع قدراً وأعظم خطراً ، من ان تدين لهذا العالم الارضي فتنزل على رأي أطبائه وتدبير دوائه ، ان لها لطباً خليقاً بها لا يعتوره خلط ولا مزج ولا تؤثر فيه حرارة ولا برودة ، إن لها لدواء لا يخطىء موقع دائها ولا يعجز عن شفائها ذلك (الحكمة البالغة) والموعظة الحسنة تذهب عن الروح أسقامها وتتقي آلامها وتأسو جراحها وتعود إليها نضرتها وسرورها .

كم من روح سقيمة ونفس مهمومة ، وجدت في ثنايا الحكمة شفاء لسقامها ودواء لآلامها ، وكم من نفس كادت تذهب حسرة وتفيض أسى وحزناً سكنت لموعظة واعظ وإرشاد مؤدب، وكم من نفس كادت تجمح بصاحبها فتورده موارد الهلكة قد استحكم اليأس في جوفها وتمكن الزيغ من أركانها ، عادت بالحكمة إلى مستقر الرضا، وبالنصح إلى روضة الصواب فسعدت بعد شقاء ونعمت بعد عناء.

وكم من روح صدئت بالهموم فأذهب الوعظ همها وجلا صدأها وأعادها نقية لامعة تسر للألم كما تسر بالنعيم ، وترى في كل كريهة واعظاً وفي كل نعمة مسعداً تحمد الله في الضراء وتشكره في السراء ، وتلك هي النفس الكريمة الراضية ربيبة الوعظ وصنيعة الحكمة ومستقر السعادة الأبدية والنعيم المقيم .

إن في الحكمة البليغة للرو ح غذاء كالطب للأجساد

٨٧ – جمعية الاسعاف وأثرها في تخفيف الآلاء

تأسست بمصر هذه الجمعية النافعة من جماعة عرفوا معنى الشفقة ، وأدركوا واجب المروءة والإنسانية وآمنوا بحق الإنسان على أخيه الإنسان .

أسسوا هذه الجمعية بعد ان رأوا تعدد الحوادث وتنوع المخاوف التي تعرّض

لها الناس من جراء المدينة الحديثة ذات السيارات المنتشرة والمراكب الكهربائية والعقاقير السامة وغير ذلك مما ترك الناس عرضة لحوادث شتى لم يكونوا معرضين لها من قبل .

وها نحن أولاء نرى او نسمع كل يوم خطوباً مختلفة وحادثات مؤلمة تصيب بعض الآمنين في غدوهم ورواحهم ، فهذا سقط من مركب وهـذا مرت عليه سيارة وآخر أدركه الاغماء ، وذلك عامل سقط خلال عمله او صانع أصيب بعدد صناعته ، فـلا يلبث ذلك المصاب إلا قليلاً حتى ترى رجال الاسعاف في مراكبهم قـد أقبلوا مسرعين لنجدته وتخفيف آلامه يحملونه بأيد قرّت في راحاتها الراحة وتنزلت في أناملها الرحمة ، فلا يكاد المصاب يحس بتلك الأيدي الرحيمة تلمسه وبتلك العيون الشفيقة تفحصه حتى يترك نفسه بين أيدي أولئك الرحماء آمناً مطمئناً،فإذا هو بعد آونة يعجل له الإسعاف بأيد نطس كرام بررة ثم يحمل الى المستشفيات إذا كان في حاجة إلى مداومة العلاج فيبقى بها حتى يتم شفاؤه .

يقوم رجال الاسعاف بعملهم هـذا ابتغاء مثوبة الله وتحقيقاً لمعنى الاخوة ، لا يبتغون من ذلك جزاء ولا يسألون عليه شكراً لا مورد لهم في تحقيق غرضهم الشريف ، إلا ما تجود به أيدي المحسنين وتفيض أكف ذوي النخوة والمروءة ، فجزاهم الله عن عملهم المبرور وسعيهم المشكور اوفى الجزاء وأجمل الثناء .

٨٨ ـ البرق (التلغراف) وآثار منافعه لجميع العالم

كثيراً ما يسمع الإنسان في محطات السكك الحديدية ويرى في بعض حجرها آلة ذات دقات متتابعة يختلف إيقاعها اختلافاً طفيفاً لا يدرك مغزاه إلا عمال مختصون بأمرها ، تراهم يطرقون بأصابعهم على بعض أجزاء هذه الآلة ، فإذا هم بما يسمعون ويطرقون ، يتلقون إشارات ويرسلون أُخرى، وإذا كتب مسطورة تنتقل من أيديهم إلى من أريد بها من الناس، دلت على كلماتها تلك الدقات المنسقة فكانت مقاطعها في أطراف البيان لا في جوانب الفم واللسان، هذه الآلة البديعة الصنع المؤسسة على دعائم العلم والفكر هي ما يعرف بالبرق .

وله فوائد جليلة ومنافع جمة فهو الذي نظم سير القطر الحديدية وقلل مضار

تصادمها ، فلا يقوم القطار من محطة حتى تؤذن بقيامه المحطة التالية ، ولا تكاد تخلو بلدة كبيرة من برق يستعمل في نقل الإشارات بينها وبين غيرها من البلاد في أمور التجارة وشؤون الزراعة والصناعة وسواها، مما يستدعي سرعة التخاطب وكثيراً ما وفر البرق على الناس راحتهم من مشاق الاسفار وجم النفقات وقضي مصالح ، لولاه لتعسر قضاؤها وضاعت من طلابها فوائدها .

ويستعمل البرق وحده في التي لم تمتد إليها أسلاك المسرات العامة. وتعنى الحكومة بإرسال الإشارات البرقية إلى أصحابها مع سعاة مخصوصين بذلك لا يتقاضون من المرسل إليهم أجراً .

وهذا النوع من الرسائل البرقية يدفع المرسل أجره بقدر عدد كلماته وهو في الجملة زهيد ، لا يكلف الإنسان في رسالة عدد كلماتها ست اكثر من عشرين مليماً ، فإذا زادت الكلمات زاد الأجر نصف قرش لكل كلمة زائدة .

وقصارى القول ـ ان البرق نعمة من نعم العلم وأثر من آثار النشاط العقلي في عالم الاختراع .

تجري بأطراف البنان حروفه فتمر مر البرق في أسلاكه
قد أنطقته الكهرباء فلم تدع لغة قد التبست على إدراكه

٨٩ ـ المسرة (التليفون) وتعميم فوائده

من أفضل ما نتجته عقول المفكرين وجادت به قرائح المخترعين المسرة وهي آلة صغيرة الحجم تعلق أحياناً على الجدران او توضع على المناضد وتتصل بأسلاك متفرعة عن مركز عام يقوم عماله بإعداد أسباب الاتصال بين المتخاطبين .

وللمسرة فوائد جليلة إذ يستطيع الانسان بواسطتها مخاطبة من يشاء في بلدته او غيرها من البلاد الداخلية او الخارجية في أسرع وقت وبأجر زهيد . وبذلك يمكنه قضاء مصالحه المعجلة التي لم يكن يستطيع قضاءها من قبل إلا في زمن مديد ، فالتاجر يستطيع مخاطبة محال التجارة في إرسال ما يشاء من أنواع البضاعة والمشتري يستطيع أن يخاطب التاجر ـ وهو جالس في بيته ـ ليرسل إليه مطالبه فيجاب طلبه وتصل إليه حاجته ، والمريض يستدعي الطبيب في

أي وقت شاء من ليـل او نهار الى منزله او يصف له مرضه فيصف له الدواء ، وكلاهما في مكانه لم يبرحه ، والمسافر يستطيع ان يخاطب أهـــل بيته والقائمين بمصالحه ويتعرف منهم ما يريد معرفته حتى كأنه بينهم يدير شؤونه بنفسه فهو المغيث وقت الشدائد .

وهذه دور الحكومة ومصالحها المختلفة، لا تخلو من المسرات التي يستعان بها على نشر الأمن بين الأهلين وضبط المجرمين الفارين، وعلى تنظيم الأعمال الضرورية التي تدعو الحال إلى سرعة إنجازها .

وقد انتشرت المسرات في أنحاء القطر المصري ، فلا تكاد تجد محل تجارة او صناعة ولا مشرب قهوة او فندقاً ولا حانوتاً او منزل ثري يخـــلو منها لزهادة أجرها السنوي وعظم أثرها في كل مصالح الحياة .

وبالجملة ـ فالمسرة سر من أسرار الكهرباء وآية من آيات العـلم العظيمة النفع يقصر البيان عن عـد فوائدها وإدراك مزاياها فجزى الله مبدعها عن الإنسانية الجزاء الأوفى .

٩٠ ـ التصوير الشمسي وفوائده

من أعجب ما ابتدعته أفكار المخترعين وأبرزته قرائح العلماء آلات التصوير الشمسي وهي آلات ذات عدسة بلورية محدبة توضع في جوفها زجاجات خاصة ترتسم عليها صور المرئيات كما ترتسم على حدقة العين ثم تنقل على ورق التصوير .

وللتصوير بهـــذه الآلة فوائد غزيرة ومنافع كثيرة فيه يحفظ رسم الإنسان وصور النبات والحيوان ومناظر الحدائق الناضرة والبـــلاد العامرة والبحار الزاخرة ، فيراها الإنسان أمامـــه على صفحات أوراق التصوير كأنما شاهدها بعيني رأسه .

وقد ساعد التصوير الشمسي على نشر المعارف وترقية أنواع الفنون والعلوم ، فلا تكاد تجد كتاباً نفيساً من كتب المطالعة والتاريخ وما شاكلها خلواً من صور شمسية تقرب للمطالع حقائق الاشياء وتساعده على اجتلاء ما غمض وإدراك ما بعد ، وهـــذه الجرائد المصورة ومناظر الخيالة (السينما) قد ساعدت على نشر

الفوائد العلمية ، وحببت الى النشء تتبع أخبار الرقي العلمي في أنحاء العالم بما يبدو فيها من صور العلماء والمخترعين وما كشفوه من آثار نفيسة او ابتدعوه من مصنوعات جليلة .

وبعد ان كان التصوير قديماً فناً مقصوراً على اليد ، لا يحسنه إلا قليل من النوابغ الذين قضوا زهرة الصبا وريعان الشباب في درسه والانكباب على تعلمه ثم لا تجد لهؤلاء إلا صوراً قليلة تقترب من المصورات بقدر ما في يد صانعها من مهارة ، وفي عقله من حذق ، وقلما تمثل حقيتها تمثيلاً تاماً ـ بعد ذلك صار عملاً لا يحتاج في اجادته إلا الى تمرين لا يستغرق من الراغب فيه إلا قليلاً من أوقات فراغه ، ولا يحوجه الى مهارة او الى درس طويل فتراه برسم بعدة التصوير عشرات من الصور ، فلا يكلفه ذلك إلا ثمن زجاج التصوير وورقه . وأخيراً قد صار في قدرة الإنسان ان تجعل منزله معرضاً يجمع فيه الى صورته وصور أفراد أسرته وأصدقائه ما ترغب فيه نفسه من صور العظماء والأدباء ، ممن تزدان بصورهم المجالس وتطيب بذكرهم الأنفاس .

وبالجملة ـ كان الناس في الأزمان الغابرة يلاقون صعوبات جمة من التصوير بالأدهنة ويضيعون زمناً وفيراً في اخراج صورة قد لا تشبه الأصل المنقولة عنه من كل وجه ، ولما ظهرت الآلة الشمسية سهل رسم ما كان النقاش يقضي في رسمه الأيام الطوال ، وعم التفاهم وساد التعارف وانجلى الغامض ووضحت الحقيقة واهتدى القضاء به الى تتبع آثار الجناة والقبض عليهم وحماية الناس من شرهم ، وساعد علم الفلك فيتصوير اجرام النجوم والكواكب وبينحركاتها مثل دورانها وأفاد علم الطب في تصوير الصور المكبرة لتصغير الأجسام وتدقيقها . هذا ـ الى أنها خير معين على توضيح معضلات العلوم وعويصات المسائل وغيرها بتجسيم حوادث القصص في الطروس والكتب والنشاط الى متابعة المطالعة وكثرة الاطلاع وتتميم القراءة بخاصة النشء السريع الملل ، والتصوير سفر كبير لتاريخ الأبطال المخلد ذكر عظماء الرجال ، والصورة خير ما ينوب عن وجوه الأقارب والأصدقاء عند غيابهم وتحفظ الصلاة بينهم والمودة والمحبة وتهون آلام الفراق عليهم ، وأحسن تذكار يبقى إلى الأبد .

وناهيك بالخيالة التي هي صور شمسية تؤخذ عن الشيء بصور متعددة ممثلة إياه

في حركاته وسكناته ثم تعرض أمام الاعين .

١٩ - السيارات وأثرها في المواصلات العامة

السيارات مراكب تسير بقوة البخار الذي يتولد من سائـــل خاص يعرف (بالبنزين) فيحرك عدداً تتصل بعجلاتها فتديرها بسرعة ، ولهـا أنواع كثيرة تختلف في جودتهـا وسرعتها باختلاف أصنافها وتتنوع في سعتها وضيقها ومحال الركوب فيها بتنوع الأغراض التي تقصد بهـــا ، فمنها ما يكون لركوب أناس مخصوصين ، ومنها ما يكون لركوب من يشاء بأجر خاص، وما هو لنقل البريد أو عروض التجارة وأدوات العمارة ، وبعضها أعد لأطفاء الحريق ونقل المرضى ولاسعاف المصابين بحوادث فجائية .

وقد أصبحت السيارة فيهذا العصر من أهم أسباب المدنية ونهوضها إلىدرجة سامية تجري مسرعة بذوي الأعمـال العاجلة وتروح وتغدو بأصحاب الحاجات من تجـار وصناع وطلاب وموظفين فتصل بهم إلى محال أعمالهم في أقصر وقت وبأجر زهيد .

وقد وصلت بين أجزاء المدن وضواحيها ، فصار في قدرة الإنسان أن يتخذ مسكنه كما يشاء في الأماكن الخلوية حيث الهواء طلق والشمس مشرقـة والسماء صافية ، أو في جوف المدن أو جوانبها فيبرحه إلى عمله ثم يعود إليه ، تقـــله السيارات في غدوه ورواحه ، وقد لا تبعد به عن منزله إلا بضع خطوات .

وقد صارت البلاد والقرى وبخاصة التي لا تمر بهـا القطر الحديدية ولا تجري بإزائها الأنهـار متصلة بالمدن تنقل إليها خيراتها وتأخذ منها حاجاتها بأجر يقل عن السكك الحديدية ، وفي أوقات يتخير منها المسافر مـا يشاء ، لا ما تفرضه جداول القطر الحديدية .

إلى جانب ذلـــك ترى السيارات الضخمة تسير في المدن وضواحيها تحمل أدوات العمارة من الأماكن القاصية ، فإذا أنت بعد أشهر معدودة ترى الأرض البراح تحمل على ظهرها القصور الشامخة والأبنية الباذخة آهـــلة بقطانها مشرقة بأنوارها ذلك بعض فوائد السيارات وأثرها العظيم في سهولة المواصلات .

٩٢ ـ مكافأة العمال سر النجاح وداعي التقدم

لا ريب ان العامل هو الدعامة التي ترتكز عليها بناء ثروة مصر الزراعية والصناعية وهي اليد التي تدير دولاب العمل في هذا القطر فتجعل أهله في يسر وسعادة ، وينشر في جوانبه النعيم والرخاء .

وليس من ينكر صبر العامل المصري واحتماله الشدائد والأهوال في إنجاز كثير من الاعمال الضرورية لرخاء هذا البلد . لا فرق في التمتع بثمرات عمله بين وطني وأجنبي ، وربما كان حظ الاجانب من عمله أسعد وأوفر .

العامل المصري هو ذلك الفلاح الذي توقظه صيحة الديك وتحركه نسمات الاسحار الى مزاولة عمله في مزرعته أو في مزارع الملاك الآخرين، فلا يزال قرين الشمس من مشرقها الى مغربها تدور في السماء دورتها ويدور في الأرض دورته ، فلا يؤوب الى منزله حتى تودعه الشمس ويجنه الظلام .

وهو ذلك الصانع الذي يلزم حانوته واقفاً على قدميه ، ممسكاً بأدوات صناعته ، فلا تزال يده تتحرك وجسمه ينقبض وينبسط وعينه تبحث وتفتش حتى يغيب بياض النهار وضوء الغزالة فيستبدل الضوء الشمسي بمصباح يستضيء بشعاعه الضئيل حتى يرى حاجته الى النوم شديدة، فذهب الى فراشه لا حباً في النوم ، ولكن طلباً لتجديد القوة حتى يعود الى مزاولة عمله من جديد .

العامل المصري هو ذلك الرجل الذي يشق الأنهار ويُعبّد الطرق ويقيم القصور المشيدة . هو ذلك الرجل الذي يحني ظهره ويطوي قامته منكباً على اعماله المتنوعة في المصانع والمعامل والمزارع صابراً مطمئناً قانعاً راضياً بأجره الزهيد الذي لا يكفي لشراء علف حيوان في وجبة من الطعام . فما أصبرك أيها العامل المصري وما أقنعك برزقك حين يغلب الطمع والشره على نفس غيرك من العمال ، فلا يرضون باضعاف مضاعفة لأجرك الزهيد الضئيل .

أفليس جديراً بمن يجنون ثمار عملك وتطمئن نفوسهم بعناء نفسك وتطول راحتهم بدوام تعبك وتلين مضاجعهم بخشونة مضجعك ، أن ينظروا في أمرك بعين الشفقة ويمدوا إليك يد المعونة والحنان ، بلى انهم لو فعلوا ـ وذلك واجب

لك في أعناقهم لعدته منهم منة تضاعف لهم بهـــا شكرك وتفني من أجلها في خدمتهم عمرك. انك أيها العامل لجدير بأجل عناية وخليق بأفضل رعاية، فأنت وحدك مـــدار الخيرات ومنبع الرخاء واليسار ، انك لتعصر جبينك عرقاً ويعصره غيرك نضاراً وورقاً، انك أيها العامل جدير بالعناية في طعامك وشرابك في مسكنك ولباسك في شبابك وهرمك في صحتك وسقمك . فعـلى الحكومة ورجال الأمة واجب لم ينهضوا به وحق لم يقوموا بأدائه يجب لك عليهم .

أولاً ـ أن يجعلوا مساكنك على وفق قواعـد الصحة فسيحة مضيئة ، وأن يتخيروا البقاع الفسيحة الأرجاء الجيدة المواقع لإقامة هذه المساكن ، حتى إذا عزّ عليك ثمن الدواء وأجر الطبيب وجدت من نقي الهواء وواضح الضياء ونور ذكاء ، أطباء لا يسألونك أجراً ولا يكلفونك شكراً ولا يحرمونك من مزاولة عملك يوماً ولا عشراً .

ثانياً ـ أن ينشئوا المستشفيات المتنقلة لمداواة المرضى والعناية بأطفال العمال (ولا أطلب تقديم اللبن والزبد بالمجان كما تفعل الأمم المتحضرة) صيانة لأبنائها ورجالها في سعادة أوطانها، فإن مصر وان ُعرفت بإكرام الضيف وحسن قرى الغريب ، لم تعرف لأبنائها الاقربين هذا الحق الثابت .

ثالثاً ـ نشر التعليم بين أبناء هؤلاء الفقراء ، فإنه لا خير في أُمة لا تعـلم فيها أبناء الفقراء . ان في نشر العلم بين أبناء العمال فوائد جليلة ، فإن قدرة المتعلم على العمل أوفر وعنايته بصحته وهي رأس ماله أتم وعامل متعلم خـــير من عشرة جهلاء، وإذا تم تكوين العمال من طبقات متعلمة وصلت مصر بفضلهم الى منازل الأمم الراقية التي تنهض بها عمالها المتعلمون الى أوج السعادة والكمال .

ذلك بعض ما يجب على المصلحين أن يعاهدوا العمال على الوفاء بــه ليحفظوا أنفسهم بحفظهم ويسعدوا أمتهم بدوام نشاطهم وجدهم ، وما ذلك على همـــة المصلحين الصادقين بعزيز .

٩٣ ـ حكمة فرض الله على الأغنياء زكاة أموالهم للفقراء

علم الله أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وان الناس تتفاوت درجاتهم في الغنى والفقر ، فلم يحرم الفقير من عطف الغني ولا المقل من شفقة المكثر، فجعل

في أموال الأغنياء حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، وفرض عليهم قدراً مخصوصاً من مالهم يصلحون به أحوال هؤلاء البائسين .

لا ريب ان ذلك وسيلة الى سعادة الناس وصلاح أمرهم ولم شعثهم ، فلو ترك الفقير وشأنه لساء حاله واضمحل جسمه وقضى شهيد فقره وضحية عوزه .

ليس الغنى في استطاعة كل مخلوق ، فقد يكبو بالجد حظه وينهض بالمحظوظ جده .

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني بنجوم أفلاك السماء تعلقي

فليس من المروءة أن تترك هؤلاء العجزة الذين لا يستطيعون الى العمل سبيلاً ، يبيتون على الطوى ويمتهدون الصخور ويتروحون الى القبور على مرأى ومسمع منا .

من العار أن تتمتع بنعم الله ونعمه لا تحصى ، وتحرم عبيده من ثمرات هذه النعم. ألا ان شكر النعمة أن نصرفها فيما خلقت لهمن سبل البر ومناهج التقوى ان الصدقة تطفىء غضب الرب وتقرب من الجنة ونعيمها . فالعاقل من راقب ذوي الحاجة فسد عوزهم وأغنى فقرهم وأصلح شانهم وواساهم بنفسه وماله حتى لا يكون منهم أولئك المتشردون الذين أزعجوا العالم بالشرور والآثام من السرقة والقتل والسلب والنهب طمعاً في سد حاجتهم وانقاذ أرواحهم من مخالب الجوع ومهاوي الضنك أو اولئك القانعون الذين يستندون الأكف حتى صار ذلك عادة ألفوها ومهنة أتقنوها او اولئك الاشتراكيون الذين يدعون الناس الى ايقاد نار الفتن وايقاظ العداوة في القلوب فاصبحوا خطراً يهدد السلام ويعكر صفو الأنام .

فالزكاة دعامة من دعائم الدين من أداها حق أدائها فقد خدم نفسه وخدم أُمته ووطنه وخفف عن اولئك الفقراء المعدمين أعباء الحياة وأحيا في نفوسهم ميت الآمال .

٩٤ ـ وبالوالدين إحساناً

إن الله تعالى قد أودع قلوب الآباء خالص الشفقة والعطف على الأبناء فتراهم

ينفقون اموالهم وأنفسهم في سبيل تربيتهم ويسهرون لسهرهم ويألمون لألمهم وأسعد اوقاتهم ان يروا ابناءهم فرحين مستبشرين ذلك دأبهم يوم يولد الطفل حتى اذا شب وترعرع لم يدخر وسعاً في تربيته والنظر له في مستقبل أمره وتقويم ما يعوج من خلقه ولا تلهيهم عن شؤونه شواغل الحياة ومتاعب العيش.

لذلك كان الواجب على كل ولد ان يكون باراً بأبويه وأن يؤدي لهما واجب الطاعة ونهاية الاحترام ويلزم في معاملتهما جانب الأدب فإذا بلغا الكبر وصارا عاجزين عن العمل، كان لهما عوناً وحاطهما بعنايته وانفق فيحاجتهما ما يستطيع انفاقه جزاء لسالف برهما وعظيم فضلهما.

ان الولد البار لأبويه المخلص لهما في الطاعة، يستقبل من ذريته أبرّ الأبناء وأوفاهم له وأعطفهم عليه جزاء وفاقاً لطاعته السالفة وبره السابق وكما يدين الفتى يدان والجزاء من جنس العمل.

ومهما بالغ الابن في اكرام أبويه فلن يستوفي واجب البر، قال ﷺ: «بَروا آباءكم تبرّكم ابناؤكم». وقال تعالى: ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر احدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهماوقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذُل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾.

٩٥ ـ الاحصاء العام وآثاره في مدنية الأمم

عنيت حكومات الأممالراقية باحصاء عدد سكانها ومعرفتها مهنهموالوقوف على مقدار ثروتهم والاطلاع على حالتهم العلمية والصحية مع مقارنة حالهم الحاضرة بما سبقها من الحالات الغابرة يحملها علىذلك الرغبة فيالإصلاح والسعي في طريق الرقي والأخذ باسباب الحضارة والعمران.

تعرف الحكومة من طريق الإحصاء عدد سكان البلاد وما بلغه اهلها في العلم والتربية، وما هم عليه من صحة وضعف وما برعوا فيه من صناعة وتجارة وما يزالون محتاجين اليه من اسباب الرقي والتقدم ومجاراة الامم الناهضة، فإذا تم لها ذلك بدأت تعمل في مداواة الامراض ونشر العلوم والفنون وتثقيف العقول وفتح ابواب الرزق للعاطلين وتشجيع المجدين العاملين، فتنتشر المدارس

والمصانع حيث تكثر الحاجة إليها وتنشىء المستشفيات حيث تتفشى الامراض وترقي وسائل الزراعة حيث يطيب الزرع وتكثر الغلات ، ثم تنظر في عمارة الارض واصلاح ما فسد منها فتزيد في ثروة البلاد وتمهد الطريق لدفع غائلة الحاجة ، ولا تدع الامة عرضة للمصائب وهدفاً للنوائب ، ثم تعمل على تكثير سواد الأمة ونمو عددها وحفظ نسلها حتى تجد من أبنائها عوناً لها في الشدائد وحصناً في الملمات .

وبعد ـ فإن في الاحصاء العام تحليلاً لحالة الأمة وتبيناً لأمراضها الاجتماعية ، وبذلك تهيء الحكومة لكل داء دواء ، فتنهض بالأمة إلى مراتب الرقي والكمال وتزيدها حضارة وعمراناً ، فهو حسنة من حسنات المدنية وخدمة جليلة لبني الإنسان .

٩٦ ـ الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود

لا يأمن الإنسان ما يأتي به غده ولا ما ينتهي إليه أمره في مقتبل أيامه ومنتظر أعوامه فقد يكون اليوم غنياً وغداً فقيراً أو صحيحاً فيمسي سقيماً ، ثم هو الآن شاب يقوم بحاجة نفسه ولا يفكر في غيره، فإذا تتالت الأعوام صار رب أسرة وكاسب صبية ، هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

فإذا تبين الإنسان حقيقة أمره وحقق النظر في مستقبله وقاس ما لم يره في أُموره بما يراه من أمر غيره ، رأى ان من اول واجباته ان يتخذ الاقتصاد عادة له وأن يلزم نفسه سلوك سبيل الحكمة في الانفاق ، فلا يبدد ما يصل إلى يده مما قل أو كثر ، بل يجعل مما يكسبه نصيباً لعاجل نفقته ويدخر منه جزءاً لحاجته في مستقبله حتى إذا أدركه المرض أو تعطل من العمل ، وجد مما أدخره كنزاً ينفق منه حاجته ويسد به مطالبه ، ثم إذا صار رب أسرة أمكنه ان يقوم بتهذيب أبنائه وتثقيف عقولهم ودفع ما يحتاجون إليه من أُجور المدرسة وأثمان الكتب ، وغير ذلك مما يتجدد بتجدد الأعوام وتتابع الأيام .

وكأين رأينا من غني تركه الإسراف فقيراً ، وفقير جعله القصد غنياً .

ولقد أحسن القائل :

من كان فيما أفاد مقتصداً　　لم يفتقر بعدها إلى أحد

فعلى العاقل ان يلتزم القصد والادخار في نفقاته، فإنه لا يعول من اقتصد ولا يفتقر إلى احد ، وفي الكتاب الكريم : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .

وقال الشاعر :

قليل المـال تصلحه فيبقى　　ولا يبقى الكثير مع الفساد

٩٧ ـ لا تؤخر عمل يومك إلى غدك فلكل يوم عمله

لا بدّ لكل إنسان من مزاولة اعمـــال كثيرة تتجدد بتجدد الأيام وتدوم حاجته إليها ما دامت الحياة .

فعلى العاقل ان يلزم نفسه تأدية كل عمـل في وقته المناسب له ، فانه اذا فعل ذلك احس من نفسه الراحة واستشعر السرور كلما فرغ من عمله وجنى ثمرة تعبه ووجد من وقته نصيباً للدعة والراحة .

فأما اذا تراخت همته وفترت عزيمته ، فان الأعمال تتراكم عليه فيضعف عن القيام بها جملة واحدة ، ولا يستطيع إجادة صنعها واحكام وضعها .

ومن ضيع الأوقات ضاعت حياته　　وعاش فقيراً جاهـلا ليس يشكر

فـدع غائباً من فائت ومؤمل　　فوقتك سيف قاطع ليس يعـذر

ان من عود نفسه القيام بكل عمل في زمانه يعتاد النشاط والجد وتنشرح نفسه للعمل وتزيد رغبتها فيه كلما جنت ثماره ، وأما من اهمل وقصر فانه يعتاد البطالة والكسل ويكون كلاً على الناس ، لا يجد للعيش لذة ولا للحياة سروراً.

وعاجز الرأي مضياع لفرصته　　حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

ولا أؤخر شغل اليوم عن كسل　　إلى غد ان يوم العاجزين غـدُ

٩٨ ـ ليس الرجل بثيابه وماله وإنما الرجل بآدابه وكماله

ليس من الحكمة أن يحكم الإنسان على اقدار الناس وتفاوتهم في المنزلة بمـا

يشاهد على اجسادهم من الثياب ، فرب كريم النفس طاهر العرض قـد ارتدى أسمالاً بالية ، ولكن له نفساً بين جنبيه كبيرة لم ترتكب إثماً ولم تهم بفاحشة أو منكر ، بينا نجد آخر فاخر الحلة حسن البزة ، وعرضه قد تناولته سهام الطاعنين وألسنة القادحين ، فلم تدفع عنه ثيابه لوم اللائمين ولا إهانة المهينين .

لا زينة المرء تعليه ولا المال ولا يشرّفه عم ولا خـال
وإنمـا يتسامى للعلى رجل ماضي العزيمة لا تثنيه أهوال

فإنما الجمال والشرف في طهارة العرض وصون النفس من الدنس وترفعها عن الدنايا ، ولقد أحسن من قال :

لئن كان ثوبي دون قيمته الفلس فلي فيه نفس دون قيمتها الإنس
فثوبك بدر تحت أذياله الدجى وثوبي ليل تحت أطماره الشمس
ليس الجمـال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العـلم والأدب
لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلى من قدّم الحذرا

إن للمجد طلاباً وللمكارم خطاباً يبذلون مـا يملكون من نفيس ، ويضحون بكل ما يضن بـه من راحة ومسرة في سبيل الغاية التي ينشدونها والعاقبة التي يؤملونها ، وأي غاية أسمى من المجـد وغرض أكرم من العلا والشرف ، تراهم يضعون هذا الغرض الأسمى نصب عيونهم ، فلا ينون وان مسهم نصب أو عراهم ألم عن الجـد في سبيله والسعي الى نيله يذللون كل عقبة ويتخطون كل عائق بهمة لا تبالي بالمصاعب وعزمة تستهين بالنوائب .

وكم يحـلو لهم ركوب متن الاخطار وتجشم مشاق الاسفار وامتطاء صهوات البحار ليدركوا أملهم من المجد وغايتهم من الكمال ـ ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

ألا ترى الرجل الشجاع يجود بنفسه في موطن الحرب ويتقدم غير هياب ولا وجل ، وترى الجواد ينفق الطارف والتلاد طمعاً في الحمـد ورغبة في الثناء . وكذلك يكون عظماء النفوس وطلاب المجد .

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

٩٩ - التمثيل الهزلي وأثر مضاره في أخلاق العامة

مصر بلد العجائب تلد كل عام ما تئن له نفوس العقلاء وتحتار في كنهه أحلام المفكرين ، فقد أنشئت بين ظهرانينا (دور) سموها دور التمثيل وهي أولى بأن تعرف بدور السخرية والهزل .

هذه الدور أمست محط رحال الغوغاء وصغار الاحلام من الشبان الطائشين الذين دنسوا الفضائل وتمادوا في الغي بما يسمعون من الاناشيد المخجلة ويرون من صنوف الرذائل حتى اذا فارقوا تلك الدور ، نفثوا ذلك السم الزعاف من أفواههم بأصوات منكرة لا يلبث الاطفال حتى يرددوها في الشوارع والمنازل، وفي ذلك مفسدة للأخلاق تذهب بالأمم الى مهاوي الشقاء ودرك الفناء .

ولقد ترك أيضاً هذا النوع من التمثيل أثراً سيئاً في اللغة ، فأخذت الألسن تلوك ألفاظاً لا هي عامية مألوفة ولا عربية صحيحة كادت تغلب اللسان على أمره بما تعود نطقها وألف ترديدها حتى كادت تهدم بناء اللغة العربية وتقوض دعائمها وتأتي على ثمارها الطيبة ورياضها العامرة فتجعلها قاعاً صفصفاً وصعيداً جرزاً .

كذلك ترك أثراً سيئاً في الاخلاق بما يراه الشبان والشابات في تلك الدور من فحش في القول وحطة في الفعل وبذاءة في اللسان واستهتار بالكمال وتبرج في الزينة وخروج عن قواعد الشرف ومجون مزر بالمروءة وخلاعة تمحق الكرامة والنفس أمارة بالسوء اذا عرفته داعية الى الفساد اذا ألفته، فإذا جمحت بصاحبها اوردته موارد الهلكة وقلما تنزع عن عاداتها وتروغ عن شهواتها وترتدع عن غيها.

ذلك أثر التمثيل الهزلي الذي يتنافى مع الفضيلة ويتنافر مع الشرف ، وقلما تجد منه ما يرمي الى غاية نبيلة وغرض شريف .

فجدير بالحكومة أن تراقب هذه الدور وأن تعمل يد الشدة في اقفاء القائمين بأمرها حتى تكبهم لوجوههم ولا تدعهم في غيهم يعمهون وفي أودية ضلالهم يهيمون .

١٠٠ ـ مضار التبغ « الدخان »

من العادات المضرة الكثيرة الانتشار بمصر وغيرها من الاقطار تناول (التبغ) فترى الشاب تنزع به نفسه ويميل بـــه هواه الى محاكاة غيره في تعاطيه يعده تظرفاً ويحسبه مدنية وترفاً ، فاذا قدم له احد اترابه اول لفافة اوقدها ، وبدأ يستنشق دخانهـــا السام ولا يلبث الا قليلاً حتى يأخذ في الإكثار من تناوله ، فيصبح عادة له لا يستطيع الى تركها سبيلاً .

واذ طال الزمن واستحكمت في نفسه هذه العادة السيئة بدأت صحته تضعف وقوته تتضاءل ورغبته في الطعام تقل ، واذا ذلك الوجه الناضر والجسم الممتلىء والشباب الغض قـــد عراه الذبول وتمكن منه النحول ، فأصبح بعد الغضارة والنضارة جسداً ذابلاً وجسماً ناحلاً يأخـذه سعال مؤلم ويحس بخفقان في قلبه وفتور في قوته ويتمنى لو يقاسمه الطبيب ماله ويحجبه عن عادته ويندم ولات ساعة مندم . ثم هو مع ذلك يفقد بشاشته ويحرم صفاء نفسه وقوة فكره فتتغير اخلاقه وتتبدل صفاته وتراه اذا اعوزه التبـغ احياناً ذاهل النفس ناكس الرأس كأنما هو في هم ناصب وعناء ممض وقد تتغير سجاياه . فإذا ذلك الحليم الهادىء غضوب جموح وذلـك الوادع الساكن هائج ثائر يلجأ الى تناول التبغ لتسكين غيظه وتهدئة ثائرة نفسه .

فعلى الآباء ورجال التربية ان يتعهدوا ابناءهم وتلاميذهم بالنصح والإرشاد ، وان يرقبوهم في اوقات الفراغ ، فلا يدعوا لهم طريقاً الى اتباع هـــذه العادة الذميمة ليحفظوا لهم صحتهم وراحتهم ويـدفعوا عنهم شر الامراض ويصونوا اموالهم من الضياع حتى اذا شب هؤلاء الابناء عرفوا لهم ذلك الفضل وحمدوا تلك العناية . وما ذلك على همة الآباء والمربين بعزيز .

١٠١ ـ ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

ان حاجة الإنسان الى الصديق ماسة ، فانـــه عون في الشدة وانيس في الرخاء ومرجع في السراء والضراء ، فعلى الإنسان ان يصطفي كثيراً من الاخوان ليشد بهم ازره ويشرح بقربهم صدره ، واذا بدرت من احدهم بادرة فـلا يقطع

لذلك حبل مودتهم ويفصم عرا صحبهم ، فان لكل سيف نبوة ولكل جواد كبوة .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

وعلى الإنسان ان يتجنب محاسبتهم على تلك الهفوات وتقريعهم على صغائر الزلات فطالما كان العتاب سبباً في القطيعة وطريقاً الى التفريق ، ان عاتب فليكن بلطف ورقة ، فان القلوب كالزجاج صدعها لا يجبر وليتخذ العفو ديدناً ويدفع السيئة بالحسنة ، فذلك ادعى الى دوام الألفة وبقاء المودة وطيب العيش واستدامة الصحبة ، وقد احسن الشاعر اذ يقول :

اذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحداً اوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

الا سامح اخاك اذا تعدى والق اليه في الحرب السلاحا

فمن يعتب على الاخوان يتعب ومن لزم المسامحة استراحا

١٠٢ - غني المرء في الغربة وطن وفقره في الوطن غربة

الإنسان في الغربة بعيد عن اهله واخلائه الذين هم ساعده في الشدة وموضع سروره في الرخاء ، فاذا كان مثرياً اخذ يرتاد الاصدقاء ويطلب الاخوان بفضل ماله وسابغ بره ، والإنسان عبد الإحسان ، فلا يلبث ان يملك النفوس ويسترق القلوب ويستهوي إليه الافئدة ، وعما قليل تكثر حاشيته وتتزايد أتباعه فيكونون منه مكان الأهل يؤازرونه في الضراء ويستروحون اليه في السراء ويكونون له سلوة على ألم الغربة ونصب الفرقة .

فأما إذا كان فقيراً معدماً لا يجد من المال ما يمت به الى تلك القلوب أو يمتلك به عنان الافئدة ، فإنه لا يجد حراً يواسيه ولا صديقاً يدانيه ، فيجمع الى ألم الغربة ومضض الفقر عناء الوحدة والانفراد .

وكذلك يجعل الفقر صاحبه ذليلاً في اقترابه وحيداً في اغترابه ، فما أشقى الفقراء وأسعد الأثرياء الأغنياء .

١٠٣ - ربّ أخٍ لك لم تلده أمك

الصداقة بلا ريب لحمة كلحمة النسب تصل بين الصاحبين فتمزج قلبيهما وتسري في نفسيهما سريان الروح في الجسد والماء في العود الخضر فتتشابه بها النفوس وتتشاكل الاميال وتتحد الاغراض ، فينشأ عن ذلك كله الألفة والمودة ويتولد العطف والحنان ، فترى الصديق يشاطر صديقه سروره ويخفف عنه آلامه وأحزانه ، فاذا أصابه الدهر بحدثانه وألمت به ملماته ، أخذ يخفف عنه هول مصابه ، ويمنيه بالسعادة المستقبلة والراحة المنتظرة ، وهو مع ذلك كله يود لو يحمل عنه ما انقض ظهره واثقل عاتقه ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً :

ان اخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت شمل نفسه ليجمعك

فسقياً لك أيتها الصداقة ورعياً لما تلدينه من الاخوان فانهم عدة لنوائب الزمان ودروع سابغات في النائبات ونجوم لامعة في الليالي المدلهمات .

أما أنت أيها الصديق الذي ارتضع مع صديقه ثدي المودة وتغذيا بلبان الصحبة ، فانك اجدر الناس بالمحبة، وما انت دون الأخ الشقيق فضلا ولا ببعيد عنه أصلا ، فخير الاخوين النافع وما نفعك ان عز نفع الشقيق ببعيد .

ما ضاع من كان له صاحب ... يقدر ان يرفع من شأنه
فانما الدنيا بسكانها ... وإنما المرء باخوانه

أعط القليل ولا تمنعك قلته ... فكل ما سد فقراً فهو محمود

قد يرى الإنسان السائل المسكين والفقير المعدم تكاد تفيض روحه ألماً وتذهب نفسه حسرات ، لا يجد ما يحفظ به الرمق ويدفع به ألم الحاجة ، فيود رائيه لو ان له مالاً كثيراً فيواسيه ومعيناً من الثروة فيغنيه ويستحي أن يمد اليه يده بدرهم يراه لا يروي غلة ولا يرفع كربة ولا حق له في هذا الحياء ، فان الايدي اذا كفت عن معونته بالقليل - وقل ان ينال الكثير - تضور جوعاً وذهب عنه صبره ووهى جلده واستسلم لليأس والجزع وربما طوح بنفسه الى اللحد.

ان القليل في الخير كثير لا يعـــدم الإنسان جزاءه ولا يحرم ثوابه . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾. ألا وان الايثار على النفس فضيلة المحسن وشرعة الكريم ، وقد أثنى الله تعالى في كتابه الكريم على من يؤثر ببره ويمنحه ميسور جوده ، فقال تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ .

وقال الشاعر :

ليس العطاء من الفضول سماحة   حـــتى تجود وما لديك قليل

١٠٤ ـ التقليد في الفضيلة سبيل النجاح

حقاً ان الإنسان بفطرته ميال الى العلا محب للمجد يتمنى ان تتاح له الفرص التي يبلغ بهـا غرضه ويدرك بها طلبته يحفزهما ويستحث عزيمته ، ما يتردد على ألسنة الناس من حمد كريم وذكر عظيم واجلال نابـــه ، فيود ان تكون له في نفوس قومه وعشيرته تلك الذكرى الطيبة والشهرة العالية .

وقـــد يظن أحياناً أنه ليس في مقدوره إدراك منازل العظماء والترقي في مراتب الشرفاء، ولكنه لو علم ان العزيمة الصادقة والهمة العالية تبوّىء صاحبها عرش المجـد وتجلسه على أريكة العز لقلد اولئك الاشراف في صفاتهم وحاكاهم في اعمالهم ، فانه ان فعل ذلـك أدرك غايته ونال طلبته ، لأن القدوة الصالحة تكون عظماء الرجال . فما اختص قوم بالمجد ولا استأثروا بالشرف ومـا عليهما حاجب يحجب طالباً ولا مانع يمنع راغباً .

إذا أعجبتك خصال امرىء   فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على المجـد والمكرمات   إذا جئتهـــا حاجب يحجبك

فذلل بهمتك ما يعترض طريقك من المصاعب واركب متن الاخطار ووطن نفسك على الصبر واقف آثار من سبقك الى العلا غير هياب ولا وانٍ ، فانك لا محالة موفٍ على غايتك وواصل الى امنيتك .

وقـل من جدّ في أمر يحاوله   واستعمل الصبر إلا فاز بالظفر

١٠٥ - الأدب وسيلة الى كل فضيلة

الأدب هو التحلي بأحسن صفات الكمال والتخلي عن الرذائل والبعد عن النقائص ، بحيث يكون الإنسان في جميع أحواله ومعاملاته في المجتمع الإنساني على مقتضى العقل الكامل والذوق السليم ، فلا يصدر منه ما يوجب الذم واللوم، ولا يقع منه ما يخل بشرفه او يحط من قدره ، فالأدب عنوان الكمال يرفع الوضيع الى درجة الرفيع ويعلو بالسوقة الى مرتبة الملوك ، ولهذا كان حقاً على كل امرىء ان يتخلق به طبقاً لما جاء به النبي ﷺ .

قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ .

قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرني ربي بتسع : الإخلاص في السر والعلانية ، والعدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وان أعفو عمن ظلمني ، وأصل من قطعني ، وأعطي من حرمني ، وأن يكون نطقي ذكراً وصمتي فكراً ، ونظري عبرة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه » .

وقال علي كرم الله وجهه : « إن الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلاً بينه وبينكم ، فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها . وقال : غاية الأدب أن يستحي الإنسان من نفسه » .

وقال خالد بن صفوان لابنه : يا بني الأدب بهاء الملوك ورياش السوقة والناس بين هاتين فتعلمه تجد نفسك حيث تحب .

وقال ابن المقفع : ما نحن إلى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذي هو لقاح عقولنا .

وقال بزرجمهر : ليت شعري - أي شيء أدرك من فاته الأدب وأي شيء فات من أدرك الأدب. وقال لكسرى وعنده أولاده : أي أولادك أحب إليك قال : أرغبهم في الادب وأجزعهم من العار وأنظرهم إلى الطبقة التي فوقهم .

وحكي الأصمعي رحمه الله تعالى : ان اعرابياً قال لابنه : يا بني الادب دعامة أيّد الله بها الالباب ، وحلية زين الله بها عواطل الاحساب ، فالعاقل لا يستغني وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته ، كما لا تستغني الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها .

وقال بعض الحكماء : الادب صورة العقل ، فصور عقلك كيف شئت ، وقال آخر : إذا كان الرجل طاهر الاثواب كثير الآداب حسن المذهب تأدب بأدبه وصلح بصلاحه جميع اهله وولده ، وقال غيره : من كثر ادبه كثر شرفه وان كان قبل وضيعاً وسد صيته، وان كان خاملاً وساد وان كان غريباً وكثرت الحاجة إليه وان كان مقتراً ، وقال غيره : عليكم بالأدب فانه صاحب في السفر ومؤنس في الوحدة وجمال في المحفل وسبب الى قضاء الحاجة .

وقال بعض الادباء : زك قلبك بالادب كما تزكي النار بالحطب ، واتخذ الادب غنماً والحرص عليه حظاً يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك ، وقال آخر : شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذي كلما علا سمكه كان أشد وحشة ، وبالنهر اليابس الذي كلما كان اعرض واعمق كان أشد وعورة ، وبالأرض الجيدة المعطلة التي كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافاً وصار للهوام مسكناً .

وقال بعض العلماء : العقل بلا ادب كالشجر العاقر ، ومع الادب كالشجر المثمر . وقال آخر : الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل مكرمة .

وقال بعض الفصحاء : الفضل بالعقل والادب ، لا بالاصل والحسب . وقال غيره : من ساء ادبه ضاع حسبه ، ومن قل عقله ضل اصله . وقال غيره : الأدب يستر قبيح النسب .

وقال الشاعر :

لكل شيء زينة في الورى   وزينة المرء تمام الادب
قد يشرف المرء بآدابه   فينا وإن كان وضيع النسب

وقال آخر :

فما خلق الله مثل العقول   ولا اكتسب الناس مثل الادب

وما كرم المرء إلا التقى ... ولا حسب المرء إلا النسب

وقال غيره :

ما وهب الله لامرىء هبة ... أشرف من عقله ومن أدبه
همـا حياة الفتى فإن عدما ... فان فقد الحياة أجمل بـــه

وقال غيره :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول هأنـــذا ... ليس الفتى من يقول كان أبي

١٠٦ ـ الحلم سيد الأخلاق

الحلم هو ضبط النفس عند ثورة الغضب ، حال وجود مـا يدعو إليه وتملك عنانها حذر الاسترسال في هياجها ، فيحدث ما لا تحمد عقباه ، فكم جر الغضب من الأضرار على أناس ما لو ملكوا أنفسهم وكبحوا جماحها لسلموا منه وكانوا إلى السيادة التي حرصوا عليها بما فعلوا أقرب ، وإن ممـا يدعو الى طول الأسف ما نراه عند شبابنا من الغضب في أدنى الامور وأوهى الاسباب، ولو علموا ان الحلم سيد الاخلاق ، وانه يكمل صاحبه بجميل الخصال ، ويحببه الى الله تعالى ويرفع قدره عند الناس لما عرفوا للغضب سبيلاً ولا سلكوا له طريقاً .

قال الله تعالى: ﴿ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور﴾ وقال عزوجل: ﴿ خذ العفو وأْمر بالعرفِ وأعرض عن الجاهلين ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب الحليم الحي ويبغض الفاحش البذي » وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » . وقال عليه السلام : « ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار ، تحرم على كل قريب هين لين سهل » وقال : « ابتغوا الرفعة عند الله تحلم عمن جهل عليك وتعطي من حرمك » وقال : « كاد الحليم أن يكون نبياً » وروي ان رجلاً أتى الى النبي ﷺ فقال له : أوصني ، « قال لا تغضب ـ فردد مراراً قال لا تغضب » .

وقال علي كرم الله وجهه : « أول مـــا يعوض الحليم عن حلمه ، ان الناس أنصاره » .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه ـ لرجل أسمعه كلاماً : يا هـذا لا تغرق في سبنا ودع للصلح موضعاً ، فاني أبيت مشاتمة الرجال صغيراً فلن أجيئها كبيراً ، وإني لا أكافىء من عصى الله فيّ بأكثر من ان اطيع الله عز وجل فيه . وشتم رجل الشعبي فقال : إن كنت كما قلت فغفر الله لي. وان لم أكن كما قلت فغفر الله لك، واغتاظت عائشة رضي الله عنها على خادم لها، ثم رجعت الى نفسها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شقاء .

وقال الأحنف بن قيس : مـا عاداني أحد إلا اخذت في امره باحدى ثلاث خصال : إن كان أعلى مني عرفت له قدره ، وإن كان دوني رفعت قدري عنه ، وإن كان نظيري تفضلت عليه .

وقال بعض الحكماء : احتمال السفيه خـير من التحلي بصورته والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته ، وقال آخر : إذا سكت عن الجاهل فقـد أوسعته جواباً وأوجعته عقاباً ، وقال غيره : في إغضائك راحة اعضائك .

وقال بعض الأدباء : من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم ، وقال آخر : ما أفحش حليم ولا اوحش كريم .

وقال بعض البلغاء : ما ذب عن الاعراض كالصفح والاعراض ، وقال آخر: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن ـ لا يعرف الجواد إلا في العسرة والشجاع إلا في الحرب والحليم إلا في الغضب .

وكان الأحنف مشهوراً بين الناس بالحلم ، وبذلك ساد عشيرته فقيل له : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس بن عاصم ، كنا نختلف إليه في الحلم كما يختلف الى الفقهاء في الفقه . ولقد حضرت عنده يوماً وقد اتوه بأخ له قد قتل ابنه فجاءوا به مكتوفاً ، فقال : ذعرتم أخي اطلقوه واحملوا الى أم ولدي ديته فانها ليست من قومنا ، ثم أنشد :

اقول للنفس تصبيراً وتعـزية ... احـدى يديّ اصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه ... هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي

وقال الجعدي :

ولا خير في حلم اذا لم يكن له ... بوادر تحمي صفوه ان يكدرا
ولا خير في جهل اذا لم يكن له ... حليم اذا ما اورد الأمر اصدرا

وقال صلاح الدين الصفدي :

واستشعر الحلم في كل الامور ولا ... تسرع ببادرة يوماً الى رجل
وان بليت بشخص لا خلاق له ... فكن كأنك لم تسمع ولم يقل

وقال الشاعر :

احب مكارم الاخلاق جهدي ... واكره ان اعيب وان اعابا
واصفح عن سباب الناس حلماً ... وشر الناس من يهوي السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

١٠٧ ـ الصدق يرفع أهله والكذب مرتعه وخيم

الصدق هو القول بما يطابق الحقيقة والواقع من غير تبديل ولا زيادة او نقصان وهو من ضروريات الحياة ، ولولاه لانتزعت ثقة الناس بعضهم من بعض ولما وصل اليهم شيء من الحقائق في العلوم والاديان ، وليس في الاخلاق خلق احسن بالاصلاح والنظام من الصدق ولا افسد لهما من الكذب ، فهو رأس الفضائل ورأس المروءة ، من تحلى به كملت صفاته وسمت اخلاقه وتحققت معه آماله .

قال الله تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس انه كان صديقاً نبياً ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴾ . وقال جل شأنه: ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ . وقال تعالى : ﴿ انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق فانه مع البر ، والبر يهدي الى الجنة واياكم والكذب فانه مع الفجور ، والفجور يهدي الى النار » . وروى عنه عليه

الصلاة والسلام انه قال : « عمــل الجنة الصدق ، واذا صدق العبد بر ، واذا بر آمن ، واذا آمن دخل الجنة . وعمل النار الكذب ، واذا كذب العبد فجر ، واذا فجر دخل النار » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « عليكم بالصدق فانه باب من ابواب الجنة ، واياكم والكذب فانه باب من ابواب النار » . وقال: «رحم الله امرىء اصلح من لسانه واقصر من عنانه والزم طريق مقوله ولم يعود الخطل مفصله » وقيل للنبي ﷺ : « ايكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم ، قيل : افيكون بخيلا ؟ قال : نعم ، قيل : افيكون كذابا ؟ قال : لا » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لأن يضعني الصدق وقلما يفعل ، احب الى من ان يرفعني الكذب وقلما يفعل .

وقال علي كرم الله وجهه : قــد يبلغ الصادق بصدقه ما لا يبلغه الكاذب باحتياله .

قال ابن المقفع : لا تتهاونــ بارسال الكذبة من الهزل فانهــا تسرع الى ابطال الحق .

وقال علي بن عبيدة : الكذب شعار الخيانة ، والصدق ربيــع القلب وزكاة الخلقة وثمرة المروءة وشعاع الضمير .

وقال أعرابي لابنه وسمعه يكذب : يا بنيّ ان الكذاب يتعرض للعقاب من ربه ان قال حقاً لم يصدق ، وان اراد خيراً لم يوفق فهو الجاني على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله ، فما صح من صدقه نسب الى غـــيره ، وما صح من كذب غيره نسب اليه .

كذبت ومن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق ألا يصدّقا

وقال أحد الفلاسفة: اياك وحكاية ما يستبعد فيجد عدوك سبيلاً الى تكذيبك فان من صفات العاقل ان يحدث بما لا يستطاع تكذيبه .

وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أسُّ السعادة، وقال آخر : الكذاب لص ، لأن اللص يسرق مالك والكذاب يسرق عقلك . وقال غيره : من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله . وقـــال غيره : نزه سمعك عن سماع الكذب كما تنزه لسانك عن التفوه به .

وقال بعض الأدباء: الكذب جماع كل شر وأصل كل ذم لسوء عواقبه وخبث نتائجه لأنه ينتج النميمة ، والنميمة تنتج البغضاء ، والبغضاء تؤول الى العداوة، وليس مع العداوة أمن ولا راحة .

وقال آخر : الكذب متهم وان صدقت لهجته ووضحت حجته .

وقال غيره : لا سيف كالحق ولا عون كالصدق .

وقال بعض البلغاء : الصادق مصون جليل ، والكاذب مهان ذليل . وقال آخر : ليكن مرجعك الى الحق ومنزعك الى الصدق ، فالحق اقوى معين والصدق أفضل قرين . وقال غيره : إذا اتسم المرء بالكذب نسبت اليه شوارد الكذب المجهولة وأضيفت الى اكاذيبه زيادات مفتعلة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه ، فيجمع بين معرة الكذب عنه ومضرة الكذب عليه .

وقال بعض الفضلاء : الصدق منجيك وان خفته ، والكذب مرديك وان امنته .

وقال بعض العلماء : من صدق في مقاله زاد في جماله ، وقال آخر : تحرّوا الصدق وان رأيتم فيه الهلكة فان فيه النجاة ، وتجنبوا الكذب وان رأيتم فيه النجاة فان فيه الهلكة .

وقال الشاعر :

عوّد لسانك قول الصدق تحظ به ... ان اللسان لما عودت معتاد
موكل بتقاضي ما سننت له ... في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

وقال آخر :

عليك بالصدق ولو أنه ... أحرقك الصدق بنار الوعيد
وابغ رضا المولى فأغبى الورى ... من اسخط المولى وأرضى العبيد

وقال غيره :

عليك بالصدق في كل الأمور ولا ... تكذب فأقبح ما يزري بك الكذب

وقال غيره :

ما أحسن الصدق في الدنيا لقائله	وأقبح الكذب عند الله والناس
لا يكذب المرء إلا من مهانته	او عادةالسوء او خلو من الأدب
وما شيء إذا فكرت فيه	بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه	وأبعد بالبهاء من الرجال

١٠٨ ـ الحياء دليل الخير كله

حياة الوجه بحيائه ، كما ان حياة الغرس بمائه

الحياء هو الكف عن كل ما يستقبحه العقل ويمجه الذوق واستنكار كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق، خلق شريف يمنع المرء عن فعل المحرمات والمنكرات ويصونه عن الوقوع في الأوزار والآثام ، فمن فقد الحياء فقد ذهبت آدابه أدراج الرياح ، وأضحى منبوذاً محروماً من كل خير وفضل .

قال الله تعالى : ﴿ ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه والى الله المصير ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « الحياء من الايمان والايمان في الجنة ، والبذاء من الجفاء والجفاء في النار » . وقال عليه الصلاة والسلام : « استحيوا من الله حق الحياء ، من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء » . وعن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال : « ان الحياء والايمان قرنا جميعاً ، فاذا رفع أحدهما رفع الآخر » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الايمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الايمان » . وقال : « الحياء لا يأتي إلا بخير » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى ، إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

وقال كعب : استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم.

وقال حذيفة بن اليمان : لا خير فيمن لا يستحيي من الناس .

وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه لم يرَ الناس عيبه .

وقال آخر : الحياء في الصبي خير من الخوف ، لأن الحياء يدل على العقل ، والخوف يدل على الجبن .

وقال أحد الأدباء : ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك ، وقال آخر : من عمل في السر عملاً يستحي منه في العلانية ، فليس لنفسه عنده قدر .

وقال آخر : أحي حياءك بمجالسة من يُستحى منه ـ وقال غيره : اجعل الحياء حكماً على أفعالك .

وقال أحد الفصحاء : سمة الخير الدعة والحياء ، وسمة الشر القحة والبذاء ، وكفى بالحياء خيراً ان يكون على الخير دليلاً ، وكفى بالقحة والبذاء ان يكونا إلى الشر سبيلاً .

وقال آخر : القناعة دليل الأمانة والأمانة دليل الشكر والشكر دليل الزيادة والزيادة دليل بقاء النعمة ، والحياء دليل الخير كله .

وقال أحد العقلاء : عليك بالحياء والأنفة ، فإنك إن استحييت من الفضاحة اجتنبت الخساسة ، وإن انفت من الغلبة لم يتقدمك أحد في مرتبة ، وقيل لا وفاء لمن ليس له حياء .

وقال الشاعر :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ... ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياءك فاحفظه عليك وإنما ... يد على فعل الكريم حياؤه

وقال آخر :

إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ... من الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى الحياء

وقال غيره :

وحاجة دون أخرى قد سنحت بها جعلتها للتي أخفيت عنوانا
وإني لأرى من لا حياء له ولا أمانــة وسط القوم عريانا

وقال غيره :

ورب قبيحة ما حال بيني وبـــين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن إذا ذهب الحياء فلا دواء

وقال غيره :

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً وتستحي مخلوقاً فما شئت فاصنع

١٠٩ - التواضع دليل العلم والكبر دليل الجهل

التواضع هو تحمل النفس بالخضوع ومنعها عن الترفع على الناس والاستخفاف بهم وحملها على احترامهم مهما اختلفت درجاتهم وتباينت مشاربهم وعدم الكبر على أحـد سواء في ذلك الوضيـع والرفيـع والصغير والكبير ليحافظ على منزلته في النفوس ، ويأخـــذ مكانته في القلوب ، وهي خصلة محمودة تدعو إلى التوادد والتعاون ، وتدل على طهارة النفس وسلامة الذوق ، فكم رفع التواضع أقواماً، فكانوا هم الألى فازوا برضا ربهم والفضل العظيم ، وكم خفض الكبر آخرين فحل عليهم غضب الرحمن ، وباءوا بالخسران المبين .

قال الله تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾. وقال تعالى: ﴿ ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختالٍ فخورٍ ﴾ وقـــال عز وجل : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا ولا يبـغ بعضكم على بعض » . وروي قيس بن حازم ان رجلاً أتى به إلى النبي ﷺ فأصابته رعدة ، فقال له ﷺ : « هون عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد ». وقال عليه الصلاة والسلام : « ما تواضع احد لله إلا رفعه » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر ». وقال: « اجتنبوا الكبر

فإن العبد لا يزال يتكبر حتى يقول الله تعالى لملائكته اكتبوا عبدي هــذا في الجبارين » . وقــال لعمه العباس : « أنهاك عن الشرك والكبر فإن الله يحتجب منهما » .

وقال سعد بن أبي وقاص لابنه : يا بني إياك والكبر وليكن ما تستعين بـه على تركه علمك بالذي منه كنت والذي اليه تصير .

وقال سفيان : السفلة إذا تعلموا تكبروا، وإذا تمولوا استطالوا والكرام إذا تعلموا تواضعوا ، واذا افتقروا استطالوا .

وقال ابن السماك : تواضعك في شرفك ، أشرف لك من شرفك .

وقال بعض الحكماء : من اظهر عيب نفسه فقد زكاها ، فـإذا قطع أسباب الكبر وحسم مواد العجب اعتاض بالكبرياء تواضعاً وبالعجب تودداً ، وذلك من أوكد أسباب الكرامة وأقوى موارد النعم وأبلغ الشفعاء الى القلوب يعطفها الى المحبة ويثنيها عن البغض . وقال آخر : من نال منزلة فأبطرته دل على رداءة اصله وعنصره . وقال غيره : من تكبر على الناس ذل. وقال غيره : عجب المرء بنفسه احد حساد عقله ، وليس الى ما يكسبه الكبر من المقت حد ، ولا الى ما ينتهي اليه العجب غاية ، حتى انه ليطفىء من المحاسن ما اشتهر ، وناهيك بسيئة تحبط كل حسنة ، وبمذمة تهدم كل فضيلة مــع ما يثيره من حنق ويكسبه من حقد . وقــال غيره : من برىء من ثلاث ، نال ثلاثاً من برىء من السرف نال العز ، ومن برىء من البخل نال الشرف ، ومن برىء من الكبر نال الكرامة .

وقال احد الادباء : من ولد في الفقر ابطره الغنى، ومن ولد في الغنى لم يزده إلا تواضعاً .

وقال احد العلماء : اجهل الناس من قل صوابه وكثر اعجابه وابغض الناس ذو عسر يخطر في رداء كبر . وقيل التواضع من اخلاق الكرام ، والكبر من اخلاق اللئام ، وقيل تاج المرء التواضع .

وقال الشاعر :

واقبح شيء ان يرى المرء نفسه ... رفيعاً وعنــد العالمين وضيع
تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات المـاء وهو رفيع

ولاتك كالدخان يعلو بنفسه على طبقات الجو وهو وضيع

١١٠ - لن تنالوا ما تحبون إلا بالصبر عما تكرهون

وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل اخلاق الرجال التجمل

الصبر هو تحمل النفس مكاره الحياة وعدم الجزع لنوائب الدهر ونكباته ، وهو الدواء الشافي لمن ملك الحزن عليه نفسه والباسم المعافى لمن قبض الجزع على زمام عواطفه ، بل هو عين الراحة وينبوع الفرح مبيد الهموم ومزيل الغيوم ، ولا سبيل الى تشتيت ما علق بالمرء من الأحزان الا التمسك به والتعلق بأهدابه فهو ركن حصين في محاربتها ، وعماد قويم على صنعها ، وناهيك بعظم ثواب الصابرين وسوء عاقبة الجازعين .

قال الله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ﴾. وقال تعالى: ﴿ ولنجزين الذين صبروا اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾. وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين﴾. وقال عز وجل: ﴿انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وقال تعالى : ﴿ واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: « افضل الايمان الصبر والسماحة » وقال عليه الصلاة والسلام : « الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب » . وروى عن انس ان رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : اذا وجهت الى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه او في ولده او في ماله فاستقبلها بصبر جميل استحييت يوم القيامة ان انصب له ميزاناً او انشر له ديواناً » . وعنه انه قال : « النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا » . وقال عليه السلام : « من اصيب بمصيبة في ماله او جسده وكتمها ولم يشكها الى الناس كان حقاً على الله ان يغفر له » . وقال : « من اعطى فشكر ومنع فصبر وظُلم فغفر وظَلم فاستغفر ، بأولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

وقال علي كرم الله وجهه للأشعث بن قيس : ان صبرت جرى عليك القلم وانت مأجور ، وان جزعت جرى عليك القلم وانت مأزور ، وقال : الصبر

مطيةٍ لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : افضل العدة الصبر على الشدة .

وقال ابن مبارك : المصيبة واحدة ، فـــاذا جزع صاحبها فهما اتنتان لأن احداهما المصيبة بعينها ، والثانية ذهاب اجره ، وهو اعظم من المصيبة .

وعن اكثم بن صيفي : من صبر ظفر .

وحكى كعب الأحبار انه مكتوب في التوراة : من اصابته مصيبة فشكا الى الناس فانما يشكو ربه .

وحكى ان اعرابية دخلت مـن البادية فسمعت صراخاً في دار ، فقالت : ما هذا ؟ فقيل لها : مات لهم انسان . فقالت : ما اراهم الا من ربهم يستغيثون وبقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون .

وقال بعض الحكماء : من احب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً .

وقال آخر : بالصبر على مواقع التكره تدرك الحظوظ .

وقال احد الصلحاء : اصبر لحكم من لا تجد معولاً الا عليه ولا مفزعاً الا اليه

وقال عثمان بن عفان ،

خليلي لا والله مـــا من ملمة ... تدوم على حي وان هي جلت

فان نزلت يوما فلا تخضعن لهـا ... ولا تكثر الشكون اذا النعل زلت

فكم من كريم قـد بلي بنوائب ... فصابرها حتى مضت واضمحلت

وكم غمرة هاجت بأمواج غمرة ... تلقيتها بالصبر حـــتى تجلت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلت

فقلت لهـا يا نفس موتي كريمة ... فقد كانت الدنيا لنـــا ثم ولت

وقال ابراهيم بن العباس :

ولرب نازلةٍ يضيق بهـــا الفتى ... ذرعاً وعنـــد الله منها المخرج

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان بظنه لا تفرج

وقال محمد بن بشير الخارجي :

ان الأمور اذا سدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وان طالت مطالبها اذا استعنت بصبر انترى فرجا
اخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومد من القرع للأبواب ان يلحا

١١١ - الاقتصاد في الأمور مملكة والسرف لا يعقب إلا الهلكة

الاقتصاد هو التوسط بين التقتير والتبذير ، فلا يجاري المرء من هو أغنى منه في اسرافه وبذخه فيقع في أسر الاستدانة ويصبح فقيراً معدماً فينبذه كل من رآه ويبغضه كل من علم امره ، ولا يبخل في الإنفاق على نفسه واهله ، يشح بالإحسان على البائسين والمحتاجين فيكون عرضة الى ضرر اطماعهم وهدفاً الى سوء عاقبة حرمانهم فيعيش ، ولا راحة عنده ولا اطمئنان ، وكفى المقتصد فخراً ان يعيش عزيز النفس غنياً محبوباً عند الله مبجلاً عند الناس .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾. وقال تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾. وقال جل شأنه : ﴿ ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة » وقال عليه الصلاة والسلام : « الاقتصاد وحسن السمت والهدي الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة » .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : ما عال مقتصد ولا يعيل. وقال: إني لأبغض أهل بيت ينفقون رزق أيام في يوم واحد .

وقال علي كرم الله وجهه : دع الاسراف مقتصداً ، واذكر في اليوم غداً .
وقال معاوية : ما رأيت تبذيراً إلا وإلى جنبه حق مضيع .
وقال سعيد بن جبير : التبذير هو أن تنفق الطيب في الخبيث .
وقال سفيان الثوري : من كان في يده مال فليصلحه ، فإنه في زمان ان احتاج اليه فأول ما يبذل فيه دينه .

وقال سقراط : لتكن عنايتك بحفظ ما اكتسبته كعنايتك باكتسابه .

وقيل لأفلاطون : لِمَ تدخر المال وأنت شيخ ؟ فقال : لأن يموت الإنسان ويخلف مالاً لعدوه ، خير من ان يحتاج الى اصدقائه في حياته .

وقيل لابن زياد : لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا . فقال : هي وان أدنتني منها فقد أغنتني عنها .

وأتى قوم قيس بن عبادة يسألونه حمالة ، فصادفوه في حائط له يتبع ما يسقط من الأثمار ، فيعزل جيده ورديئه ، فقاموا حتى فرغ فكلموه في ذلك ، فبذل لهم ما أرادوا . فقال بعضهم : صنيعك هذا مناف لترقيح عيشك ، فقال: بما رأيتم من فعلي أمكنني ان اقضي حاجتكم .

وقيل لحكيم : لم حفظت الفلاسفة ما في ايديهم ؟ فقال : لئلا يقيموا انفسهم المقام الذي لا يستحقونه ، فقد علموا ألا اتكال على ما في ايدي الناس .

وقال بعض الحكماء : التبذير انفاق المال في غير وجه حق وبذله على وجه لا تقتضيه الحكمة .

وقال أحد الأدباء : من ربى ابنه على الاقتصاد أفاده أكثر مما يخلف له ثروة وافرة .

وقال أحد العقلاء : ما وقع تبذير في كثير إلا هدمه ولا دخل تدبير في قليل إلا ثمره ، وقال آخر : إذا أعطيت مالك في غير الحق يوشك أن يجيء الحق وليس عندك ما تعطي منه .

وقال المتلمس :

وحبس المال أيسر من فناه ... وضرب في البلاد بغير زاد
وإصلاح القليل يزيد فيه ... ولا يبقى الكثير مع الفساد

وقال الشاعر :

أنفق بقدر ما استفدت ولا ... تسرف وعش فيه عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصداً ... لم يفتقر بعدها الى احد

١١٢ ـ العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق

العدل التزام طريق الحق في كل أمر من أُمور الحياة ، وعدم الحيدة عنه قيد

شعرة ، والبعد عن الظلم او الميل عن جادة الانصاف بقصد قضاء بغية او منفعة تعود عليه ، والحقيقة التي لا مراء فيها أنه لا منفعة وراء الظلم ولا فائدة ترجى منه، بل هو طريق وعر المسلك قلما ينجو منه صاحبه، وان ما يلقاه من مقاطعة الناس له وغضب المولى عليه ، لأكبر دليل على جسامة ذنب الظالمين وسوء عاقبة الباغين .

قال الله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالحق ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وما للظالمين من ولي ولا نصير ﴾. وقال تعالى : ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾. وقال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته،ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقال عليه الصلاة والسلام : «أهل الجور وأعوانهم في النار » . وعن أبي موسى رضي الله عنه : ان رسول الله ﷺ قال: « إن الله يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ : « وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلا يعدل بينهم إلا كبه الله في النار » .

وقال ابو بكر رضي الله عنه لبعض عماله : عليكم بالعدل وتباعدوا عن الجور ولا تغدروا إن عاهدتم ولا تنقضوا إن صالحتم .

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى عامل له : اذا دعتك قدرتك الى ظلم الناس فاذكر قدرة الله عليك .

وقال الأحنف : ما عرضت النصفة على احد فقبلها الا تداخلني منه هيبة ، ولا ردها احد الا طمعت فيه .

وقال أنو شروان : الملك اذا كثر ماله مما يأخذ من رعيته كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلعه من قواعد بنيانه ، وقال غيره : المملكة تخصب بالسخاء وتعمر بالعدل وتثبت بالعقل وتحرس بالشجاعة .

وقال بعض الحكماء : بالعدل والانصاف تكون مدة الائتلاف . وقال آخر : ليس شيء أقرب الى تغيير نعمة وتعجيل نقمة من الإقامة على الظلم . وقال غيره : شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم .

وقال بعض الفضلاء : يوم العدل على الظالم اشد من يوم الجور على المظلوم . وقال آخر : ان العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق فلا تخالفه في ميزانه ولا تعارضه في سلطانه ، وقال غيره : دعوتان ارجو احداهما واخاف الأخرى ، دعوة مظلوم أعنته وضعيف ظلمته .

وقال بعض الصلحاء : اذا ظلمت من دونك عاتبك من فوقك ، وقال آخر : من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه ، ومن طال تعديه كثرت أعاديه . وقال غيره : لا ينبغي للإمام ان يكون جائراً ، ومن عنده يلتمس العدل ، ولا للعالم ان يكون سفيهاً ومن عنده يلتمس العلم والحلم .

وقال بعض البلغاء : في معاقبة الظالم اعظم تعزية للمظلوم ، والبلغ تحذير للظالم من انزال العقوبة وان تنفست مدته . وقال آخر : الظالم مهلك ثم هالك ، كالنار اذا وقعت في يابس الشجر لا تبقى معها مع تمكنها شيئاً حتى اذا أفنت ما وجدت اضمحلت وخمدت .

وقال احد العلماء : اياك والبغي فإنه يصرع الرجال ويقطع الآمال . وقال آخر : العدل يوجب اجتماع القلوب والجور يوجب الفرقة .

وفي الأمثال : من سل سيف العدوان اغمد في رأسه ، وقيل الظلم مرتعه وخيم ، واعجل الأشياء عقوبة البغي .

وقال العتابي :

بغيت فلم تقع إلا صريعاً ... كذاك البغي يصرع كل باغ

وقال الشاعر :

ما زال يظلمني وارحمه حتى رثيت له من الظلم
العدل يكفل للشعوب بقاءها والعلم ينعي وفرها وثراءها
وما من يد إلا يد الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بأظلم

وقال غيره :

لا تظلمن اذا ما كنت مقتدراً فالظلم يرجع عقباه الى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال غيره :

العدل روح به تحيا البلاد كما دمارها أبداً بالجور ينحتم
الجور شين به التعمير ممتنع والعدل زين به التمهيد ينتظم

وقال غيره :

ظهور العدل يمحو كل ظلم اذا جاء الصباح مضى الظلام

١١٣ ـ العفو من مكارم الأخلاق

العفو هو الصفح عند القدرة عمن هفا ، وعدم الأخذ بالثأر ممن ارتكب جرماً وهو من شيم الكرام يحبب المرء لمعاصريه ويحفظ قدره بين معارفه ويزيل ما القلوب من عداوة وبغضاء ويدعو الى الارتباط والائتلاف ، لا يعدم صاحبه ناصراً في الدنيا ولا يضيع له أجر في الآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾. وقال تعالى : ﴿فاعف عنهم واصفح ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وان تعفو أقرب للتقوى ﴾ . وقال تعالى : ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾.

وقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق ، قال ابو هريرة : وما حسن الخلق يا رسول الله؟ قال: تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله عفو يحب العفو » . وعن

أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « قال موسى بن عمران : يا رب من أعز عبادك عندك ، قال : من اذا قدر غفر » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « من عفا عند القدرة عفا الله عنه يوم العسرة » . وعنه ﷺ انه قال : « ينادي مناد يوم القيامة من كان له أجر على الله عز وجل فليقم فيقوم العافون عن الناس » وقال : « الخير ثلاث خصال : فمن كن فيه فقد استكمل الايمان من اذا رضي لم يدخله رضاه في باطل ، واذا غضب لم يخرجه غضبه من حق ، واذا قدر عفا » . وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يرفع الله به الدرجات ، قالوا نعم يا رسول الله ، قال : تحلم على من جهل عليك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك » وقال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على انقاذه ملأ الله قلبه أمناً وايماناً » .

وقال علي كرم الله وجهه : اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه .

وقال الأحنف : اياكم ورأي الأوغاد، قالوا وما رأي الأوغاد؟ قال : الذين يرون الصفح والعفو عاراً .

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلاماً ، فقال عمر : أردت ان يستفزني الشيطان لعزة السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً انصرف رحمك الله.

وكتب ابرويز الى ابنه شيرويه : ان كلمة منك تسفك دماً وأخرى منك تحقن دماً ، وان تفاذ أمرك مع كلامك ، فاحترس في غضبك من قولك ان تخطىء ، ومن لونك أن يتغير ومن جسدك ان يخف ، فإن الملوك تعاقب قدرة وتعفو حلماً .

وقال المأمون لابراهيم بن المهدي: اني شاورت في امرك فأشاروا عليّ بقتلك إلا اني وجدت قدرك فوق ذنبك ، فكرهت القتل للازم حرمتك ، فقال : يا امير المؤمنين ان المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة إلا انك أبيت ان تطلب النصر إلا من حيث ما عودته من العفو ، فإن عاقبت فلك نظير وان عفوت فلا نظير لك .

وقال بعض الحكماء : أفضل الناس من تواضع عن رفعة وعفا عن قدرة

وأنصف عن قوة . وقال آخر : أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وقال غيره : ليس الكرم عقوبة من لا يجد امتناعاً عن السطوة .

وقال بعض البلغاء : احسن المكارم عفو المقتدر وجود المفتقر . وقال آخر: ليس من عادة الكرام سرعة الانتقام .

وقال ابو الطيب :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهمو ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع الصيف في موضع الندى

وقال الشاعر :

إذا ما لذنب وافى باعتذار ... فقابله بعفو وابتسام
ولا تحقد وان ملئت غيظاً ... فإن العفو من شيم الكرام

وقال آخر :

وصل الكرام وإن رموك بجفوة ... فالصفح عنهم والتجاوز اصوب

قال غيره :

وإن أولى الملا بالعفو أقدرهم ... على العفو ان يظفر بذي زلل

وقال غيره :

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة ... فلا تزهدن عند التجاوز في الأجر

وقال غيره :

خذ العفو واصفح عن أمور كثيرة ... ودع كدر الأخلاق واعمد لما صفا

وقال غيره :

اذا اعتذر المسيء اليك يوماً ... من التقصير عذر فتى مقر
فصنه عن عقابك واعف عنه ... فإن الصفح شيمة كل حر

١١٤ - المروءة رمز الانسانية الكاملة

المروءة صفة للنفس تحملها على فعل كل خير ودفع كل ضر ، كلما وجدت

لذلك سبيلا ، فهي عنوان علو الهمة وشرف النفس ودليل الكرم ومن دواعي الألفة ودوام المحبة يرنو صاحبها دائماً الى الكمال ويرغب في التمسك بأجمل الخصال ، فمن تجرد من المروءة فقد سفلت نفسه وانحطت اخلاقه وقلت اخوانه فلا يجد من يعطف عليه اذا اصيب بمكروه ، او يتودد اليه اذا نزلت به نازلة ، ومـا لذة العيش إلا بالتعارف والتعاون ، فيقضي ايامه مبغوضاً ويضيع حياته وهو بعين الاحتقار مرموق .

قال الله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ووجبت اخوته » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله يحب اغاثة اللهفان » وقال عليه الصلاة والسلام : « ان حقاً على المؤمنين ان يتوجع بعضهم لبعض كما يـألم الجسد اذا تألم عضو منه» وقال: « ان الله يحب معالي الأمور ويكره دنيها وسفاسفها » وقال: « علو الهمة من الإيمان » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تصغرن هممكم فإني لم أرَ اقعد عن المكرمات من صغر الهمم .

وقال ابن عائشة القرشي : لولا ان المروءة صعب محملها لما ترك أصحاب اللؤم منها شيئاً .

وسئل الأحنف بن قيس عن المروءة فقال : صدق اللسان ومؤاساة الاخوان وذكر الله تعالى في كل مكان .

وقال بعض الحكماء : من المروءة ان يبذل الإنسان لك ماله عند الحاجة ونفسه عند النكبة ويحفظك عند المغيب . وقال آخر : من أجار جاره أعانه الله وأجاره ، وقال غيره : الهمة راية الجد .

وسئل بعضهم عن الفرق بين العقل والمروءة ، فقال العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمرك بالأجمل .

وقال بعض الأدباء : ليس من المروءة ان تكون أوانيك من الفضة وجارك طاو وغريمك عار .

وقال بعض البلغاء : من شرائط المروءة ان يتعفف المرء عن الحرام ويتصلف عن الآثام وينصف في الحكم ويكف عن الظلم ولا يطمع فيما لا يستحق ولا يستطيل على ما يسترق ولا يعين قوياً على ضعيف ولا يؤثر دنيا على شريف ولا يسر ما يعقبه الوزر والإثم ولا يفعل ما يقبح الذكر والاسم . وقال آخر : علو الهمم بذر النعم .

وقال بعض العلماء : اذا طلب رجلان أمراً ظفر به اعظمهما مروءة ، وقيل المروءة انك لا تعمل عملاً في السر تستحي منه في العلانية .

وقال الشاعر :

ان المروءة ليس يدركها امرؤٌ ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ونهته عن سبل العلا فأطاعها
فاذا أصاب من المكارم خلة يبني الكريم بها المكارم باعها
مررت على المروءة وهي تبكي فقلت على مَ تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا

١١٥ ـ القناعة كنز لا يفنى

القناعة هي الرضا بما قسم للمرء من متاع الحياة الدنيا وعدم النظر الى ما للغير ، فليس للحياة بدون قناعة لذة ولا من غير رضا قيمة ، وما ضاقت الدنيا إلا في وجه من اتخذ الجشع طبعاً والحرص ديدناً ولا عاش سعيداً إلا من كان الرضا حليفه والزهد قرينه .

قال الله تعالى: ﴿ ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « القناعة مالٌ لا ينفد وكنز لا يفنى » وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس ». وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال: « انتظار

الفرج من الله عباده . ومن رضي بالقليل من الرزق رضي الله تعالى عنه بالقليل من العمل ». وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال: « ادما افترض الله عليك تكن من اعبد الناس ، واجتنب ما حرم الله عليك تكن من أورع الناس وأرض بما قسم الله لك تكن من اغنى الناس ». وعنه انه قال: « طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع » .

وقال علي رضي الله عنه : من رضي بما قسم الله له استراح قلبه وبدنه .

وقال أكثم بن صيفي : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى والثروة .

وقال سعد بن أبي وقاص : يا بني اذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فانها مال لا ينفد ، اياك والطمع فانه فقر حاضر .

وقال بعض الحكماء : ان من قنع كان غنياً وان كان مقتراً ومن لم يقنع كان فقيراً وان كان مكثراً . وقال آخر : القناعة عز المعسر والصدقة حرز الموسر .

وقال غيره : الغني من استغنى بالله والفقير من افتقر الى الناس. وقال غيره: من ايقن ان الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم ان الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع. ومن علم ان مولاه خير له من العباد فقصده كفاه همه وجمع شمله . وقال غيره : اشتر ماء وجهك بالقناعة وتسل عن الدنيا بتجافيها عن الكرم .

وقال بعض الصلحاء: يابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائن الله ملآنة وخزائنه لا تنفد أبداً ، ولا تأنس بغير الله فان أنست بغيره تعالى فاتك الخير كله . وارض بما قسم الله لك فتريح قلبك وبدنك ، ولا تطالبه برزق غد، كما لا يطالبك بعمل غد، فانه لا ينسى من عصاه. فكيف ينسى من اطاعه وهو على كل شيء قدير وبكل شيء محيط . وقال آخر : سرور الدنيا ان تقنع بما رزقت وغمها ان تغتنم لما لم ترزق .

وقال بعض العقلاء : قليل يكفي خير من كثير يطغي. وقال آخر : اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك فلم تقله .

وقال غيره : من رضي بما قسم الله له بارك له فيه .

وقيل : القناعة رأس الغنى ــ وقال علي كرم الله وجهه :

أفادتني القناعـة كل عز　　وأي غنىً أعز من القناعة
فصيرها لنفسك رأس مال　　وصير بعدها التقوى بضاعة

وقال ابو العتاهية :

غنى النفس ما يكفيك من سد فاقة　　فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

وقال ابو فراس الحمداني :

ان الغنيّ هو الغنيُّ بنفسه　　ولو انه عاري المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً　　واذا قنعت فبعض شيء كاف

وقال الشاعر :

ومن يطلب الأعلى من العيش لم يزل　　حزيناً على الدنيا رهـين غيوبها
واذا شئت ان تحيا سعيداً فلا تكن　　على حالة إلا رضيت بدونها

وقال آخر :

اقنع بأيسر رزق انت نائـله　　واحذر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منقص　　ولا تعكر إلا في الزيادات

وقال غيره :

ورأيت اسباب القناعة اكدت　　بعرى الغنى فجعلتها لي معقلا
فـاذا نبا بي منزلي جاوزته　　وجعلت منه غـيره لي منزلا
واذا غلا شيء عليّ تركته　　فيكون ارخص ما يكون اذا غلا

وقال غيره :

كفى من العيش ما قد سد من عوز　　ففيه للحر قنيان وغنيان
وذو القناعة راض من معيشته　　وصاحب الحرص ان أثري فغضبان

وقال غيره :

فاقنع ففي بعض القناعة راحة　　ولقـد كسى ثوب المذلة أشعب

وقال غيره :

العيش لا عيش إلا ما قنعت به　　قد يكثر المال والإنسان مفتقر

وقال غيره :

واقنع فما كنز القناعة نافذاً   وكفى بها عزاً لغير مملوى

١١٦ – العفاف حلية الاشراف

العفة هي اجتناب ما لا يحل ولا يجمل وصد النفس عن تتبع شهواتها الدنيئة او السير وراء أطماعها الرديئة ، فما أسعد من ملك عنان نفسه وقبض على زمامها فإنه يأمن من الوقوع في مهاوي الردى ومواطن الهلاك ، وما أشقى من ترك لنفسه الحبل على غاربها فغرقت في لذاتها وشهواتها ، فبشره بسوء وسيعلم بعد الصدمة الأخرى عاقبة غيه ، ويندم ولات حين مندم .

قال الله تعالى: ﴿ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ وقال جل شأنه : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « من طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء » وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « أربع من كن فيه حرمه الله تعالى على النار وعصمه من الشيطان ، من ملك نفسه حين يرغب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يغضب » . وقال عليه الصلاة والسلام : « عفو عن النساء تعف نساؤكم » . وقال : « ما زاد الله عبداً بعفة إلا عزاً » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ما زان الله العبد بزينة أفضل من زهادة في الدنيا وعفاف في بطنه وفرجه » . وعنه انه قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين وزهده في الدنيا وبصره بعيوبه » . وقال : « جلساء الله غداً أهل الورع والزهد في الدنيا » . وقال : « اجعلوا بينكم وبين الحرام ستراً من الحلال ، ومن لم يفعل ذلك كان كالراعي حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

وقال علي كرم الله وجهه : الزهد ثروة والورع جنة نعم القرين الرضا .

وقال أنو شروان لابنه هرمز : الكامل المروءة من حسن دينه ووصل رحمه وأكرم إخوانه .

وقال ابن المقفع : الهوى آفة العفاف .

وسئل عمرو بن العاص عن المروءة فقال: هي العفة عما حرم الله تعالى والمحبة فيما أحل الله تعالى .

وقال بعض الحكماء : من أحب المكارم اجتنب المحارم . وقال آخر : عار الفضيحة يكدر لذتها ، وقال غيره : الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف .

وقيل لسفيان : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : الزهد في الناس .

وقال بشار بن برد :

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء حياء وحبه في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسي ذاكراً في غد حديث الأعادي

وقال الشاعر :

ان القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى
فإذا صبرت على المنى فاشكر فقد نلت المنى

وقال آخر :

عفوا تعف نساؤكم في المحرم وتجنبوا ما لا يليق بمسلم

وقال غيره :

ما الحظ إلا امتلاك المرء عفته وما السعادة إلا حسن اخلاق

١١٧ - المشورة سبيل النجاح

المشورة استطلاع المرء آراء من حركوا الدهر ، وعركهم من ذوي الأفكار الصائبة والعقول الراجحة في مسائل الحياة قبل الشروع فيها حتى لا يصيبه منها ضرر ولا يمسه فيها زلل فما ضل من استشار ، ولقد كان الألى مع ما كانوا عليه من العقول الراجحة والأفكار السامية لا يشرعون في عمل إلا إذا عقدوا الجماعات وطرحوا الأمر بينهم شورى يتباحثون فيه حتى يتبينوا الطريق الأوضح فيسلكوه ويعرفوا السبيل الوعر فيجتنبوه ، وبهذا قضوا حياتهم سعداء آمنين مطمئنين ، وقد أمر الله تعالى به نبيه، فقال جل شأنه: ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « لقحوا عقولكم بالمذاكرة واستعينوا على أموركم بالمشاورة » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « الحزم ان تشاور ذا رأي ثم تطيعه » وعنه انه قال : « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار » . وقال عليه الصلاة والسلام : « استرشدوا العاقل ترشدوا ولا تعصوه فتندموا » . وقال : « من أراد أمراً فشاور فيه أمرءً مسلماً وفقه الله لأرشد أُموره » وقال: « رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس ، ومـا استغنى مستبد برأيه ، وما هلك أحد عن مشورة ، فإذا أراد الله بعبد هلكة كان أول ما يهلكه رأيه » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الرجال ثلاثة : رجل ترد عليه الأمور فيسددها برأيه ، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي ورجل حائر بأمره لا يأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً .

وقال علي كرم الله وجهه: نعم المؤازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد وقال أيضاً : الاستشارة عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه .

وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه : ان المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يضل معهما رأي ولا يفقد حزم .

وقال لقمان الحكيم لابنه : شاور من جرب الأمور فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء وأنت تأخذه مجاناً .

وقال عبدالله بن مروان : لأن أخطىء ، وقـد استشرت احب إليّ من أن اصيب وقد استبددت برأيي من غير مشورة .

وقال عبدالله بن الحسن لابنه محمد : احذر مشهورة الجاهل وان كان ناصحاً، كما تحذر مشورة العاقل ان كان عدواً ، فإنه يوشك ان يورطك بمشورته فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل .

وقال الجاحظ : المشورة لقـاح العقول ورائد الصواب والمستشير على طرف النجاح واستنارة المرء برأي أخيه ، من عزم الأمور وحزم التدبير .

وقال سيف بن ذي يزن : من اعجب برأيه لم يشاور ، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيداً .

وقال عبد الحميد الكاتب : المشار في رأيه ناظر من ورائه .

وقـال بعض الحكماء من طلب الرخص من الإخوان عند المشاورة ومن الأطباء عند المرض ومن الفقهاء عند الشبه فقد قتل نفسه . وقـال آخر : من استعان بذوي العقول فاز بدرك المأمول . وقال غيره : إذا شاورت العاقل كان عقله لك . وقال غيره : من شاور اهل النصيحة سلم من الفضيحة . وقال غيره: لا يهلك امروء عن مشورة وسئل بعضهم : أي الأمور أشد تأييداً للعقل وأيهـا أشد إضراراً به ، فقال اشدها تأييداً له ثلاثة : مشاورة العلماء وتجربة الأمور وحسن التثبت .

وأشدها إضراراً به ثلاثة : الاستبداد والتهاون والعجلة .

وقال بعض الأدباء : من استغنى برأيه ضل ومن اكتفى بعقله زل .

وقال بعض البلغاء : الخطأ مع الاسترشاد احمد من الصواب مع الاستبداد . وقـال آخر : من الحزم لكل ذي لب ألا يبرم أمراً ولا يمضي عزماً إلا بمشورة ذي الرأي الناصح ومطالعة ذي العقل الراجح . وقـال غيره : من حق العاقل ان يضيف الى رأيه رأي العقلاء ويجمع الى عقله عقول الحكماء ، فالرأي الفذ ربما زل ، والعقل الفرد ربما ضل . وقال غيره : إذا اشكلت عليك الأمور وتغير لك الجمهور فارجع الىرأي العقلاء وافزع الىاستشارة العلماء ولا تأنف منالاسترشاد ولا تستنكف من الاستعداد فلأن تسأل وتسلم خـير لك من ان تستبد وتندم وقيل في منثور الحكم : من اكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطإ عاذراً . وقيل أيضاً : من اعجبته آراؤه غلبته اعداؤه . وقيل : من كال عقلك استظهار على عقلك برأي غيرك .

وقال بشار بن بُرد :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح او نصيحة حـازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فـان الخوافي قوة للقوادم

وقال صفي الدين الحلي :

من دبر العيش بالآراء دام له ... صفواً وجاء إليه الخطب معتذرا
يهون بالرأي ما يجري القضاء به ... من أخطأ الرأي لا يستذنب القدرا

وقال الشاعر :

إن اللبيب إذا تفرق امره ... فتق الأمور مناظراً ومشاوراً
وأخو الجهالة يستبد برأيـــه ... فتراه يعتسف الأمور مخاطراً

وقال آخر :

الرأي كالليل مسود جوانبه ... والليـــل لا ينجلي إلا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى ... مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

وقال غيره :

تأن وشاور فـــإن الأمور ... منها جـــلي ومستغمض
فرأيان افضل من واحـــد ... ورأي الثلاثة لا ينقض

وقال غيره :

عقـــل الفتى ليس يغني عن مشاورة ... كحـــدة السيف لا تغني عن البطل
إن المشاور إمـــا صائب غرضاً ... او مخطىء غـــير منسوب الى الخطل

وقال غيره :

شاور سواك إذا نابتك نائبـــة ... يوماً وإن كنت من اهل المشورات
فالعين تنظر منها مـــا دنا ونأى ... ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وقال غيره :

خليلي ليس الرأي في صدر واحـــد ... اشيروا عليّ اليوم ما تريان

١١٨ ـ من جعل مطيته الروية والتؤدة كان خليقاً بالنجاح ولو أحاطت به الأخطار

الروية والتؤدة هما الشروع في الأعمال بعد التفكير فيها والوقوف على عواقبها ثم السير فيها مع التأني ليكون الإنسان بعيداً عن الخطل مصوناً من الزلل، فان الطيش والخفة كثيراً ما كانا سبباً في الأضرار وفساد الأعمال وعدم الوصول إلى الغرض منها ، وان نجاح الأمل المقصود دائمـــاً لمن سلك سبيل التأمل ، وعبر طريق التأني .

والسلامة حليفة من ضرب في الأمور بفكر حاضر وجنان ثابت .

قال الله تعالى تحذيراً من العجلة : ﴿ خُلِقَ الإنسان من عجل سأريكم فلا تستعجلون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « اذا اردت ان تفعل أمراً فتدبر عاقبته ، فإن كان خيراً فامض وان كان شراً فانته » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « اذا اردت أمراً فعليك بالتؤدد حتى يريك الله منه المخرج . وقال عليه الصلاة والسلام : « التؤدة في كل خير إلا في عمل الآخرة » . وعنه انه قال : « التأني من الله والعجلة من الشيطان » .

وقال علي كرم الله وجهه : من استطاع ان يمنع نفسه من اربع خصال فهو خليق ألا ينزل به مكروه : اللجاج والعجلة والتواني والعجب ، فثمر اللجاج الحيرة وثمرة العجلة الندامة وثمرة التواني الذلة وثمرة العجب البغضة. وقال أيضاً: لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون في كم يوم فرغ ، وإنما ينظرون الى اتقانه وجودته .

وقال المهلب : أناة في عواقبها درك ، خير من عجلة في عواقبها فوت .

وقال بعض الحكماء : مع العجلة الندامة ومع التأني السلامة .

وقال آخر : من تأنى نال ما تمنى. وقال غيره : العجز مع الواني والفوت مع التواني . وقال غيره : طلب ما لا يدرك عجز ، ورب عجلة تعقب ريثاً .

وقال بعض الادباء : لا يجد العجول فرحاً ولا الغضوب سروراً ولا الملول صديقاً . وقال آخر : يد العجلة تغرس شجرة الندامة . وقال غيره : من اسرع في الجواب حاد عن الصواب .

وقال أحد العلماء : من ركب العجل ادركه الزلل . وقال آخر : التأني حصن السلامة والعجلة مفتاح الندامة .

وقال بعض العقلاء : العجول مخطىء وان ملك، والمتأني مصيب وان هلك. وقال آخر : إياك والعجلة فانها تكنى أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل ان يعلم ويجيب قبل ان يفهم ويعزم قبل ان يفكر ويحمد قبل ان يجرب. وقيل: لا تقل بغير تفكير ولا تعمل بغير تدبير . وقيل أيضاً : من فكر أبصر .

وقال الثعلبي :

قد يدرك المتأني بعض حاجته ... ويد يكون مع المستعجل الزلل
وقد تفوت على قوم حوائجهم ... هوالتراخي وكان الرأي لو عجلوا

وقال المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران

وقال ابو الفتح البستي :

فللتدابير فرسان اذا ركضوا ... فيها أبروا كما للحرب فرسان
وللأمور مواقيت مقدرة ... وكل أمر له حد وميزان
فلا تكن عجلاً في الأمر تطلبه ... فليس يحمد منذي الضُّجِ بحران

وقال الشاعر :

ذو الحزم لا يبتدى أمراً يهم به ... حتى يطالع ما تبدو عواقبه

وقال آخر :

واستأن تظفر في أمورك كلها ... واذا عزمت على الهدى فتوكل

وقال غيره :

ومن لم يتئد في كل أمر ... تخطاه التدارك والمنال

وقال غيره :

تأن متئداً فيما تروم ولا ... تعجل وان خلق الإنسان من عجل

وقال غيره :

تأن ولا تضق للأمر ذرعاً ... فكم بالنصح يظفر من تأتى

وقال غيره :

خليلي لا تستعجلا وانظرا غداً ... عسا ان يكون الرفق في الأمر أرشد

١١٩ ـ الأمانة سر النجاح ودواعي التقدم

الأمانة هي رعاية حقوق الله تعالى بتأدية ما على المرء من الفرائض والواجبات

فلا يخون له عهداً ولا يجحد له فضلاً ، وكذلك حفظ حقوق عباده فلا يطمع في وديعة اؤتمن عليها او ينكر مالاً وكل إليه أمر حراسته، فليس من الدين ولا من العقل والكرامة ان يستحل الإنسان لنفسه مالاً ليس له فيه حق بعد ان اعتقد به ذووه خيراً وظنوا فيه حسناً ، وكيف يرضى ان يبوء بغضب الله تعالى عليه وبغض الناس له ، لا اظن ان صاحب الشيم الكريمة والأصول العريقة يرضى لنفسه ان يوصم بمثل ذلك واخاله يترفع عن ان ينسب إليه عذر او خيانة .

قال الله تعالى : ﴿ ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى اهلها ﴾ . وقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾. وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ . وقال عز وجل: ﴿ ان الله لا يحب من كان خواناً أثيما ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . وعن انس بن مالك رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: « تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم بالجنة اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا وعد فلا يخلف واذا اؤتمن فلا يخن » وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « لا ايمان لمن لا امانة له ولا دين لمن لا عهد له » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ، قال : وكيف اضاعتها يا رسول الله ؟ قال : اذا اسند الأمر الى غير اهله فانتظر الساعة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تزال أمتي بخير ما لم ترَ الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً » وقال : « الأمانة تجلب الرزق ، والخيانة تجلب الفقر » وعن عمرو بن الحمق رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أيما رجل امن رجلاً على دمه ثم قتله فأنا بريء من القاتل وان كان المقتول كافراً» وقال ﷺ لسيدنا ابي بكر رضي الله عنه: « عليك بصدق الحديث ووفاء العهد وحفظ الأمانة فانها وصية الأنبياء » .

وقال خالد الربعي : قرأت في بعض الكتب السالفة ان مما تعجل عقوبته ولا تؤخر الأمانة تخان والإحسان يكفر والرحم تقطع والبغي على الناس .

وقال بعض الحكماء : لو علم مضيع الأمانة ما في النكث والخيانة لقصّر عنها عنانه . وقال آخر : من خان مان ومن مان هان وتبرأ من الإحسان . وقيل في منثور الحكم من يخن يهن ومن الكرم الوفاء بالذمم . وقيل ايضاً : من

ضيع الأمانة ورضى الخيانة فقد بريء من الديانة .

وقال الشاعر :

واعمل بفروض الأمانة والتقى   وانه عن النكر الفظيع وفعله

وقال آخر :

واذا اؤتمنت على الأمانة فارعها   ان الكريم على الأمانة راعي

١٢٠ - العدل أساس الملك

لله هذه الكلمة ما اكبر امرها واعظم سرها ، فلقد وضحت بها السبل واشرقت الارجاء وبسطت الارض ورفعت السماء ووضع الميزان وبثت روح الراحة في العمران، كلمة هي عنوان صالح الاعمال في الحال والمآل وهي الاصل الاصيل والظل الظليل والشجرة التي تجني منها ثمار العوارف ويتفيأ على جميع الكائنات ظلها الوارف ، كلمة كلما ذكرت محت الكروب واخذت بمجامع القلوب وملأتها سروراً وافاضت عليها نوراً تتعطر الاكوان بأنفاسها الزكية وتنتعش الارواح برياضها البهية ، تلك كلمة العدل الذي هو روح الوجود وقوام كل موجود له اذعنت الابطال وانقادت شم الجبال وبه صار الموات خصباً واليابس رطباً والضيق فسيحاً والعليل صحيحاً فهو شفاء الابدان ، واصل كل احسان امر به رب العالمين واقامه سيد المرسلين ذلك هو نبراس الهدى به تنجلي ظلمات الغي والردى والقطب الذي دارت عليه ارجاء الشرائع والاس الذي شيدت عليه شريعتنا الغراء وملتنا السمحاء فالمستمسك به مستمسك بالشرع القويم ومهتد الى الصراط المستقيم والحائد عن طريقه واقع في شرك الضلال ورام بنفسه في مهاوي الوبال .

فالعز في اقتفاء آثاره والاهتداء بأنواره والذل في عدم الوقوف عند حده حتى في نفس ضده .

فالعدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ونصبه للحق ، به تلتئم الشعوب وتأتلف القلوب وتتصل اسباب النجاح وتنشر اعلام الفلاح وتخصب البلاد وتستعد العباد . قال تعالى : ﴿ان الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ . وفي الحديث: « بالعدل قامت السماء والارض » .

وقال الشاعر :

عن العدل لا تعـدل وكن متيقظاً | وحكمك بين الناس فليكُ بالقسطِ
وبالرفق عاملهم وأحسن إليهم | ولا تبدلن وجه الرضا منكبالسخط
وحَـل بدُرٌ الحق جيد نظامهم | وراقب إله الخلق في الحل والربطِ

فالعدل هو التوازن بـين الاشياء ووضعها في مواضعها والإنصاف استيفاء الحقوق مادياً وأدبياً ، والرحمة فوق العدل .

١٢١ ـ العدل بين الاجرام وسائر الأجسام

اقتضت حكمة الحكيم العليم في خلقه ان جعل بين جميـع أجزائه من الاكبر الى الأصغر ميلاً طبيعياً وجذباً عاماً يكاد يقضي عليها بالاتحاد، لولا ما ألقي فيها من قوة الثقل التي بها قاومت تلك القوة فحفظت احيازها وتوازنت ـ وهـــذا التوازن هو الذي نسميه بالعدل فيما بين الاجرام وسائر الاجسام ـ وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ . فعـــلى دعائم العدل قامت الارض والسموات وتزينتا بأنواع المبرات فالشمس والقمر وسائر الكواكب والأفلاك والأرض من ظاهر وباطن جميعها لا قوام له إلا على تلك الدعامة ، فلو فارق شيء منها خطة العدل فُني لا محالة.

فالعدل هو الذي يحفظ لها قانون التساوي والبقاء على هذا النظام البديـع الاحـكام ، ولولاه لبغي بعضها على بعض وتصادمت وتلاطمت واختل نظامها ومحى رسمها وذهبت أدراج الرياح هباء منثوراً .

١٢٢ ـ عدل الانسان مع نفسه

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها | هواناً بها كانت على الناس أهونا

فكيف تظلمها حقها ومن لم يعدل بنفسه ، فأولى ان يحل في رمسه ، وكيف لا وقد جافى جنبه بذلك عن مضاجع الخير والإحسان وألقى بنفسه في مهاوي الذل والخسران ، وأهمل في جانبها العدل والوفاء فحياته والممات سواء .

حياتنا كالموت إن لم تكن | نهجاً الى تخليد ذكر يدوم

وهل يرجى ممن أساء الى نفسه ان يحسن الى من عداه فعدل الإنسان مع نفسه حملها على المصالح وصدها عن القبائح ويختار لها ما هو الأنفع والأصلح دنيا وأخرى ويهذبها ويعودها التطبع بمكارم الأخلاق .

والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

ومن ذا الذي يحب لنفسه العطب وسوء المنقلب ويرضى بالقعود عن طلاب السعود ويرمي بها في بحبوحة الهوان ولا يرعى لها من شؤون، أليس ذلك بحيوان أعجم او حجر أصم ، لا بل هو أسوأ حالاً واكسف بالاً ، وماذا يصنع (إذا اقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) .

١٢٣ - عدل الراعي مع رعيته

مما لا يحتاج الى برهان ولا يختلف فيه اثنان ان الراعي العادل خير من المطر الوابل ، باسمه تساجلت الاطيار في رياض السعود ومن أفقه اشرقت الأقمار على كل الوجود .

ذلك هو الأمر الذي سارت بحديثه الركبان في كل مكان ونادى به المنادي في كل ناد في حتى اصبح افواه الرجال مثلاً من الامثال ، ولا أعني بالراعي خصوص الامير، بل ما يعم الكبير والصغير عملاً بقوله ﷺ: « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » . فالسلطان في ملكه راع ومسؤول عن رعيته والرجل في اهل بيته ، والمرأة في بيت زوجها ، والناظر في مدرسته وهلم جراً .

فبالعدل تخصب الأرض وتثمر الاموال وتنتظم الاحوال وتدر الارزاق ويزول الشقاق وبه يستقيم الدين ويقوى حبله المتين .

فالدين بالملك يقوى والملك بالدين يبقى

فإذا قاد الأمة راعيها بأزمته ونهج على شرعته اتصلت الأسباب وتفتحت الابواب وسهل كل عسير في الزمن اليسير وراجت الامور وذهبت الشرور ووافى السرور والتأمت القلوب وانجلت الخطوب وغرست في الافئدة محبته ، وحمدت على مر الايام سيرته وبقي ولو بعد عزله اميراً وإماماً كبيراً، وهكذا بعد الممات تخلد ذكر الحسنات .

فيرى على مر الدهور لدى الورى حياً بمـــا أولاه من إحسان

فمدار العمار على العدل والإنصاف بين جميع الرعية .

عليك بالعدل إن أوليت مملكة واحذر من الظلم فيها غاية الحذر

فالملك يبقى مع الكفر الذميم ولا يبقى مع الجور في بدو ولا حضر

١٢٤ ـ عدل الرعية مع راعيها

يكون باطاعته في صالح الأمور في الغيبة والحضور والتودد إليه والمحافظة عليه وشد ازره وتقوية امره وشكره على جميل مسعاه وحمـــده على ما اولاه . قالت الحكماء : (السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه) . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأُولي الأمر منكم ﴾ .

١٢٥ العدل مع الاكفاء

هو عبارة عن كون التعامل فيما بينهم جارياً على سنن الحق ومناهج الصدق في جميع الأفعال وسائر الاقوال ، كما قـــال تعالى : ﴿ واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ﴾ وان يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ويؤدوا الواجب ويلينوا الجانب وان يتخلقوا بمكارم الاخلاق وحميد الخصال فيرتقون ذروة الكمال .

وقـــد كانت الأمم السالفة والقرون الماضية من اجناس المتمذهبين واصناف المتفلسفين مع افتراق مذاهبهم واختلاف عقائدهم مجتمعين على إنكار الظلم مجمعين على اضراره ، إذ هو اصل النقم ومسلبة النعم ، وهو يبـــدل العمارة بالبوار والإحسان بالاحزان اسرع من الطير الى الاوكار ومن الماء الى الانحدار وبه تكثر الشكوى وتعم البلوى وتفتر الهمم وتزل القـــدم ويكثر الضرب والسلب والقتل والنهب والهرج والمرج ولا دخل ولا خرج تجف البحار وتذبل الاشجار وتنقطع الاسباب ويتصل الخراب . قـــال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ـ والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام : «الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وحق الله ان الظلم شؤم | وان الظلم مرتعه وخيم

وقال آخر :

ألم تعلم بأن الظلم عار | جزاء الظلم عند الله نار

١٣٦ ـ من ضيع الأمانة ورضي الخيانة فقد برىء من الديانة

الامانة واسطة لبلوغ الإنسان مراتب السعد وسفينة تنتشل الوضيع من لجج الضعة وتقذفه على سواحل السؤدد والمجد وهي الأساس الذي لا بدّ منه في اقامة الحضارة وتشييد المدنية فكما لا يقوم البناء على غير أساس ، كذلك لا يتأتى إيجاد العمران بغير هدوء واطمئنان ، فإن الإنسان إن لم يأمن على نفسه وأولاده وماله، فلا يمكنه ان يقوم بأي عمل، فيقف لذلك دولاب التجارة فتبور الصنائع وتقل المكاسب ، فيحتال الناس على أسباب المعيشة ويتهالكون على تحصيل القوت من غير طرقه المشروعة فتفسد اخلاق الامة وتنحط لقلة العمل مداركها وينتهي ذلك بضعف قوتها وتفريق مجتمعها .

فالامانة أول صفة تحمد في المرء ، ولذلك نرى الناس يفرون من الخائن ، بينما هم يفدون الى الامين ويزفون اليه جميل الثناء ويعينونه على الدهر ويمدونه بالاموال . قال الله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده اليك إلا ما دمت عليه قائماً ﴾. وقال تعالى: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الامانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن عنها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » .

والخيانة صفة ذميمة وخلق سيء ونقض للذمة وكفر بالنعمة وخبث في الطوية وسوء في النية. قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾.

وقال الشاعر :

إن الامانة ـ لو علمت ـ كرامة | تولي ذويها رتبة الاسعاد

فابعد ـ هديت ـ عن الخيانة كم لها في أهلهـا من ذلة وكساد

وقال آخر :

أدّ الامانة والخيانـة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطب لك مكسب

وبالجملة ـ فالامانة سيف الدين وعماد الدنيا ، وهي أن تؤدي حقوق الخالق سبحانه وتعالى ، وأن لا تفشي سر من اودع اليك سره وألا تغش أحـداً في معاملاتك وان تحافظ على من جعـل تحت رعايتك وألا تنقض عهد من عاهدته وألا تختلس ما ليس لك فيه حق .

١٢٧ ـ الاخلاق الفاضلة وآثارها في رُقيّ الأمم الحية

وإنمـا الأمم الاخلاق ما بقيت فـإن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

الخلق عبارة عن حالة للنفس راسخة بهـا ، تصدر عنها الأفعال مع السهولة بدون حاجة الى التفكير والروية ، فإن صدرت عنها الافعال المحمودة سميت خلقاً حسناً ، وان انبعثت عنها الاعمال السيئة القبيحة سميت خلقاً سيئاً قبيحاً ، والخلق في النفس كالخلق في الجسم ويستعملان معاً أي ان حسن الصورة الظاهرية مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الانف والفم والخد ، بل بالجميع ليتم حسن الظاهر فكذلك لا يتم حسن الصورة الباطنية إلا اذا استكملت وحسنت بهـا الاخلاق جميعها .

وأمهات محاسن الاخلاق أربع فضائل : الامانة والعـدل والاعتدال والشجاعة .

ويدخل تحت ضد الامانة الذي هو الخيانة المكر والخـداع والتبله والدهاء والعناد والكفر والشك والإشراك والتطير والغيرة .

ويدخل تحت الظلم الذي هو ضد العـدل حب النفس والاستئثار والطمع والبخـل وحب الرياسة والتسلط والافتخار وكفران النعم والغضب وحب الانتقام والحسد ـ وما اشبه ذلك .

ويندرج تحت ضد الاعتـدال حب التمتع والامتلاء بالاكل والشرب والشره والحرص والتبذير والتقتير وخلافها .

ويندرج تحت ضد الشجاعة الجبن والتكبر والتهور والعجب والذل والجزع والخساسة والوقاحة والرياء والملق وغير ذلك . وان الفضائل أواسط بين طرفي الافراط والتفريط كالسخاء فهو وسط بين التبذير والتقتير . قال الله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ .

وأما العفة فهي وسط بين الشره والجمود . قال الله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، وكذلك سائر الاخلاق فكلا طرفيها ذميم وما توسطها فضيلة .

عليك بأوساط الأمور فانها نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

وقال آخر :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم

فهذه الاخلاق الفاضلة إذا تمكنت من أُمة وتمسكت بها في غدوها ورواحها وفي سرها وجهرها ، فلا بدّ وان تكون أُمة حية راقية، أُمة مستقلة قوية تهابها الأمم .

قال الشاعر :

ليس دنيا إلا بدين وليس الد ين إلا مكارم الاخلاق

انظر الى الامم المتمدينة ترَ حسن عادتها ومكارم اخلاقها وائتلاف افرادها سبب ارتقائها وتقدمها وواسطة حياتها وشوكتها ونصير قوتها وصولتها .

وانظر الى الامم التي انحطت او تلاشت تجد اسباب ذلك طرحهم للاخلاق الفاضلة والصفات الكاملة .

وليس بعامر بنيان قوم إذا اخلاقهم كانت خرا

وبالجملة ـ ان الإنسان يستمد القوة في حياته من ثلاثة أشياء : (الشعور والعلم والاخلاق) فيجب ان يأخذ من كل منها نصيبه حتى يقدر على أداء الواجب عليه نحو نفسه وأُمته ، وهذه الأشياء الثلاثة هي العوامل التي يسعى ابناء الامم الحية

في استكمال نصيبهم منها ، فتجعل منهم رجالاً يتفاوتون في الرقي تبعاً لدرجة ما حصلوه من كل منها .

١٢٨ - أساس نجاح الأمم الراقية تربية أبنائهم تربية روحية

قوام كل أمة برجالها ، ولا رجال إلا بالتربية لأنها هي التي تعين الطبيعة على إنمـــاء بدن الناشىء في صحة وارهاف ذهنه في سداد وتقويم سيرته في رشاد وتكسبه من صفات الرجولية ما يؤهله لأن يكون رجلاً حقاً في الغد ، والمراد بالرجل هنا ذاك الذي عناه احـــد الفلاسفة حينما رؤي في رائعة النهار وبيده مصباح وهو يتطوف في شوارع مدينة غاصة بالنـــاس تطوف من يطلب شيئاً لا يكاد يرى فسئل عمـــا يطلب فقال : أطلب (رجلاً) هذا هو المعنى المراد بالرجال هنا ـ وقليل ما هم .

وكل من تصفح كتب التاريخ القديم والحديث يجد انه مـــا انحطت أمة عن منزلتها إلا لأنها عدمت رجالها وانها ما عدمت رجالها إلا لأنها لم تعن حق العناية بتربيتهم صغاراً فلم يكن لها منهم كباراً سوى اشخاص لا شيء لهم من الرجولية سوى الاسم .

وإنما تتم التربية بثلاث طرق متوازية تفضي كلهـــا الى تلك الغاية أولاها تربية البدن بحسب قوانين الصحة ـ والثانية ارهاف ذهنه حتى ينفذه نور المعرفـــة وتنزاح عنه ظلمة الغباوة ـ والثالثة تقويم سيرته وهـــداية خطواته الى السبل المستقيمة ، والتنكيب بها عن سبل الغي .

فكل أمة حية لهـــا في شأن حياتها ادوار عمرانية تصعد بها في سلم الترقي والحضارة الى ان تصل الى غايتها المتمناة ـ وأول خطوة من خطا التقدم التربية على الوجه المطلوب الملائم لأحوال الأمة والشامل لمـــا به سعادتها ـ ولا ينال الإنسان هـــذه السعادة والحياة الطيبة إلا اذا توفر حظه من الصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة لا يحصل له شيء من هذه الصفات إلا بالتربية كما يشهد به العيان وكفى به من برهان ـ فكما ان الأرض لا تجود تربتها ولا تصلح للاستنبات ولا تؤدي خيرهـــا وبركتها إلا اذا تعهدت بالحراثة والسماد الجيد والبذر والسقي ـ وكذلك الإنسان لا يتوقع منه خـــير ولا نفع ولا انتفاع إلا اذا تعهد بالتربية

والتعليم ـ وقد قامت الدلائل على ان الإنسان ولو بلغ النهاية في كرم النجار وطهارة العنصر وكمال السجايا مفتقر الى التأديب والتربية الروحانية كما انه مفتقر الى التربية الجسمية حتى يصلح للنهوض بأعباء مصالحه الدينية والدنيوية ، قال عليه الصلاة والسلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

ولما كانت التربية الجسمية ليست خاصة بالإنسان ، بل يشاركه فيها الحيوان لم يبق له ما يميزه إلا التربية (الروحانية) وهي الخاصة التي بها يسمى انساناً .

أقبل على الروح فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم انسان

ومعلوم ان الإرادة النفسية هي كغيرها من اللطائف المودعة في الإنسان ساذجة في مبدإ نشأتها قاصرة عن الجولان في الاشياء . قال تعالى : ﴿ والله اخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

فيجب تربية الإنسان من صغره وتعليمه ما ينفعه في دينه ودنياه ثم الزامه صنعة يشترك بها مع غيره في تبادل المنافع حتى يتسنى له ان يقوم بخدمة متى بلغ رشده وقوى عليها ، ويكون بذلك قد عمل لغيره كما عمل الغير له ـ ولا يترك اختياره لنفسه او يتكل على ثروة اهله وشرف بيته فيخلد الى الدعة والبطالة حتى اذا شب لم يجد بيده صناعة ولا وسيلة يستعين بها على الكسب لو احوجته الضرورة اليه ـ فان كرم الآباء وثروتهم لا يعتمد عليها الا ساقطة الهمة .

قال الشاعر :

لسنا وان احسابنا كرمت يوماً على الاحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

على ان المدار في كمال الإنسان على ما يدركه بأدبه لا بحسبه ونسبه ـ فالفخر بالهمم العالية لا بالرمم البالية ـ ومكارم الاخلاق اصدق نبأ من الاعراق ـ والعنوان على شرف الإنسان وكرم اصله هو ما يفعله لا ما يدعيه .

ما لم يكن عنصره طيباً لم يخرج الطيب من فيه
اصل الفتى خاف ولكنه من فعله يظهر خافيه

فاذا أهمل الناشىء مع مـا علم من سذاجته وركود ربح انسانيته حتى شب فكيف يكون ـ ليت شعري ـ لا بدّ والله ان يرعى مع الهمل او يفترس مـع السباع الضارية ، فـان النفوس من ميلها وشوقها أسرع اجابة لداعي الشر منها لداعي الخير ـ فالنفس لولا التربية مجبولة على ذميم الاخلاق ميالة الى ما لا تحمد مغبته كالهلع والجزع والطمع والشح والطغيان والظلم وحب العـلو والافتيات وغير ذلك .

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـــة فلعلة لا يظلم

وقال تعالى : ﴿ ان الإنسان لربه لكنود ﴾. وقال تعالى: ﴿ انه كان ظلوماً جهولاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ان الإنسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والعصر ان الانسان لفي خسر ﴾

وبالجملة ـ فالتربية سر النجاح ومعراج الارتقاء وعليها نتائج السعادة الدنيوية والأخروية فهي بصفتها الكماليـة أساس الابتداع وغراس الاختراع وسر فضيلة الانسان على بقية الحيوان ، ولولاها لما نشأت روح فاضلة في افراد الامة والهيئة الاجتماعية .

١٢٩ ـ الأعمال قيم الرجال

ليس الحيـاة بأنفاس نرددها ان الحياة حياة العلم والعمل

خلق الله سبحانه وتعالى الانسان ومزاياه وما أودعه فيه من الحواس المرشدة والنفس المفكرة والعقل المدبر والبيان المصور واللسان المعـــبر والقوى المنفذة والأعضاء العاملة التي بجميعها تصرف في أنواع العالم وبسط يده على كل الكائنات وكان له السلطان الاعظم على ما في الارض ـ ولم تركب فيـه تلك القوى الا ليجعلها عوامـل تحت سلطة التمييز والتدبير يصرفانها بمعيار الحكمة في مجاري ثمرات ما احاطه به من الكائنات وجعله حوله من كنوز الخيرات التي نوعها القادر وفق تنوع حوائج الانسان وجعلها صنوفاً متفاوتة النفع مختلفة الفائـدة وأودعها خيرات كثيرة وبركات غزيرة ولم يجعله على ما هو عليه من هذا الشكل

وتلك الصورة إلا ليعمل عمله الخاص به حسب رزقه المقسوم له ، وقد أمره بالسعي لنواله حيث قال تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ .

فالسعي مقرون بالعمل والعمل يطلب الحركة والحركة تستدعي صرف القوة فمن يريد تحصيل الرزق وكسب العيش يلزمه ان يجدّ ويتعب ويصرف مقداراً من قوته في العمل - وما نراه من ان بعضاً من الناس يصرف مقداراً عظيماً من قوته في أعمال شتى ، ولا يحصل إلا على قليل من الفائدة ، وبعضاً آخر لا يصرف إلا النذر اليسير من ذلك ويستحوذ على كثير من الفائدة ، ربما يتوهم منه أحد أن الرزق ليس مناسباً للقدر المنصرف من القوة ، وإنما هو قسمة أزلية ليست مرتبطة بالعمل والسعي ، ولم ينظر في الأمر نظر حكمة ولم يعرفه معرفة حاذق بصير ، بل نظر إلى ظاهر الأمر وحقيقته خافية عليه بعيدة عن مداركه ، فالله أمر بالسعي والعمل . والجسم هو القائم بذلك ظاهراً ومأمور من قبل العقل ، فما اعمال الجسم مقومة ومعتبرة إلا حسب القوة الباطنة ، وكلما كانت هذه القوة كاملة كانت قيم اعمال الجوارح تابعة لها والعكس بالعكس .

قال عليه الصلاة والسلام : « الناس يعملون الخيرات وإنهم يعطون أجورهم يوم القيامة على قدر عقولهم » .

ولا سبيل الى الاتيان بأعمال تامة الحسن عالية القمة وافرة الحظ إلا بالعقل الكامل والعمل المحكم ، فبقدر وجود هذا وتفاوته تفاوت أفراد الإنسان، وكلما كان العقل أصح والروية أغزر والاختيار أصدق كان الكمال أتم والعمل أقوم . « ان الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه » .

وقال الشاعر :

إذ أكمل الرحمن للمرء عقله   فقد كملت أفعاله ومآربه

فإذا تم هذا للمرء أتى بأعماله تامة الحسن رائعة الصنع رائعة الابداع لا يوازنها ولا توازيها متن . ألا ترى ما أبدعه الإنسان من الأعمال الغريبة أبدنه الذي أمكنه من ذلك وجعل له السلطان المتصرف في هذا العالم - كلا - ما الإنسان من هذه الجهة إلا شبح وتمثال لا يتميز به غيره ولا يفضل سواه ، وإنما فضله ومزيته بقوته الروحية التي تستخدم جسمه وتوجه قواه الحسية ، وإلا

فليست قوى جسمه أكمل منها في غيره من الحيوانات التي يقهرها ويستخدمها في أعماله . مثلاً نرى الفلاحين يزرعون وكل منهم يجني مقادير مختلفة ، والصناع تشتغل ومقادير الأرباح مختلفة ـ وهكذا ـ وأسباب ذلك كله التفاوت في المعلومات ، فمن يرغب في زيادة ربحه وكثرة فائدته فعليه بالسعي والاجتهاد في اجتناء الخيرات من أكام هذه الكائنات . قال الله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ . وجاء رجل الى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما ينفي عني حجة الجهل ؟ قال : العلم . قال : ما ينفي عني حجة العلم ؟ قال : العمل . وقال عليه الصلاة والسلام : « تعلموا ما شئتم أن تعملوا فلن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا » . وقال في التوراة : « حرك يدك أفتح لك باب الرزق » . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

وقال بعض الحكماء : الحركة بركة والبطالة هلكة والكسل شؤم وكلب طائر خير من أسد رابض .

يا نفس ذوقي لذة العمل ... وواظبي لذة العدل والاحسان في مهل
فكل ذي عمل بالخير مغتبط ... وفي بلاء وشؤم كل ذي كسل

وقال آخر :

دعي نفسي التكاسل والتواني ... وإلا فالبسي ثوب الهوان
فلم أرَ للكسالى الحظ يجني ... ثماراً غير حرمان الأماني

وقال آخر :

وكم حياء وكم عجز وكم ندم ... جم تولد للإنسان من كسل

١٣٠ ـ فوائد المزاحمة والمسابقة وأثرها في الارتقاء البشري

لولا التزاحم في الأمور لأصبحت ... عمد النظام على ذراها سجدا

من بديع حكمة الحكيم العليم ان جعل التزاحم بين الانام منشأ لتشييد النظام ، فبالمزاحمة استيقظ الناس من سنة الغفلة ونشطوا من عقال الخمول وأجهدوا مطايا سعيهم وراء ما به يرغمون أنف تلك العوادي التي حطت بهم

رحالها وضربت عليهم خيامها حتى أثقلت كواهلهم وألجأتهم الى شدة البحث عما به يتخلصون من ربقة اخطارها وهول مضارها، وكم خبايا من الحقائق أبرزتها لهم معاول البحث فأصبحوا آمنين مخاوف دهرهم يخوضون أبحر صعوبتها دون أن يمسهم سوء ويركبون متونها خاضعة ذليلة على حين أنها تروم انتياشهم .

كل ذلك بما ألجأتهم اليه دواعي المزاحمة والمنافسة ، وقد علم الله فيهم ذلك فنوّعهم في الخلقة الى ما ترى وأودع كل نوع من القوى وركب فيه من الآلات ما به يقوى على تلك الصعوبات ويهزم كتائبها الجرارة .

ومن هنا تقلب الانسان وتنقل في أطوار شتى وتأنق في الملابس وتفنن في المآكل والمشارب وزهى في تمتعاته بعد ان كان هو وغيره من الحيوانات سواء يتغدى بعضه بالبعض ، ويهيم في الفلوات والآجام كما يهيم غيره يبتغي اصابة ما به يسد رمق الجوع ويتقي ألم البرد من نحو الريش وأوراق الشجر وجلود الحيوانات وغير ذلك ، مما به كفاية حاجة حياته الضرورية ويتخذ الكهوف والمغارات مساكنه يأوي اليها كل ذلك بما أودعه الله في جسمه من المنبهات .

والإنسان بما ركب فيه من اصل الخلقة وما أودع فيه من المنبهات مزاحم لغيره مندفع الى نزع آثار الخشونة الاولى والتقلب على سرر النعيم ـ ولولا تلك المنبهات التي تحثه على طلب حاجاته لاستولت عليه الغفلة عن تحصيلها وانتهى الى فنائه دون شعوره ـ ولهذا صار الانسان كما ترى مندفعاً الى تحصيل أغذية يعوض بها ما فنى وملابس ومساكن يتقي بها الحر والبرد ، وكل ذلك يدفعه الى حب الاثرة والاختصاص بالنافع ومزاحمة من يتخيل انه يقف في طريقه ، تلك حال كل انسان فهو ميال بطبعه الى الخروج عن حيز وضعه بما غرس فيه من الامل الذي وضعه الله فيه رحمة ، ولولاه ما غرس غارس غرساً ولا بنى بان بنياناً .

مثلاً يرى الانسان أخاه لابساً ثوباً أجود من ثوبه مادة وأحسن منه شكلاً فيدفعه حب التمتع الى طلب مثله والأخذ في أسباب الحصول عليه وربما صادفه في طريقه ثوب أرقى وأجمل منظراً ، فإذا رآه غيره أخذ يجهد نفسه كذلك في الحصول على مثل هذا الثوب الارقى ـ وهكذا حتى ينتهي الامر الى ضرب من الثياب يدهش الناظر مرآه ويروق الخاطر معناه .

ومع ذلك لا يقفون عند هذا الحد ولنعم ما كانوا يعملون ، وعلى هذا المنوال يرى الانسان جاره في عيشة راضية توفرت حاجاتها وتكاملت مسراتها وصفت اوقاتها فلا يهدأ له خاطر ولا يستريح له فؤاد حتى يرى نفسه في رغد من العيش يساوي جاره على الاقل فيبعث به ذلك الى ان يخلع ثوب بؤسه ويكشف عن ساق الجد في سيره لنوال بغيته .

ان لله في الخلائق سراً　　من سنا برقه تحار العقول
لا ترى ذرة من الكون الا　　ولها في الكون شرح يطول
هذه دارنا بهـا زاحمتنا　　عاديات من كل أوب تصوب
تلك والله حكمة منحكيم　　لنظام الحيـاة اصل اصيل

وغرض الكل واحد هم عليه متزاحمون يدفع بعضهم البعض وينازعه ما في يده رغبة في الاختصاص به .

كل له غرض يسعى ليدركه　　ولو تحمل في تحصيله المضضا

١٣١ - لِمَ لم تؤثر الخطباء والكتاب في نفوس المصريين

لا شك ان بين ظهرانينا أناساً أصبحوا عقبة بين الأدب وذويه ، ولا ديدن لهم الا التفنيد واللوم على الخطباء والكتاب وتثبيط همم المشتغلين بحرفة الادب بحيث لو سمعوا خطيباً يخطب او رأوا كاتباً يكتب لعب بهم الغيظ ودب في قلوبهم الحسد فترى منهم ألسنة حداداً فبدلان يقولوا هذا الخطيب مصقع ذرب اللسان ثابت الجنان رابط الجأش واسع المجال رحيب الباع له اقتدار على التكلم في أي موضوع من مواضع الكلام بعبارة تسيل رقة وسلاسة وتستميل القلوب النافرة وترد جماح الضالين وتصلح ما فسد من اخلاق المولدين وتؤثر على فهم كل سامع ، تراهم يشددون النكير ويبالغون في التنديد ويقولون ان هـذا الخطيب كليل اللسان جامد القريحة مضطرب الجنان قد استولى عليه العي والحصر ، وتمنطقت به الفهاهة وأخذته اللكنة ، وبدل ان يقولوا ان هذا الكاتب .

في خطه من كل قلب شهوة　　حتى كأن مـداده الاهواء

اصبحوا يقولون ان جناب الكاتب له عبارات لا تخلو عن ركاكة التركيب

وجفاء الاسلوب عن الفصيح المألوف في الكتابة والتأليف الى غير ذلك .

ولا يعزب عن الافكار اندفاع اغلب المصريين الى التقليد الاعمى من غير روية في الامر وتبصر في عواقبه فتراهم حينما يسمعون هذا الكلام يعضدونه وينصرونه ويميلون عن الخطيب او الكاتب .

انما تنجح المقالة في المرء اذا صادفت هوى في الفؤاد

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب

وكان للخطابة في الصدر الاول من الاسلام شأو جليل ومقام كبير ومكانة خطيرة، فلذا اخص الخلفاء والامراء والعلماء انفسهم بالوعظ والزجر عن الشهوات والمحرمات والمنكرات والمنهيات ، ولعمرى أنهم قاموا بها حق القيام وتأثرت بخطاباتهم الجموع وفعلت فيهم ما لم يفعل السيف حتى رجعوا الى طريق الهدى والإرشاد ، وقام بها من بعدهم الخلف الصالح وشغلوا انفسهم بهذا الموقف العظيم فحافظوا على الاخلاق الشرعية والعوائد المستحسنة ـ ويا حبذا لو دام ذلك ـ فقد خلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وتهاونوا في أمر هذا الموقف الخطير ولم يكترثوا به ، فاسترسل الناس نحو شهواتهم غير منقادين لواعظ ولا كاتب فبدلت نعمة العظمة والظهور بنقمة التأخر والجمود ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة جزاء ما فرطوا في جانب الخطابة والوعظ ، جزاء استنكافهم من القيام بهذا الامر النافع واشتغالهم عنه بمصلحة انفسهم والتفرغ لاغتنام لذاتهم « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . فصار الناس كالانعام ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يسمعون النصائح النافعة ولايبصرون الغي من الرشد ، ففقدوا الاحساس الوطني وتفرقت قلوبهم وانحلت عزائمهم وخمدت نار حميتهم. ارادة اللهالتي ارادها لا محيص عنها ولا مناص منها ولا راد لها .

اذا ما اراد الله ذل قبيلة رماها بتشتيت الهوى والتواكل

أفبعد ذلك نرجو تأثير الخطباء والكتاب ؟

وكثيراً ما رأينا بعض المصريين يتوجه للمحال التي أعدت للخطابة ، ولكن

بعد ما يسمع الخطيب ينهي عن خلق قبيح كما اذا نهى عن شرب الخمر مثلاً تراه يتمثل بقول من قال :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ، ويفارق محل الخطابة وهو نادم على ما فرط من ضياع الزمن في غير طائل ولا ثمرة عادت اليه ويسرع الى محلات اللهو والطرب.

وبالجملة ـ لا عجب في عدم تأثير الخطباء والكتاب ، فإن الأمة اذا استولى عليها الضعف ودخلت في الهرم بسبب نبذها القانون السماوي وعدم محافظتها على العوائد الشرعية صمت آذان أفرادها وعميت قلوبهم وتشتت جامعتهم وانحلت رابطتهم .

تحسبهم ايقاظاً وهم رقود لا يتنبهون بمنبه ولا يردهم عن استرسالهم وراء الشهوات لوم لائم ولا زجر زاجر ، سنة الله التي قد خلت في عباده .

وإنا نأمل في هذه الايام ان يحصل احساس لدى اخواننا المصريين وتثبت فيهم روح الغيرة فيعملون على ارجاع ما كان لهم من الفخر واحراز ما كان لآبائهم من الفضل ، وما ذلك على الله بعزيز .

١٣٢ ـ الصحف السيارة وأثرها لدى الأمم

معلوم ان الجرائد أساتذة قائمة بتهذيب الامم ، وبث ما لم يعلم من اخبارها ونشر ما خفى من فنونها وآثارها ، وعليها آثار الاعمال السياسية وتقدم الاحوال المعيشية فهي حياة الامة العلمية ومادتها الأدبية تبشر وتذكر وتنذر وتحذر وتحدث عن الحوادث الواقعة ، وتقدم لك موائد الفوائد النافعة فتهديك الى منافع كنت بها حفياً وتبدي لك ما كان عنك خفياً وتهدي طرائف الاخبار وظرائف الاسمار وتكفيك مؤونة الاستخبار وكلفة السؤال والاستفسار وكأنها مجاميع متفرقة وينابيع متدفقة او سفن مشحونة بشحون الاقوال او قوافل محملة اخباراً عن الاحوال فهي ألسنة الامم وترجمان الملوك وجهينة الاخبار وخزينة ذخائر الافكار وصيقل الاذهان ومرآة حوادث الزمان والسائح الذي يطوف البلاد ويأتيك بأخبار العباد وأنت لا تبرح من مكانك فهي للرئيس موقظة وللمرؤوس موعظة وللتجار سوق بضائع وللصناع معرض صنائع وللشاري دلال وللمدعي استدلال ولأرباب الأقلام اعلان واعلام وللمؤرخين مجمع وقائع

وأخبار وللجغرافيين استكشاف خطط وآثار .

وبالجملة ـ يكون الإنسان بها مطلعاً على وقائع مصره عارفاً بما تجدد بين بني عصره من حوادث الزمان وعجائب عالم الامكان وما هو صائر في الممالك المتمدينة ودائر بين الملوك المتمكنة وما هو جار بين الدول المتفقة والملل المتفرقة من عهود تجدد وشروط تؤكد وآثار تغير وصعاب تيسر وما بينهم من نزاع ومقاتلة وخداع ومخاتلة وسكون وهدنة وحركة وفتنة وما حدث في احوال التجارة وأُمور السياسة والإدارة وما أبدته فحول العقلاء في مجامعها وما اسدته عقول النبلاء من بدائعها وما ظهر من رائع الصنائع وعوارف المعارف وطرائف اللطائف ويعرف العوائد مذمومها وممدوحها ، ويميز الآراء راجحها ومرجوحها فيجتني ثمار الافكار ويقتني محاسن الآثار ، ويكون كأنما طاف مشارق الأرض ومغاربها ، وجرب جميع الأمور ودرى عواقبها ، فلا تكاد تنزل بساحته حادثة إلا وقد أحاط علمه بنظيرها وعرف غاية مصيرها .

١٣٣ ـ التدبير نصف المعيشة

معلوم ان حاجة الأمم الى المال كحاجة الجسم الى الغذاء ، فكما ان الغذاء حياة الجسم وقوامه ، فكذلك المال حياة الأمم ولا قيام لها إلا به ، وكما أن الغذاء إذا كثر في الجسم عن الحاجة واستعمل منه فوق القدر اللازم كان مضراً بالجسم وسبباً في ضعفه واضمحلاله وسقوطه في مهاوي الذل والاحتقار وليس ذلك قاصراً على الأمم فقط ـ بل الأمم والشعوب والقبائل والعائلات والأفراد في ذلك سواء ـ وفي المشاهدة اكبر دليل ولا ينبئك مثل خبير فكم من مسرف رأيناه قلّ بعد الكثرة وذلّ بعد العزة وافتقر بعد الغنى وأُهين بعد التعظيم وقلّ اعتباره وكثر احتقاره وذهبت هيبته وانحطت قيمته ، وكما أن الاسراف والتبذير موجب للخراب والدمار ـ كذلك البخل والتقتير موجب للذم واللوم والعار ـ فالواجب إذاً استعمال الحد الوسط والتباعد عن طرفي الإفراط والتفريط في التصرف في الاموال . قال الله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تبذ تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ . وقال تعالى :

﴿ ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ .

وبالجملة ـ سوء التصرف في الثروة يجلب الخراب بخلاف الاقتصاد فإنه يجلب الرفاهية والسعادة وكم خرب التبذير بيوتاً عامرة وبدد ثروة وافرة وكم أزل أميراً وصغر كبيراً وكم أغنى التدبير فقيراً وأعز حقيراً وجعل العبد أميراً .

قال الأصمعي : سمعت بعض العرب يقول: « من اقتصد في الغنى والفقر فقد استعد لنوائب الدهر » . وقال عبد الله بن جعفر : « كمال المرء في خلال ثلاث : معاشرة أهل الرأي والفطنة ، ومداراة الناس بالمعاشرة الجميلة ، والاقتصاد من بخل واسراف » .

أنفق بمقدار ما استطعت ولا ... تسرف وعش عيش مقتصد
من كان فيما استفاد مقتصداً ... لم يفتقر بعدها إلى أحد

وقال آخر :

توسط بين تبذير وبخل ... ولا تسرف بما تلقاه نزرا
فإن النذر يمسي بعد حين ... إذا لم يمن بالإسراف وفرا
وان الوفر في الدنيا ببخل ... وتقتير يريك اليسر عسرا
وكن في حالة تزداد فيها ... لدى الأقوام مرتبة وقدرا
وخير الناس مقتصد لبيب ... تفرد في الملا بحثاً وخبرا
وكن في كل أمر ذا اعتدال ... فرب حلاوة تؤذيك ضرا
فما من باخل احياه مال ... وما من مسرف يعتز دهرا

١٣٤ ـ إذا رزقتم أموالاً عظيمة ففيم تصرفونها

لا ريب ان المال روح تحيا به أجسام المالك وسراج يضيء به ظلام الخطوب الحالك وسلطان قوي الشوكة والبطش شديد العزيمة والبأس تذلل به الصعوبات وتحل به عقد المشكلات وتتصرف صروف الزمان وتقام معالم الافراح والاحزان وعليه قوام الصنائع وإبراز مكنونات العلوم وهو كشاف للمخبآت وفك طلاسم الفنون ونجاح الاختراعات والمشروعات وعليه قضاء الحاجات في جميع المهات ،

فأي شخص رزق مالاً لحظته السعادة وامتدت عليـــه غصون السيادة والتفت الناس حوله واصبح الكل اهـــله وتشرف الكل بالانتساب اليه والسعي في التقرب اليه .

إن قلّ مالي فـلا خل يصاحبني   إن زاد مالي فكل الناس خلاني
فـكم عـدو لأجل المال صاحبني   وكم صديق لفقد المال عاداني

هكذا يكون المال مجد الحياة وعز الممات .

فلا مجد في الدنيا لمن قـلّ ماله   ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

ولكن ذلك كله اذا كان مصروفاً فـيما يعلي عرش المجد ويرفع صرح العزة ، فاذا أنفق في الأعمال المبرورة والمشروعات النافعة كان زينة لصاحبه في حياته وذكراً جليلاً له بعد مماته، ولكن إذا كان الشخص عنده خزائن قارون وخضع له المال ولم ينفقه في إقامـــة معالم المدنية الصحيحة كانشاء المدارس والملاجىء والمستشفيات وكل ما يقيم اود الراحة ويرفع بناء العمران فانه يكون عليه شراً من الفقر ومجلبة لخزيه وعاره ووسيلة لذلته وشقائه ، لأن الناس إنمـا يتوجهون الى ذي مال طمعاً في نيله وحباً في الحصول عليه وينال شهرة عظمى ويقترن اسمه بالعلا . قـال الله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابـــل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ . وقال الله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـــا تحبون وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم ﴾ .

وبالجملة ــ فالمال زينة الحياة الدنيا والنفقة الى الدار الآخرة .

فيلزم صرفه فيما يكسب الإنسان المجد حياً وحسن الذكر ميتاً .

ولا تنفع الاموال ولا العقارات ولا التجارات ولا غيرها بغير عـــلم وأدب يهذب الاخلاق ودين يقوب الى الرب الخلاق .

وعلى وجه العموم يصرف في كل ما يعرض لك عمله ولا يكون خارجاً عن حد الشرع والكمال والاعتدال .

١٣٥ البيت مملكة تديرها المرأة

قسمت العناية الإلهية جميع الأعمال المثمرة على أفراد الجنس البشري حسبما أوجدته في كل من الصفات والأمزجة وذلك مراعاة لما تقتضيه سنة التقدم وضمان مصالح العباد من الوقوع في الفوضى والاختلال الناتجين من قيام أحدهم بأمر ليس في استطاعته عمله .

وعلى هذا القياس قد وزعت الأعمال على الفريقين الكبيرين المكونين للجنس البشري وهما (الذكر والانثى) فاختص كل فريق بالعمل الذي يلائم مزاجه وقوته ومقدرته الى غير ذلك من الصفات التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى فيه وكان نصيب الرجال من هذه القسمة جميع الاعمال التي للمجهودات البدنية فيها المكان الأول من حرث الارض وزرعها الى الدفاع عن حومة المجتمع الذي يعيشون فيه وهو الوطن ، واختصت المرأة لضعفها في القوة الجسمانية ، ولما أوجد الله فيها من صفات الصبر والاخلاص ورقة القلب ودعة الاخلاق بأمور لهذه الصفات في إتمامها حظ وافر ، وهذه الاعمال كثيرة جداً ، منها ما هو واجب عليها نحو زوجها إذ يلزمها أن تسهر على مصالحه وتكون رسول السرور اليه وتشاركه في جميع مشاغله وتطرد عنه الهموم والأحزان وتريح خاطره من النظر إلى الأمور والمتاعب العائلية ليكون عنده الوقت الذي يتفرغ فيه هو أيضاً للقيام بواجبه خارج المنزل . أما أهم واجباتها في نظر الامة فهو ما يخص أولادها لأنها مكلفة بمراعاتهم والقيام بشؤونهم في مبدإ حياتهم ــ أي في الوقت الذي يحتاجون فيه إلى عناية كبرى لضعف أجسامهم وعقولهم فهي التي تنظر في أُمورهم الصحية فتحافظ عليهم وتراقبهم خوفاً عليهم من الاخطار التي هم معرضون لها من صغر سنهم وهي المكلفة أيضاً بتلقينهم المبادىء الاولية التي تبنى عليها حياتهم الأدبية في المستقبل فتعودهم على محبة الفضيلة واحترام الحق وعلى كره الرذيلة ومقت الباطل وتلقن في عقولهم الصغيرة التي تحفظ أول ما تسمعه أو تراه الصفات والاخلاق التي تؤهلهم متى كبروا للقيام بواجباتهم بصفتهم أفراداً من أبناء الأمة فواجب المرأة عظيم ومسؤوليتها كبرى لا تقل عن مسؤولية الرجل خطارة وأهمية إن لم تزد عليه لأن على عملها تتوقف حياة الأمة أو مماتها ــ ولأن ذلك الرجل الذي ينكر عليها هذه المسؤولية لم يصل الى ما وصل اليه من قوة الجسم

والعقل إلا بسعيها المتواصل وعنايتها التي تبذلها في تربيته وتعليمه وهو صغير ـ ولو أنصف الرجل الحقيقة وأنصف المرأة معها وقدر عملها في الهيئة الاجتماعية حق قدره وطرد من مخيلته المزاعم الباطلة التي علقت بها من كلام السلف واستبداده وغروره لطأطأ رأسه احتراماً لذلك المخلوق العجيب .

المرأة ـ وما أدرك ما المرأة هي ملك السعادة الذي يهبط على الزوج الحزين البائس فيفرج عنه كربه ويطرد جيوش الحزن والهم والتعاسة التي تنتابه لما عندها من حسن الاسلوب ولمقدرتها على تصريف الاقدار والهموم فتجعل من البؤس سعادة ومن الحزن سروراً ـ هي التي تقول للرجل أبعد عنك ما أنت فيه من الغم والحيرة واخرج لعملك سعياً وراء رزقك ودعني أنا اقوم بهذه الامور فيخرج هذا ساعياً مجداً مجتهداً فتكسب الامة من ثمرة سعيه .

المرأة ـ هي إحدى العاملين في زيادة الجنس البشري وتقويته ووظيفتها في هذه الجهة كوظيفة الرجل، بل اكبر وأشد صعوبة لأنها تتحمل الآلام والامراض فرحة مسرورة في أيام الحمل ووقت الرضاعة ، ولا يشاركها الرجل في شيء من ذلك .

المرأة ـ هي التي تقوم بتربية هذه الاطفال وبمراعاة صحتهم وهي التي تدربهم وتمرنهم على المشي والحركة وتغير ملكتهم البهيمية التي ولدوا عليها فتجعل منهم أناساً أصحاء أقوياء عقلاء قادرين على العمل والسعي ، ولو شاءت لحرمت الامة منهم باهمالها شؤونهم وتركهم هم وشأنهم بلا رقيب .

المرأة ـ هي الساعد الاول والمرجع الاكبر لهؤلاء الاطفال متى شبوا ، فهي التي تسري عنهم احزانهم وتجلي كروبهم وتشجعهم على تحمل المصاعب وتحفظ اسرارهم وتنعشهم بالأمل الذي تبثه فيهم .

المرأة ـ هي طبيب اولادها وممرضة زوجها اذا اختل ميزان صحتهم فتعودهم وتسهر بجانبهم تقضي لهم حوائجهم وهي التي تعني باصلاح الفاسد وترميم العاطل من أمورهم فيكون لهم من عملها رأس مال كبير .

المرأة ـ هي ذلك المخلوق الذي ملىء حباً وحناناً ، تعرف المعروف وتكافىء فاعله عليه اضعافاً وتغضي عن السيئات التي توجه اليها يتغيب الزوج عنها وهي

صابرة على بعده قاضية جميع ما يطلبه منها حافظة له حق العشرة يخوفها كل يوم ويدوس على حرمتها وهي تمر على عمله مرّ الكرام مع مـا تتحمله في ذلك من المعاناة والشقاء .

المرأة ـ هي المصباح الذي يضيء الحياة بنوره .

هذه هي وظيفة المرأة في الحياة وذلك هو العمل الذي يجب ان تقوم به في المجتمع الإنساني ، ولعمري انها وظيفة عسرة الخطة وعمل صعب المزاولة يحتاج الى صبر لا يطيقه الرجال ، ولا اظن ان هناك من ينكر أهمية تلـك المهمة التي يجب ان تقوم بها لأنها هي الاساس الذي يبنى عليه حاضر الامة ، والمعيار الذي يقاس بـه مقدار التقدم والرقي والحضارة التي يمكن ان تصل اليها في المستقبل ، فلو فرضنا ان النساء تعمدن التقصير في واجبهن وتوانين في أداء مهمتهن فسد نظام العائلة ، وصارت حياة الافراد المكونين لهـا نقمة عليهم لا نعمة لهم لما يقاسون من اختلال هذا النظام ، ولا يطول الزمن حتى تنعكس مضار هـذا الإختلال على الامة فيصيبها منه داء الفوضى الذي لا تقوم لها قائمة من بعده ولو اهملت الامهات تربية اولادهن ولم تعتن بصحتهم شبوا ضعافاً معرضين للأمراض والأوبئة ، فـلا يصلحون لعمل من الاعمال ولا تستفيد منهم الامة لأن العقل الحكيم في الجسم السليم ، ولأن المرض يشغل الإنسان عن كل عمـل آخر ، لو تغافلت الام عن تأديب اولادها وتنبيههم الى الضار والنافع في صغرهم صاروا متى كبروا سيئي الاخلاق فاسدي التربية قبيحي السيرة منهمكين في اللذات البهيمية لا يعرفون من معنى الحياة اكثر مما تعرفه الحيوانات فيذهبون بالامة مذهبهم ولا يطول الزمن حتى تتلاشى من الوجود ، ولكن رب معترض يقول بأن انشاء المدارس وتشييد دور العلم يغني عن وظيفة المرأة ، إذ ان المدارس كفيلة بتهذيب اخلاق الطلاب ومراعاة صحتهم ، وهـذا الاعتراض مردود من نفسه لأن التربية شيء والعلم الذي تلقنه الاساتذة في المدارس شيء آخر ، ولا تمكن لدور العلم ان تقوم بعد اعوجاج اخلاق احد الطلاب إذا كانت فاسدة من الاصل وإن هي أرادت ان تسعى في عمل من هذا القبيل كان مثلها مثل الرجل الذي يريد ان يقوم جذع شجرة بعد ان كبر فيستعصي عليه تقويمه وينكسر الجذع. والسبب في ان المدارس عاجزة عن بلوغ هذه الغاية ان الطالب لا يمكن

ان يدب اليها إلا بعد ان ترتسم في عقله صورة اخلاق أُمه وما عودته عليه مدة إقامته معها فلا يمكن أن يمحو هذه الصورة من مخيلته وتبقى معه ما شاء الله أن تبقى حياته معه ـ وقد يعترض علينا آخر بأننا نبالغ في أهمية عمل المرأة ونزيد في تقدير كفاءتها ، والحقيقة اننا المقصرون وإنما نشأ هـذا الظن لأننا لا نتصور تأثير الأم العاقلة على أولادها من جهة وعلى زوجها من جهة أُخرى ـ ولأننا لا نحلم يوماً بـأن امرأة تترك أولادها الذين في سن الرضاعة ليقوم الرجل بتربيتهم وبالعناية بهم ، ولا يمكن أن يقدر هذا العمل إلا رجل متوسط الثروة أو ضعيفها توفيت زوجته وخلفت طفلاً لبيناً ، وإذ ذاك يجب أن نتساءل ونبحث فيما إذا كان عنده الوقت الكافي والصفات اللازمة لتأدية تلك المهمة الشاقة .

ولقد ظهر جلياً مما سلف ان عمل المرأة هو الأساس الذي يبنى عليه مستقبل الأمة الذي يرتكز عليه حاضرها . بقي علينا بعد هذا البيان المجمل أن نبحث فيما إذا كانت المرأة المصرية تقوم بالواجب عليها أم هي مقصرة أو جاهلة هـذا الغرض ؟ وليس الجواب على ذلك صعباً لأن مشاغل النساء المصريات معروفة وأعمالهن لا تخفى على أحـد منا ، فالمرأة عندنا إحدى اثنتين : فلاحة قروية ، ومتمدينة حضرية ، فأما الأولى فإنهـا لا تعرف من الحياة ولا تفقه من فوائد المعيشة شيئاً وجل ما تعتقده أنها إنما خلقت لتكون وسيلة للذة الرجل وشهواته خادمة له وعبداً عنده ، بل إن مرتبتها لا تزيد عن مرتبة الحيوان الذي يحرث به الأرض وهي مرتدية بلباس من الجهل ، أسود من الثوب الذي تلتف به عادة ـ واعتقادها في القضاء والقدر عظيم ـ وعليه فإن عمل الإنسان وسعيه في نظرها لا يمكن أن يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً ، فـإذا رزقها الله بمولود تركته وشأنه بدون عناية ومراعاة واهتمامها بـه قاصر على إعطائه ثديها كلما بكى ، فإذا شبع فإنها تدعه يحبي على التراب عاري الجسم يتقلب في الطين والأوحال التي كثيراً ما يوصلها إلى فمـه متى جاع وغفلت الأم عن صريخه ـ وبعد أن يأكل هنيئاً مريئاً يحس بحرارة الشمس التي تؤثر في دماغـه ، فيفرك عينيه بيديه الملوثتين بالتراب والطين ثم يقع في سبات عميق وسط الطريق يقوم بعـده مريض العينين لا يرى إلا هزيل الجسم ضعيفه ومتى قدر على المشي انضم إلى الاولاد الآخرين فيكتسب منهم كل قبيحة ويزيد في تربيته الادبية ما يراه ويسمعه كل يوم بين والده ووالدته

من الضرب والشتم والرفص واللكم الذي يبدأ الزوج بزفه إلى زوجته صبيحة ليلة العرس .

وأما الثانية ـ فإنها لا تزيد في التربية والمعارف عن الاولى إلا أنها قد تكون أسوأ من تلك خلقاً وأكثر إهمالاً لو لاحظنا ان الاولى تقوم مقام زوجها في كثير من الاعمال الخارجية عن المنزل ، وأما هذه فليس عليها واجب آخر . ومن الأسف أنها لا تصرف وقتها في عمل مفيد ، بل إنها تترك أولادها مع المرضعة التي لا تعرف إن كانت حسنة الصحة أو رديئتها ثم تسلمهم إلى الخدم فيشبون منحطي الاخلاق ناقصي التربية الاستقلالية مرضى أو معرضين للمرض .

هذا هو حال المرأة المصرية وتلك هي أعمالها ـ وبديهي أنها حال لا ترضى أحداً لأنها تهدم نظام العائلة ، وقد كان من نتيجتها انحطاط المصريين وتأخرهم في معترك الحياة ففقدنا الاستقلال السياسي والأدبي والاقتصادي ، لأن صفات الثبات والشجاعة والإقدام ورباط الجأش والمؤازرة والمؤاخاة تلك الصفات التي يكتسبها الطفل مما تعوّده عليه أمه لا أثر لها في نفوسنا ، فصار المصريون وهم يزيدون عن عشرين مليوناً آلة تعمل لفئة قليلة من الأوروبيين وغيرهم لا تبلغ اثني عشر الفاً وهي نسبة مؤلمة .

وقد نتج من جهل المرأة أيضاً انحطاط الآداب انحطاطاً مرعباً بين الشبان والشيوخ ، فلا نشغل أوقاتنا إلا بالتافه المضر من الأمور فانتشر الحسد بيننا وصار كل منا ينصب احبولة لجاره يوقعه في شباكها وتخاصم الاشقاء وتنافر الاحياء وانتشر الكسل بيننا انتشاراً أقعدنا عن السعي وكسب المال من موارده الشريفة ، وتمكنت من عقولنا الخرافات والبدع فصرنا اضحوكة في أفواه الغربيين وتركنا العمل بديننا وبالآداب التي يأمرنا بها غير مكترثين بغضب الله وسخطه ، فوقعنا في تلك الحال السيئة التي نحن عليها اليوم .

أما آن الوقت الذي يقوم فيه عقلاؤنا والمتنورون منا بالاصلاح الواجب ، أما آن لنا بعد كل ذلك الزمن الطويل الذي نخر فيه الجهل عظامنا ان نقوم قومة واحدة فنعالج ما نستطيع من أمرنا ، أما آن لنا ان نقر ونعترف بمركز المرأة وبالعمل الذي يمكن ان تقوم به فلا ننظر اليها نظرنا الى العبيد والخدم ، ألم يحن الوقت لنقوم بتربيتها وتأهيلها لكي تكون زوجة صالحة عاقلة ، فنكون قد

أنصفناها وأنصفنا أنفسنا ـ لعمري ان الحق واحد لا يتغير ، ولكننا نغالط أنفسنا فيه ـ نقرر اليوم أمراً ثم ننقضه غداً ويتعامى عن النظر الى الحقائق ، فلا نريد أن نثبت ما للمرأة من الحق في التعليم ونحرمها منه ثم نطالبها بعد ذلك بتربية الاولاد والعناية بهم وبايجاد السرور والحياة في المنزل وهي مهمة لا يقوم بها إلا من نال حظاً وافراً من العلم والتربية .

وليس أغرب من قول الذين أعماهم الغرور والاستبداد فادعوا ان مساواة المرأة بالرجل في الحقوق هادم لنظام الحياة مفسد لآداب المرأة وهو زعم باطل لا سبب له إلا الوهم والجهل الذي نشأ عليهما الرجال ، وإلا فكيف يمكن الجمع بين التربية وفساد الاخلاق وهما ضدان إذا وجد أحدهما بطل الآخر طبعاً ، ولعل الذين يزعمون ذلك يستدلون على صحة دعواهم بما يشاهدونه من تهتك الفتيات اللائي نلن قليلاً من التعليم في إحدى مدارس القاهرة أو الأقاليم ، وهنا يجب ان يحوّل نظر هؤلاء مرة ثانية الى أن التربية والتعليم شيئان مختلفان وان القليل الذي نلنه من العلم هو قشور ـ ولو ان هؤلاء البنات تربين في أحضان أمهاتهن تربية صحيحة مبنية على الآداب التي يأمر بها الدين الحنيف لتمكنت من قلوبهن أسباب الفضيلة ، ولما كنا نرى لهذا التهتك الذي يعيبونهن به أثراً ـ بل لرأينا منهن مثالاً حياً على صدق ما نقول . أما الغربيات اللاتي يهمس القوم في المجتمعات على آدابهن فإنهن من الطبقة السفلى في بلادهن وأكثرهن لا يعرفن لهن أباً ولا أماً ، وقد نزحن الى مصر طلباً للثروة فنلنها بطرق خسيسة او شريفة ـ ثم اشترين بها زوجاً ليس له هم في الدنيا إلا حب المال ، وما أكثر الذين يعبدونه بين الناس . وأرى بعد ذلك ان دعوى المدعين بأن تربية البنات تفسد آدابهن دعوى باطلة ولا أجد مانعاً أبداً بعد ما عرفنا مهمتها وعملها في تقدم الأمم من مساواتها بالرجل في حقوق العلم والتربية عملاً بقول النبي ﷺ : « طلب العلم فرض على كل مسلم ومسلمة » .

١٣٦ ـ أذكر طرق المعيشة واختر لنفسك منها طريقاً

يوجد بين كل الناس طرق للكسب ، منها التجارة وقد تكون جارية مجرى الاعتدال يقصد منها إنماء المالي ليصرف الربح أو بعضه في لوازم المعيشة او يزاد الباقي على الاصل حتى يكثر وتتسع الدائرة فيدخل الى الانتفاع منها اقوام

آخرون عمالاً لصاحب المال فتعمهم ثروته ويكونون كعائلة للمالك يعنيهم شأنه ويهمه أمورهم في الحال والاستقبال، وقد تكون التجارة آخذة سبيل الاعتساف لا يقصد منها إلا المال وجمعه من أي طريق وجد، على أي وجه اخذ، ويدخل في هـــذا القسم المرابون والغاشون في صنف البضائع ونوعها وجنسها وقيمتها، وكثير ما هم في كل بلاد وكل زمان ـ وكما ان هذا العمل يتأتى ان يكون من عمل واحد، فكذلك يمكن ان يكون من جماعة او شركة او طائفة ـ وكلما كبرت كبر ضررها في الوسط او الجيل الذي هي فيه.

ومنها الزراعة ـ ولا نخالها يتأتى فيها من حيث ذاتهـــا ذلك التقسيم الذي امكن في التجارة، لأن الزراعة لا يقصد منها إلا استثمار الأرض واخراج ما في بطنها من الخيرات بالأعمال، وإنما الممكن تقسيمها الى ما يراعى فيه ذلك المقصد بالجد والبحث عن النافع من الأعمال للوصول الى ذلك المقصد، واختيار الأصلح من المزروعات مع ملاحظة مناسبته للأرض والتقليل منه او الاكثار على حسب حالة الفصول والرواج، والى ما يراعى فيه مجرد القوت لأصحاب الأرض بقطع النظر عن تلك الملاحظات، وقـد يوجد هذا القسم الأخير في كل البلاد، وان تفاوت في القـلة والكثرة باختلاف الامكنة، فترى المزارعين في بعض البلاد يلحون على الارض الحجرية حتى تنبت نبتاً حسناً وينوعونه كل سنة ويتعمقون في الارض او يجعلون سطحياً على ما يهديهم اليه وتدلهم فيه التجارب.

وبعض الناس قـد رزقوا ارضاً من الخصوبة بمكان تصلح لزرع كل شيء ولا نراهم إلا عاكفين على زرع صنف واحد او اصناف معدودة، ملازمين فيه طريقة واحدة كأنهم استغنوا بجودة التربة عن الاعمال.

ومنها التوظف والخدمة ـ وهـــذه تنقسم باعتبار أول الى التوظف في الحكومات والا الخدمة الخارجة عنها ـ وباعتبار آخر الى ما يراعى فيــه تأدية الوظيفة والخدمة بما لها من الحقوق وما عليها من الواجبات غير ملحوظ فيه الا نفس الوظيفة والخدمـة بقطع النظر عمن تؤدي له وما توصل اليه ـ والى ما لا يراعى فيه الا مجرد المعيشة والمحافظة على الراتب بصرف النظر عن اللوازم التي لا تقوم الوظيفة والخدمة الا بها ـ ويوجد من القسم الاخير كثيرون في الممالك الا ان عددهم يختلف بتفاوت التربية وتعميمها ـ وبتفاوت قيام الرؤساء بملاحظة

المرءوسين حق القيام ـ وبتفاوت العمل على ما اوجبه القانون بلا تفرقة بين الاعاظم والصغار .

ومنها الصناعة ـ وقد تكون كالتجارة موجهة الى اجادة العمل وتحسين المصنوع مراعى فيه الربح والنماء وتوسيع دائرة الصنعة من حيث هي ، ويدخل في باب الانتفاع بها الكثير من العمال ـ وقد تكون سائرة الى الاكثار من المال بصرف النظر عن وجهته ومآخذه ، ويدخل في هذا القسم الغشاشون في المصنوع من جهة المادة او التمويه وهم كثيرون وان اختلفوا في الامم باختلاف التربية العمومية وبتفاوت مراقبة الحكام وأحكام النظام وربما اختلف ذلك في المملكة الواحدة باختلاف الزمان .

وقد يمكن ادخال بقية الطرق المستعملة بجلب الرزق التي فيها وجه الصدق والغش في تلك الطرق الأربعة فلم يبقَ بعدها سوى الطرق المحضة للغش والتدليس وهي أكثر من ان تدخل تحت عد او يحصيها كتاب لأن الناس كلما رأوا منها قديماً جددوا فيه بدعاً واستنبطوا منه فروعاً ، والحوادث لا تنقطع ولا تنحصر ، فلا بدّ من وجود تلك الطرق بدوام الزمان .

ولنسرد منها بعض الشيء مما اتخذه أهله طرقاً للعيش .

والموت أحسن من السلوك فيها للمتقين الصالحين .

فمن ذلك طريق التكفف للقادر على الكسب بالعمل ، وطريق السرقة والاغتصاب وطريق الخدعة والاحتيال،وقد يدخل فيالطريق الأخير الدجالون والرمالون وكذبة الدعاة إلى طرق يسمونها خيرية ، وليست منها في شيء لأنها مناقضة للشرائع الحقة ومنافية للمعقول ، وقد أمرنا على لسان دعاة الهدى بأن لا نصدق إلا بما جاءوا به من النور المطابق للمعقول، أولئك اقوام نصبوا الحبائل للبشر والشباك للصيد فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

كل من في الوجود يطلب صيداً غير أن الشّباك مختلفات

١٣٧ ـ الناس من خوف الفقر في الفقر

يوجد بين كل أمة أفراد حُبب اليهم من دنياهم الجمع وكرهوا ان تكون لهم

يد في البذل أو ان يكون منهم على الناس طول ، بل ان منهم من بالغ فجعل نفسه ومن تلزمه مؤونتهم عداد الناس فلم يعطها حقها من الإنفاق وضيق على ذوي قرباه من الصبية والنساء فلم ينالوا من سعته غير الحرمان ، وفقدوا بوجوده كل شيء من الراحة والنعيم ، وكان بقاؤه فيهم على كره منهم وهولاه عنهم مشغول الفكر بالكنز والتحرز من الضياع منهوك الجسم بما أخذ على نفسه من طريق الكف عن المشتهيات بل الحاجيات والضروريات ـ فما كان أجوده من فقير صابر يتحمل مضض الفاقة ، ولا يألم لبعده من النعمة ولا يجد من ذاته باعثاً إلى اللذة فيعيش في شظف العيش وقشف الاضطرار قرير العين ناعم البال ـ ولئن ذكر بأن حالته لا تلائم ثروته سخر بالناصح وانتظم مكان الواعظ ـ وأخذ يبين فوائد التقتير ومضار السرف ، وعدّ كل من حاد عن جدته مجداً في سبيل الفقر، مسرعاً الى العوز والاقلال ـ وضرب لذلك الأمثال بمن أنفق فأملق وبمن مال إلى التبذير فآل إلى التدمير واحتج بالتخوف من مصيرهم والوقوع في عاقبة أمرهم .

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

قال الزمخشري : (لا سرف في الخير كما لا خير في السرف) ، وهذه أيضاً حكمة نستبين بها ان الطرف الثاني للتقتير وهو السرف مضر ضرر الطرف الأول بعينه لأن المسرف وهو من يعطي من ماله مالاً يستحق لمن لا يستحق همه أن يبعثر ما جمع الأولون لغير فائدة ولا في طريق مصلحة وهو لا يتنعم منه بشيء في نفسه ولا يستفيد منه من وكل إليه أمرهم من القرابة الشرعيين فهو معهم فقراء في انفسهم وان عدهم الفقراء من المثرين ولا يمضى عليه وعليهم زمان حتى يصلوا مصير البائس ، ومن ضاقت به ذات اليد عن لوازم الحياة بهذه الحالة يتلاقى مع الطرف الأول في نقطة الإعدام وخسارة المال . وقد جعل الله عاقبة الأمرين (التقتير والسرف) واحدة حيث يقول : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .

فرتب الملامة والحسرة على ارتكاب ما نهى عنه في الجانبين جانب غلّ اليد إلى العنق وجانب بسطها كل البسط دلالة على أنهما يشتركان في شر العاقبة ـ ولا شبهة في ان اللوم كما يتجه على من غلّ يده إلى عنقه ، كذلك يتجه على من بسطها كل البسط ـ لأنه لا منفعة في المال المكنوز كما لا فائدة في المال الذي يصرف في

غير وجهته وما خلق لأجله من المنافع للناس – وكذلك يعد كل منهما محروماً من ماله ، ولا بـــدّ يوماً من مراجعة الواحد منهما عقله فيرى أن لا نفع له في ماله فتلحقه الحسرة على حرمانه من ماله وضياع حياته سدى في الجمـع أو التفريق والتبديد بدون عائدة تعود عليـــه في مآل دينه أو دنياه ، ويا لها من حسرة يخشاها العاقل ويتحاشاها البصير فعاقبة الطرفين واحدة بلا نكران .

حدد الله الوسط بـــين هذين الطرفين وعينه كل التعيين بآية : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ . فالسرف والتقتير طرفان والقصد بينهما قوام – وقـــد حسب البعض ان السرف لا يكون إلا بالاتفاق في المعصية ، أما في الوسعة الشخصية والمنزلية فلا اسراف – وقد ذهب آخرون إلى انه في الأخيرة سرف كما هو في المحرمات وهما رأيان لا بدّ بينهما من وسط كما هو بين السرف والاقتار – والعدل ذلك ان كل نفقة في خير على شريطة بقـاء المادة الأصلية للثروة بالغة ما بلغت لا تعد من الاسراف في شيء – أما الخير فقد بينته الشريعة المطهرة ودلت عليه أعمـال السلف الصالحين ، وان الاقتار المذموم هو الامساك عن الانفاق في هذا الخير – ومن باب أولى ان يعد الامساك عن الانفاق في اللوازم المعيشية تقتيراً شائناً .

أنواع الخير الذي أبانته الشريعة المطهرة كثيرة فقد رغبت فيبذل كلما يعود منه علىالمنفق أحرا – ولم تقتصر علىالواجبات كالزكاة في النقود والزرع والماشية والعروض وزكاة الرقبة بالسلاح رمضان وكخمس الغنائم وسلب القتيل ، بـل بينت كل مـا فيه كرامة خلق وتطبـع بفضيلة كالصدقة الجارية والوقف على نوع مخصوص والتبرع بالإحسان وإعانة المحتاج ومواساة الفقير بالعطاء وتعهد الأغنياء للمساكين كلما دعت حاجتهم إلى الانفاق .

وليس من حاجة لسرد النصوص القرآنية والحديثية والأثرية فإنها بين يدي كلمن اطلع عليها من الناس ولا خفاء فيفهمها ولا التباس فإنها كلها من الصراحة بمكان يدركها معه حتى الأميون .

ويعد كريماً ولا يحسب مسرفاً شرعاً كل من خصص من ماله بعـــد اداء الواجب من الزكاة المفروضة جزءاً لا يضيق عليـه معيشته للصدقات ، وله ان

يجعل بـذله لطائفة مخصوصة من الناس يعين صفاتهم ويجريه عليهم ما شاء من الزمن او طول الحياة .

ويكون مقتراً إذا ارتكب مـا نهى الله عنه إن كانت عنده تلك السعة وخصصها لنفسه ولم ينتفع منها احد سواه فإنه ربما جر ذلك إلى التقتير علىنفسه ومن هم عـالة عليه فوقع من خوف الفقر في الفقر ، وإن خاف من نسبته الى بالاسراف في الخير .

ويعتبر مقتراً ملوماً كل من منع المستحق مـا يستحق من المال كأن علم بأن في جيرانه او اهل محلته او بلدته بائساً كبرت عليه نفسه فتعفف عن ذل المسألة الحافا فبات فقيراً ، ثم لم يواسه بما يقدر عليه من طعام او مال يسد خلته ويدفع حاجته ، او كان علم بـأن في اولئك من كان غنياً فدهمه القضاء بما لم يكن في الحسبان ، فأمسى وهو في مصاف الفقراء ، ثم لم يبادر إلى نجدته بمـاله والسعي بجاهه في اعلام الأغنياء بحاله حتى يجتمع له منهم ما يجعله رأس مال لحياته في مستقبل الزمان .

أو كان رأي من اولئك من قضى على عائلهم بالموت او ليس لهم بعـده من ساع على رزقهم وهم لا يقتدرون عليه كأن كانوا صبية او مرضى او كهولاً ، ثم لم يتعهد أمرهم بماله وبسعيه في استنهاض اهـل الخير لهم ودعوتهم الى إغاثة اولئك المضطرين ، او كان شاهد منهم نسمات من اليتامى تدور في الأزقة بـلا عمـل ولا كسب لقلة ما يجدون ممن يأويهم ويربيهم ، ثم لم يسعفهم بالمال وبذل الجاه في استجماع مـا يصلح شأنهم من اغنياء أُمتهم ومواطنيهم في البلاد ، كل هؤلاء وأمثالهم يعدون مقترين ومما يخافون الفقر وهم واقعون فيه .

النوال والسخاء في هـذا السبيل وأمثاله خير وفضل ، أما قصره على المباحثات فنقص وجهل ، ولأن يبني الرجـل لنفسه بيتاً من المكانة والمنزلة في قلوب مواطنيه الخير من ان يبني بـين منازلهم قصراً مشيداً يفسح فيه المدى ويكثر فيه الزينة ويستجلب اليه البهار ، فـإن البيت في القلوب قوي الدعائم متين الأساس كلما تقادم عليه العهد زاد رفعة وانفساحاً ، وذلك القصر وان بناه بالاحكام حتى كان كالاهرام يبلوه الزمان ومـا لذته لصاحبه وهو قذي في عين الفقير كلما رآه تضجر الحالة لنفسه . أما ذلك البيت بيت المواساة والإحسان

فهو قرة عين الفقير ومتنزه البائس والمسكين ومحط رحال المجد والفخار وإن زخرفة ليدوم بدواء الناس في الوجود .

ومن الناس من تجده يسهل عليه الانفاق في الاستطالة بالبناء الزائد عن حاجته بكثير، ولا يهاب المصرف في مثل الافراح والمآتم وغيرها فينفق ماله وراء الناس ويجنح الى الخيلاء في الملبس والمطعم وهو لا يحتاج من ذلك إلا إلى جزء من عشرات - ينفق هذا وهو مرتاح القلب غير متألم مما يرميه به العقلاء من الخروج عن القصد في هذا السبيل - ثم إن دعي إلى مبرة شرعية تقاعس وكلما أجهد الناصح نفسه وجد في الطلب ازداد تقاعداً وتباعداً، وكان هذا حالة في كل دعوة الى مكرمة تطالب بها مكارم الاخلاق ، فما لمثل هذا من دواء ينفعه في تصرفاته إلا الالجاء إلى الخير فإنه لا ينفع معه الدليل ولا يفيده البرهان إذا ارتكز في دماغه ان عمله هو اللازم ، وان غيره من طلاب المآثر الباقية عابث مضيع للمال في غير طريقه المعتاد فإن لم يكن القسر لازمه ناصح وما هو من حيث الوجود بقليل ودأب على تذكيره بالشريعة وتمثل له بآياتها وأعمال اهلها فعدل عن طبعه ومال الى الخير فعمله ، وتعود بالعمل عليه فتتجه وجهته اليه ، وان وجد في الامة كثير من اولئك وعز على الناصحين تهذيبهم فلا بأس من تركهم والركون إلى التربية في الصغر فإنها اقرب للمنفعة وأدنى إلى الانتفاع .

يعد مسرفاً شرعاً كل من صرف ماله او شيئاً منه في محظور لضرورة ، او مال في تصرفه الى الخيلاء والرياء او اكثر من لوازم الحياة وحاجياتها وزخارفها مقتصراً عليها وتأدي به ذلك إلى ضياع المال كله او معظمه والاحتياج إلى الغير بعد زمان وإن خرج به تجاوز الحد الى الاستدانة لستر الحالة كما يفعله الكثير كان من السفهاء المغرورين ، وربما كان من اللازب ان يقوم عليه قيم يدير له شؤون المال ويتصرف بما فيه المصلحة لئلا يتكاثر الدين وهو في غفلته فلا يصحو إلا وقد نفد الرزق أجمعه وأصبح من المقلين وتلاقى مع طرف التقتير ونادى عليه حاله والناس « لا خير في السرف بحال من الأحوال » .

١٣٨ - فوائد صناديق التوفير

إن من أهم مـــا يجب ان تصرف اليه العناية هو غرس مبادىء الاقتصاد

والتوفير في نفس الاولاد من الصغر حتى ترتاح اليه نفوسهم عند الكبر .

ولا شك ان صناديق التوفير عظيمة الفائدة في كل بلاد أُنشئت فيها . وعلى الخصوص في البلاد التي تكون فيها أبواب التبذير واسعة ، فعلى كل عاقل يسعى في وضع كل ما يتوفر لديه في إحدى صناديق التوفير المنتشرة في انحاء القطر ولا يخجل من قلتها فان القليل مع القليل كثير .

قليل المـال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

ولا بدّ من يوم يجد فيه مبلغاً يقوم بحاجاته بل بمعيشته ، بل الخجل الأعظم هو عدم وجود مال متوفر لديه مع شدة حاجته اليه .

قال الإمام ابو بكر : « اني لأبغض اهـل بيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد » . وقال بعض الملوك : (أفضل ان ارى رعاياي يضحكون على بخلي من اراهم يبكون من اسرافي) . ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخـــل فقد اضاع الأصل ، ومن لم يعرف للغنى قدره فقد اذن بالفقر وطاب نفساً بالذل .

وأسباب الاقتصاد عديدة ومزاياه مفيدة وفوائده جمة وعوائده عامة ، فان الاموال المقتصدة تنفع صاحبها عند وقوعه في الحاجة (الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود) .

وقال الشاعر :

ان الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا

فهي اللسان لمن اراد فصاحة وهي السلاح لمن اراد قتالا

فأنعم بمشروع صناديق التوفير الذي وسع ما ضاق وكبر ما صغر ووفر ما زاد ويسر ما تعسر وشرح صدوراً كانت منقبضة وساعد أُناساً هم في حاجة الى المساعدة بدون مقابـل ولا اجر ، ولله در من شرع ومن تمم ذلك العمل العظيم القدر الكبير النفع الجليل الوضع .

وبالجملة ـ الناس طوائف فمنهم الأغنياء الواسعوا الثروة الذين اذا لم يعيشوا بالترف الزائد لم يمكنهم ان ينفقوا دخلهم كله وهؤلاء يكفيهم ان يعتدلوا في

نفقاتهم حتى لا تزيد على دخلهم وإلا فإن أسرفوا كثيراً لم يسلموا من الفقر ـ وان اقتصدوا كثيراً جمعوا مال الدنيا وأوقفوا حركة الأعمال وغلوا أيدي أهـــل الصناعــة والتجارة وكلا الأمرين مذموم ـ ومنهم الفقراء والأواسط الذين إذا عاشوا بالحكمة والتدبير لم يزد دخلهم على نفقاتهم إلا قليلاً وهم الفريق الأكبر من البشر ، فهؤلاء يجب عليهم الاستعداد للعطلة والمرض والشيخوخة بذخر النقود عند مسيس الحاجة إليها ـ وذخر النقود في البيت قلما يفي بالغاية المطلوبة، وربما تنفق على غير حاجة شديدة وذخرها في البنوك الكبيرة متعذر لأن هذه البنوك لا تستلم إلا المبالغ الكبيرة وتحبس فيها نصف سنة على الأقـــل ـ فإذا مست الحاجة واقتضت الحالة وضع صناديق التوفير لذخر ثلاثة او خمسة قروش أميرية للفقراء من العمال وغــيرهم جاءت بفائدة عظيمة وأصبحت من أفعل الوسائط لتهذيب الناس وردعهم عن الشرور وجعلهم من الذين يحسنون صنعاً .

١٣٩ ـ هل الفوائد الناتجة عن تأليف الشركات في بلادنا من الاجانب مشتركة بيننا وبينهم ، او عائدة عليهم فقط ؟

من أنعم النظر في أحوال الامم الاوروبية وتأمـــل في أمور الجمهوريات الامريكية والمستعمرات الاوسترالية ، وسبر غور هـذه الامم بمنظار الانتقاد وبحث في احوالها واطوارها بتأمل وافتقاد تجلت له في أحسن جلباب وظهرت له حقائقها بغير حجاب ، واتضح له جلياً أنهـــا نالت قصب الرهان في مضمار التمدين والعمران وفازت بأمانيها من اتساع نطاق الحضارة وتقـــدم الصناعة والزراعة والتجارة فنشأ عن ذلـــك اشتراك المنافع بين الامم واشتباك فروع التجارة بين جميع الحكومات والملل بتأسيس الشركات .

انظر إلى الشركات الدولية كشركات السفن البخارية والسكك الحديدية والاسلاك البرقية ومــا أفادته من تسهيل المواصلات وتقريب المسافات فقطعت الفيافي والفلوات واخترقت الجبال والآكام والصحراوات وكثر انتقال الافراد إلى كافة الممالك والبلاد على أحسن اسلوب وأتم نظام مما هو مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان .

وانظر إلى الشركات التجارية وما فعلته يد المنافسة في البلاد الغربية يندهش لبّك ويتحير فكرك .

وانظر إلى الشركات الصناعية وما وصلت إليه يد الصناع من المصنوعات التي عمرت جميع البقاع .

وانظر إلى الشركات الزراعية وما وصلت إليه في تلك الاقطار مما يدهش الابصار ويبهج الانظار فما غادرت شبر أرض في تلك البلاد إلا وأخصبته حتى منحدر الجبال أصبح رياضاً وبساتين يسر الناظرين ـ ولا يبعد أن تستخدم قممها وذراها من غرسها وبنائها فتقدمت الاراضي تقدماً باهراً وصار الفدان الواحد يساوي مبلغاً وافراً ضعف ما كان يساويه قبلاً مرتين او اكثر ـ وهكذا بقية الشركات التي غيرت نظام الهيئة الاجتماعية ، وأوجدت المنافسة في كافة المشروعات التجارية والصناعية ، وجعلت جميع الافراد مشمولة بالمنافع العمومية ونشرت بينهم روح الحضارة والمدنية وصار الكل يشتغلون ويربحون ويكسبون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

١٤٠ ـ لا سرف في الخير كما لا خير في السرف

لا بدّ للعاقل من التبصر في عواقب الامور والنظر في مستقبلها فلا تغره ما تفيض يده به من الدينار والدرهم ، فيزعم ان الأيام لا تتنكر له وان الفقر لن يلج بابه فيبذر ويسرف ويبدد ويتلف لا يحسب للعواقب حساباً ولا يخشى من الايام انتقاضاً .

فكم رأينا من عزيز أصبح بعد الرفه والنعمة وبعد الحياة اللينة يتهد الثري ويستندي الأكف يطرق الابواب فلا يجاب قد صد عنه صديقه وفر من لقائه من كان في نعمته مغموراً وبغناه فرحاً مسروراً وضربت عليه الذلة والمسكنة ، فضاقت عليه الارض بما رحبت فهو من ليله في سُهد وأرق لا يذوق النوم إلا غراراً ومن نهاره في هم وقلق لا يرى للراحة مناراً لا يجد حراً يواسيه ولا رفيقاً ينسيه ما هو فيه ، تجري دموعه على خد أذبلته الأيام بعد النضرة أسفاً على ذلك النعيم الزائل والمجد الحائل ، حتى اذا قرص الجوع احشاءه وانهك قواه دار يتفرس الوجوه عله يجد كريماً يسد خلته ويرق لمصابه ، وأين الكريم فهو من

نهاره في نصب وعناء ومن ليله في شقاء وبلاء .

غالبت كل بليـــة فغلبتها والفقر غالبني فأصبح غالبي

نعم إن الفاقة هي الموت او شر منه .

فللموت خير من حياة يرى بهـا على الحر بالإقـــلال وسمُ هوان

الفقر يخرس الفطن عن حجته ويجعله غريباً في بلدته ، لا يجد ُبداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهبت مروءته ومن ذهبت مروءته فـــلا خير له في الحياة .

ولو ان ذلك المسرف المبذر أعد للدهر وتقلباته عدة من القصد في موارده ، فادخر ما يدرأ به عادية الزمان واتبع قول الله الكريم : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ لمـــا لقي من دهره ما ليس له بحمله يدان . فإن حسن التقدير مع الكفاف أبقى من الكثير مع الاسراف ، وان في اصلاح المال سلامة الدين وجمال الوجه وبقاء العز وصون العرض .

قليل المـال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد

فأما اولئك الذين يغرهم انيقال جواد فينفقون أموالهم بينالملاعب والملاهي ولا يدعون منكراً إلا ارتكبوه ولا إثماً إلا اقترفوه ، فلا دواء لهؤلاء إلا الفقر الذي يضرب على أيديهم ويقع موقع الاغلال من اعناقهم، وذلك جزاء المفسدين.

الجود فضيلة ، ولكنه ان جاوز الحد او أخطأ الغرض انقلب رذيلة لا تغفر وزلة لا تستباح وكيف يجود المرء بماله تكرماً وحاجته اليه ماسة ونفسه بمـــا يجود به أجدر ، ولأن يمسك ما في يده أحب وأفضل من أن يمدها الى الناس .

يا رب جود جر فقر امرىء فقام في الناس مقام الذليـل

فاشدد عرا مالك واستبقه فالموت خير من سؤال البخيل

وبالجملة ــ إن الإنسان لا يدري مـــا خبأه له الزمن في كنانته من مدلهم الخطوب وبالغ الحادثات. فبينا ترى الرجل غنياً مكثراً إذا هو قد قلب له الدهر ظهر المجن فانضب معين ثروته وأغاض مجرى سعادته .

وبينا تراه معافى في جسمه موفوراً في صحته إذا بالاسقام انتابته وبالخطوب

تهادته وبسهام الآلام رمته فأذوت نضير غصنه وأذبلت زهرة شبابه .

وبينا تراه وحيداً اذا بك تراه رب اسرة وكاسب صبية تلــك سنة الله في خلقه ودوام حال محال .

ألا وان الصديق تدخره للشدة والصاحب تستمده في الحاجة هو المـال فهو وحده يكفكف الدمع ويلم الشعث ويصلح ما أوهته يد الخطوب. فلا جرم اذا كان الاقتصاد فضيلة والاسراف رذيلة فبالاقتصاد يخفف الإنسان وطأة الفقر ويدفع شرة الألم ويستعيد رونق الشباب وغضارة الفتوة وبـــثماره الشهية يسد رمق ذوي الحاجة ، ويربى الأبناء ويوطىء لهم سبيل الرقي والفلاح .

فأما من أسرف وبذر وفرق ما أدخر وبدد ما جمع وأمن عوادي الزمن ، فقد نصب نفسه هدفاً لسهامه وغرضاً لخطوبه وآلامه يوم تنوبه النائبة وتصيبه الصائبة ، فلا ملجأ له ولا وزر ولا مال قد أدخر وأنى له بحر يواسيه او كريم يؤاخيه ويوم تكون ذكرى ماضيه غصة على غصة ، يعض بنان النادم المتحسر على ما فرط فيه ، يقول : يا ليتني قدمت لحياتي وماذا ينفع الندم وقد أحاط به جيش الألم .

فالعاقل من اغتنم منغناه لفقره ومن شبابه لهرمه ومن صحته لمرضه ولبس لكل حالة لبوسها حتى لا ييأس لخطب او يذوب أسى لكرب .

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديـــه جميل

حلية الإنسان بين أقرانه نفس شريفة وعرض طاهر نقي وخلق جميل ، فاذا استكمل ذلك فقد استكمل الحسن واستحق الاجلال والاكبار .

ولا يضره ان يكون فقيراً معدماً يرتدي أسمالاً بالية ،فان الثياب تبلي جدتها وتذهب الأيام بنضرتها وجمال الأخلاق يزيد على الأيام حسناً ويجعل للمتحلى به بين الناس شأناً رفيعاً .

ومن الناس من لا يبالي بحفظ عرضه وصون نفسه من الدنس ثم يستر هــذه النفس الدنيئة ، وذلك العرض الخسيس بأجمل الثياب وأنفس الحلل فيكون مثله كمثل الذي تناول جيفة قذرة ولفها في لفائف الحرير لا يمنعها ذلــك ان تكون خبيثة الريح قبيحة المنظر .

ليس الجمـال بأثواب تزيننا ان الجمال جمال العلم والأدب

فالعاقل من كمل نفسه وصان عرضه فالمرء بآدابه لا بثيابه .

١٤١ - الفلاح روح العمران

اذا ما اخترت في الدنيا حبيباً فخير أحبتي فـلاح مصرا
كريماً يمـلأ البلدان خيراً ولا يلقى سوى الاجحاف أجرا
بمحراث يشق الأرض شقاً فيخرج من ثراها الخصب تـبرا
فلو عرف الطريق الحق قومي لمـا احتقروا له عملاً وقدرا

الفلاح يدر على البـلاد الخير واليمن والرخاء ويزرع الحبوب والخضر التي تنتجها الأرض ويغدو ويروح الى حقل مترامي الأطراف كالزبرجدة الخضراء أو البساط السندسي ويتحمل حرارة القيظ وزمهرير الشتاء مجـداً في عمله ينفع وطنه بالثمرات الناتجـة من زرعه ويصلح الأرض البور ويربي الماشية التي نأخذ لبنها ونأكل لحمها ويساعد على تشييد المنازل ويغرس الاشجار ويتعهدها بالسقي لنجني ثمارهـا ونقطف ازهارها ونشم شذاها . ويعمل الاعمال بأجر قليل وثمن بخس وبه حياة العمران وتمـام الرفاهية والسعادة بزيادة دخل الحكومة من ثمن قطن وحبوب ودفع خراج أرضه .

اذا لم تستطع شيئاً فدعـه وجاوزه الى مـا تستطيع
وكيف تريد ان تدعي حكيماً وانت لكل مـا تهوى تبوع

جهل وألف جهل من المرء ان يتشبث بغير الممكن ويجري وراء المستحيلات فان ذلك تضييع للحزم وتوجيه للعزم الى غير وجهه فينبغي للعاقل الذي يحرص على ان يذكر بالرجاحة ويعرف بالحزم ان يحكم أمر نفسه فيردها عن الاسترسال في أمانيها الباطلة ومطامعها الزائدة فان مصارع الرجال تحت بروق الطمع .

اذا صاحبت في أيام بؤس فلا تنس المودة في الرخاء
ومن يعدم أخوه على غناه فما أدى الحقيقة في الإخاء

أجـل ان صديقك الذي عرفته في أيام شقائك ومحنتك وفقرك وحاجتك

فدفع عنك بعض آلامك وهوّن من مصائبك جـديرٌ منك ان تحرص عليه اذا صرت الى اليسر والسعادة حتى تؤدي له بعض ما يجب عليك وحتى تشاركه في نعيمك كما شاركك في بؤسك وإلا فانك قد خنت الصداقة وعققت المروءة اذا شقي وأنت في نعيم وصفاء وافتقر وأنت في غناء وهناء .

اذا كان رعي يورث الأمن فهو لي ألذ من الأمن الذي يوجب الرعبا

أهـلاً بتلك الحوادث التي تخوفني فأحذر وتنذرني فأتقي وتذكرني فأتعظ وتفيدني التجربة والحزم فأسر بعـد حزن وأضحك بعد بكاء ، ولا أهلاً بالنعيم الذي لا ظل له ، واللذة التي تعقب الحسرة وتخلف الندم .

اذا فعل الفتى ما عنه ينهي فمن جهتين لا جهـة أساء

حقاً ان الواعظ يجب ان يكون أول العاملين بموعظته والا فقد اساء الى نفسه اساءتين اولاهما انه عرف شراً فـلم يتجنبه واخراهما انه رضي لنفسه ما لم يرضه للناس وذلك اهون لنفسه عليه .

ومـا الحسب الموروث لا در دره بمحتسب إلا باخر مكتسب
اذا العود لم يثمر وان كان شعبة من المثمرات اعتده الناس في الحطب
فليس يسود المرء إلا بنفسه وان عد آباء كراماً ذوي حسب

لا تعتمد على شرف آبائك فإنمـا حازوه باعمالهم واستحقوه بجهودهم وليس بمعدود في مفاخرك حتى يكون إلى جانبه شرف ترتقي اليـه بهمتك وتعمل فيه بيدك، ألست ترى العود من الشجرة المثمرة وان قصر من طبيعة اصله وفقد مزية أرومته ، لم يكن لغـير النار طعاماً ، فعلى نفسك فعوّل ـ وليس للإنسان إلا ما سعى .

وأسوأ ايام الفتى يوم لا يرى له أحد يزرى عليه وينكر

ليس شراً على المرء من ذلك اليوم الذي يركب فيه هواه فلا يجد له راداً عن ضلاله ولا مُنهنِهاً من غلوائه فإنـه جدير إذ ذاك أن يتردى في مهاوي ضلالته ويذهب فريسة جهالته .

وإذا عجزت عن العدو فداره وامزح له ان المزاح وفاق

فالنار بالمـــاء الذي هو ضدها تعطي النضاج وطبعها الإحراق

اذا أعياك عدوك وظهر عليك بقوته فتغلب عليه بالمعروف يسهل لك صعبه وتلن قسوته ويذهب غضبه ، فان المعروف علاج الإباء ونازع العداوة ، ألست ترى الماء والنار وهما ضدان قد أمكن‌ان نستفيد منهما وضع الاناء بينهما فنحصل على انضاج الطعام .

اذا الأمر أعيا اليوم فانظر به غداً لعل عسيراً في غـــدٍ يتيسر
ولا تبـــد قولاً من لسانك لم يرض مواقعه من قبـــل ذاك التفكر
ولا نصرمن حبل امرىءفي رضاامرىء فيتصلا يوماً وحبلك أبتر

اذا حاولت أمراً فخاب فيه سعيك فـــلا تستسلم الى اليأس فيعقل لسانك ويذهب بصوابـــك ويفت في عضدك فانما عظائم الأمور صيد حبالته الصبر وشركه الاناة ، فأوسع لنفسك مجال الأمل يضيء لك صبح المشكلات، وليكن منك على نفسك رقيب يناقشها الحساب فلا تنطق بالقول حتى تمر به على ذهنك، فتقدر موقعه وتقرأ عاقبته فانك ان لم تفعل دللت الناس على عيوبك فسجلوا عليك الحمق وعدوا لك الهفوات ، وربما راش لك لسانك سهماً فأرداك او حفر لك قبراً فواراك .

ان للصداقة حقاً يجب ان ترعاه، فلا تجعلها سلعة تساوم فيها الاصدقاء تبذل منها بقدر ما تدر لك من النفع وتضن بهـــا حين لا تؤمل منها ربحاً فتخذل الضعيف لتمالىء القوي وتهجر الفقير لترتع في بحبوحة الغني . فـــان تلك خلة لو عرفها الناس لزهدوا في صداقتك فتأهل ربوع إخائهم ، وقـــد أفردت في دار وحشة ويجتمع شملهم وقد رثت حبالك منهم .

يلومونني في الدين قومي وانمـــا ديوني في أشياء تكسبهم حمـــدا
أسد به ما قد أخلوا وضيعوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا
وان الذي بيني وبـــين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جـــدا
فان ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وان‌هدموا مجدي بنيت لهم‌مجدا

عجبت وما لي لا أعجب من قوم ضيعوا الحزم في‌عتبي وجنحوا به عن محجة

الصواب ، بل فاتهم اني أجد ليجدوا وأبني ليتفيئوا واحترق ليستنيروا وأتحمل ثقل الدين دونهم لأقيم لهم فخراً يجنون شرفه ويبقى لهم اسمه . أؤدي ما عجز عنه كسولهم وأبغي ما رغبت فيه نفوسهم فقصر عنه سعيهم . لقد يقضي اللبيب عجباً من الفرق بيني وبين هؤلاء ، اذ لا يلتقي هواي بهواهم ولا يوافق شكلهم شكلي . فاذا خانوا غيبتي ونهشوا عرضي كنت على غيبهم أميناً وعن اعراضهم ذائداً ، وان كفروا شكرت ــ او عابوا أثنيت .

١٤٢ ـ الرحمة فوق العدل

ولا تخش غير الله وارحم عباده فرحمته ذخر لمن هو راحم

جميل والف جميل الاتصاف بالشفقة والرحمة مع جميع المخلوقات لا فرق بين انسان وحيوان والعطف على البؤساء والضعفاء ومعاملة جميع الناس بالرأفة ولين الجانب والابتعاد عن القسوة والغلظة ، فالرفق من دواعي الألفة والتواصل وسبب الى السلام والوئام وعماد السعادة وأس النظام ، فكثيراً ما قطع الخرق تواصلاً وفك ترابطاً وكم أفسد العنف نظاماً وسبب هلاكاً وكم أخل أعمالاً وضيع آمالاً . ولقد وصف الله تعالى نفسه بالرحمة ، فقال جل شأنه: ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « ان الله يحب الرفق في الأمر كله » . وقال عليه الصلاة والسلام: «من أُوتي حظه من الرفق فقد أُوتي حظه من الدنيا والآخرة» وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال: « ما دخل الرفق في شيء الا زانه ولا نزع من شيء الا شانه ». وقال عليه الصلاة والسلام: « ارحموا ترحموا او اغفروا يغفر لكم » . وقال : « لا تنزع الرحمة الا من قلب شقي » . وعن عائشة ان رسول الله ﷺ قال: « ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء».

وقال معاوية : عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة ، ولمن

يطلبه بخرق وهو يقدر عليه برفق .

وقال اشجع السلمي لجعفر بن يحيى : ما كاد يدرك بالرجال ولا بالمال مـا ادركت بالرفق .

وقال بعض الحكماء : يدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف ، ألا ترى ان المـاء على رقته يقطع الحجر على شدته .

وقال بعض العقلاء : اذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني فبماذا يدرك . وقال آخر : يد الرفق تجني ثمرة السلامة ، ويد الخرق تغرس شجرة الندامة . وقيل : الرفق مفتاح النجاح . وقيل أيضاً : بالرفق تستجلب القلوب .

وقال ابو الفتح البستي :

ورافق الرفق في كل الأمور فلم ... يندم رفيق ولم يذممـه انسان

ولا يغرنك حظ جرّه خرقٌ ... فالخرق هدم ورفق المرء بنيان

وقال النابغة الذبياني .

الرفق يُمنٌ والاناة سعادة ... فاستأن في رفق تـلاق نجاحاً

وقال آخر :

من يستعن بالرفق في أمره ... يستخرج الحية من وكرها

١٤٣ - بروا آباؤكم تبركم أبناؤكم

ليس هناك مخلوق لا يشعر بما للوالدين من الولاء الجميل والفضل الجزيل فهما سبب وجوده في هذه الحياة ، وقد راعياه مراعاة الحنان والإكرام منذ الصغر وربياه جهد طاقتهما حتى الكبر ،فلم يألوا جهداً في ارضائه والعمل على تمام راحته واذا كان هذا هو حالهما معه ، فمـا اولاه ان يقابلهما بمثل اكرامهما له ويبرهما في كبرهما مقابل عطفهما عليه في صغره ، ويساعدهما في لوازم الحياة بكل ما أُوتي من قوة وما وهب من عقل وهو يعلم انه ليس من الدين ولا من المروءة ان يقابلهما بالعقوق ويجحد فضلهما عليه وينكر ما قدماه له من خدمات جليلة وما تحملاه معه من متاعب جسيمة ، ولقد حثنا الله تعالى بوجوب برّهما والإحسان اليهما ، فقال جل شأنه : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً اما يبلغن

عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾. وقال عز وجل : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه احساناً ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « بروا آباءكم تبركم ابناؤكم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب ». وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « من أرضى والديه فقد أرضى الله ومن أسخط والديه فقد أسخط الله » وعنه انه قال : « من بر والديه طوبى له زاد الله في عمره » وقال عليه الصلاة والسلام: « ما من رجل ينظر الى وجه والديه نظرة رحمة الا كتب الله بها حجة مقبولة مبرورة » . وعن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « لا يجزي ولد والداً الا ان يجده مملوكاً فيعتقه » . وعنه انه قال : « طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد ». وقال : « اثنان يعجل الله عقوبتهما في الدنيا البغي وعقوق الوالدين » . وعن انس ان رسول الله ﷺ قال: « الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ليلة أسرى بي رأيت اقواماً في النار معلقين في جذوع من نار ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ، قال الذين يشتمون آباءهم وامهاتهم في الدنيا » .

وقال الحسن البصري : حق الوالد اعظم وبر الوالدة الزم .

اشكر محاسن والديك وعزهم ... واخفض لهم عز الجناح بذله

وقال آخر :

لأمك حق لو علمت كبير ... كثيرك يا هذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي ... لها من جواها انة وزفير
عليك ببر الوالدين كليهما ... وبر ذوي القربى وبر الأباعد

١٤٤ - صلة الرحم من صلة الرحمن جل شانه

تتكون حياتنا الاجتماعية من الأسر (والعائلات) فاذا تفككت عرى اتصال هذه الأسر وتحللت روابط تلك العائلات فقد ضاع القصد منها واصبح

كل فرد منعزلاً عن الآخر يهيم على وجهه في الفيافي والقفار لا يجد له ناصراً ولا يرى له معيناً وحينئذٍ فلا تجد للحياة نظاماً ولا للعيش سعادة ، ولهذا كانت صلة الرحم السبيل الأقوى الى توطيد عرا المحبة وتوثيق روابط الإلفة والوئام ، فمن تجرأ على قطع تلك العلائق وفصم هاتيك الصلات بين الأقارب، فقد اعتدى على النظام الإلهي ، ثم لا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً .

قال الله تعالى: ﴿يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ وأُولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما امر الله بــه ان يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: « من سرّه ان يبسط له في رزقه وان ينسأله في اثره فليصل (رحمه) » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الله تعالى خلق الخلق حتى اذا فرغ من خلقه قامت الرحم فقال مه فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم ، أمـا ترضين ان اصل من وصلك واقطع من قطعك ، قالت : بلى ، رضيت يا رب . قال : فذلك لكِ ». وقال عليه الصلاة والسلام : « صلة الرحم تزيد العمر » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهي الرحم اشتققت اسمهـــا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » . وعنه انه قال : « اثنان لا ينظر الله اليهما يوم القيامة قاطع الرحم وجار السوء » . وقال أيضاً : « صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار » . وروى ابن ماجه ان رسول الله ﷺ قال : « أسرع الخير ثواباً البر وصلة الرحم وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم ». وروى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قـــال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال : « يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغي فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغي وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة الف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم » .

وقال بعض الحكماء : صلوا أرحامكم بالحقوق ولا تجفوها بالعقوق .

وقال بعض الأدباء : من لم يصلح لأهـله لم يصلح لك ، ومن لم يذب عنهم لم يذب عنك .

وقال بعض البلغاء : صلوا أرحامكم فإنهـا لا تُبلى عليها أصولكم ولا تُهضم عليها فروعكم . وقال آخر : من وصل رحمه وصله الله ورحمه .

وحسبك من ذل وسوء صنيعة مناوأة ذي القربى وإن قيل قاطع
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبـه لترجعه يومـاً إليّ الرواجع
ولا يستوي في الحكم عبدان واصل وعبدٌ لأرحام القرابـة قاطع

١٤٥ - العمل للدارين صفقة رابحة

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس للرجـل

تقضي الشريعة الإسلامية والقوانين الإلهية أن يعمل الإنسان للدنيا والآخرة معاً بحيث لا ينكب على الدنيا ويفرط في الحب لها والولوع بها فيسوقه ذلك الى التغالي في لذاتها والانهماك في شهواتها فينسى عاقبته ويخسر آخرته ولا يترك الدنيا مطلقاً ويرغب عنها كلية فيضيعها ويقضي على الغرض منها، وحين إذ ذاك يكون قد أخل بنظام الكون وخالف قوانين الشريعة .

قال تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين﴾ وقال : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ليس خـيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخـذ من هذه وهذه » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال: « أعظم الناس هماً المؤمن يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته » . وعنه أنه قال : « خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلاً على الناس » . وقـال أيضاً : « دعوا الدنيا لأهلها ، من أخذ من الدنيا فوق مـا يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر » . وعن أبي موسى الاشعري

رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « من أحب دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » .

وقال علي كرم الله وجهه لرجل ذم الدنيا عنده: الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها .

وقال سفيان الثوري رحمه الله : مكتوب في التوراة اذا كان في البيت بر فتعبد واذا لم يكن فاطلب يا ابن آدم حرك يدك يسبب لك رزقك. وقال وهب ابن منبه : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى .

وقال ابن السماك : من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها .

وقال بعض الحكماء : ليكن طلبك الدنيا اضطراراً وتذكرك في الأمور اعتباراً وسعيك لمعادك ابداراً. وقال آخر : انظر الى الدنيا نظر الزاهد المفارق لها ولا تتأملها تأمل العاشق الوامق بها . وقال غيره : ليس من الرغبة في الدنيا اكتساب ما يصون العرض فيها .

وقال بعض السلف : الموت قصاراك فخذ من دنياك لأخراك . وقال آخر : إني وجدت خير الدنيا والآخرة في التقي والغني، وشر الدنيا والآخرة في الفجور والفقر. وقال غيره : من عمل للآخرة أحرزها والدنيا ، ومن آثر الدنيا حرمها والآخرة . وقال جرير :

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

١٤٦ - زارع البر يحصد السرور

الكرم والمعروف والإحسان صفات جليلة في النفس تدفعها الى فعل المكرمات ومد يد المساعدة لذوي الحاجة والبائسين والعمل على تخفيف الكوارث عمن سطا عليهم الدهر وصرعتهم شقوة الحياة وهي العوامل الفعالة الى غرس بذور المحبة بين الناس وتوطيد علائق الالفة بين الافراد ، ويكفي المرء دليلاً على الترغيب في التخلق بها ما قرنه الله تعالى من البركة والنماء في أرزاق المحسنين وما وعدهم إياه من الثواب والأجر العظيم .

قال الله تعالى : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ . وقال تعالى: ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾. وقال جل شأنه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾. وقال عز وجل : ﴿ وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ . وقال تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « استنزلوا الرزق بالصدقة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ان الصدقة لتطفىء عن أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته ». وعنه انه قال : « ان أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وان أول أهل الجنة دخولاً هم أهل المعروف ». وقال: « اصنع المعروف الى من هو أهله والى غير أهله، فان أصبت أهله أصبت أهله وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله » . وقال : « جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط مُنفقاً خلفاً ، ويقول الثاني اللهم أعط ممسكاً تلفاً » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال: «قال الله تعالى أنفق يابن آدم يُنفق عليك». وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . وقال : « كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان » .

وقال علي كرم الله وجهه : « لا تستحي من عطاء القليل فالحرمان أقل منه، ولا تجبن عند الكثير فانك أكثر منه » .

وقال الأحنف بن قيس : ما ادخرت الآباء للأبناء ولا أبقت الموتى للأحياء

شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الاحساب .

وقال سعد بن العاص : قبح الله المعروف إن لم يكن ابتدىء من غير مسألة فالمعروف عوض عن مسألة الرجل اذا بذل وجهه فقلبه خائف وفرائصه ترعد وجبينه يرشح لا يدري أيرجع بنجح الطلب أم بسوء المنقلب .

وقال بعض الحكماء : ان في الكرم عز الدنيا وشرف الآخرة وحسن الصيت وخلود جميل الذكر . وقال آخر : الجود يوجب المدح والبخل يوجب الذم . وقال غيره : اصنع الخير عند امكانه يبق لك حمده عند زواله، وأحسن والدولة لك يحسن لك والدولة عليك واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك .

وقال أحد الأدباء : من لم يصن وجهه عن مسألتك فصن وجهك عن رده . وقال آخر : أفضل الناس ما عاش الناس في فضله .

وقال أحد العقلاء : جود الرجل يحببه الى أعدائه وبخله يبغضه الى اودائه. وقال آخر : من كثرت عوارفه كثر معارفه .

وقال أحد البلغاء: من بذل ماله ادرك آماله. وقال افضل العطية جهد المقل.

وقال أحد الفضلاء : للمعروف خصائل ثلاث : تعجيله وتيسيره وتستيره ، فمن أخل بواحدة منها فقد بخس المعروف حقه وسقط عنه الشكر .

وقال أحد الأجواد : خير النوال ما وصل قبل السؤال . وقال آخر : اكمل الخصال الثلاثة ، وقار بلا مهابة وسماح بلا طلب مكافأة وحلم بغير ذل .

وكتب كسرى الى بعض عماله : استقلل كثير ما تعطي واستكثر قليل ما تأخذ ، فان قرة عين الكريم فيما يعطي ، وقرة عين اللئيم فيما يأخذ ، ولا تجعل الشحيح لك معيناً ولا الكذاب اميناً فانه لا اعانة مع شح ولا امانة مع كذوب.

واذا اتسعت برزق ربك فاجعلن ... منه الأجل لأوجه الصدقات
ولم ار كالمعروف اما مذاقه ... فحلو وأما وجهه فجميل
خير ايام الفتى يوم نفع ... واصطناع المعروف ابقى مصطنع
ما ينال الخير بالشر ولا ... يحصد الزارع إلا ما زرع
كن محسناً مهما استطعت فهذه الـ ... ـدنيا وان طالت قصير عمرها

ان المآثر في الورى ذرية | يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها
فترى الكريم كشمعة من عنبر | ضاءت فإن طفئت تضوّع نشرها

إذا كنت ذا مال ولم تك ذا ندى | فأنت إذاً والمقترون سواء
على ان في الاموال يوماً تباعة | على أهلها والمقترون براء

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم | فطالما استعبد الإنسان إحسان
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه | لا يذهب العرف بين الله والناس

١٤٧ - الشكر جلاب النعم

إذا كنت في نعمة فارعها | فــإن المعاصي تزيل النعم
ودوام عليها بشكر الإلــه | فإن الإله سريع النقم

الشكر اعتراف المرء بالإحسان لذويــه وإقراره بالثناء على مسديه فجحد النعمة كفر وإنكارها لؤم ، لهذا كان من الواجب أن يشكر الإنسان المولى العلي الأعلى على تواتر نعمه ومزيد إحسانه حتى يضاعف له في رزقه ويبارك له في عمله كما يجب عليه ألا يجحد شكر من قــدم اليه صنيعاً حسناً وأولاه معروفاً ، فإذا فعل ذلــك فقد أدى الواجب واستحق العطف والمعونة متى عرته شدة أو نابته نائبة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن يشكر فانمــا يشكر لنفسه ، ومن كفر فان الله غني حميد﴾. وقال تعالى:﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم ان عذابي لشديد﴾.

وقال رسول الله ﷺ : « أشكر الناس لله أشكرهم للناس » . وقــال عليه الصلاة والسلام : « من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا لوالديه في ادبارها فقد شكرهما ». وقال عليه الصلاة والسلام : « أيما رجل صنع الى اخيه صنيعة فلم يجد لها جزاء إلا الدعاء والثناء فقد كافأه » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة رحمــة والفرقة عذاب » . وعنه انه قال: « من أتى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له » . وقال : « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فهي نعمة من الله عليه ،

فإن قابلها بالشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد اثماً ويزداد الله عليه بها سخطاً » .

وقال علي كرم الله وجهه : كفر النعمة لوم .

وقال الحسن : كلما شكرت نعمة تجـــدد لك بالشكر أعظم منها فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة الا الى ما هو أعظم منها .

وقال عمر بن عبد العزيز : تذكروا النعم فان ذكرها شكر .

وقال المغيرة بن شعبة : أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فانه لا بقاء للنعم اذا كفرت ولا زوال لها اذا شكرت .

ودخل أبو هارون على بعض الحكماء فقال له : يرحمك الله ما شكر العينين ؟ قال : اذا رأيت بهما خيراً ذكرته واذا رأيت بهما شراً سترته ، قال : فما شكر الاذنين ؟ قال : اذا سمعت بهما خيراً حفظته واذا سمعت بهما شراً نسيته .

وقال عبد الحميد الكاتب : من لم يشكر الإنعام فاعدده من الأنعام .

وقال بعض الحكماء : من انكر الصنيعة استوجب القطيعة ومن منّ بمعروفه سقط شكره ومن أعجب بعمله حبط أجره . وقـــال آخر : كفر النعمة من أمارات البطر وأسباب الغير .

وسئل بعضهم ما أضيع الأشياء ؟ قال : المطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها ، وسراج يوقـــد في الشمس وصنيعة تسدى الى من لا يشكرها .

وقال بعض الأدباء : الشكر أفضل من النعم لأنه يبقى والنعم تفنى . وقال آخر : من أعطى أربعاً لم يمنع من أربـع من أعطى الشكر لم يمنع المزيـد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخـــيرة ومن أعطى الاستشارة لم يمنع الصواب . وقـــال غيره : لا تسيء الى من احسن اليك ولا تمن على من أنعم عليك . وقـــال غيره : من بذل بعض عنايته لك فابذل جميع شكرك له .

وقال بعض الفضلاء : اذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر .

وقال بعض العقلاء : أمسكوا المعروف عن ثلاثة : اللئيم فانه بمنزلة الأرض

السبخة، والفاحش فانه يرى ان الذي صنعت اليه انما هو لمخافة فحشه، والأحمق فانه لا يعرف قدر ما أسديت اليه .

وقال بعض الفصحاء: الكريم شكور أو مشكور، واللئيم كفور أو مكفور وقال آخر : من كفر نعمة المفيد استوجب حرمان المزيد . وقيل : قيمة كل نعمة شكرها .

من جاوز النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مُغتالها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التي قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنا كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر أبقى لها

وقال آخر :

شكر الإله بطول الثناء وشكر الولاة بصدق الولاء
وشكر النظير بحسن الجزاء وشكر الدنيء بحسن العطاء

سأشكر لا أني أجازيك منعما بشكري ولكن كي يزاد ذلك الشكر
وأذكر أياماً لديّ اصطنعتها وآخر ما يبقى على الشاكر الذكر
الشكر أفضل ما حاولت ملتمساً به الزيادة عند الله والناس
إن الصنائع أطواق إذا شكرت وإن كفرت فأغلال لمنتحل
أوليتني نعماً أبوح بشكرها وكفيتني كل الأمور بأسرها
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت فلتشكرنك أعظمي في قبرها

١٤٨ ـ الاخلاص والرياء وأثرهما في العامل وعمله

الإخلاص هو أن يعمل المرء الخير بوحي ضميره الخالص ويقدم الإحسان بدافع نفسه الطاهرة قاصداً وجه الله الكريم وطالباً ثوابه العظيم غير ناظر لسمعة او متطلع لشهرة إذ كل ما يعمل رياء لا خير فيه ولا يجلب لصاحبه غير المقت والازدراء، وقد أثنى الله تعالى على المخلصين وذم المرائين .

فقال جل شأنه : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً

نبياً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واعلموا ان الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يُراءون ويمنعون الماعون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير وان شراً فشر » . وقال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » . وروى النسائي عن أبي امامة ان رسول الله ﷺ قال : « ان الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه » . وروى عن أبي ذر رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « قد افلح من اخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليماً ولسانه صادقاً ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « شرار أمتي المعجب بدينه المرائي بعمله المخاصم بحجته والرياء شرك » . وعن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ انه قال : « ما من عبد يقوم مقام سمعة ورياء إلا سمع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أخوف ما أخاف على أُمتي الرياء الظاهر والشهوة الخفية » . وقال : « ان الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل » . والمراد بالشرك الرياء .

وقال علي كرم الله وجهه : لا تعمل شيئاً رياء ولا تتركه حياء .

وقال بعض الحكماء : من التمس أربعاً بأربع التمس ما لا يكون .

من التمس الجزاء بالرياء التمس ما لا يكون .

ومن التمس مودة الناس بالغلظة التمس ما لا يكون .

ومن التمس وفاء الاخوان بغير وفاء التمس ما لا يكون .

ومن التمس العلم براحة الجسد التمس ما لا يكون .

وقال بعض الفصحاء : المرائي يتبهرج بزي الصلحاء وليس منهم ويظهر بمظهر الأخيار وهو ضدهم حتى يستعطف القلوب النافرة ويخدع العقول الواهية .

وقال بعض الفضلاء : لتكن سريرتك أحسن من علانيتك .

وقال آخر : الرياء يفضي بصاحبه الى استهزاء الناس به .

وقال بعض الصلحاء : كل حسنة لم يرد بها وجه الله فعلتها قبح الرياء وثمرتها سوء الجزاء . وقال آخر : كل ورع يحب صاحبه ان يعلمه غير الله فليس من الله

في شيء ، ولو ان رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب ان يعلم الناس به انه كتمه فهو من اقبح الرياء .

وقيل : المتزين بما ليس فيه كلابس ثوبي زور فهو بريائه محروم الاجر مذموم الذكر لأنه لا يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليـــه ولا يخفي رئاؤه على الناس فيحمد به .

وأفضل البر ما لا من يتبعه ولا تقدمــه شيء من المطل
فإنما الجود بذل لم تـكاف به صنعاًولمتنتظرفيهجزا رجل

وقال مؤلف هذا الكتاب :

عليك بالصبر والإخلاص في العمل ولازم الخـــير في حل ومرتحل

١٤٩ - الصراحة مرآة النفوس الطاهرة

الصراحة خلق يوجب على الإنسان الافصاح بمـــا في قلبه من غير زيـغ ولا مراوغة ، فليس من العيب ان يسرد الإنسان لأخيه كل ماجريات الحياة بوضوح وجـلاء حتى يتضافروا معاً على الاصلاح . ولكن العيب كل العيب ان يتلون المرء في أحواله ومعاملاته ومحادثاته ثم هو يعلم انـ للسان سقطات وللوجه علامات ومهما يبطن تظهره الايام،ولا شك بعدها ان تعرف حقيقة أمره وتظهر خبيئات نيته ويفتضح سوء تملقه ولا يلومن بعدئذٍ إلا نفسه حيث ينفض الكل من حوله ويبرأ الجميـع من معرفته .

قال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحيــاة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « شر الناس ذو الوجهين الذي يـــأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجـه » . وروى عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « لا ينبغي لذي الوجهين ان يكون وجيهاً عند الله » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « من كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » . وقـال عليه الصلاة والسلام: « ليس من أخلاق المؤمن التملق ولا الحسد إلا في طلب العلم » .

وقال علي كرم الله وجهه : ومـا أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه، وقال أيضاً : أعداء الرجل قد يكونون أنفع من اخوانه لأنهم يهدونه الى عيوبه فيجتنبها ويخـاف شماتتهم فيضبط نعمته ويتحرز من زوالها بغاية طوقه ـ وقـال : المرآة التي ينظر الإنسان فيها الى أخلاقه هي الناس لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ومساوئه من اعدائه فيهم . وقال : أعلم ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك . وثوابه وجوابه قد سقطا عنك .

وقال سعيد بن عروة : لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان على ما فيها من قبح المنظر وعجز المخـبر احب الي من ان اكون ذا وجهين وذا لسانين وذا قولين مختلفين .

وقال الأحنف بن قيس: لا صديق لمتلون ولا وفاء لكذوب ولا راحة لحسود ولا مروءة لدني ولا زعامة لسيء الخلق .

وقال الاسكندر : انتفعت بأعدائي اكثر مما انتفعت بأصدقائي لأن أعدائي كانوا يعيروني ويكشفون لي عيوبي وينبهوني بذلك على الخطإ فاستدركه ، وكان أصدقائي يزينون لي الخطأ ويشجعونني عليه .

وجاء رجل الى المهدي فقال له : أنا عبدك ، فقال : لا اعـلم احداً ينسب نفسه الى مخلوق مثله فانه ملق كاذب لا يقبله الا مفتون او مأفون .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه اذا مدح ، قال : اللهم انت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون .

وقال بعض الحكماء: ان الملق مصائد العقول الواهنة والمداهنة شبكة القلوب الغافلة ، وهما من ضروب التدليس والتمويه والتضليل والتغرير ، وليس في من يكون الملق والمداهنة بعض سجاياه خير يرجى ولا صلاح يؤمل ، وقال آخر : ان المتملقين يجعلون التملق خديعة ، فـإذا وجدوه مقبولاً في العقول الضعيفة أغروا أربابها وجعلوا ذلك ذريعة الى الاستهزاء بهم . وقال غـيره : عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه ـ كيف يفرح ، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه ـ كيف يغضب .

وقال بعض الفضلاء : من أعظم الذنوب تحسين العيوب ، وقال آخر : لا تحمل على ظنك ما لا تطيق ولا تعمل عملاً لا ينفعك ولا تغتر بالمداهنة ولا تثق بمال وان كثر ، وقال غيره : ينبغي للرجل ان يكون مرآة اخيه تريه خيره وشره.

وقال أحد العقلاء : اعرف الرجل من فعله لا من كلامه واعرف محبته من عينيه لا من لسانه .

وقال بعض البلغاء : التملق خدعة لا يرتضيها عاقل ولا ينخدع بها مميز . وقال آخر : من آداب الكلام ان لا يتجاوز المرء في مدح ولا يسرف في ذم لأن التجاوز في المدح ملق يصدر عن مهانة والسرف في الذم انتقام يصدر عن شر ، وكلاهما شين وان سلم من الكذب .

وقال ابو حيان الأندلسي :

عداي لهم فضل عليّ ومنة فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

وكم من صديق وده بلسانه خئون بظهر الغيب لا يتذمم
يضاحكني لطفاً اذا ما قابلته وتقصدني منه اذا ما غبت أسهم
كذلك ذو الوجهين يرضيك شاهدا وفي غيبة ان غاب صاب وعلقم

وقال صالح بن عبد القدوس :

قل للذي لست أدري من تلونه أناصح ام على غش يناجيني
اني لأكثر مما سمتني عجباً يد تشج وأُخرى منك تأسوني
تغتابني عند اقوام وتمدحني في آخرين وكل عنك يأتيني
هذان شيئان قد نافيت بينهما فاكفف لسانك عن شتمي وتزييني

خل النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك ان ترى الا عدواً او صديقا

ولا خير في واد امرىء متملق حلو اللسان وقلبه يتلهبُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ولا خير في ود امرىء متلون اذا الريح مالت مال حيث تميل

١٥٠ - الاستقامة والاعتدال أساس المدنية الحقة

الاستقامة والاعتدال همـا خصلتان ممدوحتان اذا وجدتها في المرء دلتا على حسن سيره وكمال عقله وهما سياجه الوحيد عن دفع ما يتسرب اليه من ضرر ، وصد ما يلحقه من قدح ولولاهما لما كان النظام الذي نشاهده ولا كان الاطمئنان الذي نمرح في بحبوحته فهما سبيل نجـاح لمن اراده وطريق سعادة لمن رغب فيها وهيهات هيهات ان ينال الخلو منهما مأربه او يبلغ قصده ، بـل لا يزال طول حياته يتخبط في دياجير الظلام فلا يرى للنور بصيصاً فيهتدى به ولا للذة الحياة بريقاً فيصل اليه فينقطع رجاؤه وتفنى معه آماله .

قال الله تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾. وقال تعالى:﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير ﴾ وقـال جل شأنه : ﴿ وان هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾. وقال تعالى : ﴿ ولو ان اهـــل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾. وقال تعالى : ﴿ أفمن يمشي مُكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « استقم وليحسن خلقك للناس » . وعن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال: « قاربوا وسددوا واعلموا انه لن ينجو احد منكم بعمله قالوا ولا انت يا رسول الله ، قال ولا انا إلا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل ».

وعن سفيان بن عبدالله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله حدثني بأمر اعتصم به ، قال : « قل ربي الله ثم استقم » . وقال عليه الصلاة والسلام : « خير الأمور اوساطها » .

وقال علي كرم الله وجهه: خير الأمور النمط الأوسط إليه يرجع الغالي وبه يلحق التالي .

وقال بعض الحكماء للاسكندر : ايها الملك عليك بالاعتدال في كل الأمور ، فإن الزيادة عيب والنقصان عجز . وقال آخر : ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة،

كالشجاع إذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور ، والسخي اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير .

وقال بعض الأدباء: احسن الاعمال ان تأتي بها على حال الكمال منغير زيادة فيها ولا نقصان ، فهي اوسط الأحوال فيها واعدلها ، لأنه لم يكن تقصير فتندم ولا تكثير فتعجز . وقال آخر : إياك ومفارقة الاعتدال فإن المسرف مثل المقصر في الخروج عن الحد .

وقال بعض العلماء : ان العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل ، ولست تجد فساداً الا وسببه الخروج من حال العدل الى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان .

وقال بعض العقلاء : احسن الاحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك . وقال آخر : اكثر الخير في الاوساط .

قال ابو العلاء المعري :

اذا كنت تبغي العيش فابغ توسطاً   فعند التناهي يقصر المتطاول
توقي البدور النقص وهي اهلة   ويدركها النقصان وهي كوامل
عليك بأوساط الأمور فانها   نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

وقال آخر :

لا تذهبن في الامور فرطا   لا تسألن ان سألت شططا
وكن من الناس جميعاً وسطا
ودع عنك اسراف العطاء ولا تكن   لكفيك في الانفاق امساك مقتر
ألا ان اوساط الامور خيارها   مقال نبي عن هدى الله مخبر

١٥١ ـ الأمل رحمة من الله للناس

فليست حياة المرء الا امانيا   فان هي ضاعت فالحياة على الأثر

الامل خلق كريم به تنشرح النفس ويتسع مجال العمل ويقوم الإنسان بما عليه من واجبات الحياة طبقاً للقوانين الشرعية فلا يصيبه فيها ملل ولا تعتوره

منها كآبة فما أصابه من خير شكر الله عليه وما مسه من سوء قابله برباطة جأش وثبات جنان وتضرع الى مولاه الأعلى أن يخلف عليه فيما أصابه في عيشه ويزيل عنه ما اعترضه في أمور حياته ، ثم هو لا يكاد يستأنف عمله واضعاً الأمل نصب عينيه لعلمه انه العدة على اقتحام المصاعب بصدر رحب والوسيلة على ارتكاب الاهوال في سبيل الوصول الى طلبه غير هياب ولا وجل . ما دام يعتقد انه على طريق الحق يسير وإلى غاية شريفة يأمل واقفاً عند حد لذلك الامل حتى لا يخرج به الى درجة الطامع في الدنيا والمتكالب عليها وشتان ما بينه وبين امرىء انقطع الامل منه فتسرّب اليأس الىفؤاده وتملك القنوط من قلبه فقعد عنالعمل وكفّ عن السير في سبيل الحياة حتى ضاقت به الارض على سعتها واصبح يعيب الزمان وأهله ، وما للزمان عيب سوى نفسه ثم صار يطلب الفرار من الحياة ، وربما أهلك نفسه تخلصاً منها ـ وهو ما نشاهده بين ظهرانينا من بعض الجهلاء البائسين فيذهب غير مأسوف عليه وبئس المصير .

قال الله تعالى: ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

وروي الديلمي ان رسول الله ﷺ قال : « إنما الامل رحمة من الله لأمتي ، لولا الامل ما غرس غارس شجراً ولا ارضعت ام ولداً » .

وقال بعض الحكماء : لولا الامل ما بنى بانٍ بنياناً ولا غرس غارس غرساً .

وقيل : قتل القنوط صاحبه وفي الظن بالله راحة القلوب .

وقال الطغرائي :

ولا تيأسنْ من صنع ربك إنه ... ضمين بأن الله سوف يديلُ
فان الليالي إذ يزول نعيمها ... تبشر ان النائبات تزول
ألم ترَ أن الليل بعد ظلامه ... عليه لإسفار الصباح دليل
ألم ترَ أن الشمس بعد كسوفها ... لها صفحة تغشى العيون صقيل
وأن الهلال النضو يقمر بعد ما ... بدا وهو شخت الجانبين ضئيل
وللنفوس وإن كانت على وجل ... من المنية آمال تقويها
فالصبر يبسطها والدهر يقبضها ... والنفس تنشرها والموت يطويها

لا خير في اليأس كل الخير في الامل	أصل الشجاعة والاقدام في الرجل
أعلل النفس بالآمـــال أرقبها	ما أضيق العيش لولا فسحة الامل

١٥٢ - من أبطأ به عمله لم يُسرِع به نسبه

عقب الجــد نجاح وغنى	ورداء الفقر من نسج الكسل

إن نظام هــذه الحياة يتطلب السعي والعمل ، وحركة الاعمال فيها تتوقف على الجد والاجتهاد. ولذلك كان من الواجب أن ينهض الإنسان للعمل مستشعراً بشعار الجد والنشاط طارحاً القعود والكسل وراءه ظهرياً حتى يقوم بما فرضته عليه الطبيعة - وهي سنة الله في خلقه - ويعمل بما أوحته اليه القوانين الشرعية والعاقل لا يرضى لنفسه أن يكون كلاً على غيره ، وهو يعلم ان الرزق منوط بالسعي،وان مصالح الحياة لا تتم إلا باشتراك الافراد حيث يقوم كل واحد بعمل خاص له ، وهناك تتبادل المنافــع وتدور رحى الاعمال ويتم النظام على الوجه الاكمل .

قال الله تعالى : ﴿ فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ . وقــال تعالى : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ . وقــال جل شأنه : ﴿ وألنا له الحديد ان اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحاً إني بمـــا تعملون بصير ﴾ . وقال عز جل : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : «فيما يرويه عن ربه ان الله يقول يا عبدي حرّك يدك أنزل عليك الرزق ». وروي الطبراني ان رسول الله ﷺ قال: « اطلبوا الرزق في خبايا الأرض » . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما أكل أحد طعاماً قط خير من ان يأكل من عمل يده » وروى عن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : «ان من الذنوب ذنوبـــاً لا يكفرها الصلاة ولا الصيام ولا الحج ولا العمرة يكفرها الهموم في طلب المعيشة » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو

يقول اللهم ارزقني ، وقد علم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة ، والله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض .

وقال بزرجمهر : ان يكن الشغل مجهدة فان الفراغ مفسدة .

وقال بعض الحكماء : اجعل الاجتهاد غنيمة صحتك والعمل فرصة فراغك، فليس كل الزمان مؤاتياً لك ولا مافات مستدركاً .

وقال أحد الأدباء : العمل ترس يقي سهام البلاء ، والجد سيف يقطع اعناق الشقاء . وقال آخر : لا شيء أحسن من عقل زانه حلم ومن عمل زانه علم ومن حلم زانه صدق .

وقال بعض البلغاء : ان الله تعالى جعل طلب الرزق مقصوراً على الخلق كله وأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال والخلابة والاحتيال وقال آخر: من أمضى يومه في غيره حق قضاه او فرض أداه او مجد أثله او حمد حصله او خير أسسه او علم اقتبسه فقد عق يومه وظلم نفسه . وقال غيره : اذا عمل المرء ولم يدرك حاجة فحسبه نفعاً ان يسلم من عواقب التواني التي هي أسوأ من مغبات الخيبة . وقال غيره : من صادف حظاً بدون مشقة كان فيما ناله كالمغتصب ، اذ ليس في الحظوظ استحقاق .

وقال بعض العقلاء : لا تمض يومك في غير منفعة ولا تضع مالك في غير صنيعة ، فالعمر أقصر من ان ينفذ في غير المنافع ، والمال اقل من ان يسرف في غير الصنائع ، والعاقل اجل من ان يفني أيامه فيما لا يعود عليه نفعه وخيره ، وينفق أمواله فيما لا يحصل له ثوابه واجره .

وقال بعض العلماء : هل يجوز في وهم او يتمثل في عقل او يصح في قياس ان يحصد زرع بغير بذر او تُجنى ثمرة بغير غرس او يورى زند بغير قدح او يثمر مال بغير طلب .

وقال بعض الفضلاء : الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم ، والعلم كله هباء الا موضع العمل ، والعمل كله هباء الا في موضع الاخلاص .

وقد قيل : كل رزق له سبب ، ومن طلب الأمر وجدّ وجد .

وقال ابن شهاب :

تتبع خبايا الأرض وادع مليكها لعلك يومـاً ان تجاب فترزقا
فيؤتيك مـالاً واسعاً ذا متانة اذا مـا مياه الأرض غارت تدفقا

وقال صفي الدين الحلي :

ومن اراد العلا عفواً بـلا تعب قضى ولم يقض من ادراكها وطرا
لا يبلغ السؤل الا بعد مؤلمة ولا تـتم المنى الا لمن صبرا

وقال الشاعر :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن الق دلوك في الدلاء
تجئك بمثلها طوراً وطوراً تجئك بحمأة وقليل مـاء
ولا تقعـد على كسل التمني تحيل على المقدر والقضاء
فان مقادير الرحمن تجري بأرزاق الرجال من السماء
مقدّرة بقبض او ببسط وعجز المرء اسباب البلاء
اذا انت لم تزرع وابصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر
دع التكاسل في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان
بصرت بالحالة العليا فـلم ارها تنال إلا على جسر من التعب
وما طالب الحاجات في كل وجهة من الناس إلا من اجـد وشمرا

١٥٣ - المثابرة والثبات على الأعمال سر النجاح

الثبات هو المواظبة بدون هوادة ولا انقطاع ولأن الأعمال لا تتكلل بالنجاح ولا يبلغ المرء منها امنيته الا بالثبات فيها ، وتوطيد العزم على المثابرة عليها من غير ان يجعل لليأس عليه سبيلاً او يدع للسآمة عنده مجالاً وما فشل في عمله الا من ضعفت عقيدته وخارت عزيمته فقعد عن مواصلة العمل ولم يهتد الى بـلوغ الامل ، ولكن كبار النفوس اشداء الشكيمة تراهم لا يزالون يكافحون الاعمال من جميع وجوهها بقلوب ثابتة وعزائم صادقة فلا يلبثون ان يبلغوا منها مآربهم ويفوزوا منها بمقاصدهم جزاء ما تحملوا من متاعب وتجشموا من مصاعب ، والله لا يضيع اجر العاملين .

قال الله تعالى : ﴿ يا ايهـا الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ فاذا عزمت فتوكل على الله ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « احب الاعمال الى الله ادومها وان قل » . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ». وقال عليه الصلاة والسلام : « من بات كلا من طلب الحلال بات مغفوراً له » .

وقال علي كرم الله وجهه : التواني مفتاح البؤس وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة ، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى الى الفساد ، وقـال : من أطاع التواني ضيع الحقوق ، ومن العجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه ، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه وقال: لهب الشوق أخف محملا من مقاساة الملالة.

وقال الأحنف : إياك والكسل والضجر ، فإنك إن كسلت لم تؤد حقاً وإن ضجرت لم تصبر على حق .

وقال يزيد بن الملهب: ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود الضجر.

وقال أعرابي : العاجز هو القليل الحيلة الملازم للأماني المستحيلة .

وقال أحد الحكماء : ما لزم أحد الدعة إلا زل، وحب الهوينا يكسب الذل وحب الكفاية مفتاح العجز . وقال آخر : احذر مجالسة العاجز، فإن من سكن إلى عاجز أعـــداه من عجزه وأمده من جزعه وعوده قلة الصبر ونساه ما في العواقب وليس للعجز ضد إلا الحزم .

وقال أحد الفضلاء : من دام كسله خاب أمله ومن التوفيق بغض التواني .

وقال غيره : أولى الأمور بالإنجاح المواظبة والإلحاح .

وقيل : لا تؤخرن عملا عن وقته ، فإن للوقت الذي تؤخر اليه عملا آخر ، ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها إذا ازدحمت دخلها الخلل .

وقيل أيضاً : من لزم الرقاد عدم المراد ومن كثر تواكله كثر إهماله ومن كثر إهماله ضاعت أمواله .

لقد هاج الفراغ عليك شغلا ... وأسباب البـلاء من الفراغ
توكل على الرحمن في الأمر كله ... ولا ترغـبن في العجز يوما

لا تكون للأمور هيوبـــاً فـإلى خيبة يصير الهيوب
إذا هم لم تردع عزيمة همــــه ولم يأت ِ ما يأتي من الأمر هائبا
إذا هم ألقى بـــين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا
إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ولا تك بالترداد للرأي مفسدا
فإني رأيت الريث في العزم هجنة وإنفاذ ذي الرأي العزيمة أرشدا

١٥٤ - الالفة والاخوة قوة والتفرق ضعف

قضت الشرائع بالإلفة والتآخي لما يعترض حالنا في هــذه الحياة من العوائق والمصاعب ومـــا ينتابنا فيها من النوائب والمصائب مما لا يقدر الفرد على احتماله أو دفع اضراره ، فبالإلفة والاخوة تتوطد العلائق بين الافراد وتقوي الرابطة بـــين الجماعات ، ويعمل الكل متحدين على مكافحة معترضات الحياة وتذليل صعابها فتفتح أمامهم الطرق ويسهل عليهم عبورها حتى يصلوا الى مـــا يشاءون من بلوغ النجاح ونيل الآمال ، ومن هــذا يتضح لك سوء عاقبة من انشق على اخوانه وقطع حبل المودة فـــيما بينه وبينهم ، فإنه لا يزال تتخبطه الوساوس وتتلقفه الحوادث ولا يجد من يرشده أو يشاركه في دفع ضر أو جر مغنم .

قال تعالى: ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ . وقال : ﴿ إنمـــا المؤمنون إخوة ﴾ . وقال : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غِلّ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « المؤمن آلف مألوف ولا خـــير فيمن لا يألف ولا يؤلف » . وقـــال عليه الصلاة والسلام : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخواناً » . وقـــال عليه السلام : « تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ». وعن أنس ان رسول الله ﷺ قال : « أحبكم إليّ أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة الملتمسون للعثرات المفرقون بين الاخوان » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لقاء الاخوان جلاء الاحزان .

وقال علي كرم الله وجهه لابنه : الغريب من ليس له حبيب .

وقال ابن المعتز : من اتخذ اخواناً كانوا له أعواناً .

وقال خالد بن صفوان : أعجز النـاس من قصّر في طلب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

وقال عبد الملك بن طاهر : المال غاد ورائح والسلطان ظل زائل والاخوان كنوز وافرة .

وقال زياد : خير ما اكتسب المرء بالاخوان فانهم معونة على حوادث الزمان ونوائب الحدثان وعون في السراء والضراء .

وقال أحد الحكماء لابنه : يا بنيّ لا تستقل عدواً واحداً ولا تستكثر ألف صديق ولا تستبدل بأخ قديم أخاً مستحدثاً ما استقام لك . وقال آخر : المودة والاخوة سبب التآلف والتآلف سبب القوة والقوة حصن منيع وركن شديد ، وبها يمنع الضيم وتنال الرغائب وتجح المقاصد .

وقال بعض الأدباء : أفضل الذخائر أخ وفيّ حمـيم صادق المودة لطيف الصحبة يهتم لشأنك اهتمامه بشأنه ويتوفر على هنائك كما يتوفر على هنائه .

وقال احد الفصحاء : الصديق الحميم عـدة في البلايا ، وعمدة في المحن وبلسم في النوائب ومرهم في الشدائد . وقال آخر : لا تساغ مرارة الأوقات إلا بحلاوة الاخوان الثقات فاستروح من غمة الزمان بمؤانسة الخلان .

وقال ابن الرومي :

عليك باخوان الصفاء فانهـم	عماد اذا استنجدتهم وظهور
وليس كثيراً ألف خل وصاحب	وان عدواً واحـداً لكثير

وقال عبد الله بن عرفة :

هموم رجـال في أمور كثيرة	وهمي من الدنيا صديق مساعد
نكون كروح بين جسمين قسمت	فجسماهما جسمان والروح واحد
فانمـا الرجال بالاخوان	واليد بالساعـد والبنا
لا يحقر الصحبة إلا جاهـل	او مارق عن الرشاد غافـل

ومـــا المرء إلا باخوانه كما تقبـض الكف بالمعصم
ولا خـــير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعـــد الأجذم

١٥٥ ـ اختيار الاصدقاء ميزان العقول الراجحة

الناس في هذه الحياة متفاوتوا الاخلاق متباينوا المشارب ، فمنهم من ساءت اخلاقهم فنزعت نفوسهم الى الشهوات ومالوا الى اللذات ، فما عرفوا غير إشباع نهمتهم وما راغوا غير العمل لأهوائهم ،فهؤلاء لا خير يرجى منهم ولا منفعة تعود على المجتمع الإنساني من ورائهم فالابتعاد راحة وعـدم الارتباط بهم وقاية عنهم ومنهم من حسنت طباعه فقمع نفسه عن لذاتها وردعها عن شهواتها وعمل للمنفعة العامة وصار في طريق الاصلاح ، وهذا هو الجدير بالالفة والخليق بالتودد فالخير معقود بمصاحبته والسعادة مقرونة بمصادقته لأن نفسه الطاهرة تطمح على الدوام الى الكمال وقلبه الثابت مشرئب لنيل معالي الأمور ـ والمرء على دين خليله .

قال الله تعالى : ﴿ وحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴾ . وقال في معرض التحذير من قرناء السوء مبيناً ندامـة من لم يحتط لنفسه في اختيار من يصادق : ﴿ يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: « عليكم باخوان الصدق فانهم زينة في الرخاء وعصمة في البلاء » . وقال عليه الصلاة والسلام: « المرء كثير باخوانه ولا خير في صحبة من لا يرى لك من الحق مثل ما ترى له » . وروي البخاري ان رسول الله ﷺ قال : « المرء على دين خليله فلينظر أحـــدكم من يخالل » . وعنه عليه الصلاة والسلام انــه قال : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد ، فصاحب المسك إما ان تشتري منه او تجد ريحاً طيبة ، وكير الحداد يحرق بدنك او ثوبك او تجد منه ريحاً خبيثة » .

وقال علي كرم الله وجهه : خير اخوانك من واساك وخير منه من كافاك .

وقال عبد الله بن جعفر : عليك بصحبة من اذا صحبته زانك وان غبت عنه صانك وان احتجت اليه مانك وان رأى منك خلة سدها او حسنة عدها .

وقال لقمان لابنه : يا بنيّ لا تجالس الفجار ولا تماشهم اتق ان ينزل عليهم عـذاب من السماء فيصيبك معهم وجالس الفضلاء والعلماء فان الله يحيي القلوب الميتة بالفضيلة كما يحيي الأرض بوابل المطر .

وأوصى أمير المؤمنين اولاده قال : يا بنيّ عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنوا اليكم وان فقدتم بكوا عليكم ، ان القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودة وتتناجى بها ، وكذلك هي في البعض فان أحببتم الرجل من غير خير سبق منه إليكم فارجوه ، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه .

وقيل لابن السماك : أي الاخوان أحق ببقاء المودة ؟ قال الوافر دينه الوافي عقله الذي لا يملك على القرب ولا ينساك عـلى البعد إن دنوت منه داناك ، وان بعدت عنه راعاك ، وان استعنت به عضدك وان احتجت اليـه رفدك وتكون مودة فعله اكثر من مودة قوله .

وقال بعض الحكماء: احذر من الكريم اذا أهنته واللئيم اذا أكرمته والعاقل اذا أحرجته والأحمق اذا مازحته والفاجر اذا عاشرته . وقال آخر : الصديق النصوح من بصرك مواضع رشدك وعواقب غيك .

وقال غيره : معاشرة ذوي الألباب عمـــارة القلوب وصداقة الجاهل تعب وقال غيره : شر الإخوان الواصل في الرخاء الهاجر عند الشدة .

وقال بعض البلغاء : من خـير الاختيار صحبة الاخيار ومن شر الاختيار مودة الأشرار . وقـال آخر : اصحب من الاخوان من أولاك جمائل كثيرة ، فكافأته بجميلة واحدة فنسي جمائله وبقي شاكراً ذاكراً لجميلتك يوليك عليها الإحسان الجميل ويجعل انه ما بلغ من مكافأتك القليل .

وقال غيره : الصديق من استروحت اليه النفس واطمأن اليه القلب .

وقال أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد الذي ... يذمك ان وليّ ويرضيك مقبلا
ولكن أخوك النائي ما دمت آمناً ... وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

وقال أبو تمام :

من لي بانسان اذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم ردّ جوابه

واذا صبوت الى المدام شربت من ... اخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بطرفه ... وبقلبه ولعله أدرى به

وقال الأحنف بن قيس :

أخوك الذي إن تدعه لملمة ... يجبك وان تغضب الى السيف يغضب

إن اخاك الصدق من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن اذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

ليس الصديق الذي ان ذل صاحبه ... يوماً رأى الذنب منه غير مغفور
وان اضاع له حقاً فعاتبه ... فيه أتاه بتزويق المعاذير
ان الصديق الذي تلقاه يعذرُ في ... ما ليس صاحبه فيه بمعذور

ان كنت متخذاً خليلاً ... فتنقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً ... في الود فابغ به بديلا
ولقلما تلقى اللئيم عليك إلا مستطيلا

واحذر مؤاخاة الدنيّ لأنه ... يُعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
واختر صديقك واصطفيه تفاخراً ... ان القرين الى المقارن يُنسب
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ... ان الكذوب لبئس خلا يصحب

١٥٦ - العتاب وأثره في نفوس الأصحاب

لما كان التآخي والتآلف بين الناس من التعاليم الشرعية والنظم الإلهية ، وكان من الواجب أن يعمل المرء على دوام العلائق واستمرار الروابط ، ولا يتم ذلك مع من اختارهم لصحبته ورضيهم لاخوته الا باحتمال عثراتهم والصفح عن هفواتهم ، كان من المحتم عليه ألا يقطع اخاه لأول وهلة او يتركه لأيسر كبوة ، بل يعاتبه على ما صدر منه بالحجة والبرهان بقصد اصلاحه ، لا لغرض تعنيفه وليلاحظ عدم الإغراق في العتاب ، فان ذلك يوجب مجانبته وقطع مصاحبته ، وقد ورد في احتمال الأذى آثار كثيرة .

قال تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .
وقال جل شأنه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله ﴾.

وقال رسول الله ﷺ : « ان الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض » . وقال عليه الصلاة والسلام : « مداراة الناس صدقة » . وقال رسول الله ﷺ : « ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بدّ له من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجاً » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « من اعتذر اليه اخوه المسلم من ذنب قد أتاه فلم يقبل منه لم يرد على الحوض غداً » . وقال رسول الله ﷺ: « ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا بلى ان شئت يا رسول الله، قال ان شراركم الذي ينزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفده، قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك ، قالوا بلى ان شئت يا رسول الله ، قال من يبغض الناس ويبغضونه ، قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك ، قالوا بلى ان شئت يا رسول الله ، قال الذين لا يقيلون عثرة ولا يقبلون معذرة ولا يغفرون ذنباً، قال أفلا أنبئكم بشر من ذلك قالوا بلى ان شئت يا رسول الله ، قال من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أعقل الناس أعذرهم للناس .

وقال علي كرم الله وجهه . لا تقطع أخاك على ارتياب ولا تهجره دون استعتاب .

وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت لأنهم اذا جذبوها ارسلتها واذا ارسلوها جذبتها .

وقال الأحنف : من حق الصديق ان يتحمل ثلاثاً : ظلم الغضب وظلم الدالة وظلم الهفوة .

وقال احد الحكماء : اذا رأيت من اخيك امراً تكرهه او خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ، ولكن داو كَلْمَهُ واستر عورته وابقه وابرأ من عمله .

وقال آخر : مما يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته والتجاوز عن سيئاته ، فان رجع واعتب والا عاتبه بلا اكثار ، فان كثرة العتاب مدرجة للقطيعة . وقال غيره : لا صديق لمن اراد صديقاً لا عيب فيه . وقال غيره : لا تقطع اخاك الا بعد عجز الحيلة عن استصلاحه. وقال غيره : كل عقل لا يداري به الكل فليس بعقل تام .

وليس عتاب الناس للمرء نافعاً إذا لم يكن للمرء لب يعاتبه

وقال بعض الأدباء : ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم حسن المحضر واحتمال الزلة وقلة الملال .

وقال بعض البلغاء : من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قلى صديقه ، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ، ومن عاتب على كل ذنب دام عتبه وكثر تعبه .

وقال ابن عباس :

يا صديقي الذي بذلت له الود وأنزلته على أحشائي
إن عيناً قذيتها لتراعيك على ما بها من الاقذاء
ما بها حاجة إليك ولكن هي معقودة بحبل الوفاء

وقال احمد بن أبان :

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ وكنت أُجازيه فأين التفاضلُ
ولكن أداويه فان صح سرني وإن هو أعيا كان منه تحامل

وقال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
وإن أنت لم تشرب مراراً على القذي ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
فعش واحداً أوصل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

١٥٧ ـ الكلام وما يترتب عليه من المنافع والمضار

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

الكلام هو واسطة التعارف بين الناس والتعاون معهم ، فلا يستغني المرء عن محادثة غيره في شؤون الحياة ونظم الأعمال .

ولما كان الكلام هو عنوان درجة الشخص ودليل جوهر نفسه بين النفوس وجب ان يكون صحيحاً مختاراً ذا فائدة صادراً عن عقل وروية وصدق وحسن طوية بعيداً عن البطلان والسخرية قليلاً على قدر الكفاية ، فان الكلام الكثير

ينسى بعضه بعضاً وتكراره يدعو الى السآمة والملل ، وقلما سئم مكثر من لغو وهذر .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : رحم الله عبداً ، قال : «خيراً فغنم أو سكت فسلم» وقال عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « يا معاذ أنت سالمٌ ما سكت فاذا تكلمت فعليك أولك » . وقال عليه الصلاة والسلام : « أبغضكم الى المتفيهق المكثار والملح المهذار » وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ان الله تعالى يكره الانبعاق في الكلام فرحم الله عبداً أوجز في كلامه» .وقال عليه الصلاة والسلام: « وهل يكب الناس على وجوههم او مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم » . وقال : « هلك المتنطعون » . وقال عليه الصلاة والسلام مثنياً على الكلام الذي يتحرى فيه صاحبه ما يجب أن يتحراه : « ان من البيان لسحراً وان من الشعر لحكمة » .

وقال علي كرم الله وجهه : أحسبوا كلامكم من أعمالكم وأقلوه إلا في الخير . وقال أيضاً : اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل ، وقال : خير الكلام ما صدقه الفعال .

وقال ابو الأسود الدؤلي لابنه : يا بنيّ ان كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من هو فوقك فيمقتوك ، ولا بكلام من هو دونك فيزدروك .

وقال جعفر بن يحيى : اذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عياً ، وان كان الإكثار واجباً كان التقصير عجزاً .

الصمت في غير فكرة سهو ... والقول في غير حكمة لغو

وقال المهلب : لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحب إليّ من ان ارى للسانه فضلاً على عقله .

وقال بطليموس : افرح بما لم تنطق به من الخطإ اكثر من فرحك بما نطقت به من الصواب .

وقال بعض الحكماء : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه او باطل تدحضه او حكمة تنشرها او نعمة تذكرها . وقـــال آخر : بكثرة الصمت تكون الهيبة وبعدل المنطق تجلب الجلالة . وقال غيره : انمـــا هلك الناس بفضول الكلام وفضول المـــال . وقال غيره : من اعجب بقوله كثر زلله وقلّ سامعوه ، وليس لكثرة الهذر نفع يوازي ضره .

وقال بعض البلغاء : الزم الصمت فانــه يكسبك صفوة المحبة ويؤمنك سوء المغبة ويلبسك ثوب الوقار ويكفيك مؤونة الاعتذار.وقال آخر: احبس لسانك قبل ان يطيل حبسك او يتلف نفسك ، فـــلا شيء أولى بطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع الى الجواب . وقال غـــيره : الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فاذا تكلم بهـا صار في وثاقها . وقال غيره : رب ألسنة كالسيوف تقطع أعناق اصحابها .

وقال بعض الأدباء : سعد من لسانه صموت وكلامه قوت . وقـــال آخر : الكلام في الخير كله افضل من الصمت ، والصمت في الشر كله افضل من الكلام.

وقال بعض العقلاء : اشد الناس بلاء واكثرهم عناء من له لسان مطلق وقلب مطبق ، فهو لا يستطيع ان يسكت ولا يحسن ان يتكلم .

وقال بعض العلماء : من اعوز ما يتكلم بـــه العاقل ألا يتكلم الا لحاجته او لحجته ولا يفكر الا في عاقبته او في آخرته .

وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب الا كثرة الكلام : قـــال افتسمونه صواباً او خطأ . قالوا بل صواباً . قال : فالزيادة من الخير خير .

وقيل : اذا تم العقل نقص الكلام .

وقال ابو الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حي والسكوت جمادُ
فان لم تجــد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غــير السداد سداد

وقال غيره :

رأيت العز في ادب وعقــل وفي الجهـل المذلة والهوانُ

وما حسن الرجال لهم بحسن　　اذا لم يسعد الحسن البيـان
كفى بالمرء عيباً ان تراه　　له وجـه وليس له لسان

وقال غيره :

وزن القول من قبل الكلام فانما　　يدل على قـدر العقول التكلم

١٥٨ - الضحك والمزاح ومقدار المكروه منهما والمباح

المزاح والضحك الكثير سقوط　　واليأس من روح الإله قنوط

المزاح والضحك خلتان غـير ممدوحتين ما لم تكونا في حد الظرف والكمال مـع مراعاة الظروف الخاصة بهما بقصد ترويح النفس وتفريج السآمة ليسأنف المرء عمله بالجد والنشاط مع التزام الأدب والصدق كي يكون محفوظ القدر موفور الكرامة ، أمـا إذا خرج الإنسان بهما عن موضع الجد والاحترام وحد الحشمة والوقار ، فقد عرّض نفسه للازدراء والاحتقار ، وبئست حـــال من لم يعرف لنفسه قدرها ولم يحفظ لكرامته مقامها في هذا المجتمع الإنساني .

قال تعالى مخاطباً لقوم هذا شأنهم: ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً ». وقال عليه الصلاة والسلام : « إياك و كثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه ». وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً قط ضاحكاً حتى ترى منه لهواته ، إنما كان يبتسم » . وقال رسول الله ﷺ : « الصمت سيد الأخلاق ومن مزح استخف به » .

وقد ورد (المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « التبسم أبلغ في الإيناس من الضحك الذي يكون استهزاء وتعجباً » .

وقـال الحجاج بن يوسف الثقفي : المزاح يوغر صدر الصديق وينفر الرفيق ويبدي السرائر ويظهر المعاير ويجلب الشتم ويثير الحقد .

وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا المزاح فانه حمقة تورث ضغينة .

وقال بعض الحكماء : الضحك شاغل عن النظر في الأمور المهمة مذهل عن الفكر في النوائب الملمة ، وليس لمن أكثر منه هيبة ولا وقار ولا لمن وصم به خطر ولا مقدار .

وقال أحد الأدباء : على العاقل أن يتقي المزح وينزه نفسه عن وصمة مساويه فانه مخرج الى القطيعة ومذهبة للهيبة والبهاء ومدعاة لتجرؤ الغوغاء والسفهاء .

وقال غيره : الضحك كالمزاح يلزم تحاميه والنفور منه والأحرى بالعاقل أن يبدل الضحك عند الإيناس بالتبسم .

وقال بعض العلماء : من قلّ عقله كثر هزله . وقال آخر : احذر فلتات المزاح فسقطة الاسترسال لا تقال .

وقيل : المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب .

وقيل أيضاً : كثرة الضحك من الرعونة وضحكة المؤمن غفلة من قلبه .

وقال النيسابوري :

شر مزاح المرء لا يقال ... وخيره يا صاح لا ينال
وقد يقال كثر المزاح ... من الفتى تدعو الى التلاحي
ان المزاح بدؤه حلاوه ... لكنما آخره عداوه
يحتد منه الرجال الشريف ... ويجتري بسخفه السخيف

وقال ناصح الدين :

لا تجعل الهزل دأباً فهو منقصة ... والجد تعلو به بين الورى القيم
ولا يغرنك من ملك تبسمه ... ما سحّت السحب إلا حين تبتسم

وقال علي كرم الله وجهه :

ودع المزاح فربّ لفظة مازح ... جلبت اليك بَلا بِلا لا تدفع
أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... بضحك وعلله بكاس من المزح
ولكن اذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما يعطي الطعام من الملح
واحذر من المزح كم في المزح من خطر ... كم من صديقين بعد المزح فاختصما

١٥٩ ـ العاقل من اتعظ بغيره واعتبر به

اذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

الاعتبار هو الاتعاظ بحوادث الزمان والانتصاح بنصائح الحدثان ، فالعاقل من أخذ في أموره بالثقة وسار في احواله بالحيطة كي تقل عثراته وتنقطع هفواته ومن الجهل الفاضح ان ينظر الإنسان للحوادث نظر متفرج غير متدبر ، لا نظر متفكر معتبر ، ولذلك تراه يقع فيما وقع فيه غيره ، ولعمر الحق ان هذا الخطأ فادح لا ينبغي ان يكون من العقلاء فيجب تداركه والعمل على تلافيه وليحرص كل الحرص ان يكون لنفسه من الايام واعظ ومن الحوادث رادع ومرشد ليعيش عيشة الآمنين السعداء .

في كل شيء عبرة لمن عقل قد يسعد المرء اذا المرء اعتدل

قال الله تعالى : ﴿ فاعتبروا يا أُولي الأبصار ﴾. وقال تعالى : ﴿ ان في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السميع وهو شهيد ﴾. وقال عز وجل : ﴿ان في ذلك لآيات لأولى النهي﴾

وقال رسول الله ﷺ : « السعيد من وعظ بغيره » .

وقال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأديباً وبتقلب الأيام عظة . وقال آخر : ان للباقي بالماضي معتبراً وللآخر بالأول مزدجراً والسعيد لا يركن الى الخدع ولا يغتر بالطمع . وقال غيره : السعيد من اعتبر بأمسه .

وقال بعض الفصحاء : كفى بالدهر مخبراً بما مضى عما بقى ، وكفى عبراً لأولى الألباب ما جربوا .

وقال بعض البلغاء : ما اكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر .

وقيل لأحد الحكماء : من أدبك ، قال : ما أدبني أحد، رأيت الجهل قبيحاً فاجتنبته . وقيل : من كثر اعتباره قلّ عثاره .

وقيل أيضاً : العاقل من اتعظ بغيره واعتبر به .

وقال ابراهيم بن شكله :

من لم يؤدّبه والداه أدّبه الليل والنهار
كم قد أذلا كريم قوم ليس له منهما انتصار
من ذا يد الدهر لم تنله أو اطمأنت بـه الديار
كل عن الحادثات مغض وعنده للزمان ثار

وقال طاهر بن الحسين :

اذا اعجبتك خصال امرىء فكنه يكن منك مـا يعجبك
فليس على المجـد والمكومات اذا جئتهـا حاجب يحجبك

١٦٠ - إن النفس لأمارة بالسوء

ان للنفس نزعات شيطانية ولذات شهوانية ، فـإذا هي تركت وشأنها تعثي وراء لذاتها وتسير في سبل شهواتها فتنزع الى الشر في كل منزع ، ولا شك أنهـا تودي بصاحبها في الهلاك فيردي في مهاوي الردي ، أمـا من تغلب على نفسه وقادها بعقل راجح وفكر ثابت ومنعها عن اطماعها الدنيئة وكفها عن شهواتها الخسيسة ، فإنه يكون بعيداً عن مواطن الشقاء والهلاك غـير مرتكب إثماً ولا متحمل وزراً وسيجزيه الله الجزاء الأوفى مع المتقين .

قال الله تعالى: ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ . وقـال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ . وقال جل شأنه: ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾. وقال عز وجل: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ُ وأضله الله على عـلم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ: « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » . وقـال عليه الصلاة والسلام : « المجاهد من جاهد نفسه وهواه ». وقال عليه الصلاة والسلام: « أعدي عدوك نفسك التي بـين جنبيك » . وروى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « اياكم والهوى فإن الهوى ُيصم ويُعمى » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : اقذعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها

طلاعة تنزع الى شر غاية ، ان هـذا الحق ثقيل مري وان الباطل خفيف وبي ، وترك الخطيئة خـير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة ، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

وقال علي كرم الله وجهه : أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل ، فان اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الامل ينسي الآخرة ، وقـال : اياكم وتحسين الشهوات على انفسكم ، فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم .

وقال الشعبي : انما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه .

وقال ابن السماك : كن لهواك مسوّفاً ولعقلك مسعفاً وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوي داؤها وترك ما تهوي دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء .

وقال بعض البلغاء : من اصلح نفسه ارغم أنف اعاديه ، ومن اعمـل جده بلغ كنه أمانيه . وقال آخر : اصلح نفسك لنفسك يكن الناس تبعاً لك. وقال غيره : من امات شهوته فقد احيا مروءته . وقال غـيره : الهوى عسوف والعدل مألوف .

وقال بعض العلماء : ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما ، فمن غلب عقله على شهوته فهو خـير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم .

وقيل لبعض الحكماء : من اشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته ، قـال من جاهـد الهوى طاعة لربه ، واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقيل : العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقيـل أيضاً : من أطاع هواه أعطى عدوه مناه .

وقال علي كرم الله وجهه :

صن النفس واحملها على ما يزينها | تعش سالمـاً والقول فيك جميل
ولا ترين النـاس إلا تجملا | نبا بك دهر او جفاك خليـل

وقال ابو الفتح البستي :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته | لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان
اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد ثكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلاً بنفسه وقد وجدت فيه مقالا عواذله

١٦١ - من كتم سره فقد ملك أمره

كتمان السر من افضل الأخلاق واكبر الفضائل به تصان والأعراض وتحفظ الأرواح وتلتئم الجماعات فرب سر أفشيته جلب شراً مستطيراً وأحدث فتنة اهلكت خلقاً كثيراً ، ولهذا كان من الواجب على الإنسان ان يخفي سره ما استطاع ، والا عرض نفسه الى اضرار كثيرة لا قبل له بها ، وحينئذٍ لا يمكنه دفع ما يترتب على ذلك من الاخطار فيعض سبابة المتندم ولا ينفعه الندم بعد ما انقضى الأمر .

قال الله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهدِ ان العهدَ كان مسؤولاً ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان ، فان كل ذي نعمة محسود » وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « ان من اشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي الى المرأة وتفضي اليه ثم ينشر سرها » . وعن ثابت عن انس رضي الله عنه انه قال : « أتى عليّ رسول الله ﷺ وانا العب مع الغلمان فسلم علينا فبعثني في حاجته فأبطأت على أُمي ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ فقلت : بعثني رسول الله ﷺ لحاجة ، قالت : ما حاجته ؟ قلت : انها سر ، قالت : لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ احداً . قال انس : والله لو حدثت به احداً لحدثتك به يا ثابت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « اذا حدّث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهو امانة » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من كتم سره كان الخيار في يده وكان يقول رضي الله عنه : ما افشيت سري الى احد قط فلمته اذ كان صدري به اضيق .

وقال علي كرم الله وجهه : سرك اسيرك فان تكلمت به صرت اسيره .

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوب اوعية الاسرار والشفاه اقفالهـا والالسن مفاتيحها ، فليحفظ كل امرىء مفتاح سره .

وقال انو شروان : من حصّن سره فله بتحصينه خصلتان الظفر بحاجته ، والسلامة من السطوات .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بنيّ كن جواداً بالمـال في موضع الحق ضنينا بالاسرار عن جميع الخلق ، فان احمد جود المرء الانفاق في وجه البر والبخل بمكتوم السر . وقال آخر : انفرد بسرك ولا تودعه حازماً فيزل ولا جاهـلا فيخون . وقال غيره : من افشى سره كثر عليه المتآمرون .

وقال بعض الأدباء : اضعف الناس من ضعف عن كتمان سره واقواهم من قوي على غضبه واصبرهم من ستر فاقته واغناهم من قنع بما تيسر له. وقال غيره : كم من سر اراق افشاؤه دم صاحبه ومنعه من بـلوغ مآربه ولو كتمه لأمن من سطوته وسلم من عواقبه .

وقال بعض الفصحاء : من عجائب الأمور ان الاموال كلما كثر خزانها كان اوثق لها ، واما الاسرار فانها كلما كثر خزانها كان اضيع لها . وقال آخر : ما اسرك ؟ لو كتمت سرك .

وقال غيره : من لم تغيبه الاضالع فهو مكشوف ضائع .

وقال بعض العقلاء : إظهار الرجل سر غيره أقبح من إظهاره سر نفسه لأنه يبوء بإحدى وصمتين : الخيانة إن كان مؤتمناً ، والنميمة إن كان مستودعاً .

وقيل : من أفشى سره أفسد أمره ومن كتم سره ملك أمره ، وقيل أيضاً : قلوب العقلاء حصون الاسرار ، وليحذر صاحب السر أن يودع سره من يتطلع عليه ويؤثر الوقوف عليه ، فإن طالب الوديعة خائن .

ولا تفش سرك إلا اليك ... فإن لكل نصيح نصيحاً
فـإني رأيت وشاة الرجا ... ل لا يتركوا أديماً صحيحاً

لا يكتم السر إلا كل ذي ثقة ... والسر عند خيار الناس مكتوم
فالسر عندي في بيت له غلق ... ضاعت مفاتيحه والباب مختوم

ومستودعي سراً تضمنت سره | فأودعته من مستقر الحشا قبرا
ولكنني أخفيه عني كأنني | من الدهر يوماً ما أحطت به خبرا
وما السر في قلبي كميت بحفرة | لأني أرى المدفون ينتظر النشرا

إذا ما ضاق صدرك من حديث | وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبت من أفشى حديثي | وسري عنده فأنا الملوم
ولست بمبدٍ للرجال سريرتي | ولا أنا عن أسرارهم بسئول
صن السر عن كل مستصحب | وحاذر فما الرأي إلا الحذر

تمّ بعون الله تعالى وتوفيقه الجزء الأول من ديوان الإنشاء ويليه الجزء الثاني من صحيفة ٢٤٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦٢ ـ الشحاذة وخطرها على المدنية والحضارة

يقضي نظام هـــذه الحياة على الإنسان أن يسعى ويعمل لطلب الرزق من وجوهه المشروعة حتى لا يمد يده للناس ، فإنـــه اذا قعد عن العمل ولزم البطالة والكسل، فلا شك أن تسوء حاله وتنحط نفسه ويضيق عيشه فيلجأ الى السؤال والشحاذة ، وأي عاقل يرضى لنفسه بهذه الحال التعيسة ، بل وكيف يقبل أن يكون عضواً أشل في الهيئة الاجتماعية لا يقام له وزن ولا تعرف له قيمة .

قال الله تعالى في مقام الثناء على من لا يسأل الناس شيئاً : ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾. وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ . ومن لا كسب له من أولئك المعطلين لا يمكنه الإنفاق (إن أنفق) إلا من ذلك الخبيث .

وقال رسول الله ﷺ : « لأن يأخذ أحـــدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه» وقال عليه الصلاة والسلام : « اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول ». وقال : « لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً ، وأنا له كاره فيبارك له فـــيما أعطيته » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحد الى أحد يسأله شيئاً » .

وقال علي كرم الله وجهه لابنه الحسن في وصيته له : يا بنيّ ان استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ولا تكن عبد غيرك ، وقـــد جعلك الله

حراً فإن اليسير من الله تعالى اكرم واعظم من الكثير من غيره وان كان كل منه كثيراً .

وقال لقمان لولده : يا بنيّ إياك والسؤال فانه يذهب ماء الحياء من الوجه ، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك .

وقال أكثم بن صيفي : أفضل من السؤال ركوب الأهوال .

وقال شريح : من سأل حاجة فقد عرض نفسه للرق ، فان قضاها المسؤول منه استعبده بها وان رده عنها رجع كلاهما ذليلاً ، هـذا بذل البخل وذاك بذل الرد .

وقال رجل لابنه : إياك ان تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه .

وقال بعض الحكماء : احتج الى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأنعم على من شئت تكن أميره .

وقيل لأعرابي : ما السقم الذي لا يبرأ والجرح الذي لا يندمل ، قال حاجة الكريم الى اللئيم .

وقال الشاعر :

إذا أعوزتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلاً رجله في الثرى ... وهامـة همته في الثريا
فـإن إراقة ماء الحيا ... ة دون إراقة ماء المحيا
لعمر الله ما عودت نفسي ... خضوعاً لامرىء فيه ابتذال
أيرضى من له عقل ورأي ... تعاطي ما عليه بـه وبال
لا تحملن من الأنا ... م عليك إحسانا ومنه
واختر لنفسك حفظها ... واصبر فان الصبر جنه
منن الرجـال على القلو ... ب اشد من وقـع الاسنه
لا تحسبن الموت موت البلا ... لكنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أشر من ذاك لذل السؤال
ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... عوضاً ولو نال الغـنى بسؤال

واذا السؤال مع النوال وزنته رجح السؤال وخف كل نوال

١٦٣ - أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع

الطمع والحرص رذيلتان كبيرتان وهما أصل الجشع وعدم الرضا بما قسم الله للمرء من الرزق وتكالب النفس على طلب الزيادة ولو من غير طرقها المشروعة وليس ما نراه من الجرائم الكثيرة من سرقة وقتل وغيرهما إلا أثراً سيئاً من آثار الحرص على الدنيا والطمع فيها ، فلا يقف صاحبهما عند حد ولا ينتهي الى غاية وتكون عاقبته الهلاك لا محالة ولو نبذ الحرص والطمع وراء ظهره، ورضي بما كسبت يداه من رزق حلال لكفاه ذلك وعاش عيشة هادئة مرضية .

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ﴾. وقال جل شأنه : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من اموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ .

روي الطبراني ان رسول الله ﷺ قال : « إياكم والطمع فانه الفقر الحاضر» وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه انه قال : « أتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله أوصني وأوجز، فقال النبي ﷺ : عليك بالإياس مما في ايدي الناس واياك والطمع فانه فقر حاضر ، واياك وما يعتذر منه » وكان يقول في دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي الى طبع » .

وقال علي كرم الله وجهه : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع وقال : اكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع .

وقال بعض الحكماء: من اراد ان يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع.

وقال احد الفلاسفة : العبيد ثلاثة : عبد رق وعبد شهوة وعبد طمع .

وقيل للاسكندر : ما سرور الدنيا ؟ قال : الرضا بما رزقت منها ، قال : فما غمها ؟ قال الحرص عليها .

وقيل : الحرص مفسدة للدين والمروءة ، ومن لزم الطمع عدم الورع .

قال ابو العباس احمد بن مروان :

وذي حرص تراه يلم وفراً لوارثه ويدفع عن حماه
كـكلب الصيد يمسك وهو طاو فريسته ليأكلها سواه

١٦٤ - تجنب الفحشاء لا تنطق بها

الفحش هو النطق بالألفاظ البذيئة والكلمات المبتذلة التي تجلب كثيراً من العداوة والبغضاء ، وتجر من المنازعات والمشاحنات التي قد تنتهي بأوخم العواقب وأسوإ النتائج فتتفكك عُرا المحبة وتنقطع روابط الإلفة ويحل الفساد محل النظام والخصام محل الوئام ، واذ ذاك تسوء الأحوال وتضطرب رحى الأعمال .

قال الله تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه ، وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ .

وروي البخاري ان رسول الله ﷺ قال : « ان شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه » ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال قال عليه الصلاة والسلام: « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي » . وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « ان اكبر الكبائر ان يلعن الرجل والديه ، قيل : يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسبُّ الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أُمه » . وعن ابن عباس ان رسول الله ﷺ قال : « رحم الله من حفظ لسانه وعرف زمانه واستقامت طريقته » . وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » ، وقال أيضاً : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر » . وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله أي المسلمين أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، وقال : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش » .

وقال عمرو بن عتبة : نزه نفسك عن استماع الخنى ، كما تنزه لسانك عن

الكلام به ، فإن السامع شريك القائل ، ولو ردت كلمة الناطق بالأذى في فيه لسعد رادها كما شقى قائلها .

وقال المهلب : إذا سمع أحدكم العوراء فليطأطيء لها فتتخطاه .

وقال حاتم :

وكلمة حاسد في غير جرم ... سمعت فقلت مُرّي فانفذيني
عنيت بها كأن قيلت لغيري ... ولم يعرق لها يوماً جبيني

وقال ابو الحسن بن الحرث الهاشمي :

تحرّ من الطرق اوساطها ... وعد عن الموضع المشتبه
وسمعك صن عن قبيح الكلام ... كصون اللسان عن النطق به
فإن عند استماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه

وقال الشاعر :

إذا ما بدت من صاحب لك زلة ... فكن انت محتالاً لزلته عذرا
أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ... ولا مانع خيراً ولا قائل هجرا

وقال آخر :

تجنب الفحشاء لا تنطق بها ... ما دمت في جد الكلام وهزله
واحبس لسانك عن رديء مقالة ... وتوق من عثر اللسان وزله
كم كلمة جرّت لرأس نقمة ... كالدهر يرشق نبله في نبله

١٦٥ - الغيبة والنميمة والسعاية وما ينجم عنها من المضار والأخطار

الغيبة هي ان تذكر أخاك بما يكره، والنميمة نقل الحديث من قوم الى قوم على وجه الإفساد ، والسعاية هي الوشاية بين الناس باختلاف الأكاذيب ، وكلها صفات ذميمة تجلب الشر وتدعو الى الفرقة وتوغر الصدور وتثير الأحقاد، كيف لا وأنها داعية الفساد وأس الشقاء والبلاء تحط بصاحبها الى اسفل الدركات وتنفر الناس منه فيصبح ولا انيس له وجليس ، ولعمري ان مثل هذا جدير به

ان يفر من وجه الناس حياء وخجلاً ، والعاقل من تبرأ من تلك الخصال الرديئة وتطهر من ادرانها الخبيثة وعمل على محاربتها بكل ما في وسعه .

قال الله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ، همــاز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ﴾. وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب احــــدكم ان يأكل لحم اخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ يا أيهــا الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبا فتبينوا ان تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾.

وقال رسول الله ﷺ : « ألا أُنبئكم بشراركم ؟ قالوا : بـلى يا رسول الله ، قال : شراركم المشاؤون بالنميمة ، المفسدون بـين الأحبة ، الباغون العيوب » . وروي البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : « ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين ، ملعون كل شغار ، ملعون كل قتات ، ملعون كل منان » .

وعن انس رضي الله عنه انه قال عليه الصلاة والسلام : « من اغتيب عنده اخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره ، أذله الله في الدنيا والآخرة » وعنه عليه الصلاة والسلام انه قال : « من ذبَّ عن عرض اخيه بالغيب كان حقاً على الله ان يقيه من النار ». وقال عليه الصلاة والسلام: « إذا وقع في الرجل وأنت في ملإ فكن للرجل ناصراً وللقوم زاجراً وقم عنهم » . وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يرفعن إلينا عورة أخيه ». وقال: « لا يراح القتات رائحة الجنة » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لما عُرج بي مررت بقوم لهم اظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ، قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في اعراضهم » . وروي ان امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ وجعلتا تغتابان الناس فأخـبر بذلك النبي ﷺ فقال : « صامتا عما أحل لهما وأفطرتا على ما حرم عليهما » .

وقال علي كرم الله وجهه : « الأشرار يتبعون مساوىء الناس ويتركون محاسنهم كما يتبع الذباب المواضع الفاسدة » .

وقال ابن عباس : اذكر اخاك إذا غاب عنك بما تحب ان تذكر به ودع منه ما تحب ان يدع عنك .

وقال المهدي : ما الساعي بأعظم عورة ولا اقبح حالاً من قابل سعايته ولا يخلو ان يكون الساعي إليك حاسداً نعمة فلا تشف غيظه او عدواً فلا تعاقب له عدوه لئلا يشمت به .

وقال ارسطاطاليس : النميمة تهدي الى القلوب البغضاء ومن نقل إليك نقل عنك .

وقال بعض الملوك لولده : ليكن أبغض رعيتك اليك اشدهم كشفاً لمعايب الناس ، فإن للناس معايب انت احق بسترها، وأنت إنما تحكم بما ظهر لك، والله يحكم بما غاب عنك،واكره للناس ما تكره لنفسك واستر العورة يستر الله عليك ما تحب ستره ولا تصغ إليّ حديث ساع . فإن الساعي غاش ، وإن قال قول نصيح .

وقال بعض الحكماء : الساعي بين منزلتين قبيحتين: إما ان يكون قد صدق فخان الأمانة، وإما ان يكون قد كذب فخالف المروءة . وقال غيره : الصدق يزين كل احد إلا للسعاية ، فإن الساعي أذم وآثم ما يكون اذا صدق .

وقال بعض الأدباء لم يمش ماش شر من واش .

وقال بعض الفضلاء : النميمة دناءة والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر فتجنب سبلها وتحرز من اهلها .

وقال آخر : اذا رأيت من يغتاب الناس فاجهد جهدك ألا يعرفك ! فان اشقى الناس به معارفه .

وقال بعض العلماء : السعاية الى كل ذي قدرة مهلكة ، فكم دم اراقه سعي ساع وكم حريم استبيح بنميمة نمام وكم من صفين تقاطعا وكم من إلفين تهاجرا وكم من زوجين تفارقا .

ودخل رجل على عبد الملك بن مروان وكان معه جلساء فقال له : أُريد ان اسر اليك امراً ، فقال لأصحابه اذا شئتم فقوموا ، فلما تهيأ الرجل للكلام قال له عبد الملك : اياك ان تمدحني فأنا اعلم بنفسي منك ولا تكذبني فانه لا رأي لكذوب او تسعى إليّ بأحد فان السعاية من افظع الجرائم، وان شئت اقلتك قال : اقلني .

وقيل : النميمة سيف قاتل .

وقال ابو تمام :

ومن يأذن الى الواشين تسلق		مسامعه بألسنة حداد

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا		فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم اذا ذكروا		ولا تعب احداً منهم بما فيكا

يسعى عليك كما يسعى اليك فلا		تأمن غوائل ذي وجهين كياد

لا تقبلن نميمة بلغتها		وتحفظن من الذي انباكها
ان الذي اهدى اليك نميمة		سينم عنك بمثلها قد حاكها

من نمَّ في الناس لم تؤمن عقاربه		على الصديق ولم تؤمن افاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به احد		من اين جاء ولا من اين يأتيه

١٦٦ ـ الحقد والحسد وأثر ضررهما في الهيئة الاجتماعية

الحقد والحسد صفتان مذمومتان تأكلان حسنات صاحبهما كما تأكل النار الحطب ، فهما منشأ العداوة والبغضاء وسبب كل قطيعة وتفرق كل جماعة ، وان الحسود لخارج على ربه غير راض قسمته في خلقه فهو يعارضه فيما قضى وقدر على طبق علمه ومقتضى حكمته ، وقد جلب على نفسه غماً لا يهدأ وناراً لا تنطفىء فلا يستقر له بال ولا يستريح له ضمير ، فحري بالعاقل ان يفك نفسه من تلك الاغلال ويخلص من كابوس هاتيك الخصال فتسعد حاله ويفوز بالرضا والرضوان.

قال الله تعالى: ﴿ ام يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾.وقال جل شأنه : ﴿ ومن شر حاسد اذا حسد ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ﴾.

وروى عن انس ان رسول الله ﷺ قال : « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً، ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاثة ايام ». وروي الطبراني انه قال عليه الصلاة والسلام : « ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ولا انا منه » . ثم قرأ : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً واثماً مبيناً » .

وروي ابن ماجه ان رسول الله ﷺ قال : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « قيل يا رسول الله اي الناس افضل ؟ قال : كل مخموم القلب صدوق اللسان ، قالوا صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب ،قال هو التقي النقي لا اثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد» وقال عليه الصلاة والسلام : « دب اليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد هي الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر ، والذي نفس محمد بيده لا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أنبئكم بأمر اذا فعلتموه تحابيتم افشوا السلام بينكم » . وقال : « المؤمن يغبط والمنافق يحسد » .

وقال عبد الله بن المعتز : الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه طالب ما لا يجده .

وقال الحسن بن علي : يحسد احدهم اخاه حتى يقع في سريرته ومـا يعرف علانيته ويلومه على ما لا يعلمه منه ويتعلم منه في الصداقة ما يعيره به اذا كانت العداوة .

وقال الجاحظ : من العدل المحض والانصاف الصريح ان تحط عن الحاسد نصف عقابه ، لأن الم جسمه قد كفاك مئونة شطر غيظك .

وقال معاوية رضي الله عنه : ليس في خصال الشر اعدل من الحسد ، يقتل الحاسد قبل ان يصل الى المحسود .

وقال بعض الحكماء : من صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة .

وقال غيره : من رضي بقضاء الله تعالى لم يسخطه أحد ، ومن قنع بعطائه لم يدخله حسد . وقال غيره : ما احق للايمان ولا اهتك للستر من الحسد ، وذلك ان الحاسد معاند لحكم الله تعالى باغ على عباده عات على ربه يعتد نعم الله نقما ، ومزيده غيراً وعدل قضائه حيفاً ، للناس حال وله حال ليس يهدأ ليله ولا ينام جسمه ولا ينفعه عيشه محتقر لنعم الله عليه متسخط ما جرت به اقداره ،لا يبرد غليله ولا تؤمن غوائله ان سالمته وترك وان واصلته قطعك وان صرمته سبقك .

وقال بعض الأدباء : ما رأيت ظالماً اشبه بمظلوم من الحسود له نفس دائم وهم لازم وقلب هائم .

وقال بعض العلماء : من انقاد للطبع اللئيم وغلب عليه الخلق الذميم حتى ظهر حسده واشتد كمده فقد باء باربع مذام :

إحداهن حسرات الحسد وسقام الجسد ، ثم لا يجد لحسرته انتهاء ولا يؤمل لسقامه شفاء .

والثانية انخفاض المنزلة وانحطاط المرتبة لانحراف الناس عنه ونفورهم منه .

والثالثة مقت الناس له حتى لا يجد فيهم محباً وعداوتهم له حتى لا يرى فيهم ولياً .

والرابعة إسخاط الله تعالى في معارضته ، اذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا لنعمه من الناس اهلاً .

اعطيت كل الناس من نفسي الرضا ... إلا الحسود فانه أعياني
ما ان لي ذنباً اليه علمته ... إلا تظاهر نعمة الرحمن
وأبى فما يرضيه إلا ذلتي ... وذهاب اموالي وقطع لساني

إني لأرحم حاسديّ لحرّ ما ... ضمت صدورهم من الأوغار
نظروا صنيع الله بي فعيونهم ... في جنة وقلوبهم في نار
لا ذنب لي قد رمت كتم فضائلي ... فكأنما برقعت وجه نهار
وسترتها بتواضعي فتطلعت ... اعناقها تعلو على الاستار

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ... ولا ينال العلا من طبعه الحسد

ان الحسود الظلوم في كرب ... يخاله من يراه مظلوما
ذا نفس دائم على نفس ... يظهر منها ما كان مكتوما

يا طالب العيش في أمن وفي دعة ... رغداً بلا فتر صفواً بلا رتق
خلّص فؤادك من غل ومن حسد ... فالغل في القلب مثل الغل في العنق

أيا حاسداً لي على نعمتي ... اتدري على من اسأت الأدب
اسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترض لي ما وهب
فأخزاك ربي بأن زادني ... وسدّ عليك وجوه الطلب

١٦٧ - وصف روضة غناء

روضة واسعة الأرجاء فسيحة الانحاء تحار فيها الأبصار وتقصر عن وصفها الأفكار ترابها من مسك وكافور وحصباؤها الدر النضير قد فاح أرجها وأضاءت سرجها جنة عالية قطوفها دانية وطلحها منضود وظلها ممدود وأعلام اشجارها مرفوعة وفاكهتها كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، خضرة نضرة أنيقة ظلولهـا وديقة وأغصانها وريقة ذات ألوان وأفنان وأكمام وأكنان وثمرات حسان قد فاح الطيب من مجامر أزهارها وصاح خطيب العندليب على منابر اشجارها .

الورد في أعلى الغصون كأنه ... ملك تحف به سراة جنوده

وترنم البلبل على العيدان فتمايل تمايل النشوان أو القيان الحسان وقد ملئت من أنواع الأزاهر وألوان النبت الباهر بدر وزبرجد وفضة وعسجد تجوس المياه خلال ديارها وتشرق بآفاقها أنوار أنوارها وبرز إبريزها وحسن تطريزها وأبدت من زينتها ما هو باللطف منعوت ونثرت على الزمرد أصناف الدر والياقوت عاليها من رونق الورق المونق ثياب سندس خضر واستبرق فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من أثمار ذات بهجة وأزهار تنعش خطره يمتلك صاحبه مودة القلوب وينال كل مرغوب ومحبوب به يجتلب المجد ويكتسب الحمد وضده الكبر وهو أقبح وصف يسلب من الإنسان الفضائل ويكسبه النقائص والرذائل .

كيف لا وان أقبح ما يرى عليه الإنسان ان يكون متكبراً لأنه بذلك ينسب لنفسه ما لا يصح ان ينسب إليه ويدعي ما ليس في الإمكان ان يناله وهذا ضرب من الخلل ، ودليل واضح على الجنون وبرهان ساطع على الغرور ، ومن غره السراب تقطعت به الأسباب ، قال عليه الصلاة والسلام: « لا يتواضع إلا كل رفيع ولا يتكبر إلا كل وضيع » على ان التكبر عنوان الجهل .

١٦٨ - طاعة أولياء الأمور مقياس رقي الأمم

الطاعة هي الحرم الأوفى والعروة الوثقى والكهف الحصين والملاذ الأسمى من تمسك بحبلها سلم ومن لجأ إليها غنم وهي أس الدين وأصل اليقين ومنهاج

السيادة وطريق السعادة وأساس النظام الذي عليه مدار حسن الأعمال والسبب القوي لإصلاح الأمور وتحسين الاحوال بها تسعد البلاد والأوطان ويعم بها النفع وتتسع دائرة العمران ، فحق على كل فرد ان يمتثل لولى أمره ويحفظ له الحق في احترامه وتعظيم قدره ، وأن يقوم بمـــا عهد إليه من الاعمال بالكمال وأن يهتم بتأديته على أتم نظام وأحسن حال ـ فإن المرء إذا وملوك وأُمراء ورؤساء ووزراء وفقراء وأغنياء وكتاب وشعراء تقام فيها معالم العلوم والفنون ونغمات وألحان وتدريس أفنان وقضاء أوطار وضرب أوتار، كل نفس بما كسبت رهينة وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة فهذا يسعى في خلاص ذمته ، وهـذا يوقعه القدر في حبائل جنايته بخيانته ، قل كل يعمل على شاكلته .

بها ما شئت من دين ودنيا　　وإخوان تأسوا في المعاني
فمشغوف بآيات المثاني　　ومفتون برنات المثاني
وكم من قارىء فيهـا وقار　　أضرا بالجفون وبالجفان
وكم من معلم للعلم فيها　　وناد للندى حلو المجـــاني
فصل إن شئت فيها من يصلي　　وإما شئت فادن من الدنان
ودونك صحبة الأكياس فيها　　أو الكاسات منطلق العنان

قال ابن اياس : ان بعض الحكماء وصف أرض مصر فقال : هي في ثلاثـــة أشهر (لؤلؤة بيضاء) وثلاثة أشهر (مسكة سوداء) وثلاثة أشهر (زمردة خضراء) وثلاثة أشهر (كهرمة صفراء) وذلك لأن أرض مصر يركبها النيل وقت فيضانه فتكون بيضاء من افتراش الماء عليها ـ ثم تصير مسكة سوداء متى نزل الماء من عليها ـ ثم تصير زمردة خضراء وقت الربيـع ـ ثم يصير زرعها أصفر كالذهب .

فمن الناس من يسكن مصر ليعدها عوناً على تقواه ، ومنهم من يعدها للعبه وملهاه ، هذا يرعى فيها النجوم ويناجي الحي القيوم وهذا يغفل ليله الى الصباح أو يقطعه بما هو عليه ملوم هذا ينظر إليها بعين الفكر والتبصر في عجائب القدرة وهذا ليس له منها إلا الابتهاج بنضارة الزهرة .

رأيت رياض القدس في روضة المنى　　على نيل مصر بـــين تلك المناظر
مناظرهـــا للناظرين مشارق　　وفيهـــا وجوه كالبدور البوادر

ويشبه سيب الماء فيها صوارماً بأيدي الهنا سلت لسلب النواظر
عليها جلال الله جل جلاله وفيهـا سرير السر سر السرائر

يحيط بأرجائهـا النيل الميمون فيبرىء من الاسقام عليلاً ويشفي من الاوار غليلاً .

ديار مصر هي الدنيا وساكنها هم الأنام فقابلهـا بتفصيل
يا من يباهي ببغـداد ودجلتها مصر مقدمـة والشرح للنيل

والنيل حياة الأرواح والأنفس ويحشر له الناس ويحج فيه الى المقياس ، وفي الحقيقة هو خلعة رضى ولباس ، ويبلغ الخلق من النيل غاية النيل ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل ويركب اليـه الملك والجنود ويكون للناس من مائه ولونه المحمر ورود .

ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وله في كل سنة أجل معدود .

لله يوم الوفا والناس قـد جمعوا كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمود من أصابعه محلق تمـلأ الدنيا بشائره

١٦٩ ـ النور وأثره في الانسان والحيوان والنبات

النور حاجة من حاجات الجسم يسر من وجـد فيه للحصول عليه كما يتألم لفقدانه فهو يزيـد الجسم قوة ونشاطاً والقلب طهارة والفكر جودة ـ أنظر الى العصفور فإنه يصفو حاله في النور ويترنم بألحانه ويغرد بصوته الجميـل ويقضي وقته في سعة من السرور وان حرمه اضطرب لفقده وفترت همته فـلا تسمع له صوتاً ولا لحناً .

قال كبار الحكماء : (المحل الذي لا يدخله الشمس يزوره الطبيب) وقـال آخر : (لا بدّ من طبيب للعائلة، والأفضل ان يكون هذا الطبيب نور الشمس) وانظر أيضاً الى النباتات والأثمار ، فـلا تنبت ولا تنضج إلا بالنور ـ فهو رأس السعادة وأصل الوجود وسبب النمو والصعود وعليه مدار الصحة والصفاء ، بل هو حياة من في الأرض والسماء فيلزم الاعتناء بوصوله الى محلات النوم والمطالعة .

١٧٠ اللغة العربية ومزاياها على سائر اللغات

ان للغة العربية من الفوائد خزائن لا تنفد وكنوزاً لا تفنى وبدوراً لا تحجب وعيوناً لا تنضب ورياضاً لا تذوي ، ولكن لا يصل إليها إلا من غاص بحرها وولى وجهه شطرها وسبر كنه أغوارها وجاس خلال ديارها وجاب نجادها ووهادها وراد مروجها وورد مناهلها ـ ومن المزايا التي تترتب على معرفة العربية وتمتاز بها على سائر اللغات الأعجمية كونها أوسع من غيرها من اللغات وأكثرها طرقاً في فن الكتابات وأفصحها مقالاً وأفسحها مجالاً وأوفقها للنظم طباعاً وأطولها في النثر باعاً ، فيمكن أن يؤتي في المقام الواحد بدرجات من الإسهاب وأنواع من الإيجاز تستطاب إلى غير ذلك من أساليب البلاغة والبراغة التي توسع مجال اليراعة .

وكونها غير قابلة للانعدام كغيرها من لغات الأنام لأنه نزل فيها كتاب عربي مبين تلاوته من أعظم العبادات عند جميع المسلمين ، فما دام هذا الدين قائماً ، كان هذا اللسان موجوداً دائماً بخلاف اللغات الأخرى فليس فيها كتاب يتعبد بمجرد تلاوة كلامه لاعتقاد أربابها ان الترجمة كافية في بيان مرامه . وقد أوصى أحد فلاسفة الألمان يوماً تلاميذه فقال : « إذا أردتم ان تكتبوا فكراً تأمنون عليه كرور الأجيال فاكتبوه بالعربية فإن لها دون غيرها من اللغات مزية » . فقالوا : وما مزيتها ؟ فقال : « لأن في العالم أُمة عظيمة العدد ترى من أُصول دينها تلاوة كتاب فيها يسمى (القرآن) ولا شك في بقاء الأديان في الأمم العظيمة الشأن ، وحينئذٍ فلا ريب ان هذا الكتاب يبقى ما بقي هذا الدين وان العربية تبقى ما بقي هذا الكتاب » .

وما يطنطن به بعض الناس من قصورها ، إنما هو عن جهل بها أو لغرض يتعسر إخفاؤه وما يعترض به من ان الاستكشافات في هذه العصور كثيرة ، وليس في اللغة العربية كلمات للدلالة عليها فاعتراض ضخم في الظاهر فارغ في الباطن .

وما مثله إلا كفارغ بندق ... خلي من المعنى ولكن يفرقع

فإن باب الاصطلاح ليس مغلقاً في اللغة العربية مفتوحاً في غيرها .

وبالجملة ـ فاللغة العربية أليق اللغات وأكفلها بحاجة العلوم فمن ذلك سعتها فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ الف كلمة ـ وعــدد كلمات الإنجليزية ١٠٠ الف كلمة (على ان معظم هذا العدد الأخير اصطلاحات صناعية) وعدد مواد العربية ٤٠٠ الف (مادة لا كلمة) .

وبسبب غنى اللغة العربية وسعتها نجد فيها للمعاني الشديدة التقارب كلمات خاصة بكل معنى مهما كانت درجة التفاوت ، وبذلك لا يكون محل للالتباس او الإبهام في التعبير اللذين هما آفة العلم والأدب .

١٧١ ـ ما هي الحاجة الماسة لحفظ اللغة العربية الفصحى ومضار استعمال العامية كتابة

غير خاف ان اللغة العربية رابطة عامة لعدة من الخلائق في المغارب والمشارق ولحمة عظمى لجملة من الأمم صلتها من آكد الصلات وحرمتها من أعظم الحرم ـ ولا يكفي في عقد هــذه اللحمة اللغة العامية ، لأن لكل شعب فيها طريقة خصوصية فلهجة المصريين او الحجازيين تخالف لهجة غــيرهم من المغربيين او الشاميين ، فالأمر العام الذي ترجع هذه اللهجات إليه ويعتمد في مبادلة الأفكار المختلفة عليه ، هو اللسان الصحيح الشريف لسان التحرير والتأليف ـ أجل ان اللغة العربية مفتاح العلوم ومصباح الفهوم وواسطة لإدراك ما يجــده الإنسان ويقــع تحت العيون والآذان تجعل صاحبها قادراً على إرسال أشعة أفكاره الى أبناء جلدته فيستجلون ضياء أنواره ولا يجــدون في طريقهم عقبات من العقادة تحجب عن الطالبين مراده بخلاف من تقاعدوا عن الحصول عليها وتقاعسوا عن تعلمها وصرف الهمة اليها، فلا يعرفون قيمتها الا عند الشروع في العمل ويأسفون حينئذٍ على حرمانهم من مزاياها بطاعتهم دواعي الكسل ويندمون ولا ينفــع الندم حيث زلت القدم .

وليس من وسيلة لحفظ لغــة أمة أقوى من استعمالها في التعليم والتعلم ، ولا واسطة لنماء علم بين أمة ونشر التعليم بين بنيها غــير استعمال لغتها ـ فبديهي ان استعمال أمة لغة غير لغتها في التعلم والتعليم هو هجر للغتها واماتة لها ، فاللغات المسماة الآن ميتة ما صارت كذلك الا لهجرها .

وهناك أمر أشد خطراً وأعظم وقعاً وضرراً وهو أنه لما كان السواد الأعظم من الشرقيين هم المسلمون وكان هذا الدين الإسلامي قائماً بالقرآن الكريم الذي هو باللغة العربية لزم لأجل فهمه بقاء اللغة العربية بحيث متى انعدمت انمحق الدين الإسلامي وهلك السواد الأعظم من الشرقيين دنيا وأُخرى لأن الدين هو ملاك الأمر والعروة الوثقى التي لا انفصام لها .

أجل – ان من أحب الله أحب رسوله العربي ومن أحبه أحب العرب ومن أحبهم أحب اللغة العربية ومن أحبها عني بها وثابر عليها وصرف همته إليها ، فإن العرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة – والإقبال على تعلمها من الديانة إذ هي أداة العلم وواسطة التفقه في الدين وسبب اصلاح المعاش والمعاد – ثم هي لإحراز الفضائل واشتمالها على المروءة وسائر مكارم الاخلاق، ولو لم يكن في الإحاطة بمعرفة مبانيها والوقوف على حقائق معانيها وتصاريفها ومجاريها والتبحر في جلائلها ودقائقها ومجازاتها وحقائقها إلا قوة اليقين في معرفة إعجاز كتاب الله المبين وزيادة التبصر في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان لكفى بالعربية الفصحى فضلاً يحسن أثره ويطيب في الدارين ثمره .

١٧٢ – فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وإنارتها

مما يستدل على حالة التمدين والحضارة ملاحظة كيفية الشوارع والأزقة – فمن أهم الواجبات بذل الهمة وإمضاء العزيمة في تحسين وتجميل شوارع البلاد – على انه لا يسمح لهم التمدين قط بترك الشوارع والأزقة ضنكة معوجة رديئة التبليط والتخطيط مظلمة الأرجاء قذرة الانحاء، بل يطلب منهم دائماً أن تكون مستقيمة عريضة نظيفة مدكوكة ممهدة ، وذلك لأن الشارع أو الزقاق إذا كان ضنكاً يمنع سهولة تجدد الهواء ويعوق امتداد النور إلى مخازن الناس أو حوانيتهم فيجعلهم مستعدين للآفات الليمفاوية والدرنية كالسرطان والخنازير والسل والاورام ونحو ذلك – وإذا كان معوجاً فإنه يعسر انطلاق خطوات الناس فتعثر أرجلهم وتتلاطم صدورهم وتتقارع جباههم وحينئذٍ يكون السير في الزقاق عراكاً لا انتقالاً ، وإذا كان وعراً غير مستو فإنه يصدع أقدام الماشين ويسبب سقطات البهائم تحت أحمالهم الثقيلة فتهشم حوافرها وتتكسر أرساغها فضلاً عن المؤذيات التي تنجم من الشتاء في تلك الطرق الوعرة فيؤثر فيها بحيرات من الاوحال

تمنع الذهاب والإياب وتقفل للتجار والصناع الأبواب وعندها تقف حركة الاعمال وتتعطل الاشغال وتتجرع الفقراء كأس الذل والهوان ، ولا يبقى سبيل لسلوك العميان ، ومن حيث ان الاقذار والاوساخ لها أشد الافعال السيئة ، فلا يسوغ والحالة هذه تغافل ولاة الأمور عن ملاشاتها، ويجب الاعتناء الوافر بحفظ النظافة العامة للأسواق والشوارع والخاصة للبيوت والمساكن فراراً من تلك التأثيرات الرديئة ومراعاة حق المدنية .

١٧٣ - إنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

التاريخ حياة الذكر ومدبر الحياة يسجل لكل واحد المجد والشرف والفخار أو الذل والضعة والعار - فهو الحكم المطلق الواقف بالمرصاد يكافىء من حسنت سيرته ويعاقب من ساءت خطته .

المرء بعد الموت أحدوثة يفنى وتبقى منه آثاره
فأحسن الحالات حال امرىء تطيب بعد الموت أخباره

وإن أعمال الإنسان كالنجوم والحياة كالنهار والموت كالليل ، لأنه لا يظهر فضل المرء إلا بعد موته ، ولا يعرف مقامه إلا بعد ذوقه كأس الحمام - فكما ان النجوم لا تظهر إلا في الليل ، كذلك الرجل لا ترى أعماله إلا بعد موته ، فإن كانت صالحة ترى القوم قد عدت مآثره ، وكان محمود الشهرة طيب الثناء يخلد له التاريخ صفحة بيضاء ، وإن كانت طالحة فقد صب عليه ربه سوط عذاب ، وأصحبه قومه باللعنات وصار اسمه لا يذكر إلا مرادفاً بالتهكم مقروناً بالاحتقار - وما ذلك إلا لأنه حاد عن طريق الخير وشذ عن فعل المعروف ولم يراع للعاقبة حقاً ولم يخش لها بأساً ولم يدر ماذا يكون بعده مما يسجله التاريخ له من المجد والفخار أو الخسة والاحتقار .

وأفضل الناس من طمح ببصره الى الامام وعلم ان الآجال صحائف الأيام فقلدها أفضل الأعمال وجرد تاريخه من نقطة سوداء تشوه وجه صحيفته البيضاء حتى كان مثالاً حسناً لمكارم الاخلاق وجمال الطباع نصيراً للمروءة ، فهذا الذي يسجل له التاريخ ذكراً حسناً وحديثاً عاطراً وأثراً خالداً .

فيرى على مرّ الدهور لدى الورى حياً بما أولاه من إحسان

بخلاف من جعل مطمح نظره الشهوات واللذات وأفنى عمره فيما لا يغني ولا يثمن من جوع ، فحشر نفسه في زمرة من لا يخافون عقاباً ولا يتحاشون عذاباً فيغير الله نعمته وتحل به نقمته ويسجل لنفسه الخزي واللعنة الى يوم الدين وحقت عليه كلمة العذاب .

حياتنا كالموت إن لم تكن نهجاً الى تخليد ذكر يدوم

وعلى الجملة ـ ان من ترك له ذكراً حسناً لم يمت أبداً ، قال عليه الصلاة والسلام : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » . فهـذه ثلاث فضائل جامعة شاملة لأساس الدنيا والدين في حق صاحب العمل كي تديم عمله وتجعله باقياً ـ فهذه الفضائل مخـلدة للذكر مؤبدة للأجر وبضدها تتميز الأشياء .

نافث على الخيرات أهل العلا فانما الدنيا أحاديث

كن محسناً مهما استطعت فهذه الد نيا وان طالت قصير عمرهـا

ان المآثر في الورى ذرية يفنى مؤثرها ويبقى ذكرها

فترى الكريم كشمعة من عنبر ضاءت فان طفئت تضوع نشرها

فالدنيا دار كثير سكانهـا عديد قاطنوها تختلف آراؤهم بحسب اختلاف مطالبهم ومشربهم ـ وينقسمون الى فرق متعددة كل منها يقوم بعمل دون غيره فالأطباء يعالجون المرضى والقضاة ينظرون في القضايا ومحاكمـة المجرمين ـ والمهندسون لبنـاء المساكن واصلاح طرق الري ـ والنجارون لعمل ما يلزم للمنازل من أبواب ونوافذ وغيرها ـ والحدادون يسبكون الحديد. والكل يسعى في هذه الدار لينال قسطاً من المال يساعده في الحياة أو ليؤدي واجباً مفروضاً عليه وهو العمل ـ ولعمر الحق مـا الحياة إلا شقاء ونصب يولد الإنسان باكياً علامة له على شقائه فيها وعذابه الدائم الذي لا ينتهي الا بانتهاء أجله ويموت باكياً من شدة الألم وينتقل من داره التي يسكنها الى القبر الذي يجعله مأواه ومسكنه ويصير جسمه الذي كان كالزهرة النضرة جثة هامدة لا حراك فيها ، وبعد ذلك تتحول الجثة الى رفات سحيق ـ فـاذا تأمل الإنسان وتبصر وعلم ان ذلك هو حاله لنبذ ملاذ الدنيا ، ولعافى النفس عن الهوى ، ولعلم ان الجنة هي المأوى فلا

يترك حسنة الا ويأتي بها، ولا سيئة الا ويتخلى عنها. ويكون حقيقة هو الرجل الذي عرف الحياة وقدرها وعرف الآخرة وأعدلها من الحسنات والفضائل مـا يخلده له ذكراً حسناً .

اذا كنت في أمر فكن فيه محسناً فعما قليـــل أنت ماض وتاركه

١٧٤ - إذا قعدت وأنت صغير حيث تحب ، قعدت وأنت كبير حيث تكره

لا يخفى أننا نجد من شعورنا الإنساني ان الاحوال النفسانية المختلفة كالتفكر والإحساس والإرادة صادرة عن شيء باطني قائم بذاته مغاير للجسم، فهذا الشيء يسمى بالنفس أو الروح - وبما ان شعورنا يبقى على حالة واحدة من الصغر الى الكبر ، وان الجسم تلحقه التغيرات المختلفة ، نعلم ان النفس ليست بمادة وليست قابلة للقسمة وأنها شيء آخر مخالف للجسم ، ولكنها مرتبة بـــه حيث نجدها تقتسمه أحواله كالقوة والضعف والصحة والمرض ، كما ان الجسم مرتبط بهـــا ويقتسمها أحوالها كالفرح والحزن وخلافهما .

ثم ان التفاعلات المتغايرة التي بين الجسم والنفس اما ان تكون متسببة عن النفس أو عن الجسم . وذلك اذا كانت حالة من أحوال النفس تتولد من أثر ظاهري في الجسم تعتبر تفاعلاً سببه الجسم . واذا كانت حالة من أحوال الجسم تتولد عن أثر باطني في النفس تعتبر تفاعلاً سببه النفس .

وينتج من ذلك ان الاحوال الجسمية الظاهرية تكون محسوسة للنفس، وان الجسم تلحقه الحركة بواسطة تأثير النفس فيه .

وأقرب أجزاء الجسم من النفس هي الأعصاب لأنها توصل الآثار الظاهرية الى النفس وتكون واسطة لهـــا في تأثيراتها في الظاهر ، وتدعو الجسم بواسطة الإحساسات النفسانية الى الحركة الاختيارية ، ولذلك يمكن ان تعتبر الأعصاب آلات للنفس .

والأعصاب تكون فعالة امـــا بواسطة التأثيرات الظاهرية او الباطنية ، فالظاهرية كالضغط والضرب او الحرارة والنور والكهربائية - والباطنية كدورة الدم والاحوال الصادرة عن النفس والاعصاب منها ما ترسل الآثار من محيط دائرة الجسم الى مركز الإحساس النفسي ، وتسمى أعصاب الإحساس - ومنها

أعصاب ترسل التأثيرات النفسانية الطالبة للحركة الى محيط الجسم وتسمى أعصاب الحركة الاختيارية ان كانت مسبوقة بالإرادة ـ والاضطرارية اذا لم يسبقها ارادة ـ وهناك حركة شبيهة بالاضطرارية كالضحك عند رؤية شيء غريب وكحركة الدم عند الحياء والخجل ، وكحركة الاعضاء الصادرة تحفظاً كتغميض العين اتقاء خطر ، والحركات التقليدية كالتثاؤب عند رؤية آخر قـد تثاءب ـ وغير ذلك ، ويعد من ذلك النوع الحركات الطالبة لها الآداب في المقابلة والمؤانسة والإنسانية فهي وان كانت اختيارية فالتمرن عليها يجعلها كالاضطرارية ، فالذي يتربى بأخذها تصير له عادة ، وطبعاً لا تحتاج في صدورها الى إرادة منه .

ولما كانت النفس في الإنسان أمارة بالسوء ميالة للشر طلابة للراحة احتاج الناشىء في صغره الى مزيد عناية . فمن ألهم الله والديه أن يرضعاه ثدي الأدب والجد من صغره ووهبه مع ذلك عقلاً كاملاً ، شب وحب الارتقاء يشب في صدره وذروة المجد مرمى نظره وخدمة الوطن كل أمله فلا يستصعب شاقاً ولا يجد في طريقه للمجد عائقاً فهو ينفر من الراحة ويأنف الانغماس في اللهو مع السفلة ويجد نفسه أعلى مقاماً وأرفع منزلة من أن يدنس سمعته أو يلوث صيته بالانكباب على إضاعة الوقت فيما يضر ولا طائل تحته فيمقت جنبه المضجع وتبغض عينيه الكرى إلا أغراراً أو مضمضة .

ومن أهملاه والداه شب والكسل قرينه والهاوية قطينه والفقر أليفه والعجز حليفه يعيش ليأكل ويقتل الوقت الثمين ولا يميز بين الغث والثمين ، حتى إذا كبر صدمته مصائب الحدثان وافترسته مخالب الزمان .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

قال الإمام الغزالي : « الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش ومائل الى كل ما يمال إليه به ، فإن عود الخير نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ـ وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدبه ـ وان عود الشر واهمل اهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه » . وحينئذٍ فلا بدّ للارتقاء الأدبي من التربية وهذه يجب أن يبدأ بها من الصغر .

١٧٥ - فوائد ومضار الانتقاد

الانتقاد والفحص من أحسن الوسائط لإصلاح الأعمال وترقيتها وتطهيرها مما طرأ عليها من الفساد إهمالاً أو سهواً أو جهلاً - وان النفس المهذبة المتربية لترتاح لمن يقوم عوجها من عـــالم عليم وإمام حكيم فيسمع قوله ويخشى لومه ويتقبل انتقاده بقبول حسن - فبذلك تتقدم العلوم والمعارف ولا يظهر منها إلا مـــا هذبته العقول ونقحته الأفكار وأصلحته الانظار والابصار ، فتتجلى في أحسن مثال وأبهى منظر وكمال ، منطوقها الحقائق ومفهومها الدقائق يعلو وجهها البشر والسرور ويقرها جميع الجمهور ، وبذلك تقوم المصلحة العامة على قدم الأمانة وتسير الامة في سبيل الرقي والنجاح فيسمو عزها ويبسط سلطانها .

وقد اعتنى بـه الغربيون اعتناء عظيماً لأنه يدعو الحاكم والكاتب والتاجر والصانع لبذل جهده في اتقان عمله ، فتتقدم البلاد وتحسن حالتها حساً ومعنى فتراهم لا يبزغ بينهم كتاب ولا يشرق عندهم مخترع حتى يفحصوه فحص الناقد البصير فينظرون فيـــه من كل وجهة ويزنونه وزناً دقيقاً - وبذلك طهروا المطبوعات من المضر والتافه والساقط فلا يجسر على نشر ما كتب إلا الكفء القدير الواثق بعمله الطالب نفع وطنه ، وإلا كان عمله إذا أقدم تجارة تهددها سوق الكساد ولا تلبث ان تبور ويضرب بها عرض الحائط .

والانتقاد من أهم ما أنشئت لأجله الصحف والمجلات فهو أجل منافعها إذ به يرتدع الظالم عن غيه ويجبر المستبد على الوقوف عند حـــده فهي توصل صوت الشعب وتعبر عن رأي الامة لمن يقـــدر على تلبيتها واجابة ندائها والاصاخة لمطالبها وتخفيف ويلاتها ومصائبها .

وبالجمـــلة - الانتقاد ضرب من ضروب الاصلاح اذا كان الغرض منه الإرشاد الى الصواب والتنبيه عن الخطأ والحض على الصحيح والاصار مجلبـــة للتقاطع والاحقاد ومثار التنافر والعناد ، وحينئذ يسقط نفعه ولا يحسن وقعه بل يصير تعنتاً ودعوى كاذبة يلصق العار بالمنتقد ويحط من كرامته لأن قصده ارسال ما في كنانة غيظه من سهام التشفي والانتقاص .

فاذاً يجب على المنتقد ألا يضرب بحسامه الا صفحاً كي لا يجرح شعور المنتقد

جرحاً مميتاً قاتلاً ـ ويجب عليه ألا تبلغ لهجته الشدة ولا تتجاوز اللائق بالأديب من الرقة ـ ويجب عليه ان يدرأ العيوب والشبهات ، فاذا لم يجد شبهة فـــلا مناص من الانتقاد .

كما ان الواجب على من انتقد عمله ان يقدّر الانتقاد الصحيح حق قدره وينظر فيه نظر من يريد الصواب وينشد الهداية ويبحث عن موقع الخطل ولا يتعالى ويتغطرس شامخاً بأنفه ، فما هو بالمعصوم وان هو مهما علا كعبه في فنه الا انسان والله وحده هو الذي تفرد بالعصمة والكمال .

١٧٦ ـ فوائد ومضار التقليد

التقليد التشبه بالغير ان خيراً فخير وان شراً فشر والعاقل من قلد غيره في الفضائل والكمالات ونافسه في اقتناء الخيرات وزاحمه في كمال الاعمال وتشبه به في جلائل الافعال .

هــذه امة الغرب التي ما كانت تذكر قلدت الشرق عندما كان شمساً مشرقة أيام الحروب الصليبية فارتقت ، وأخــذت عن العرب أحسن العادات وأفضل الصفات وكمال العرفان وأصبحت الآن هي التي تضيء العـــلم والعمل على أرجاء المشرق الذي غربت شمسه وأشرقت عليهم وكلنـــا لاه يمرح ويلعب ، وتفعل الغربيون بنـــا ألاعيبهم ونحن أطوع لهم من خيال وتبعناهم تبـع المقلد الاعمى فيا له من داء عضال اختلفت في أدوائه رجال الشرق ، فمن قائل لا سبيل لنـا الى الخروج من ربقة هذا الانحطاط إلا تقليد الأمة الفلانية واختار أُمة من الأمم الغربية ، أشرب في قلبه حبها فأخــذ يبث أعمالها ويؤم أميالها ، ومن مدّع ان التقليد لهذه الأمة يوصلنا للغرض المطلوب وأنه يجب علينا أن نقلد الأمة الشهيرة وانتقى له أُمة أخرى مدحها وفضلها على سواها، وهكذا حتى كثرت الأحزاب واختلفت الميول وصار كل حزب بما لديه فرحاً ، ونسوا أو تناسوا الدواء الشافي وهو رجوعهم الى كتابهم وعوائدهم وأخلاقهم والتمسك بعقائدهم ودينهم هؤلاء هم رجال الصدر الأول من الإسلام لم يبلغوا هذه الدرجة الفخمة التي يرتعد لهـا قلب الجبان ويعجب منها كل إنسان ، إلا لكونهم كانوا يرجحون غـــيرهم في الشجاعة ولا يقلدون إلا في الفضيلة لا لأنهـم كانوا مستكملي العَدد والعُدد ، بل

لأنهم اجتمعوا تحت كلمة الوحـــدة وانقادوا للقانون الشرعي الذي هو كافل لأحوال المعاش والمعاد فكانوا يتحاكمون إليه في السلم والحرب وجميع الأعمال بحيث لا يبنون أمراً من الأمور إلا بعد عرضه على قواعد الدين وأحكامه فإن ساعدت عليه أتوه وإلا تركوه ، وبهـــذه الحالة صار جانبهم محفوظاً وسلطتهم نافذة وقوتهم مشهورة وأعمالهم مرضية إذ كانوا لا يولون الأمور إلا أربابها قائمين بإقامة الحدود محافظين على شعائر الدين الى ان غير الأمراء والرجال ما في أنفسهم واتبعوا شهواتهم وبدّلوا وجهتهم وفرقوا كلمتهم فحقت عليهم كلمة : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولا تنشط أمة من عقالها أو تقوم من رقدتها أو تستيقظ من غفلتها إلا بباعث يبعثها ومنبه ينبهها كدكر مجـــد أسلافهم وتقليدهم في أعمالهم وإفهامها ان لهم استعداداً للكمال ورجائهم الخير وتوسمهم إقبال الزمان وتبسم الدهر في وجوههم .

وقصارى القول ان التقليد غريزة أودعها جل شأنه في نفس الإنسان لتكون داعية العمل ورائد الرقي ومبعث الحركة ومطلع شموس المدنية والعرفان .

يولد الطفل وهو لا يعلم شيئاً من شؤون الحياة فتراه مولعاً بتقليد أمه وأبيه وسائر مـــا يقع تحت حواسه من حسن أو قبيح فجدير بالإنسان ان يصرف تلك الغريزة الى النافع من الأشياء ويجعلها وصلة بينه وبين أعاظم الرجال فيقلدهم فيما أتوه من جليل الأعمال فإن شاء فليكن مرشداً حكيماً أو قائداً عظيماً أو طبيباً ماهراً أو منشئاً محرراً أو سياسياً محنكاً أو أصولياً بارعاً أو سائحاً متجولاً أو قاضياً عـــادلاً أو وزيراً نصوحاً أو خطيباً فصيحاً أو شجاعاً مدافعاً أو تاجراً رشيداً أو مخترعاً مفيداً ـ فإنه ان فعل ذلك عـلم مقدار نفسه في الوجود وقلد تقليداً نافعاً وأفاد واستفاد وان أضاع تلك الهبة الغسية وقلد تقليد الغراب ، وكان كمن اغتر بالسراب وبهره حسن المنظر فشغله عن سوء المخبر وصار يخبط في أموره خبط عشواء لا يميز بين السراء والضراء، فذلك الذي رجع بصفقة المغبون وضل ضلال المفتون وكان تقليده وبالاً عليه وضرراً على من التفوا حوله وحذوا حذوه فضل وأضل .

١٧٧ - الربا نذير الخراب والدمار

رغـد العيش مبنى على تبادل أعمال البر والإحسان بين الناس وعلى مواساة بعضهم بعضاً وأخذ بعضهم بيد بعض ، وإلا فلا مدنية ولن تجد من دين نزل من السماء الا وهذه الخصال في مقدمة تعاليمه ، ومن باع درهماً بدرهمين فقد عمد الى قطع تلك الروابط الثابتة ، ورضي من الحياة ان يعيش في التجرد من الإنسانية والمدنية ، فـلا يحسن ولا يحسن اليه ولا يواسي احداً ولا احداً يواسيه ، وهي خسارة كبرى يحتسبها عليه نظام الدين والعمران .

ذلك هو المرابي آثر نعمة نفسه على اقامة المصلحة العامة وهي العمل بحـكم المواساة والبر فجر ذلك اليه ، اذ فقد من الناس من يواسيه اذا اجدب او يبره اذا اترب - وأيقظ على مطالبه الاطماع وعرض ثروته لأهـداف الاغراض واستبدل بشاشة الوجوه وكنوز الضمائر ببهارج الظواهر .

وان من النفوس نفوساً تؤثر الكثير المظنون من المنافع على القليل المقطوع به منها - وانما ينشأ ذلك من بعد الهمة او من الطمع الهائل - وما تلك الانواع من النفوس بكثيرة العدد في الناس، وانما الذي يغلب وجوده في جميع الطبقات هي التي تؤثر القليل المحقق على الكثير المظنون لا سيما اذا كان هذا محفوفاً بمشاق ومكاره وكان ذاك مما يبلغ براحة واطمئنان .

ومتى هان على الناس بيع الدرهم بدرهمين اخلدوا اليه ، وأعرض اكثرهم عن مشقة المكاسب المدنية من نحو تجارة وصناعة وزراعة لأن ما تأتي به هـذه الاسباب من النمو المالي على مـا فيه من الجهد والعناء مظنون - على العكس مما يجيء به المكسب الربوي فانه مع قلة مؤونته وخفة عمله مشهود ومتحقق .

والنفوس اكثر ميلاً وأشد لوعاً بما كان من هـذا الضرب من المكاسب - وهناك مهب الفقر المدقع ومصب العجز المدمن وهما خطبان أليمان - لا ينتظم بهما جنس ولا يصير عليهما اجتماع ، وذلك ما يفعله الربا بالهيئة الاجتماعية - قـال تعـالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ والحكمة في تحريم الربا هي انه يقتضي اخذ مال الغير وهو القدر الزائد بدون عوض ،

وهذا حرام لقوله ﷺ : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » . وقد اجمعت الأئمة أيضاً على حرمة اكل مال غير المسلم من الذين دخلوا بلادنا بأمان وعهود بخلاف الحربيين .

كيف لا وانه اذا تمكن الشخص من تحصيل درهم زائد بواسطة عقد الربا لأعرض عن وجوه الكسب كالحرف والصنائع لما فيها من المشقة العظيمة ، ولا شك ان هـــذا يفضي الى انقطاع منافع الخلق لأن مصالح العالم لا تنتظم الا بالتجارات والصنائع والحرف فاذا حصل الاعراض عن هذه الاشياء استغناء بالربا فلا بدّ ان يختل نظام العالم وأيضاً الربا يؤدي الى انقطاع المعروف والإحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف ـ فاذا حرم الربا طابت النفوس بقرض الدراهم ورد مثلها فقط ـ وأمـا لو كان الربا حلالاً لكانت حاجة المحتاج تحمله على اخذ الدرهم بدرهمين فيؤدي ذلك الى انقطاع المعروف والإحسان بين الناس ـ بـل والى ذهاب املاكهم ووقوعهم في ذل الفقر والمسكنة كما عليه الغالب من اهـل زماننا هذا . قال تعالى : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ .

١٧٨ ـ اختيار الزوجين لبعضهما سر الحياة الجميلة

الاسرة وان كانت اخص المجتمعات فهي اصلها وأقرب للإنسان من غـيرها وتنتظم من زوجين متآلفين يأنس كل منهما الى الآخر والازدواج الأدبي هو ما يكون ملحوظاً فيه الى الحكمة الإلهية التي هي طلب العفة والتكثير ، وما وراء ذلــك من قضاء الميول الجسمية فخارج عن مقصد الآداب وان كان ذلك هو الباعث الطبيعي ـ ومن دواعي الازدواج طلب مصافات النفوس والإنس والتعاون وغير ذلك من الصفات الفضلى التي تؤذن بصفاء العيش وابتهاج النفس ولا يصدر ذلك الا عن ثابت محبة بين الزوجين لذاتها .

ثم ان المحبة للذات اما ان تكون لجمال الخلق او كمال الخلق فان كانت لجمال الخلق والظاهر التي وراءها الاخلاق الذميمة فقل ان تصل بالإنسان الى غـــاية محمودة ـ بخـــلاف التي تنبعث عن كمال الاخلاق وحسن السجايا ولو كان دونها دمامة الخلق .

واهم الخصال الحميدة بينهما هي الثقة ببعضهما في جميع الاحوال ومتى نفــدت

الثقة انحلت عرى النسبة بينها وعاشا مفترقين اهواء مجتمعين اجساماً ولولا ما شرع الله من الطلاق لتفاقم الامر وعز الصبر ـ ولذلك كان اختيار الزوجين لبعضها في الامم السالفة لا سيا الامم العربية من اهم الامور فكان العربي يقطع المراحل لاستوصاف خطيبته ، ويقصد الخبير بشأنها الدربة المجرب الذي عجم عود الايام فيلقى عليه من وصفها فيأخذ في سرد شمائلها من جمال الظاهر وكمال الباطن وحسن السجايا التي يجب ان تكون عليها النساء وقتئذ وكذلك هي عند استوصافها الزوج ـ فكان لا مطمع لنظرهما الا الصفات الجميلة من الكرم والمجد والشجاعة والعفاف .

والزوج والزوجة سيان في الحقوق ومتساويان في المعاملة فكما ان سيد العائلة لكونه اقوى حماساً واشد بأساً واوسع تصرفاً كذلك هي رئيسة اموره لتدبيرها المنزل ونظرها في مصالحه وجلبها لراحته ـ فاسترقاقه اياها او صرفها في خدمته الخارجية عن حقوقه ضد للعدل مناف للآداب حطة في الإنسانية خدش لناموس الحياة ، وكما انها تقتسمه الحزن والسرور تقتسمه كذلك الخيرات المنزلية فلا حق له في اختصاصه بأطايبها واستئثاره بها نفسه ولو رضيت الزوجة .

وتقوي النسبة بين الزوج والزوجة اذا صارا ابوين لاتحادهما على امر واحد وهو (التربية) وفي هذه المرتبة تتم العائلة وتزيد الحقوق فتكون ثلاثة حقوق : حقوق الابناء على الآباء، وحقوق الآباء على الابناء ، وحقوق الابناء على بعضها.

فأما حقوق الابناء على الآباء فهو الاعتناء بالتربية الجسمية والعقلية وطبع محاسن الاخلاق وجميل الصفات وتعليمهم التعاليم الدينية مع تمرينهم على العمل بها واخذهم بالرفق والتودد لا بالقسوة والتخوف ـ والتسوية بين الاشقاء وبعث المحبة فيما بينهم وتعويدهم على اقتسام الحزن والسرور بعضهم البعض وهديهم الى ما يصلح معاشهم من بعدهم والمحافظة على ذلك كله وعدم التفريط فيه .

واما حقوق الآباء على الابناء فهي الطاعة وخفض جناح التواضع والاحترام والتعظيم من قدرهم والثقة بهم والإحسان في المعاملة اليهم ومساعدتهم والشكر على انعمهم والخشية لا الخوف منهم .

واما حقوق الابناء على بعضهم فالحب والاحترام والشفقة والعدل في المعاملة وصفاء السريرة والمساعدة وغير ذلك ـ وما يكون منهم منافياً للآداب والمعاملة

كظلم احدهم الآخر او الاضرار به فموكول لعقاب الآباء متبعين العدل والانصاف مع الاحتراس والحيلة كيلا يظن به من يستحق العقاب منهم انه ادنى درجة من اشقائه او من له الحق ان له الفضيلة عليه .

وبالجملة ان تربية الابناء سواء الذكور منهم والأناث وتعليمهم العلوم والآداب من اول واجب على كل أمة تريد صلاحها وتقدمها وانخلاعها عن جلباب البساطة وانقـــاذ افرادها من مهالك الجهل والتوحش والانحياز بهم الى جانب التمدين والحضارة حتى تكمل النسبة بين الرجل والمرأة ويقوى تعارفهما وتتأكد الفتهما وثقتهما ويكون مجموعهما تمثالاً للخير وصورة للآداب يبعثانها في ابنائهم وتكون العائلة مثالاً للمجتمعات الخارجية ونموذجاً للوطن ومثلاً اعلى للأمة التي هو منها.

فالعائلة بالآباء خيرها بخيرهم وشرها بشرهم .

إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً فشيمة أهـل البيت كلهم الرقص

وكما تكون الآباء تنشأ الأبناء فـلا يستخرج من الحديد الذهب ولا يجنى من الشوك العنب .

ينشؤ الصغير على ما كان والده ان الأصول عليها ينبت الشجر

١٧٩ ـ المرء قليل بنفسه كثير باخوانه

حب النفس فطرة في كل إنسان ولكنه يختلف قلة وكثرة بين الناس ، وليس مبدأ حب النفس من النقائص البشرية ، بل هو خلق وجد مع الإنسان حيث خلقه الله لجلب النفع له ودرء الضرر عنه .

ولما كان الإنسان في حالته الفطرية الأولى قبل كل اجتماع كانت ملكة حب الذات لازمة له ضد العناصر الطبيعية والحيوانات التي تنازعه في معيشته ـ بل كان حب الذات هو القانون الوحيد الذي يتبعه في سلوكه فـلا يتأخر عن فعل أمر يعود عليه أو يجلب له لذة ولو كان قبيحاً أو فيه شر للناس .

ولكن منذ اليوم الذي ابتدأ الإنسان فيه ان يعيش في جامعة من أبناء جنسه متضامنة في وسائل الحياة أخذ الشعور بحب الذات يتناقص في كل فرد من افراد هذه الجامعة لما تحققه من ان حفظ نفسه لم يبق من وظيفته وحده، بل من وظيفة

جميع أعضاء العائلة التي هو منها ـ فالقبيلة التي تشمله فالحكومة التي ترعاه .

ومن ذلك اليوم وجد في جانب هـذا الواجب الذي تكفلت به الهيئة الاجتماعية حق صريح لها في ألا يعمل فرد منها عملاً يعود عليها أو على عضو منها بالضرر ـ ومع التقدم رويداً رويداً في نظام الاجتماع صار كل عضو من الأمة يتمتع بأعمال كل أعضائها وينتفع من أفكارهم وعلومهم ومصنوعاتهم كما ينتفع المفكر والعالم والصانع بالسواء ـ على ذلك صارت الحقوق والواجبات متشعبة موزعة على كيفية التضامن العام بين الجميع بحيث صار الواحد اليوم مرتبطاً بأهل بلده ارتباطاً شديداً .

نعم ان حب النفس لا يزال في فطرة كل إنسان ، بل انه لا يزال أشد الاحساسات الطبيعية وألزمها للنفس حتى يخيل ان كل حب سواه كالعشق أو محبة البنين أو الصديق أو المال لم يخرج في الحقيقة عن كونه شعبة من حب الإنسان لنفسه بالواسطة ـ بمعنى ان الانسان يحب نفسه في كل إنسان وفي كل شيء يميل إليه .

لكن لا ريب في ان الدين والتربية والتأديب قد أثر جميعها على هذا الاحساس الطبيعي حتى أضعفه ، أو على الأقل رسم له دائرة محدودة لا يتخطاها ـ فكل منفعة شخصية لا تضر بالغير مباحة وهي ممنوعة إذا كانت بعكس ذلك .

والتربية الحسنة النافعة إنما تظهر في اختيار المنافع الشخصية وانتخاب ما يكون منها موافقاً لمصلحة الهيئة الاجتماعية، فيخدم الانسان نفسه ويخدم الناس في آن واحد ، وفي الغالب اذا خدم الانسان الناس بهذه الطريقة استخدمهم في تحقيق آماله ، لأن العمل اذا كان يحتوي على منفعة عمومية رضي الناس أجمعون وعضدوا عامله بأقوالهم وأعمالهم ، وهذا التعضيد يساعد به العامل ـ ولا شك في تنفيذ ما أراد وتحقيق ما قصد .

ومن الأسف ان الشرقيين قد غفلوا عن تهذيب ملكة حب النفس في تربية النشء، فشبوا على ما نراه ممتازين بمهارة غريبة في انتخاب مطالبهم مما يضر بالغير ـ فهم يتهافتون على العمل النافع لهم اذا كان فيه إضرار بالمصلحة العامة ـ وقد لا يقبلون عليه اذا اتجرد من ذلك ـ فالموظف يعرف لتقدمه كل الطرق ما عدا طريقاً واحداً وهو (الشغل) .

والفرد من الأهالي لا يستعين في طريق نفع ذاته بغير المطاعنات وتلفيق البلاغات ، وبجميع أعمال الزور حتى ضد أقرب الناس إليه .

وها نحن نعيش اليوم كل واحد في جانب الآخر بدون ان يمتزج به إلا امتزاجاً سطحياً ـ كل منا سائر في طريقه مهتم بنفسه لا يجمعه مع الآخر أقل ارتباط ـ مع أننا نرى غيرنا على خلاف هذه الاخلاق .

نرى الأمة المكوّنة من أربعين مليوناً من النفوس مثلاً كل أفرادها على قلب رجل واحد .

واذا ذكر اسم الوطن ألفيت هذا المجموع العظيم مؤلفاً من جمعيات سياسية وجمعيات علمية وأُخرى فنية ، وهكذا بقدر ما يوجد من فروع العلوم والفنون ـ نرى حب الاجتماع في كل شيء وفي كل إنسان عند الأمم الغربية ـ فلهذا يلزم تعويد نشأتنا على الاجتماع بأمثالهم حتى اذا شبوا على ذلك كان حب الاجتماع فطرة فيهم ، فلا يكون حب النفس من العيوب المفضية الى انحلال أجزائنا والإضرار بجامعتنا كما هو الآن .

١٨٠ ـ فوائد الوقار ومضار الاحتقار

الوقار أو الاحترام هو محك التربية فكلما كان نامياً في أمة كانت تربيتها جيدة وإذا كان فقد كان فقدانه إنذاراً بانحلال جامعتها وسقوط أبهتها وعظمتها .

وإن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد في رفعة شأنها هو احترام جملة أمورها الجوهرية الأساسية مثل الدين والوطن والسلطة العمومية والعائلة والعلم والفضيلة وكل عمل شريف أو جميل أو نافع .

وإذا كان هذا الاحترام عاماً عند الجميع وشاملاً لجميعها كان دليلاً على قوة تربية الأمة حيث لا يجرؤ على مخالفة هذا التيار القوي إلا نفر قليل .

ونحن معشر المصريين لا نحترم وطننا ولا نعرفه ، وكثيراً ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب والدخلاء ، وفاتنا ان كل عيب منسوب له هو منسوب في الحقيقة لنا .

أما السلطة العمومية فما عهدنا لها احتراماً في نفوسنا لا في الماضي ولا في الحال

إذ في الماضي كان المصريون يخشونها ويرهبونها أشد الرهبة حيث كان مبدأ معاملتها الظلم والقسوة .

واليوم اذا اعتدل مبدأ السلطة ، انقلب الخوف بناء على حركة رد فعل طبيعي وبمحرضات أخرى الى استخفاف، وكلاهما بعيد عن الاحترام الذي يلزم ان يكون متبادلاً بين الهيئة الحاكمة والمحكومة .

فإذا توفر هـذا الاحترام من الجهتين من جهة الحكومة بالتفاتها الى راحة الأمة والاعتناء بسماع ندائها وتنفيذ رغباتها كما ينبغي وبحسب الامكان ـ ومن جهة الأمة بأن تثق بوكلائها ولا تتأخر عن طلب الاصلاحات التي تراها لازمة لها وتغيير القوانين التي تراها مضرة بها بلا تردد ولا خوف وتقدر أعمالهم حق قدرها ان كانت مفيدة فتشكرهم عليها وتنبههم ان اخطأوا وتشجعهم على الاستمرار في الخطة الموافقة للمصلحة العامة حتى يكون ذلك لزاماً لهم كان ذلك من أهم أسباب سعادة الأمة .

والأسرة ـ يلزم ان يكون أساسها الاحترام ونحن مع الاسف نرى الروابط العائلية عندنا قلما تكون محترمة وكثيراً ما يتغلب عليها هوى النفس .

فليس بالنادر ان يتزوج الرجل امرأة وتلد له أولاداً ثم يتركها وأولادها ويتزوج سواها ـ وقد يترك هذه حاملاً ليأخذ غيرها كذلك ـ وهكذا يقضي حياته في تشييد بناء عائلات وهدمها بدون ان يتعلق بواحدة ويعيش فيها مع زوجته وأولاده لانه لم يفكر إلا في لذة دنيئة لا تذكر في جانب الاضرار التي تنجم عنها ـ وإن أهم الاسباب الهادمة لاحترام العائلة هو الطلاق ـ وهو أبغض وجوه الحلال الى الله تعالى ـ وقد اعتاد اهل مصر استعماله بطريقة شائنة جداً لا يمكن ان يرضاها الشرع او يسلم بها العقل .

فعلى الآباء ان يحترموا انفسهم امام اولادهم ليأخذ هؤلاء عنهم مثل المحبة والصفاء حتى تتربى نفوس الناشئين على ملكة الاحترام وتصبح العائلة كما يجب ان تكون لا كما هي الآن ميدان يتخاصم فيه الاهل ويتشاتمون وقد يتضاربون ويفترقون .

وأيضاً لم يوجد بيننا احترام للعلم والفضيلة ، ولذلك لا تميز في المعاملات بين صاحب الفضيلة وصاحب الرذيلة ، بل في بعض الاحيان قد يكون احترامنا

للثاني اكثر من الاول ـ على ان المدنية الصحيحة تعتبر اكبر مكافأة لمن عمل عملاً صالحاً ان يحترمه الناس ـ واكبر عقوبة لمن يعمل العمل الخبيث ان يحتقروه ـ ولا يمكن ان تصير الفضيلة مطلوبة مرغوباً فيها ، والرذيلة ممقوتة مبغضة الى النفوس إلا اذا احس الناس بقوة حكم الرأي العام وسلامته ـ ولا يوجد شيء يبرهن على فساد اخلاق الامة اكثر من ضياع احترام الفضيلة فيها إذ لا شيء أقرب للفضيلة من احترام الفضيلة .

وبالأسف نرى شيوخنا يحتقرون الشبان ولا يثقون بمعارفهم وأعمالهم ـ ونرى شبابنا يهزءون بالشيوخ ولا يثقون بتجاربهم فيرمونهم بالجهل ويحسدونهم على وظائفهم إن كانوا من أصحابها ويزاحمونهم في الأقوال والأعمال ولا يتأخرون عن أن يتسوروا أكتافهم ليخرقوا الصفوف بغية الاستيلاء على مراكزهم .

١٨١ ـ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون

العالم الإنساني جميعه جسم واحد أعضاؤه الأمم ـ صحته الهدى ـ داؤه البغي ـ دواؤه النصح والإرشاد، فإذا لم يأمر الآمرون بالمعروف وينهي الناهون عن المنكر ، خسروا الدنيا والآخرة وباءوا بغضب يحارب ضمائرهم ، وخسارة تنقص أموالهم وقتل يحصد رؤوسهم وانتهاك لحرماتهم وصبت اللعنة عليهم والخزي والعذاب المهين . وإذا قام الهداة بإرشاد الرعية وأوقفوا الأمراء عند حدهم اذا ظلموا وعلموهم اذا جهلوا وذكروهم اذا نسوا ، كان العدل وانتظم الأمر ـ ولم يأل الناصحون من الامم جهداً في غابر الأزمان في النصح والإرشاد ولم يبالوا بما ينالهم من الأذى والموت قياماً بما عهد إليهم وما توحي به ضمائرهم . وهذا (بيدبا) حكيم البراهمة قام مقام الخصم الألد في وجهه (دبشليم) ملك الهند حينما طغى وتجبر ، فوقف مدافعاً عن أبناء أُمته الضعفاء في منزلة بين المنزلتين ، إما استقامة الأمور وانتظام الجمهور،وإما سفك دمه وإذاقته طعم الموت الزؤام وأبى ذلك الفيلسوف البقاء على الذلة والهوان، فنال بالنصح بغيته وأبقى له أثراً يذكر بعده . فحيا الله الحكمة والحكماء ومن معهم .

وهؤلاء الخلفاء الراشدون عنوان العدل ونبراس الهدى وعلم السعادة ، ومع ذلك لم يذرهم الناصحون ولم يدعهم المرشدون .

وكذا النصحاء وقفوا في وجوه بني أُمية واستعذبوا التعذيب ورضوا بالموت كما وقع (لحطيط الزيات) إذ قـال للحجاج إنك من أعداء الله في الارض تنهك المحارم وتقتل بالظنة ، وعبد الملك بن مروان أعظم منك جرماً وأكبر منك إثماً وإنما أنت خطيئة من خطاياه وسيئة من سجاياه ـ فأمر بقتله فقتل شهيد الحرية وهو في الثامنة عشرة من عمره .

وأيضاً ملوك العباسيين كم وعظهم الواعظون وأنذرهم المنذرون هذا أبو جعفر المنصور دخل عليه عبدالرحمن بن عمر الاوزاعي وقال له: يا أمير المؤمنين أخاف ان تسمع النصح ولا تعمل به فصاح به الربيع وانتهره بالسيف ، فقال المنصور: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة ـ وسار الاوزاعي في نصحه ووعظه وزجره لأمير المؤمنين وإنذاره .

فلولا الهداة والمصلحون في الدول العربية والمحررون والحكماء في الدول الغربية لغلب العزيز أذلهـا وأقل الكثير أقلها وأضحت طعمة للآكلين فريسة للقانصين فأسرع إليها الفناء وحقت عليها كلمة العذاب والشقاء . قـال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ .

فاصلاح الأمم يتوقف على توخي أحسن المثل التي ينتهجها قـادة الشعوب وانتهاج أوضح المسالك التي يسلكها المصلحون ليسيروا مع الأمم سير الاستاذ مع تلميذه وليأتوا البيوت من أبوابها وليخاطبوها بلسانها ـ وكما ان الاستاذ يحادث قلب التلميذ بمـا يشاكل طباعه ويناسب أطوار استعداده فهكذا قادة الأمم مع الشعوب ـ هذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ـ ومن غيّرها فقـد حاد عن الصراط المستقيم .

١٨٢ ـ هل نحن في عصر المدنية

التمدين تمصير الامصار وتنظيم المدن وعـداد مرافق الحياة فيها لتنال حظها من أُصول حياة دهرها ـ وللمدنية خمسة مطالب : (الغـذاء) لصلاح الجسد و(الدواء) لاتمامه و(الثوب) لوقايته مما يحيط به من الجو و(المسكن) ليقيه من عاديات الوحوش واللصوص و(السلاح) لحفظه من عـدو من جنسه يفاجئه ـ

وتحوط هذه المطالب خمسة دوائر .

الاولى : لأركان المدنية الاربعة الامارة والزراعة والتجارة والصناعة .

الثانية : للرياضيات من فلك وحساب وهندسة وجبر .

الثالثة : للطبيعيات وهي المعدن والنبات والحيوان والإنسان ثم القوانين العامة والكيمياء . ثم الضوء ونواميسه ثم الحرارة وقوانينها .

الرابعة: للبخار ونقله الأجسام وإدارته الآلات وإحداثه الضوء ونقله البريد.

الخامسة: للكهرباء وتلغرافها وإداراتها آلات أعمال الغذاء والملبس والمسكن وإضاءتها وحرارتها - فهذه هي الدوائر الخمس التي أحاطت بالإنسان وخدمت غذاءه ودواءه وثوبه وداره وحصنه فرجعت الحياة وان تعاظم شأنها وكبر شكلها واتسع نطاقها الى كسرة خبز وثوب وأمن .

وليس التمدين إشباع البطن وستر الجسم والامن على النفس وما أحاط بها - كلا، فهناك بهجة للنفس وسرور للقوى المفكرة بتعقل مثل هذه العلوم - وكأن هناك تسابقاً بين شهوات الاجسام وقوى العقول ، فكما يتسابق ذوو الشهوات الى نارها ، يسبق الحكماء الى نورها - ولئن كان للأجسام غذاؤها فللعقول بهاؤها وروحها ولئن بقي بها الجسم ودوويت بها علله ، فللأرواح فرح بمعرفتها وبهجة بادراكها - وهذه الاجسام إذا خلقت عاجزة دبرتها العقول ، وجعل احتياجها سبيلاً لاستنباط الحيل والدقائق والنظر في الكثائف واللطائف واستخراج الدقائق حتى تعرج الارواح الى عالمها وتدرك أسرار ما أحاط بها حتى سارع الإنسان اليوم الى درس الطائر في حركاته وسكناته ، فيسكن معه في جنته العالية التي لا تسمع فيها لاغية .

إن المدنية ترفع الاخلاق بنسبة واحدة ترفع الخير والشر معاً ، فإن غلب شرها خيرها آلت بها الى الدمار كدولة الرومان ، وان غلب الخير الشر بقيت الى أجل معلوم ما دام القلب موجوداً، فإذا عظم بناء هيكل المدنية وتم نظامه لم تؤثر فيه زعازع المفاسد إنما يبقى ثابتاً الى أجله ، فلا دهشة من سماع فساد الاخلاق والغش والخيانة وعموم السكر في أمة عظمت مدنيتها ، لأن ذلك قليل في جانب شامخ عزها ورفيع مجدها - فالبحر لا ينجسه شيء .

ومتى زاد الضرر فغلب المنافع ، آلت الامة للخراب كمدنية المصريين المبنية على شفا جرف هار .

قال هنري الفرنسي : « إصحب الخمر معك لتبيد الجنس الشرقي » . وذلك لان القوم علموا ان الشرقي غرّ ساذج يغتر بالزخارف وليس لديه من العلوم والمعارف ما يقاوم هذه المبكيات المحزنات .

وبالجملة ـ فالمدنية هي التي ترقي الافكار الداعي لتحسن الاخلاق والاحسان في المعاملات ـ والمراد بترقي الافكار انتقالها من المدارك الشهوانية الى المدارك الروحانية ، مدارك الضمير الحر والنفس الطيبة المهذبة ، وذلك لان الانسان خلق وله نفسان : واحدة حيوانية والاخرى روحانية . فالاولى هي الامارة بالسوء الداعية الى الشهوات . والثانية هي الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر والاصل في الانسان ان تتغلب عليه الاولى لمعاشرته للناس ومعاملته إياهم فتملكه الرذائل ، ولكن اذا استعملت معه الوسائل لقهرها فقهرت ، وتغلبت الثانية عليها تملكته الفضائل ، وصار بعد ان كان لا يسير الا حيث يقود طمعه وشرهه يسير حيث يرى الفضيلة فيتبعها .

أما ما يظنه الناس من ان المدنية والتمدين حسن الثياب والهيئة ، وجمال السمت أو من يأكل أطايب الطعام وأشهاه ويلبس احسن الملابس وأبهاها ، أو الاسراف في الشهوات واللذات أو عدم المحافظة على الدين والشريعة أو التحايل على جمع المال وتثميره أو غير ذلك مما تلوكه ألسنة المغترين بظواهر الالفاظ وهم عن معانيها غافلون ، فبعيد كل ذلك عن التمدين والمدنية الحقة .

١٨٣ ـ هل الأفيد إجبار الحكومة كل شاب على الجندية أو إطلاق سراح الموسر الذي يفدي نفسه بماله وأسر المعسر

معلوم ان الانسان لا يكمل حاله الا بالشجاعة والعدل والعفة والعلم ، فهذه أُمهات الاخلاق وجنات السعادات ورضوان الحياة ، بل هي الاساطين التي عليها بنيت الاستقامة والكمال والمدنية .

فالشجاعة هي القوم الاكبر للحياة ولا قيمة للعلم بلا قوّة تنفذه .

في الجبن عار وفي الاقدام مكرمة　　　والمرء بالجبن لا ينجو من العطب

هذه الامة العربية افتتحت هذه البلاد بحد السيف والسنان والسلم والصلح فتربعوا في دستها أيام الدولة الأموية والعباسية والفاطمية ، ولما ضرب المماليك مصر ضربات الظلم والاستبداد وبطشوا بطشهم فيها وتحكموا على النفوس وأكلوا اللحم وأذابوا الشحم وأهلكوا الحرث والنسل ، ظل القوم في ديارهم صرعى من الجور والعسف لا سلاح معهم فنسوا من شدة الفزع الأكبر حظهم من الجندية مدة من الزمان وهم يتقلبون على جمر الجهالة ويسبحون في بحار الضلالة ويرسفون في قيود العبودية والاسترقاق - حتى اذا ما جاء (محمد علي باشا الكبير) فحررهم وأعتقهم وأطلق سراحهم وعلمهم العلم ودربهم على الحرب والضرب فضربوا بالمدافع والسيف وألفوا رحلة الشتاء والصيف ، فيوماً تراهم للروس مهاجمين وآخر في الحجاز يقاتلون الوهابيين وطوراً في بلاد الروم يقاتلون ومرة في اليونان وكريد يتبارزون وآونة على الشام يزحفون - وكان العلماء الاقدمون يأمرون تلاميذهم بتعلم هذا الفن الجليل فكان أحدهم يقصد البحر وقد هاجت أمواجه فيركب السفينة فتتقاذفها الامواج لتكمل نفسه بالشجاعة - وبعضهم كان يقف في المواضع المظلمة المخيفة حتى يتعود عليها - واذا كانت هذه الفضيلة من أشرف الخلال وأعلاها ، فلماذا يفر النشء المصري من التحلي بها - واشتهر بين العامة انهم يؤخذون ظلماً وزوراً كأنهم يساقون الى السجون .

ليست شعري ما هذا الجهل والضلال المبين الذي أضر بالأمة وأسقطها في يد الاحتلال - إن هذا لشيء عجاب كيف يسوغ للأغنياء الجمع بين نقيضين - اشتروا لأبنائهم العلوم واشتروا بمالهم الجبن حيث يفدي الواحد ابنه بدفع البدل ، كأنهم يحذرون ان يتكمل الابناء بفن الشجاعة .

وكذا الفقير جمع بين نقيضين معكوسين الجهل والشجاعة .

أليس من العدل ان يعرف الناس قاطبة ما القصد من نظام الجندية ، ثم لا يصطفى قوم لفقرهم وينبذ آخرون لدفعهم الفداء - كلا فإن كلا المدرستين (مدرسة الشجاعة ومدرسة العلم) تهذيب وتدريب لا تعذيب وتغريب وإبعاد وتخريب ، وإنما هو درس وتعليم غايتها خدمة الوطن - فإذاً الاجدر ان يحشر الناس في صعيد واحد لا تفرقة بين غني وفقير ، وإلا فما معنى الفدية وأي وجه لها إلا الدلالة على الجهل المطبق وعدم ادراك الفضيلة وما الميزة بين الصنفين

وكيف الفرار من الفضيلة على انها ان كانت فضيلة أفلا تعم النوعين ، وان كانت رذيلة أفلا تشمل الطائفتين حتى يكون العدل مسوياً بين الطرفين ـ فـإذاً المسؤولية واقعة على عاتق الحكومة المصرية التي لا تجعل الجندية اجبارية عامة لكل فرد من افراد الرعية ويصلح شأنها حتى لا تكون في أعين الأهالي قذي بحيث يقلل مدة خدمتها وتحسن المعاملة بين الجنود في المأكل والمشرب والرياضة وترخص لهم بإجازات اسبوعية وسنوية يقضونها بين اهاليهم وأقاربهم وتمهد لهم سبل الراحة والرغبة في هـذه الفضيلة الجليلة حتى تهرع اليها الشبان وتطرق ابوابها كما طرقت اليوم ابواب المدارس العلمية للتلاميذ واكتظت بهم حتى ضاقت عليهم بما رحبت ، وكانت المدارس قبلاً خاوية على عروشها لا تؤمها التلاميذ الا كرهاً ووراءهم امهاتهم تسخم الوجوه وتلطم الخدود كما يفعل اليوم بمن اخـذ جندياً ـ فاللهم قرب الزمن الذي تتساوى فيه مدرسة الشجاعة بمدرسة العلوم والكل عليها يتهافتون وفي فضيلتها فليتنافس المتنافسون .

١٨٤ ـ مدارج الانسان في معترك الحياة

الإنسان في حال نشأته ودور طفوليته اضعف انواع الحيوان قاصراً عاجزاً هلوعـاً يترصده الحيوان المفترس بمخلب وناب ، وتكتنفه الطبيعة بمصائب واوصاب فيدب محاطاً بمكاره الطبيعة الخارجية من امراض قتـالة وعوارض مغتالة ، ثم يشب فيقع في قبضة مكاره النفس الداخلية فيكون منذ يدب الى ان يشب عرضة للمهالك بين عاملين قويين اسهلها عليه اقتلها له ـ وليس هذا حال الانسان باعتبار الطفولية فقط،بل هو حاله ايضاً باعتبار اول وجوده علىالارض اذ ان الله سبحانه وتعالى لما خلق الانسان خلقه سليم الفطرة ساذجاً،ليس عنده من القوة الطبيعة والالهامات الفطرية ما عند سائر الحيوان ليدفع بـه الآفات ويصد الهجمات ، اللهم الا مسحة من العقـل الفطري ، كانت لا تغني عنه من الحياة شيئاً ـ ولكن الله سبحانه وتعالى اودع في خزائن ذلـك العقل اسراراً كامنة فيه كمون النار في الزناد ـ فكما ان هذه لا تظهر الا بالقدح ، كذلك تلك الاسرار (وهي مدارك العقول الفائقة) لا تظهر الا بالاحتكاك بالمقاصد الحيوية التي لا تتناهى في جانب العقل البشري ـ ومن ثم كان بـدء صعوده من حضيض البهيمية الى اوج البشرية بالطرق التدريجية والالهامات العقلية التي تترقى بترقي

الحاجة وتنمو بنمو وسائل التربية والتعليم .

ولا ريب ان الانسان يحتاج في تدبير المعيشة الى وسائط كثيرة ـ أهمها التعاون والاجتماع واحتياجه الى مساعدة من عداه من بني جنسه في تدبير شؤون الحياة البشرية، فكان ذلك من بواعث انضمامه في اول حلقة من حلقات الاجتماع.

كيف لا ـ وان الانسان بعد ان كان يسكن الغابات الكثيفة ويأوي الى ظل الاشجار الغضة ويأكل من نبات الأرض ويهيم من الحيرة في كل واد ، دخل في اول طور من اطوار المدنية وهو الاجتماع ، ثم اخذ يبني لنفسه الاكواخ الحقيرة وينحت في الجبال بيوتاً ـ ومنها الكهوف الصناعية التي ترى في كثير من الجبال اتقاء عوادي الطبيعة ودفعاً لمخاطر الوحدة ، ثم ما زال يتسع امامه مجال الفكر وتتشعب طرق المقاصد بتشعب طرق المعيشة حتى تولدت فيه قوة الاختراع وقوة الحرص والطمع فنما عنده حب التغالي بمظاهر الاجتماع والتغالب في ميدان المظاهرة الدنيوية فاحتاج للاعتصام بقوة الاجتماع في المدن طلباً لرغد العيش وهرباً من عناء البداوة فخطط المدن وابتنى المعاقل والحصون ومصّر الامصار وشيّد فيها شاهقات القصور وزاهيات المنازل والدور ، وكان في غضون ذلك يجول بفكره في مناحي الطبيعة باحثاً عما أودع الله فيها من الاسرار وأوجد من المنافع في المواليد الثلاث ليسخر منها لمصلحته ما شاء فيما شاء ـ ومن نعم الله سبحانه وتعالى ورأفته بهذا النوع الانساني ان جعل له من العقل سلطاناً اذا اطلقه من وثاق الاوهام تناول به اسرار الطبيعة من كبد السماء ويخرج بها من اعماق الأرض بلا حرج عليه لينتفع بها في الحياة الدنيا فيزرع ويستثمر ويعمر ويستعمر ويخترع ويبتدع ويتفيأ ظلال العمران ويستمد مادة الحياة الطيبة مع توالي الأزمان من خلال المتاعب والمشاق التي يتكبدها في استجلاء الحقائق واطلاق الفكر في اطراف الوجود، يتناول به من اسراره قوة تدرأ عنه غوائل الضعف الطبيعي الذي فطر عليه وتدفع طوارىء الطبيعة واخطارها التي تكتنفه وقد جد الانسان وراء هذه الغاية فوصل وفعل في الوجود من آثار العقل ما فعل مما هو مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان، ولكن توصل الى ذلك تدريجاً بأعمال الفكر والاسترشاد الى طرق السعادة بنور العلم الذي استمده من الشرائع الإلهية واهتدى به الى تطهير النفس البشرية من ادران البهيمة ، فأقام له ذلك العلم من نفسه على نفسه مجداً وحسباً يهديه نوره الى الصراط المستقيم .

وبالجملة ـ خلق الله الإنسان الأول (آدم) أبا النوع الانساني الذي قال الله تعالى فيه للملائكة : ﴿ إني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

ولقد ثبت بالأدلة القطعية ان آدم كان راقياً ، لأن الخالق جل شأنه علّمه كل ما يلزمه لحياته، ولكنا الايام وتقلباتها وحوادثها أنست اولاده مدنية ابيهم خصوصاً لما انقضى معظمهم في حادثة الطوفان وتشتت من بقي منهم بعد رسو سفينة نوح على الجوديّ يطلب أقل عيش في الارض ، والذين تناسلوا من هذا الفريق درجوا على سنة آبائهم لا مقر لهم ولا مأوى إلا الأمكنة التي يجدون فيها الاعشاب والنباتات .

فالإنسان في تلك الأزمان البعيدة كان يسكن الاكواخ الحقيرة والمغارات ، ويتخذ كل أدواته من الاحجار لجهله بما في الارض من المعادن التي لم تخلق إلا له، ولم يكن له عمل سوى استعداده لملاقاة اعدائه من الحيوانات الضارية ، ومكث على هذه الحال الازمان الطويلة التي سماها علماء التاريخ بالعصر الحجري او البربري او عصر الهمجية، ولكن لما كان بطبيعته قابلاً للرقي ، لوجود العقل فيه والحواس كما قال الله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾. نظر الى نفسه وتحسر وقال : ما أتعسني حظاً كيف يكون للحيوان سلطان عليّ وأنا أعمل وأختار ولي قوة على الاختراع ـ وأنتبه من ذلك الوقت ودقق البحث حتى وصل الى القصدير الذي لم يغنه شيئاً عن استعمال الاحجار لأنها أقوى منه وأشد صلابة ، ولا تغير حرارة الشمس اشكالها كما تغير اشكاله ، فجدد البحث حتى وصل الى النحاس الذي خطر بباله ان يخلطه بالقصدير ، فحصل على البرنز الذي كان مبدأ سعادة له وافتتاح عصر جديد سماه علماء التاريخ بالعصر البرنزي .

ولكن هذه الاكتشافات كانت سبباً عظيماً في استمراره في البحث حتى

اكتشف الحديد الذي تمم سعادته واعتبر فاتحة عصر جديد سماه اهل التاريخ (بالعصر الحديدي) ومن هنا ابتدأت المدنية ، وانتشل الإنسان من وهدة كانت بعيدة الغور وقويت مداركه ، ووجدت عنده من التجارب حقيقة سماها (العلم) وفرع لهـا فروعاً عديدة وأغصاناً كانت ثمارها نجاحه وفلاحه ، فكانت تلك الحقيقة اكبر سبب في تمدينه ، إذ بها ذلل العقبات التي كانت أمامه واتخـذ له موطناً يدافع عنه ، وعرف كيف يكتشف وكيف يخترق البحار والمحيطات ، وكيف يوجد الروابط بين البلاد والممالك ، وكيف وكيف .. الخ . مما لم يتضح له إلا بعد الآلاف من السنين .

فالإنسان الآن بفضل العلوم وانتشارها ، ليس ذلك الذي كان لا يعاشر غير الوحش بـل هو العالم الراقي المدرك واجباته العارف مقدار حياته (لقد خلقنا الإنسان في احسن تقويم) .

١٨٥ ـ السعي والعمل روح العمران

كل من في الوجود يطلب صيداً　　　غـير ان الشباك مختلفات

من ردد طرف البصيرة في نظام هذا الكون وما أبدعته يد القدرة ، رأى ان الحكيم العليم قد ركبه من أمور تنوعت صفاتها وتغيرت مظاهرها ، وهي على اختلافها ليست في الحقيقة إلا مادة واحدة عملت فيها عوامل القدرة فنصبتها على هذه الشرائط متنوعة الصفات مختلفة الاحوال ، حسبما تقتضيه طبيعة حياتها وحكمة وجودها لابسة من حلل النظام وحلى الاحكام ما يشهد للحق جل شأنه بالتفرد في صفات الكمال ـ ومن بديع حكمته انه لما انتقل الانسان من الوحشية الى المدنية أنبت له ذلك الانتقال وجوب الأعمال ونادته الجماعة حي على التعامل فمن لا يؤثر ان يعمل لا يأكل فاندفع كل الى الخبط في مهنته والغوص في حرفته فذهب يعارك الجمادات كل كثيف ويباشر الصنائع كل خفيف ويمارس العلاقات كل عليل منقطع ويتاجر بالبضائع كل كليـل مبتدع ويستقصي الموجودات كل دقيق مخترع . وهكذا قـد انخرط الجميع في الارتباط وغرق الكل في لجج الاختباط ، فكل طائر على اجنحة الطيش لقطع آفاق العيش ، فترى البعض يشكو الكلال والبعض يندب الملال ، وهذا يتوجع في التعب وذاك يتفجع من

الوصب فأعين تبكي من العسر وأفواه تضحك من اليسر .

كل من في الكون يشكو دهره ليت شعري هـــذه الدنيا لمن

فأبصار الجميع شاخصة الى غرض واحـــد وهو طريق العيش والرزق فهم عليه متزاحمون بواسطة حرف ومهن واسباب مختلفة،فالناس بين مزاحمة تقتضي تنافراً ومساعدة تقتضي ائتلافاً ، وليسوا في ذلـك سواء « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

فالانسان مسوق بحسب خلقته وما تقتضيه فطرته الى الشغل والعمل ليمرن نفسه ـ ولذلك كان مضطراً طبعاً لأن يتبصر زمن صحته فيما يكون اذا اصابه مرض يمنعه عن العمل او اعتراه وهن الشيخوخة وضعف القوى ، ولهذا جاء في الحديث الشريف : « تزوّد من صحتك لسقمك ، ومن غنـــاك لفقرك ، ومن شبابك لهرمك » .

وبعبارة أخرى : سنة الله في خلقه هي ان ينظر الانسان في الحال الى ما يؤول إليه امره في الاستقبال ، بل هذا النظر الذي يطلبه الوجود هو قاعـدة سلامة الاوطان ورأس المدنية والعمران . وهذا إنما يدعو الانسان الى ان يدخر في يومه شيئاً من ثمرة عمله في هذا اليوم يستعمله في يوم ثان اذا طرأ عليه مـا يمنعه من العمل ، فإذا كان اليوم الثاني كان غير محتاج لنفقته لسبق حصوله عليها فإذا لم يعرض عليه مـا يمنعه من العمل امكنه شغل هذا اليوم في تحسين آلات عمله او مبادلة عمله ذلك اليوم بالآلة اللازمة له من غيره ليسهل عليه العمل بعد، بما ادخره قبل ـ وهذا المدخر هو رأس المال .

فرأس المال اذاً هو جزء من ثمار اعمال سابقة يستعان بهـــا في اللاحقة . وظاهر ان لكل إنسان رأس مال هو مـــا ادخره . فالنجار الذي يملك فارة وقادوماً ومنشاراً هو صاحب رأس مال ، والحداد الذي يملك كيراً وسنداناً ومطرقة صاحب رأس مال ومالك محراث للحرث او مسطرين للبناء او مقص للخياطة كل من هؤلاء صاحب رأس مال .

وليس رأس المال قاصراً على النقود او الارزاق المستعملة في استنتاج ارزاق أخرى او مؤونة او آلة، بل الادراك رأس مال والأدب رأس مال والبر والخير

رأس مال لمن يسديه وحب الوطن رأس مال ، بـل جميع الأعمال ـ فالسابق منها رأس مال في الحال ، والحال رأس مال في الاستقبال .

فالطفل الذي يتعلم القراءة والكتابة والحساب وتاريخ وطنه ومـا كان عليه سلفه حاصل بتعلمه على رأس مال ـ واذا تعلم بعد ذلك صنعة زاد رأس ماله ، وحينئذٍ لا يتوقف نجاحه في المعيشة إلا على ان يكون عاملاً صادقاً أميناً مؤدياً لواجباته .

والذي تعلم الشريعة وأحكامها حاصل على رأس مال يحصل له بـه الفائدة ـ والاعتبار باستعمال رأس المال في إرشاد الناس إلى مصالحهم وإقامة العدل بـين الناس ليقف كل عند حده فيحصل الأمن وتحفظ الحقوق ـ والطبيب له رأس مال هو معلوماته التي اكتسبها بالتعلم وانتفاعه منه موقوف على حسن استعماله لهـذه المعلومات ـ والسياسي الذي جرب الأمور واختبر الناس يملك رأس مال تختلف قيمته بحسب تجاريبه ومعرفته لأحوال العالم وضروريات أُمته. ورأس المال هذا يستعمله السياسي أيضاً كما يستعمل التاجر رأس ماله في الاستغلال فيبذل منه في صورة مقترحات ما يعود على الأمة التي يشتغل من أجلها بزيادة ثروتها ورفعتها ورفاهيتها بنسبة رأس ماله .

ولرأس المال من أي نوع كان أهمية عظمى فلا غنى لأمة عنه وإلا فكيف يكون الاستنتاج إذا أعوز النجار القدوم والحـداد الكير والصناعة الفوريقة والبناء المسطرين والخياط المقص والزارع المحراث ـ وكيف تكون حالة الأمة إذا لم يحصل أفرادهـا على المعلومات الادبية والدينية والعلمية والابتدائية التي أصبحت اليوم ضرورية لكل إنسان وبها يتميز عن غيره من أنواع الحيوان .

وكيف تكون حالة الأمة إذا لم تتخذ رجالاً من أهلها أهـل حزم وعزم ودارية سبروا الزمان وأهـله يؤتم بهم فيحصل بين افرادها التضافر والتعاون والتحابب ، ويكون للأمة بمقترحاتهم ميول معلومة تسعى لها ، إذ لا فوز لأمة اليوم في معامع المزاحمة وميادين التمدين والحضارة إلا اذا تمسكت بصفوة رجالها وأقدرهم وأمضاهم في العمل ، ولا جرم ان الامة تتقهقر وتخسر بقدر ما يعوزها من ذلك، فالاستنتاج بدون هذه الآلات ينقص نقصاً فاحشاً ، ولو أجهد الصناع انفسهم في العمل فلا تكون محصولات البلاد كافية لمعاش الامة وحياتهم وتصبح

الاهالي فقراء ويعتريهم الاضمحلال والذلة والهوان .

فإن الثروة العمومية للأمة تتعلق كل التعلق بما ذكرناه من رأس المال، وبينها وبين حالة الأهالي ارتباط شديد فكلما صارت الامة أكثر عدداً وأعز شأناً زادت الثروة العمومية بحسب نسبة حسابية يزيد عدد الأهالي تبعاً لنسبة هندسية فإذا بلغت الثروة العمومية ثلاثة أمثال ما كانت عليه يبلغ الأهالي تسعة أمثال ما كانوا عليه ـ وكما انه لا سبيل للحصول على رأس مال إلا بالعمل والادخار كان السعي او الحرمان كذلك لا بقاء له من غير مثابرة على العمل والادخار ـ فمن أنفق من غير ان يكتسب فإنما يبدد ثروته ويمد يده الى الفقر لأنه يشتت ثمرة العمل السابق الذي استجمع بالسعي والحرمان فيكون في طريق الخراب طريق فيه يرى رأس ماله انتقل من يده الى يد غيره أكثر منه نشاطاً وأحسن تبصراً .

فالعمل المستجمع لا يحفظ إلا بالعمل ، فكما ان الملابس تنهك والمنازل تتشعب ان لم يتداركها العمل، كذلك الأعمال السابقة لا سبيل لحفظها والانتفاع بها إلا اذا امدت بأعمال لاحقة ـ وكما ان المباني ان لم يتعهدها اصحابها بالأعمال تسقط وتهدم وتنفصل اجزاؤها بعضها عن بعض فيتداركها آخرون بالعملة ويستجمعونها فتصبح بناء آخر جديداً ، ولكن في يد ملاك آخرين ـ فكذلك العمل المستجمع في السابق ان لم يكن مقروناً بالعمل في الحال تبدد وانتشر واستولى عليه آخرون فينتفعون به فلا يحفظ للتاجر رأس ماله في استقلاله إلا بالعمل والمثابرة عليه وإلا ضاع سعيه السابق وما قاساه في الحصول عليه من التعب والحرمان ـ وكذلك الأمر في رأس المال الذي يكون في صورة مقترحات لا تحصل جميع فوائدها إلا اذا حصلت المثابرة لحق الهيئة الاجتماعية التي استعملت في صالحها هذه المقترحات خسارة عظيمة هي ضياع أعمال مدخرة ادخرها السلف لينتفع بها الخلف ، ولا سبيل لهذا الخلف ان يدخر لخلفه رأس مال إلا اذا زادت الأعمال التي ادخرها سلفه بعمله والمثابرة عليه .

١٨٦ ـ القضاء والمحاماة وأثرهما في المدنية والحضارة

ان القضاء من ارفع الأركان وأقوى دليل على ذلك استتباب الراحة به والأمان، فلو لم يكن قضاء لأخنى علينا الزمان ، ولشبت نيران البغي والعدوان

ولتحرق اجسام الضعفاء وتتمتع بين ذلك بالنهب الاقوياء، وغير خاف ما يحدث من ذلك على كر الدهور والايام من اعدام الجنس البشري ، إذ ان روح القوة لا بد ان تكون لدى الناس بدرجات ، فمنهم قوي ومنهم أقوى ومنهم سباق غايات ، فيقلد الفريق السابق زمام السلطنة فيفتك بالكل .

فلهذا كان المقصد من القضاء إنما هو نصب قسطاس العدل في الاحكام واصدار الامر بإذاقة القاتل كاس الحمام .

اذا خان الامير وكاتباه   وقاضي الارض والس في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل   لقاضي الارض من قاضي السماء

ولا بد للقاضي ان يكون رجلاً حراً بالغاً عاقلاً سليم السمع والبصر واللسان متصفاً بصحة التميز وقوة الجنان بعيداً عن السهو والغفلة مأموناً في حال رضاه وغضبه ، عدلاً فلا يكون مرتكباً للكبائر ولا مصراً على الصغائر ان يكون عارفاً بالناسخ من الاحكام والمنسوخ والمقيد والمطلق والخاص والعام قادراً على استنباط الاحكام بالقياس .

وينبغي ان يكون شديداً من غير عنف ، ليناً من غير ضعف مستشيراً أهل الحزم والاجتهاد، وان يكون مكانه مرتفعاً عن محل الخصمين وان يحث الخصمين على ان يصلحا ذات بينهما ، فإن أبيا اصدر الحكم عليهما وأبرمه وان يمتنع من بيع وشراء لنفسه، ومن إقامة وكيل في ذلك معروف له في البلدة لئلا تحابيه الناس ويحرم عليه قبول الرشوة ، واذا حضر خصمان فلا يستبل بالترحيب صاحب الشرف منهما ، بل يسوي بين الوضيع والرفيع والجليل والحقير والغني والفقير والصغير والامير – وينبغي له أيضاً ألا يقضي بين الناس وهو متأثر بأي مؤثر خارجي او داخلي كالسرور الزائد والحزن الشديد والبرد المؤلم والحر الذي يكاد يذهب بالعقل والجوع والعطش وغلبة النعاس حتى لا ينطبق على رجال القضاء . قول الشاعر :

قضاة زماننا أضحوا لصوصاً   عموماً في البرية لا خصوصا
فحسبك أنهم لو صافحونا   لسلوا من خواتمنا الفصوصا

والمحاماة مهنة شريفة وصناعة محتاج اليها في البلاد المتقدمة ذات الشأن

والثروة ، إذ معلوم انـــه كلما زادت الثروة وتطلعت الناس الى الازدياد منها كثرت بينهم المنازعات فيحتاجون الى المحامي وهو وكيل في الحكم والمخاصمة ، يتكلم مكان المرء بما يعجز عنه ويدافع بما لم يعلمه ويشهد له بمـــا لم يخطر على باله فيثبت الحق لأهله ويكفي موكله مؤونة التعب وينوب عنه في مخاصمته، فترى المحامين عن الخصمين يشحذ كل منهما لسانه ويقوي جنانه استعداداً للنزال في ميادين المقال وتأهباً للدفاع في مواقف النزاع ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم ورفع التهمة والجرم ـ ويمارس هذه الصناعة اليوم كثير من الفضلاء جعلوا نصر الحق نصب أعينهم ، وان دخل فيها جماعة ليسوا من اهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب لا يهمهم إلا الحصول على الدرهم والدينار بأي وجه كان ، يدافعون عن القضية ولو علموا ضعف أساسها ويقدمون عليها ولو بدا لهم عـدم نجاحها ويقفون ضد الحق وان كان جلياً ، فأولئك ليسوا من المحامين في شيء ، وشقاء الامة بهم اكثر من نفعها ـ فيجب على المحامي ان يكون عالمـــاً بصناعته محيطاً بدقائقها ، وان يكون ذا مروءة وشهامة وعفة ودين ونفس شريفة تنأى بـــه عن الدنايا ، فصيح اللسان قوي الجنان مراعياً المصالح العامة جاعلاً دأبه نصر الحق مرشداً للناس وهادياً لهم حتى يؤتمن على أُمورهم ويوثق به في شؤونهم ، وتملكه الامة قيادها وتعطيه زمامها .

يا أيها الشهم المحامي الالمعي ومن يراعى حكمة المشرع
عليك بالصدق وبالامانة واحذر من النفاق والخيانة
فأنت خصم في القضايا وحكم تهدي الى الحق كما يهدي العلم
وأنت للقاضي أجل مرشد وهو الى التحقيق منك يهتدى
وأنت قاض والقضاة تبع إذا شرحت ما تريد استمعوا
فانظر الى قولك سامي الشان وصنه عن زور وعن بهتان
واعـــلم بأن الله بالمرصاد لمظهر الفساد في العباد

وبالجملة ـ لا مشاحة في ان للقضاء الفضل العظيم والنفع العميم لجميع المخلوقات فهو الهيئة الحاكمة التي تردع الظالم عن ظلمه وتوقف كل واحد عند حده ، فهو الذي ينقذ الابرياء من مخالب الاشقياء ، بل هو الدعامة الوطيدة التي يبنى عليها أساس العمران ويتوقف عليها عمار البلدان واستتباب الامن في كل مكان وزمان

فإذن هو الانفع للهيئة الاجتماعية ، ولا يمكن الاستغناء عنه بحال من الاحوال بخلاف المحاماة فيمكن لرب الامر ان يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه .

١٨٧ - فوائد الصدق ومضار الكذب

الصدق أفضل خصال الإنسان وأوضح دلائل الإيمان وأجل مواهب الإحسان وأكمل نعم الملك الديان وهو دال على جلالة القدر ونزاهة النفس وعلو الهمة وصلاح الشيم والشمائل وبه تمام المكارم والفضائل ، فمن تحلى به فقد أحرز الفضل بكماله وجمع الخير في اقواله وأفعاله ، لأنه اوضح دلائل العقل وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب الى السلامة وأبعد من الملامة واجدر بالغبطة والكرامة وقد وصف المولى به نفسه حيث قال : ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ . وقال ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة » .

الصدق يمن ومنجاة ومحمدة   فيه الكرامة والاقبال والشرف

وأما الكذب فهو أوضع كل خطة وأجمعها للمذمة والخسة وأكبرها ذلاً في الدنيا واكثرها خزياً في الآخرة ، وهو من اعظم علامات النفاق واقوى الدلائل على دناءة الاخلاق والاعراق ، لا يؤتمن حامله على حال ، ولا يصدق اذا قال . قال تعالى : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ . وقال ﷺ : « آفة الحديث الكذب وأعظم الخطايا اللسان الكذوب » .

وقال الشاعر :

لا يكذب المرء إلا من مهانته   او عادة السوء او من قلة الأدب

فالصدق أوجبه العقل وأكده الشرع ، وإن كان لا يوجب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فمن اتخذه سنة كانت له احسن جنة ، وبه يتم الفضل وتكمل المروءة وتنتشر المصالح وتستر القبائح - وان الكذب رمد عين السيادة ومطفىء سراج المروءة والسعادة وموهن قوى الجلالة وساد طريق الإحسان ومحبط عمل الإنسان وهادم بناء الإيمان ، لأنه من الافعال التي لا تقبلها العقول ولا تستجيزها الديانة .

قال بعض الحكماء : الكذب ملجأ الفجار وسبب العثار ، وقلما نجا منه من اضطر الى الاعتذار .

فإذاً من الحق على كل عاقـــل ، والواجب على كل فاضل ، ان يأخذ نفسه باجتنابه وينزهها عن سقطته وارتيابه ، وان يتحرى الصدق وان توقعه ، وان يرفض الكذب وان نفعه .

وبالجمـلة ـ ليس الكذب فضيلة من الفضائل ولا سياسة من السياسات ، كما يفهم بعض المارقين المتملقين وليس ممـا يعلي قدر الإنسان ، بل بالعكس يسقط المروءة ويذهب ماء الوجه ويدل على ضعف الايمان بالله تعالى،فمن اعتاد الكذب اعتاد الناس ذمه وأكثروا من السخط عليه ، كذلك الله تعالى يمهله حـــتى اذا امسكه لم يفلته فإنـــه ظلم نفسه وظلم الناس يجانبه ، لا سيما اذا كان رئيساً من الرؤساء او ممن يفهم فيهم الناس انهم ناصحون امناء ـ قـــال تعالى يصف حال الكذابين : ﴿ يوم تجزى كل نفس بما كسبت ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة ﴾ . وان الكذاب الذي صار الكذب خلقاً له ـ وليس التطبع بالتعود ببعيد ، فان العادة طبع ثان كما قرر الفلاسفة ـ لا إخال باله يصفو يوماً لأنه بعيد عن الحقائق راكب سفينة في موج مضطرب قل ان تنجو به ، وممتط مطية متعثرة قل ان تصل به الى حيث يريد .

قال حكيم :

لي حيـــلة فيمن ينمّـ ـم وليس في الكذاب حيلة

من كان يخلق مـا يقو ل فحيلتي فيـــه قليلة

وفي الحديث الشريف « الكذب رأس كل خطيئة » . ومما روي ان رجلاً أتى الى النبي ﷺ ليدخل في الإسلام فقال : يا رسول الله إني أعمل من الخطايا مـا لا يمكنني ان ابتعد عنه . فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : أتعاهدني على ترك الكذب ؟ قال : نعم . فلما ذهب الرجل وأراد ان يشرب الخمر قال في نفسه أنا ان شربت الخمر وسألني رسول الله ﷺ عنه ، فبمَ أجيب وقد دخلت في الدين ـ ان اجبت بنعم اقام عليّ الحد،وان اجبت بلا فقد كذبت ، وقد عاهدني على ترك الكذب ، اذاً فلأتركنه ، فتركه وكذا بقية الموبقات وحسن اسلامه .

حقاً ان الصدق فضيلة حسنة لا يحصد غارسها في نفسه الا ثمـــاراً طيبة وخيرات جزيلة ـ وقد حث الله تعالى عليه في القرآن الكريم اذ قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله و كونوا مع الصادقين ﴾.وقال يمدح أهله: ﴿ رجال صدقوا

ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصدق منجيك وان خفته والكذب مرديك وان أمنته » .

١٨٨ - مقارنة بين المعلم والطبيب في الهيئة الاجتماعية

ان المولى تبارك وتعالى خلق الإنسان ضعيفاً مجرداً من العلوم والمعارف ، لا يميز بين الغث والثمين، قابلاً لطوارىء العلل والاسقام ، تائهاً في لجج الضلالات والاوهام ، يخبط في أُموره خبط عشواء ، لا يميز بين السراء والضراء ، فمتى وصل ليد المعلمين العلماء ، سلبوا جهله وقادوه إلى الهدى والاهتداء . وأما الاطباء فيصلحون الاجسام من العلل والاسقام بالادوية والعقاقير ،وكلاهما لا يسد مسد الآخر في قيامه بالأعمال المفروضة عليه .

وعلاج الأبدان أيسر خطباً   حين تعتل من علاج العقول

وحينئذٍ لا تفضيل بينهما والحاجة ماسة لكليهما، وإنما التفضيل بمقارنة نتائج أحدهما بالآخر، وهي تقضي بتفضيل المعلم علىالطبيب إذ هو مقوم للروح الحاكمة على البدن ــ ولا ريب في ان الروح أشرف من الجسم وأعلى . كيف لا وان الطبيب حسنة من حسنات المعلمين الاعلام، فمقامهم بين العالم فوق كل مقام ولهم الشرف الأسمى والاحترام .

١٨٩ - وصف الامتحان العام

في منتصف الساعة السابعة من صباح يوم الاثنين دقت الاجراس فاندهشت منا الحواس وتسلط في قلوبنا الوسواس ، من هول محفل الامتحان وما أدراك ما الامتحان، ان هو يوم لا ينفع فيه خل ولا رفيق ولا مال ولا صديق إلا أتى الله بقلب سليم : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

دخلنا الى الخيام وكأننا سقينا كأس الحمام ، وأخذ كل منا مضجعه وعرف كل واحد رقمه وموضعه، ورأينا لجاناً معقودة وأبواباً مسدودة، وقسوة سائلين وتشديد مراقبين ، وطلبة يهمسون ولا يتنفسون ، فاستولى علينا الشيطان

وتحققت الأذهان من الحرمان واستوى الجاهل وذو العرفان والشجاع والجبان في هذا الميدان إلا أني تسابقت تسابق الفرسان في المضمار، وأعربت بكل لسان عن وجوه الاضمار، وثبت قدمي وأطلقت لسان قلمي وحليت الطروس باللطائف وطرزته بالظرائف وكشفت نقاب المعضلات وحللت صعاب المشكلات، فلله الحمد من قبل ومن بعد، إذ رميت السهام لنيل المرام وأصبت المرمى في نهاية الامتحان الذي يكرم فيه المرء أو يهان .

١٩٠ - التاريخ مدرسة عامة

ليس بإنسان ولا عاقـــلاً   من لا يعي التاريخ في صدره
ومن وعى أخبار من قبله   أضاف أعمـــاراً إلى عمره

التاريخ مرآة الأعصر الغابرة والحاضرة، به ينير العقل ويحيي القلب ويلجم الإرادة ويدعو الى المقاصد الحسنة، وهو نور الحق وحيـاة الذكر ومدبر الحياة ورسول القدم - فيــه معرفة أحوال الأمم وبلدانهم وعاداتهم وأعمالهم المادية والادبية وصنائعهم وأنسابهم الى غير ذلك، فيعتبر بأحوالهم الماضية والتنضح بها . قال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ . وقال عز شأنه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مـا نثبت به فؤادك وجاءك في هـذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ . وقال الإمام علي لابنه الحسن رضي الله تعالى عنهما : « أي بنيّ إني وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي فقــد نظرت في أعمالهم وفكرت في أخبارهم وسرت في آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأني بمـا انتهى اليّ من أمورهم قد عمرت مع أولهم الى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله وتوخيت لك جميله وصرفت عنك مجهوله » .

وبالجملة - فالتاريخ أجل العلوم قدراً وأجلاها فيظلمات الحيرة بدراً يكسب صاحبه النباهة حتى يفوق أمثاله واشباهه، فيحوز المراتب العلية ويفوز بالمطالب السنية، إذ به تستنير الفكر والألباب وتعـلم حوادث الأزمنة والأحقاب، وبمرآته مـا دونه الأولون من العلوم والصنائع، ويظهر ما خفى من احوال القرون السالفة وأخبار الأمصار الجامعة وما فيها من الآثار والمنافع، فهو اعظم

مرب للإنسان يدعو الى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل ، فإذاً هو مدرسة عامة تسمو فيها العواطف، وتشرف الاحساسات التي عليها المعول في اتقاء الأمة الى أرفع الدرجات وهو الضامن الوحيد لتهذيب النفوس وتوسيع المدارك .

١٩١ ـ علوُّ الهمة من الايمان

المعالي نــداء الأحرار وتاج الملوك وشعار الأمراء ومنار الفلاسفة والحكماء ومقصد الأدباء والشعراء ، فهي غـاية مطلبهم وجلّ غرضهم ، وكلهم يسيرون إليها كالأسود الظافرة لا يرهبون خطراً ولا يقدمون حذراً .

دعيني أجدّ السعي في طلب العلى فأبلغ سؤالي أو أموت فأعذرا

فللمعالي سبل خطرة حرجة المسلك لا يظفر بها إلا المقدام الجسور ولا يتغلب على عقباتها الى الحر الصبور ورقي الأمم بعلو الهمم .

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قــدم الحذرا

والرجل الخامل ينظر الى المعالي من بعيد ، وهي بين يديه أقرب من حبل الوريد .

إذا ما تمنى المرء إدراك غــاية عليــه بإهمال التقاعد والكسل
فــلا تبلغ الغايات من دون همة ويحظى بهـا الإنسان بالكد والعمل

وأول السبل الى درك المعالي هو الاقدام والتعب ، فالذي لا يقدم على الأمر الخطر بكل عزمه لا يناله والذي لا يتعب في غايته ولا يسقيها من ماء فكرته لن يدركها ، وكيف يرقى العلا من طبعه الكسل .

يا من يسامي العلا عفواً بلا تعب هيهات نيل العلا عفواً بــلا نصب

فلقد جعل الله سبحانه وتعالى الراحة في بساط التعب والمجـد من شامخات المصاعب وتاج العلا على هام المجد المجاهد ـ قال عليه الصلاة والسلام: « لا تأتوني بأنسابكم وائتوني بأعمالكم » .

وقال الشاعر :

دعيني أنل مـا لا ينال من العلا فسهل العلا في الصعب والصعب في السهل

تريدين إدراك المعاني رخيصة ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل
إن كنت تطلب عزاً فادرع تعباً أو فارض بالذل واختر راحة البدن

ثم إن الاقـــدام والتعب لا يصلحان للنجاح إلا اذا رافقتهما حكمة ودراية واستقامة وثبات وصبر وحسن اخلاق .

فقل من جـــدّ في أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فـاز بالظفر

فمن شمر عن ساق عن الجد وجد مفتاح الجد، ومن عشق المعالي عانق العوالي ومن جلب درّ الكلام ، حلب درّ الكرام، ومن ركب الأمل الواسع لم يستبعد المحل الشاسع .

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العـــلا غرضه

١٩٢ ـ وصف الحرب وما تخلفه من المضار والأخطار

الحرب هي باعث الهول والكرب والطعن والضرب ، أولهـــا شكوى وأوسطها نجوى وآخرها بلوى ، وهي خدعة يوم لك ويوم عليك .

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا حميت وشب بشرارها عادت عجوزاً غير ذات جليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

كيف يفعل الانسان فعل الوحوش الضارية فيقتل النفوس البرية ويترك البلاد متخربة خالية ، قتل الانسان مـا أكفره وما أشره وما اصلبه وما اكثر طمعه في ملك غيره وحسده ، فقاتل الله الطمع المجلب للخراب والمسفك للدماء المزهق لأرواح العباد المهدد لشوكة الامارة المدحض لنمو الزراعة والصناعة والتجارة المضعف قوة أسباب الارتقاء المفرّق الابناء من الآباء والآباء من الابناء .

بخلاف السلم فإن به تأمن العباد على الاموال والاولاد ، وترتقي البلاد وتمنح المجـــد والاسعاد وينتشر العمران وتوطد دعائم الامان وتنتظم طرق المودة والوفاق وتنفصم عرى الشقاق .

وبالجملة ـ فالحرب ميدان تسفك فيها الدمـــاء ـ ميدان الكر والفر تمشي

الجنود الى ميدان الحرب وهي تبكي وتتودع من الدنيا نادمين على ما قدمته يداهم من الشر، فرحين على ما جنوه من اعمال الخير يمشون ودمع العين ليس له انقطاع قلوبهم راجفة وابصارهم خاشعة ولسان حالهم يقول : أهذا اليوم الذي سنقف فيه بين يدي الله، ويسأل كل منهم على ما قدمته يداه، لا حول ولا قوة إلا بالله إنا لله وإنا إليه راجعون. واذا تقابل الفريقان وانتشبت الحرب بينهما واشتبكت السيوف واضطرمت النيران واتقدت نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض وزلزلت الاقدام من ولولة الانجاد ورنين القسي وقراع الرماح وأقبلت الآجال تفترس الآمال أمطرت السماء رصاصاً وأظلم الجو واكفهرت السماء وصمتت الألسنة ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب وتلاصقت القنا والقنابل وتعالقت الصوارم والمناصل وبلغت القلوب الحناجر وأدركت السيوف المناصر وضاق المجال وتحكمت الآجال فلا ترى الا رؤوساً تندر ودماء تهدر وأعضاء تتطاير وتتناثر وأجساماً تتزايل وتتمايل حتى ثملت الرماح من الدماء فتعثرت في النحور وتكسرت في الصدور وكثر انين القتلى وجرت انهار من دمائهم تسبح الواحد الديان .

ترى كثيراً من الجنود في ساحة القتال ملقية على الأرض قتلى وجرحى يئنون من كثرة الألم ، ترى الواحد منهم رافعاً يده مشيراً بها على ما اصابه ، واضعاً الأخرى على قلبه متحسراً على ما ناله ، فهذا الشاب كان يفتخر بشجاعته ، وصارت الوحوش تأكل لحمه .

فما ارخص القتل في ساحة القتال وارخص الرجال الشبان واكثر الشرك بالله ـ فبئست الحرب فإنها كلمة ترجف عند سماعها قلوب الملوك وتشيب لرؤياها النشء الأبرياء .

بئست مصائبها ودواهيها العظمى فإنها توقف احوال التجارة وتعطل المعامل والشركات ، وتكثر المشاكل والمنازعات والحروب الداخلية والنهب والسلب والقتل .

١٩٣ ـ أول الحزم المشورة

تأن وشاور فإن الأمو ر منها جليّ ومستغمض

فرأيان أفضل من واحد   ورأي الثلاثة لا ينقض

المشورة واجبة على كل ذي حزم متعينة على كل ذي لب وفهم ، وهي حصن من الندامة وأمان من الملامة ، وأحمد للرأي وأنجح للسعي ، فالمستشير على طرف النجاح ، والمستبد تلعب به الرياح والمشورة مع السداد والسخافة مع الاستبداد قال الله تعالى : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ . وقال ﷺ : « ما خاب من استخار ولا ندم من استشار » . وقال علي رضي الله عنه : « نعم الموازرة المشاورة وبئس الاستعداد الاستبداد » .

وقال الشاعر :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن   برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة   فإن الخوافي قوة للقوادم

فالمشاورة لقاح العقول ورائد الصواب ، ومن شاور عاقلاً أخذ نصف عقله ـ وهي عين الهداية ، وقد خاطر من استغنى برأيه ومن أكثر المشورة لم يعدم عند الصواب مادحاً وعند الخطأ عاذراً ـ وحينئذٍ لا عذر لأحد في ترك المشورة ، وإن كان من اهل العقل والرشاد وذوي الرأي والسداد، فإن المشاور قد يكون له في بعض الأمر هوى ولبعض الوجوه ميل ، فربما جنح الى هواه ومال الى ميله والمستشار إنما يعطيه لباب عقله وصفو رأيه وخالص نظره .

قال بعض الحكماء : من استشار اهل العقول أدرك المأمول .

شاور سواك إذا نابتك نائبة   يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنى ونأى   ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وبالجملة ـ ان في المشورة سعادة عظمى وحياة طيبة . قال تعالى : ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

وقال لقمان لابنه وهو يعظه : « يا بُنيّ اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة الى فعله » . فقال ابنه : كيف اجعل عقل غيري لي ، قال تشاوره في أمرك . وقيل للأحنف بأي شيء يكثر صوابك ويقل خطؤك فيما نأتيه من الأمور وتباشره من الوقائع ، قال بالمشورة لذي التجارب ومحض زبدة الآراء .

وقد قيل لرجل من عبس : ما أكثر صوابكم ، قال : نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم .

وقال الشاعر :

الرأي كالليل مسود جوانبه ... ما الليل لا ينجلي إلا باصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال الى ... مصباح رأيك تردد ضوء مصباح

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : في المشورة سبع خصال استنباط الجواب واكتساب الرأي والتحصن من السقطة ، وهي حرز من الملامة ونجاة من الندامة وألفة للقلوب واتباع للأثر ، ولكننا الإنسان لا يشاور كل أحد ، بل من كان فيه ذلك غير أخذ رأي جاهل وعدو وحسود ومراء وجبان وبخيل وذي هوى .

فالمرء إذا شاور اخوانه في شؤونه اغناه ذلك عن كثرة التجارب ، ووفر عليه جزءاً كبيراً من أوقاته ، وأظهر له صديقه من عدوه ، وما شرعت تلك الفضيلة في الدين إلا لحكمة عمرانية قد ظهرت جلياً منذ ظهور الإسلام ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأخذ آراء أصحابه في الأمور المهمة ـ إذ من الثابت انه استشار في أساري (بدر) فأشار أبو بكر بالفداء وشار عمر بالقتل ، فعمل برأي أبي بكر ـ وكذلك الصحابة كانوا يتشاورون .

ولم نرَ المجالس الشورية الرسمية التي أصبحت الأمم تتغنى بها إلا من الإسلام ومن قاموا بالأمر بعد رسول الله ﷺ ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بتأسيس مجلس شورى بعد موته لينتخب من يكون أميراً . وقد انتخب عثمان رضي الله عنه ولم يقطع دابر الاستبداد ويضرب على أيدي المستبدين الطاغين إلا الشورى التي قيدت كل مطلق ـ وها هي الأمم قد أصبحت تحكم نفسها بنفسها ، وتقترح على حكوماتها ما شاءت ان تقترح موسطة في ذلك المجالس الشورية، ولو حافظ الشرقيون على هذه الدعامة الكبرى والأساس المتين لما تفوض مجدهم ولا سقطت دولهم .

١٩٤ ـ الزراعة وفوائدها

الزراعة هي الأم المغذية والمادة المقوية لنوع الإنسان وسائر أنواع الحيوان

فهي مادة الحياة وروح المدنية وقوام الحضارة . قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيء وهو الذي أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله ـ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ـ وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما من مؤمن غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة » . وقال أيضاً : « التمسوا الرزق من خبايا الأرض » .

وقال الشاعر :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر ولرفعة شأنها وعظيم مزيتها اعتنى بها قدماء المصريين حتى أنهم لم يدعوا قيد شبر من أرض الا عمروه بالزراعة ـ وذكر المؤرخون انه قد كان من أُصول دولة الفرس ان يبرز الملاك بجلالته مع أعيان اهل دولته ويباشر حراثة الارض بنفسه في أول يوم من أيام السنة تنويهاً بشرف الزراعة وتنبيهاً على ما يقتضي لأهلها من التشويق والشجاعة .

وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه : أتغرس بعد الكبر، فقال : لأن توافيني الساعة وأنا من المصلحين خير من ان توافيني وأنا من المفسدين ـ وقيل لأبي الدرداء وهو يغرس جوزة : أتغرس بعد الكبر وأنت شيخ وهي لا تطعم الا بعد عشرين سنة او ثلاثين، فقال: وما على الا ان يكون الأجر لي والهناء لغيري.

وقيل : فلاح المعيشة في الفلاحة .

١٩٥ ـ النباتات والأشجار وأهميتها عند جميع العالم

من نعم الله التي لا تحصى ولا تكاد تستقصي النباتات التي منها الاقوات والادوية والفواكه والملابس والزينة والعلف والرعي والحطب للوقود والاخشاب للعمارة وانشاء السفن وغير ذلك من الاعمال التي يطول تعدادها ومنها الورق والأزهار والاصول والعروق والفروع والصموغ لضروب من المصالح ـ وقد أودع الله فيها من البركات ما صير الحبه الواحدة تختلف مائة حبة وأكثر من ذلك وأقل، وجعل الاشجار والثمار والازهار مختلفة الالوان والاشكال والطعوم

والروائح فتجلي عن القلوب دونهـــا عند مشاهدتها ، وتنشرح الصدور برؤيتها وتنتعش النفوس لرونق بهجتها ـ ففيها منافع مختلفة التأثير منها ما تقوى بـــه القلوب، ومنها أغذية تحفظ الحياة ، وجعلها مطعومة لذيذة عند تناولها ، وخلق فيها بذوراً لحفظ نوعها تزرع عند جفافها وانفصال وقت نضارتها .

ومن حسنات الارض على بني الانسان التي أبرزتها الزراعة في تلك الاشجار التي شابهت الإنسان في اطواره ونشأته ، حتى اذا انضجت واستوت على سوقها وتفرعت اغصانها امدت الإنسان بكثير من الفوائد وجزيل من المنافع ، يجني الإنسان منها الثمار التي يتفكه بها ، مما لذ طعمه وطاب جناه (صنوان وغـــير صنوان يسقى بمـاء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل) . وأزهاراً يانعة ذات عرف شذي ورائحة زكية يستخرج منها المياه العطرية ويستعمل بعضها في الادوية الطبية مما يكون شفاء للأمراض ومريحاً للعلل ، ومنها تتكون الحدائق الغناء فترى الاشجار فيها وارفة الظلال قـــد تمايلت اغصانها واهتزت افنانها واينعت ازهارها ودنت قطوفها تضوع المكان بطيب نشرها وتنعش النفس برونقها ـ فإذا هب النسيم وتمايلت الاغصان تعطرت الارجاء وتمثلت الجنان في الرياض ، وبها يستظل الإنسان من الشمس فتقيه حر الهجير ـ وتغرس في حانتي الطرق لهذه الفائدة فتكسبها رونقاً وزينة وتلطف هواءها وتنقي جوها ، فما دامت قائمـــة على ساقها تمد الإنسان بالمنافع المختلفة والفوائد المتنوعة حتى إذا انقضى أجلها قطعت منها أخشاب ذات فوائد عظيمة تستعمل في الأبنية والمنازل والأدوات المختلفة التي لا يستغنى عنهـا في مكان وتصنع منها السفن التي تمخر في البحر وتشق بحيزومها عباب المـاء ، وتكاد شراعها تصافح السحاب فتسير في البحار وهي الجوارى المنشآت في البحر كالاعلام تحمل في جوفها الناس والبضائع وتنقل الاخبار من مشارق الارض الى مغاربها ، كما يستعمل الخشب في الوقود ـ وغير ذلك من الفوائد التي تمتع بها الإنسان وقضى منها مآربه .

١٩٦ ـ البخار سر رقي العالم المتمدين

ان قوة البخار شاملة أهم الصنائع والاشغال ، ونشاهد قدرته الباهرة ـ من ذلـك سير البواخر البحرية وقطر السكك الحديدية والطابع والعمل في المناجم والغزل والنساجة وغير ذلك .

فلاستخدام البخار في السفن وحدها قيمة لا تعد لهـا قيمة إذ أغنتنا ا
البخارية الآن عن الرياح واختلاف الفصول فصلاً عن اسعافها لنـــا على
المسافات بسرعتها الفائقة .

وللبخار أيضاً عمل يذكر في الاسفار البرية فيحمل الإنسان على جناحه براحة وسرعة يعجب منها، وقد أحيا مدناً وأمصاراً زاهرة،وحاك للبشر المنسوجات ووفر البضائع فهبطت أثمـانها ونقلها براً وبحراً بأجرة رخيصة ، ووصل بعض البلاد ببعضها صلة موثوقة العرا ، وأراح الناس من أتعاب لا حد لهـا ولا نهاية ، ووزع في الوقت نفسه الاشغال والاعمال على جموع وجماهير تعد بالملايين .

تلك قوة لا يعتريها الكلال ، فتدأب في العمل نهاراً وليلاً إذا غذيك بالوقود وتقوم بوجباتها قياماً دقيقاً،وقد أمست الآلة البخارية مسعفة للإنسان ومساعدة له في جميع أحواله ، فلابدع إذا قلنا أن البخار رقي بالعـــالم المتمدين الى زروة المجد والفخر .

وبالجملة ـ ان البخار هو القوة العظمى التي ظهرت منها العجائب وبدت فيها الغرائب، فتكاثرت بها أعمال الصناعة وأخصبت أرض الزراعة وراجت أسواق التجارة واتسعت طرق الثروة وكثرت أنواع الخير والنعمة ـ من ذلك الآلات البخارية التي تروي مقداراً عظيماً من الأرض مـــع السهولة والراحة ، وبذلك تضاعفت ثمرتهـــا ومنها قطارات السكك الحديدية والسفن البحرية والطواحين والآلات البخار التي تدار بها معامل المصنوعات والمنسوجات والمطابع وغـير ذلك من ثمرات البخار وقوته التي تحـــار في وصفها الافهام وتعجز عن حصرها الأقلام .

١٩٧ ـ التجارة وفوائدها

التجارة تاج الأمارة وينبوع البركات والأرباح وتوفيقات بها تزيد ثروة البلاد وتتوفر أسباب التنعم للعباد. قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنو لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ . وقـــال ﷺ : « أطيب ما يأكل الرجل من كسبه والكسب في القرآن التجارة » وقال عليه الصلاة والسلام: «التاجر الصدوق مع

النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ». وقال عليه الصلاة والسلام: « تسعة أعشار الرزق في التجارة » .

وقال الشاعر :

كن تاجراً حراً بأي مال ... ولا تكن مستخدماً بحال
وكن إذا تاجرت ذا ادارة ... لتدرك الربح من الخسارة
واجتنب الربا وصنع الغش ... فإن مولاك شديد البطش
فـان بالتجارة الأناما ... نالوا المنى وحصلوا المراما
فهي قوام الملك والعباد ... في كل موطن وكل ناد
وهي لعمر الحق لولا الخطر ... أول ما بـه الفتى يفتخر
لا سيا مع العفاف والشرف ... وصون رأس المال من داعي التلف

حقاً ان التجارة لجديرة بمزيد الاعتبار ، فإن فيها غنى لأولى الأبصار ـ ولذلك نرى الأمم التي في مقدمة التمدين حريصة على جميع مـا ينمي أسباب التجارة ويزيدها اتساعاً وازدهاراً ومهارة .

هذه دولة انجلترا ما نالت نفوذها في كثير من المالك الشرقية إلا بتجولها في البحار للتجارة ، ولأهميتها قد اعتنت الأمم الغربية بتلقينها لأبنائها في مدارس خصوصية انشئت لهذا الغرض .

وبالجملة ـ التجارة لها تأثير جلي وسبب قوي على التمدين والخيرات في جميع الأوقات ، لأنها رسول التعارف ومنهل التآلف تزيـد البلاد في المال نمواً ورفعة وعلواً ، وبعـد ما تكون فقيرة حقيرة تصبح غنية خطيرة ، ثم انه يلزم التاجر رأس مال كاف لعمله وان يختبر أولاً الاصناف التي يريـد ان يتجر فيها ويخالط أهلها ويعرف مصدر ورودها ومقدار اللازم منها وما يلزم لها من العمال الاصدقاء ويخصص لها مكاناً تروج فيه ويرتبها ترتيباً سهل التناول ويرصدها في دفاتر سهلة المراجعة ، ولا يستدين أكثر ممـا يمكن أن يقوم بوفائه في مواعيد سداده ، وألا يبيع بالدين إلا لكل مؤتمن موثوق به في حسن المعاملة .

سبل المعيشة في الحياة كثيرة ... وعظيمها عند الرخاء تجـارة
فهي الشهامة والكرامة في الورى ... والمرء في دار الحيـاة كرامة

لا خـــير في عيش إذا لم ترعه	عنـــد التناول في المقام سلامة
وبها يعيش المرء حراً سالمـــاً	لا يعتريه من السخيف ملامة

١٩٨ ـ الصناعة راية الأمان لسعادة الأوطان

المعارف تتنوع حسب مواضيعها ، فمنها ما يحسب مركزها الخصوصي النفس الإنسانية الخالدة،وهذه تسمى المعارف الدينية ومنها ما يعد مركزها الخصوصي العقل البشري وهـذه تسمى المعارف العلمية ، ومنها ما يختص بالقوى الجسدية والحواس وهذه تدعى المعارف الصناعية ، وهي أفضل وأجـل الوسائط لتقدم البلاد ونفع العباد ، ودعامة الحضارة وارتقاء الإمارة ، وتوطيد مركز الإدارة ومنبع الثروة والغنى وغاية التقدم والمنى، بل روح العمران وتاج السلطان وحمى الأوطان وراية الأمان في كل زمان ومكان ـ وقد قيل : صناعة في اليد أمان من الفقر وحرفـــة المرء كنزه ـ وقال الإمام عمر بن الخطاب : إني لأرى الرجل فيعجبني ، فأقول هل له حرفة ، فإذا قالوا لاسقط من عيني .

أفادتني الصناعة كل عز	وهل عز أعز من الصناعة

وللصناعة الأسبقية (عدداً) لكثرة فروعها ووفرة معداتهـــا ونتائجها ، والأسبقية (رتبـــة) بالنظر الى سعة علومها ويانع أثارها ودقة أُصولها وسمو درجاتها ، ولها من طول الباع في اسعاف مـــا سواها من المهن ما يعزز مقامها ويؤيد شرفها مدى الأيام ، وكل بلاد تروم التقدم والارتقاء أدبياً ومادياً تجد ان المفتاح لما ترومه الاعتناء بالصناعة .

إن الصنائع والفنون كلاهما	ممـــا به الإنسان قدراً يرفع
وهما الوسيلة للسعادة فاشتغل	بهما فإنك للبـــلاد ستنفع
واختر لنفسك ما يكون صنيعة	حسناً فقيمتك التي قـد تصنع
ودع التكاسل والبطالة إنهـــا	سبب يعوق عن المعاش ويمنع

١٩٩ ـ المطر وما يحدثه من المنافع للعباد

المطر هو قطرات الماء الحاصلة من البخار الذي يصعد الى الجو فيصير غيوماً وسحباً تسوقها الرياح بين القبة الزرقاء وسطح الأرض علىأبعاد مختلفة ـ وعندما

تبلغ هـــذه الغيوم والسحب بعد ميل أو ميلين ارتفاعاً تبرُد وتنخفض درجة حرارة الهواء فلا يستطيع حملها فتجتمع دقائق هذه السحب منضماً بعضها إلى البعض الآخر ، فتتكون منها قطرات المطر فتسقط لكونها أثقـــل من الهواء الكروي والغيوم في الجو عند سيرها كثيراً ما تصادم رؤوس الجبال ، وأحياناً تتغير جهة سيرها أو تصب ما فيها من البخار مطراً على رؤوسها وجوانبها .

وقد يحدث المطر أيضاً من مصادفة السحب مجاري رياح درجة حرارتها أو طي من درجة حرارة الغيم السابح ـ وكثيراً ما تجمد الأمطار عند انحدارها بسبب شدة البرد فتنزل برداً أو ثلجاً فسبحان الخالق العظيم .

٢٠٠ ـ الماء حياة جميع العالم

مما أنعم الله به على عباده الماء العذب الذي به حياة كل من على وجه الأرض من حيوان ونبات . قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفـــلا يؤمنون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء مباركاً ﴾ .

وقال الشاعر :

وعارض مبتسم قد استهل	ومدّ أطناب الغمام وأظل
حتى إذا أثرى الثرى من وبله	وأخصب الحدب تولى وارتحل
كم أنزل الله لنـــا من رحمة	ومن حيـــاة بحياة إذا نزل

فهو الذي أغاث الأنام وأروى الهضاب والآكام وأحيـــا النباتات والسوام ، وجعله مزيلاً للأدران عن الأبدان والأوساخ عن الثياب والمكان .

وبالماء يبل التراب فيصلح للأعمال والبناء ، وبه يرطب كل يابس ويستعين به كل زارع وغارس وتطفأ به النيران ويرتوي به الظمآن والعطشان من إنسان وحيوان في كل زمان ومكان وتصلح بـــه المطبوخات ـ وغير ذلك من جميع الموجودات ـ تلك حكمة الحكيم العليم فسبحانه وتعالى المتفضل العظيم .

وبالجملة ـ فالماء من أجل النعم الإلهية وأعظم المنن على كافة البرية التي لا تقدر ان تقوم بشكر المنعم عليها بعشر المعشار ولو أنفذنا في ذلك الأقلام والبحار ـ فقـــد جعله الله تعالى حياة كل شيء ، وجعل نفعه عاماً للكل موجود ولم يجعله ملكاً لأحد من الوجود .

ولذا امتن الله بـه على عباده امتناناً في الكتاب مسطوراً . فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ . فيه يزول ظمؤنا ، وبه يعود ما ينقص من كمية الماء في الدم بسبب التبخير والتبول وباقي الافرازات .

٢٠١ - الحيوانات وما يبعث الانسان على الرفق بها

خلق الله لنا الحيوانات لتساعدنا في أحوالنا المعيشية ، وقد علم الله ان بالناس حاجة الى أعمالها وهم لا يطيقون اعمالها ولا يقدرون عليها - ولو كلف الله العباد القيام بأعمالها لأجهدهم ذلك واستفرغ قواهم ، فـلا يبقى فيهم فضيلة لعمل شيء من الصناعات والمهن التي يخصون بعملها - وقد سلب الحيوانات العقل والذهن لتذل للإنسان - فمنها مـا نركبه ونحمل عليه الأثقال ونستعمله في جرّ العربات وحرث الأرض ودرس الحب . قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ . ومنها ما نتخذ منه أقواتنا من اللحم واللبن وما نصنع منه ملابسنا وأغطيتنا وفرشنا بما يخرج منها من الأصواف والاوبار والاشعار ، وغير ذلك . قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مـا فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون - وهو الذي سخّرَ البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ .

وإذا كان الأمر كما ذكر فالواجب شرعاً ان نرفق بها ونشفق عليها ولا نحملها ما لا تطيق ونطعمها ونسقيها مكافأة لها على ما تجود به علينا من الاعمال النافعة كل وقت . قال تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لـكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولـكم فيها جمالٌ حين تريحون وحـين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ﴾ . وجعل لـكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم طعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً الى حين .

٢٠٢ - أنجزَ حرٌ ما وَعد

حقاً ان الوفاء بالوعد من أفضل شمائل العبد وأوضح دلائل المجـد وأقوى دواعي الإخـلاص والود ، وأحق الأفعال بالشكر والحمد وهو أصل المودة والصفاء وثمرة المحبة والاخاء . قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهـدتم ولا

تنقضوا الايمان بعد توكيدها ـ وأوفوا بالعهد إنالعهد كان مسؤولاً ـ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام : « آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » .

وقال بعض الحكماء : من لقي الله بلسان صادق وعامل الناس بحسن الأخلاق وألزم نفسه رعى العهود والمواثيق ، فقد أرضى المخلوق والخالق وأدرك الفضل في كل سابق .

وما أصعب نكث العهود وأقبح تضييع الحدود وأكبر عصيان الخالق المعبود . قال تعالى : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » .

وقال الشاعر :

فإن جمع الآفات فالبخل شرها	وشر منالبخل المواعيد والمطل
لا خير في وعد إذا كان كاذباً	ولا خير فيقصد إذا لم يكنفعل

وقيل : وعد كالوعيد بمطل شديد يشيب الوليد ، سحائب الصيف أثبت من قوله ، والخطر في صفحة الماء أقوى من عهده ، ومواعيد عن نوب أقرب الى الانجاز من وعده .

إذا قيل في الناس خليل فقل نعم	خليل اسم شخص لا خليل وفاء
وإن قيل في الناس جواد فقل نعم	جواد ركوب لا جواد عطاء

وقال بعض الحكماء : من نكث عهده ومنع رفده وأظهر حقده فلا خير عنده .

وبالجملة ـ أجمعت الأمم واتفقت الشرائع على انه لا نكث لعهد بعد إبرامه ولا نقض لعقد بعد إحكامه ، وهو أس مهدت عليه قواعد الإيمان وبنيت عليه أركان الإحسان وبه صلاح الخلائق وعليه مدار الحقائق ، وهو أمرٌ قبله العقل وصدقه اللسان ، لو نبذه الناس لأصبحوا فوضى وعادت سماؤهم أرضاً وأمسى عقد الحق محلولاً وصارم الصدق مغلولاً ودم التناصف مطلولاً ، فمن حفظ عهده وحافظ عليه ، فقد أسرع الى الخير ووصل اليه .

ثبتت على حفظ العهود قلوبنا إن الوفـــاء سجية الأحرار

٢٠٣ ـ الرشوة وأثرها في تهديد الأمن والعام

قد تقرر في عقول جهلة العوام ان الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الأصول المتبعة او يخل بالأمن والسكينة او يهتك حرمات الحقوق اتكالاً على مـا يضمره في نفسه من الرشوة كافية للنجاة من العقاب او الحصول على غرضه بأي وجه كان ـ وقد غلب على عقول العامة ان كل صاحب وظيفة لا يصح ان يقضي أمراً في مصلحة لأحد إلا بالرشوة ، ولذلك يرون ان من الواجب على من التمس إنجاز أي عمـــل يتعلق بمصلحة ان يقــدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعثه على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لمـا تطالب به واجبات المصلحة التي أنيطت بذمته ، ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لا تشمئز منها طباعهم ولا يستنكرها أحـد منهم ، بل كادت ان تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل.

ومن الناس من تكون حقوقــه بينة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم او تدليس محتال ، ولا يكتفي بذلــك في اقتضائها فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع إليه تخليص حقه غنيمة باردة ـ وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع إليـــه في قبولها منه لظنه أنه لا نجاح بدونها ، وليس ذلك إلا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء الهمم تقرباً لذوي المناصب وتذللاً خبيثاً لا يجوزه الشرع ولا قانون البلاد،وتنفر منه كل نفس ذي إحساس إنساني مع ان حفظ الاموال من الضياع في مـــا لا ينبغي وصرفها في وجوهها الضرورية أليق بفعل العقلاء وأصون لحرمات القانون وأبعـــد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة ـ وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة .

٢٠٤ ـ آثار منافع الصبر ومضار القنوط واليأس

الصبر أصل تفرعت منه فروع البر والإحسان ، وأس بنيت عليه قواعـــد الطاعة والإيمان ، وهو حصن منيع المكان مشيد البنيان وجنة واقية وعزة باقية وقطب كرة الأمور وعليـــه جميع الاحوال تدور ، فليس شيء من الفضل إلا

والصبر سببه وإليه منتسبه . قال تعالى : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « الصبر كنز من كنوز الجنة » .

وقال الشاعر :

وقل من جد في أمر يؤمله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

وجميع خلال الخير وخصال البر واحوال الطاعة ، وما جعل الله في الإنسان من حسن الشيم وكرم الأخلاق وأسباب الديانة وداعي الإيمان ، إنما هي كلها مرتبطة بالصبر ، كيف ما تأملتها وعلى أي حال تدبرتها ، فحينئذٍ جميع احوال الدنيا كلها من السراء والضراء مفتقرة الى الصبر راجعة اليه سواء أكانت النفس راضية اليه ام كارهة له .

واما القنوط فهو خلة ذميمة وخصلة سقيمة يوهن القوى الجسمية ويميت القلب ويعظم الخطب ويضعف النفس ويورث اللبس ويدل على فساد الطبيعة ويبعث على مخالفة الشريعة ، ولا يسكن إلا القلوب المعتلة ولا يألف إلا العقول المختلفة ، فويل للهلوع الجزوع ، ما اتعس حياته واكثر آفاته يقل صبره لما ينزل ويسوء ظنه بما يستقبل ،فلا يزال اخا فكر ووجل عمره متصل بالنكد والخجل .

قال لقمان لابنه : « واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الأمور » . فإن الإنسان اذا اطاع نفسه واهملها واسلمها ليد الجزع واغفلها ولم يحملها على الصبر فيما دهمها فقد بخسها حقها واحرمها وهانت عليه وما اكرمها فسكنت الى الجزع وامتنعت من السلوان ـ وقالت الحكماء : من قل صبره وعظم عليه امره وضاق عن حمل ما نزل به صدره ، فقد تبين كفره ـ لأنه لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس .

ضجر الفتى في الحادثات مذمة والصبر أليق بالرجال واوفق

٢٠٥ ـ في التأني السلامة وفي العجلة الندامة

لا تعجلن بأمر انت طالبه فقلما يدرك المطلوب بالعجل
فذو التأني مصيب في مقاصده وذو التسرع لا يخلو من الزلل

إن التأني في العمل دعامة النجاح ومصدر الفوز والفلاح ومحور الحزم وعضد العزم وحسن السلامة وصراط الاستقامة بـــه تسود الممالك وتنجو من العطب والمهالك . قال الله تعالى : ﴿ يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام : « من تأنى اصاب او كاد ـ التأني من الله » . وقيل من تأنى نال ما تمنى ، وقيل يد التأني تجني ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجر الندامة .

وقال الشاعر :

الرفق يمن والأناة سعادة　　　فتأن في امر تلاق نجاحاً

وما اتعس العجلة والاسراع في الامور ، فكم بذلك اندثرت مدن وقصور ، وما اشق من ارتدى برداء الاستعجال ولم ينظر الى ما وراء ذلك في الاستقبال من تقلبات الاحوال .

وقد نهى المولى عن العجلة فقال : ﴿ اتى امر الله فلا تستعجلوه ﴾ . وقـــال عليه الصلاة والسلام : « العجلة من الشيطان ومن تعجل اخطأ او كاد » .

وقال بعض الحكماء : من استعجل في امر قبل اوانه ، عوقب بحرمانه .

قـــد يدرك المتأني بعض حاجته　　　وقد يكون مع المستعجل الزلل

ومن تأمل بعين البصيرة في حكمة خلق المولى تبارك وتعالى العالم في ستة ايام مـــع كونه قادراً ان يخلقها في اسرع من لمح البصر يرى مزايا التأني الواجب شرعاً اتباعه .

٢٠٦ ـ الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك

ولا اؤخر شغل اليوم عن كسل　　　الى غد ان يوم العاجزين غـــد

نعم ، ان الوقت سيف قاطع وبرق لامع ومن الحزم انتهاز الفرصة وترك التواني فيما يخاف فيه الفوت .

وانتهز الفرصة ان الفرصة　　　تصير ان لم تنتهزها غصة

ومن اعظم المصائب فوات الوقت بلا فائدة واكتساب عائدة . قال تعالى :

﴿ وانفقوا مما رزقناكم من قبل ان يأتي احدكم الموت فيقول رب لولا اخرتني الى اجل قريب ﴾ .

وقال بعض الحكماء : اغتنم بياض النهار قبل العشية .

وقال الشاعر :

إذا ضيعت اول كل امر ابت اعجازه إلا التواء

فالعمر قصير وترتيب الأوقات يطيله والناس مبصرون ، ولكنهم عن قيمة الوقت عميان .

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا

فمن اتخذ اليقظة نبراساً وانتهاز الفرصة اساساً ، هانت عليه عظائم الأمور وعظمت مهابته في الصدور ، وخف عنه عبء الصعاب وانفتح له من الخيرات كل باب .

ومن نبذ انتهاز الفرصة ، فلا شك انها تتقلب عليه غصة ويقع في حيرة لا يدري كيف العمل ، وقد سبق السيف العذل ، لأن الماضي لا يرد والمستقبل ليس في اليد .

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فالزمان اذا مرّ على الإنسان بدون فائدة ، ولا اكتساب عائدة لا يحسبه العاقل من عمره ويظنه الجاهل من سعده وخيره .

اذا فإنني يوم ولم اصطنع يدا ولم اكتسب علماً فما ذاك من عمري

قال حكيم : لا تؤخرن عملاً عن وقته فإن للوقت الذي تؤخره اليه عملاً آخر ، ولست تطيق ازدحام الأعمال لأنها اذا ازدحمت دخلها الخلل .

وبالجملة – ان ضياع الوقت لا يوازيه شيء آخر سواه مهما كان نفيساً فاذا فرطت في متاع عزيز او تحفة ثمينة امكنك استردادها بضرب من ضروب الحيل اما اذا فرطت في ساعة من عمرك واضعتها بدون ان تكتسب فيها خيراً او محمدة لا يمكنك استرداد تلك الساعة ولو بذلت في سبيلها ملء الأرض ذهباً . فالوقت اذاً اثمن من الذهب والجواهر الكريمة واعز من كل غال نفيس .

حياتك رأس المال والعلم ربحه | واخلاق اشراف بهن تصدر
وموسمك الأيام فلتك حازماً | والا فذو التفريط لا شك يخسر
ومن ضيّع الاوقات ضاعت حياته | وعاش فقيراً جاهلاً ليس يشكر
ودع غائباً من فائت ومؤمل | فوقتك سيف قاطع ليس يعذر

٢٠٧ - أيهما أقوى نفوذاً سلطان الحاكم أم سلطان الدين ؟

ان راحة المجتمع الإنساني وتقدم العمران معقودان بحافظين :

احدهما : الوازع الباطن وهو (سلطان الدين) .

وثانيهما : الوازع الظاهر وهو (سلطان الحكومة) .

أما الوازع الباطن فهو سائد على كثير من عباد الله، وإليه يستند كل ما نجده من الخير في العبادات والمعاملات ، إذ هو المظهر الحق للناس المبين لهم الطرق المؤدية لخيري الدنيا والآخرة ، فيميزون بين الحسن والقبيح ويفرقون بين السقيم والصحيح ، ويستحضرون خالقهم في السر والجهر ، فيديمون لبعضهم الائتلاف والإخاء والاخلاص والولاء، ويسعون جميعاً فيما به طيب حياتهم وتشييد ملكهم لأن الجامعة الدينية أهم اسباب سعادة الأمم وتقدمها، ولكن يا للأسف قد اعتل في صدور من اذا عرضت لهم الشبهة ترددوا ، وترحل عن صدور ادعياء العلم الذين لن يوجد أبعد منهم عن الصواب في هذه المسألة . وبالأسف أننا قد ابتلينا بضعف سطوة الوازع الديني وخذل قوته ووهن شوكته فنحن إذاً في زمن احد الوازعين فيه عليل وهو سلطان الدين .

والآخر صحيح وهو سلطان الحكومة .

وهذا الوازع الصحيح هو في اصل طبيعته لا يبصر ما يبصر ذاك ، ولا يتوصل الى ما يتوصل الى معرفته من الحوادث السرية والوقائع الخفية ، وشتان ما بين الغائب والشاهد - فكيف بـه وقد صار ملتزماً ان يسد مسد اخيه عند من لم يبق لهم والعياذ بالله وازع الباطن .

٢٠٨ - الكرم يبعث على ارتياح في نفوس الكرام

إن الكرم اسم واقع على كل نوع من انواع الفضل ، ولفظ جامع لمعاني

السماحة والبذل ، فالجود فعل محمود وعز موجود ، ومن جاد فقد ساد . قال تعالى : ﴿ ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « السخاء شجرة من شجر الجنة اغصانها متدلية الى الأرض فمن تعلق بغصن من اغصانها ادخلته الجنة ، ألا وان السخاء من الإيمان والإيمان في الجنة » .

بخلاف البخل فإنه أدنى خلة وأودى علة . قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شراً لهم ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أعوذ بك من البخل » .

وقال الشاعر :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري فليس الى مـــا تأمرين سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيـــلاً له في العالمين خليل

وقال بعض الحكماء : ثواب الجود ثلاثة خلف ومحبة ومكافأة وثواب البخل مثلها تلف ومذمة وحرمان، وقال آخر: لو كان شيء يشبه الربوبية لقلت الجود وقال عليه الصلاة والسلام : « البخل جامع لمساوي القلوب ، وهو زمام يقاد به الى كل سوء » . وعنه أيضاً انه قال : « السخي قريب من الله وقريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ــ ولجاهل سخي أحب الى الله من عابد بخيل » .

وقيل : ذللوا أخلاقكم للمطالب وعودوها على المحامد وعلموها المكارم وتجلوا بالجود يلبسكم ثوب المحبة، فمن جاد ساد ومن ساد شاد ، وخير المال ما أفاد حمداً ونفى ذماً وصان عرضاً وأدى فرضاً .

وقصارى القول ، ان الجود وصف حميد لا يدرك شأنه وكاله ولا يبلغ المديح غاية حسنه وجماله .

لنعم الجود ساتر كل عيب وبئس البخل كشاف العيوب

وكم مدحت بـــه رجال وأحيا ذكرهم على مرّ الأيام والليالي فمن هو حاتم وكعب بن امامة ومعن بن زائدة والفضل ويحيى وغيرهم ممن دمرهم الدهر ، لولا ان الجود حفظ ذكرهم ونقش أثرهم على صفحات الأيام وضرب بهم الأمثال لنسخ ذكرهم من الألسنة .

والبخل كشاف المعائب فضاح المثالب يجعل صاحبه مضغة في أفواه المذام وسبة في ألسنة الخواص والعوام .

٣٠٩ - رضاء جميع الناس غاية لا تدرك

ولقد طلبت رضى البرية جاهداً — فإذا رضاهم غـــاية لا تدرك

إن من الناس من يتقلد أسنى المراتب وأسمى المناصب ويحكم السياسة ويرأس الرياسة ويراعي فيهما ارضاء الخالق والمخلوق ولا يلهيه نعيم الصفاء وصفاء النعيم عن تعهد الضعيف وتفقــد اليتيم وعن اسداء المبرات الى ذوي الحاجات واستماع شكوى المظلوم واستطلاع دعوى المهضوم ، حيث يعـلم ان احب الناس الى الله انفعهم لعباده وأكيس الكيسى من عمل لمعاده ، وان من ولي الأمور وجب عليه اسعاف الجمهور بدون تفرقة بين الخامل منهم والمشهور ، فمثله مثل الربان الذي يدخر الزاد في سفينته ويحكم السكان ولا يبحر إلا على امان ولا يرسو إلا وهو ذو اطمئنان .

أجل - ان احوال الإنسان في معاشه تشبه السفر في البحار إذ هي محفوفــة بالأخطار والأكدار ، فبينما يكون فيها رخي البال مغبوط الحال ذا اعوان ومال إذ بالزمان قد أخنى عليه فالتفّت به كوارثه وشملته حوادثه حتى تكاد تنضب عنه مزاياه وتشين سجاياه فيخيل للناس ان تلك الرئاسة التي نالها والمعالي التي طالها ، إنما كانت عرضاً واتفاقاً وانها كانت عارية عنده لاخلاقاً ، وان في وسع كل انسان ان يدركها مثله اذا ساعده الزمان ، إذاً فلا غرابة في انه لا يتأتى لأحــد ولي الرئاسة ، وان انتهت اليه الشهامة والكياسة ان يرضي جميع الناس ويستخلص مودتهم له من دون التباس ، فإن اغراض الناس متفاوتة متباعدة ومقاصدهم متباينة متعاندة واهواءهم كهبوب الرياح لا تستقر على حـــال من الاحوال .

إذا رضيت عني كرام عشيرتي — فــــلا زال غضباناً على لئامها

ومنهم من يتقلد المناصب عفواً وهو غير مترشح لها ، فتجمح بـه الى حيث تلتوي عليه الأمور وتتجاذبه جواذب المحذور من المقدور ، فيخبط خبط عشواء وتطوحه الاهواء كيفما يهوي ويشاء .

٢١٠ - أيها أهنأ للمرء الصحة أم الثروة

الصحة أجل النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان وارفعها مقاماً ، اذ بها يطيب العيش ويهنأ البال . قال عليه الصلاة والسلام : « اذ اصبحت معافاً في جسمك آمناً في سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء ».فالصحة لا يوازيها مال ولا يقوم مقامها عز ولا جاه ، لأنها الاصل الذي تتفرع عنه الاعمال ، والاساس الذي تبنى عليه الخيرات . قال عليه الصلاة والسلام لرجل كان يستمر في الصوم : « ان لبدنك عليك حقاً » .

وقال بعض الحكماء : الزم الصحة يلزمك العمل - وماذا تجدي الثروة اذا اصبح الإنسان في آلام ، وماذا يفيد المال اذا وهنت الاجسام .

لا استلذ العيش لا أدأب له   سعياً وكذا في الهواجر والغلس
وأرى حراماً ان يؤاتيني الغنى   حتى يحاول بالعناء ويلتمس

فالصحة هي عين الغنى التام وظلال الامان والسلام . قال عليه الصلاة والسلام : « ما رأيت أهنأ من العافية » .

وقد قال بعض الحكماء : ان من أهم شروط النجاح في دار الدنيا ان يكون الإنسان قوي البنية ومن أهم شروط عزة الأمة ان تكون افرادها اقوياء ، لأن النجاح في الصنائع للقوي من الصناع .

وقد اجمع العقلاء على ان القوة العاقلة بدون الصحة معطلة لا يمكنها الوصول الى الغاية المقصودة منها الا بها ، ولذا كان الاعتناء بالتربية الجسدية ومراعاة جميع الوسائل الصحية أمراً لازماً حتى تتسنى تربية القوى المفكرة .

والجسم للروح مثل الربع تسكنه   وما تقيم اذا ما خرب الجسد

وبالجملة - فالصحة أثمن من الثروة ، فإن الرجل يجود بثروته ليملك صحته ، لأنه يستغني بالصحة عن الثروة بخلاف الثروة فإنها لا تغني عن الصحة شيئاً ، فالحياة بدون صحة عبء ثقيل .

ومطالب الصحة انتظام العادات ، والرياضة اليومية والنظافة والاعتدال في الاكل والشرب ، فمن حافظ على هذه المطالب حفظ في الغالب صحته من

الاعتلال وجسمه من الاسقام .

والصحة خير قنية ويتلوها الجمال ثم الغنى المكتسب بالطرق المحللة ، ثم الشباب .

لذة العيش صحة وهناء   فإذا وليا عن المرء ولي

٢١١ - أثر السكك الحديدية في المدنية والحضارة

ان الانسان بواسطة هذه السكك صار يستغني في سفره عن عدة أشهر ببعض ايام ، ومن عدة ايام بيوم او ببعض يوم فضلاً عما توفر عليه من ماله الذي كان يصرفه في سفره وما اكتسبه من الراحة ، مما كان يكابده من المشاق والمصاعب والعوائق ، فلا تروج صناعة ولا تتقدم تجارة ولا زراعة الا بها ، لأنها هي التي تنقل المصنوعات من بلد الى بلد ومن مملكة الى أُخرى ، فيحسن حالها وتنقل حاصلات الزراعة من الثمار وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتناؤهم بها .

ومما لا شك فيه انهذه السكك قد سهلت من السفر كلخطر شديد وجعلت البلد البعيد اقرب من حبل الوريد ، وسهلت المواصلات وقربت المسافات فعمت التجارة وعظمت الامارة وتلألأ العمران في سائر البلدان ، وتيسر للعلماء واصحاب الصنائع السفر الى البلاد البعيدة والاطلاع على أُمور كثيرة ، وبذلك تتسع العلوم وتكثر الفنون وغير ذلك من منافعها التيلا تحصى ولا تكاد تستقصى والفضل في ذلك للمهندس الشهير (جورج ستيفنسن) .

٢١٢ - الشكر حجاب السعادة وجلاب الزيادة

الشكر ترجمة النية ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص وعنوان الاختصاص ومصدر السعادة وقيد النعمة ومفتاح الزيادة ، وهو أمر محبوب ومرغوب فيه ومطلوب ، فلو كان يجل عنه ماجد لعلو شأنه او ملك لرفعة سلطانه ، لما امر الله عباده بشكره والتحدث بنعمته وبره .

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد   لعزة نفس او علو مكان
لما امر الله العباد بشكره   فقال اشكروني ايها الثقلان

فشكر المنعم واجب ، والثناء على المحسن امر لازم ، ونعمة الشاكر من النقص والنقض في امان ، ومن السمو والنمو في ضمان وهو تميمة لتمام النعمة — والسعيد من اذا اظلته النعمة لم يشتغل بسكرها عن شكرها ، فاذا اونست النعمة بالشكر ربعت فتربعت واذا اوحشت بالكفر نفرت وطعنت — قال الله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « الشكر نصف الايمان » .

وقال بعض الحكماء : الشكر قيد الموجود وصيد المفقود وكفران النعم عنوان النقم .

قال سيدنا عمر رضي الله عنه : « النعمة داء ليس لها شفاء الا الشكر » .

الشكر اعظم ما حاولت ملتمساً   به الزيادة عند الله والناس

٢١٣ وصف حديقة الحيوانات

اول ما رأيته ملك الحيوانات واشباله في غابة من الغابات، وهو ملك مهاب حديد الظفر والناب (اسد) ضرغام وبطل مقدام ، ثم رأيت رعيته على اليمين والشمال مرتبة على هذا المنوال (فالفيل) له خرطوم طويل يشبه الصولجان ويحكي في تلويه الافعوان واذنان كالترسين تحتهما نابان كالرمحين شديد الغيرة حقود يرتاح الى الطرب (والزرافة التي حازت انواع اللطافة عالية الصدر منحطة الاواخر جميلة الأوصاف والمفاخر)، (والنمر) شرس الاخلاق دم الفريسة بين يديه يراق وثباته لا تنكر وثباته اشهر من ان يذكر، (والفهد) خصره رقيق واضح الجبين يتبختر ذات الشمال وذات اليمين، (والدب) مشغوف باللهو واللعب كثير الشهوة والطرب يقبل التعليم والتأديب ويأتي من بحر فطنته بكل عجيب ، (والذئب) الذي له الغدر شيمة والغنم لديه غنيمة ، يألف الوحدة والانفراد ويسطو بأنياب حداد ، (والثعلب) رائغ وعن جادة الطريق زائغ وافر المكر والحيل يضرب بخديعته المثل، (والضبع) حضاجر كنيتها أم عامر موصوفة بالعرج وتفترس كل من دب ودرج ، (والنمس) صائل صائد ظهره عظم واحد وله يدان قصيران لا ينجو منهما طير ولا ثعبان ، (والسنجاب) أبلق بطنه ابيض وظهره ازرق يأوي الاشجار العالية ويسكن الاماكن الخالية، (والظبي) كحيل الطرف ذكي العرف

جميل الصفات حسن الالتفات ، (والقرد النسناس) في خلقه مـا يشبه الناس ، معروف بالفهم والذكاء صبور على السراء والضراء ، (والببغاء) جميـل الصفات قوي على حكاية الاصوات فهمه صحيح ولسانه فصيح ، (والهدهد) وافر الهداية نافر عن الضلالة والغواية ، يميـد في حلله الفاخرة ويميس كأنما ألبسه سليمان تاج بلقيس ، فيا لها من روضة انبتت السرور وحوت اصنافاً جمة من الثمار والزهور وفي وسطها تلك الحيوانات التي لا اجمع بـين اشخاصها واسمائها ولا التحقق من احوالها وانبائها .

فتلوت إذ أدهشني جمعها وخلقها (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها).

٢١٤ ـ آثار التواضع عند الله والناس

لا ريب ان التواضع للناس من موجبات الالفة والائتناس .

وهو عبارة عن لين الجانب وخفض الجناح وهو خلق أهـل العلم والصلاح . قـال تعالى : ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل العبادة التواضع » .

وقال الشاعر :

تواضع إذا مـا نلت في الناس رفعة فـإن رفيـع القوم من يتواضع

فالتواضع سلم الشرف وموجب الترقي الى أعلى الغرف وهو أجل مزية وأفضل سجية وتاج الوقار وشعار الاطهار وشبكة الشرف واشرف الشرف .

والكبر وصف في الأنام مذموم وصاحبه من الخيرات محروم ، ممقوت من الله تعالى ومن العباد مسلوق طول حياته بألسنة حداد ، بـل صاحبه جدير بالخزي في حياته ومماته ، بل هو قتيل شهواته ولذاته .

قال حكيم : « ألسنا إخوة هكذا يجب ان يكون الإنسان أخاً للإنسان غير ان خزفاً يختلف عن خزف في القيمة ولو كان من طينة واحدة » .

وقال آخر : « الاحمق كالرمل المنهار كلما قومت منه جانباً إنهـار عليك جانب آخر » . ومثله كالثوب الخلق ان رفأته من موضع تخرق من موضع آخر فالكبر عنوان الحماقة .

وليس الفقر من اقلال مال ولكن أحمق القوم الفقير

ليت شعري ـ هل نسي المتكبر اصل وجوده ومنهل وروده واغتر بنفس عالية وحياة فانية وتكبر على معاشريه وترفع عن معاصريه ، أما يعلم انه من نطفة مذرة وسيكون جيفة قذرة وما بين ذلك حامل العذرة .

أرى أبنـاء آدم أبطرتهم معيشتهم من الدنيا الدنية
فلم بطروا وأولهم منى أو افتخروا وآخرهم منية

فالمتكبر مشؤوم والمتعاظم مذموم ، والتكبر من أخطر الخطوب وأكبر القبائح والذنوب. قال الله تعالى : ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ـ ولا تمش في الارض مرحاً ـ ان الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ . وقـال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر » .

وقال الشاعر :

وأحسن أخلاق الفتى وأجلها تواضعه للنـاس وهو رفيع
وأقبح شيء ان يرى المرء نفسه رفيعاً وعند العالمين وضيع

وبالجملة ـ فالكبر وصف محذور حامله ممقوت عند الله محقور ،يضعه الله كلما ارتفع ويخفضه كلما طلع وهو اخبث سرائر القلوب واعظم كبائر الذنوب ، فلا يرى صاحبه أبداً الا غليظاً فظاً ، لا يرى لأحد سواه في الفضل حظاً ، وقـد قيل : « من ترك الكبر استوجب الشكر » . فالتكبر على الملوك سخافة وعلى الاكفاء جهالة وعلى الاسقاط خساسة .

والتواضع سهولة الاخلاق مع الناس في مخاطباتهم ولين الجانب في معاملاتهم وتجنب العظمة والكبرياء والتباعد عن الاعجاب والخيلاء ، وهو حلية يتحلى بها الإنسان ان كان عاطلاً ويرفع ذكره ان كان خاملاً ، به يسمو في الدنيا قدره ، ويعظم فيها المهجة فتحلت بما يروق لسان كل انسان ، وتجلت في رفرف خضر وعبقري حسان .

في روضة غناء غناها الصبا فترقصت طرباً غصون البان

ومن نظر الى ما فيها بعين الحقيقة ، وسرّح بصره في هذه الروضة الانيقة ،

لشكر أيادي صانعها ولجأ اليه وأثنى على صانعها وان كان لا يحصى ثناء عليه .

تأمل في نبات الارض وانظر ... الى آثار مـا صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بـأن الله ليس له شريك

٢١٥ - مصر كنانة الله في أرضه من ارادها بسوء قصمه الله

لعمرك مـا مصر وانما ... هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والحور عينها ... وروضتها المقياس والنيل كوثر

مصر مدينة ذات محاسن فيها أنهار من ماء غير آسن ، روضة أريضة عيون أزهارها مربضة ، وأنواع البركات من نهرها مفيضة ونوازع الهموم والغموم بهـا مربضة ، كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس في وسط سماء ليس عليها سحابة أو غلالة أو سرير ملك نصب في ميدان او قلب جيش له مصر والجزيرة جناحان مقر العلماء الاعلام والقضاة والحكام ، كم سكن بها من خلفاء اتخذ الطاعة شعاراً والامتثال دثاراً ، يرى رؤساؤه تقديمه على غـيره ويفضلونه على أمثاله من أبناء عصره ، فينال منهم حسن الرضا وقت الغضب ، ويفوز منهم بجميل النعم إذا طلب . قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾. فقد قرن وجوب طاعة الرؤساء وولاة الأمور بطاعة الله ورسوله لأنها عبارة عنها ونيابة منها ، إذا سلك الرئيس الطريق الجادة ولم يتعد الحدود المحدودة . وقـال عليه الصلاة والسلام : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي » .

وقال الشاعر :

إن شئت تحظي بالسعادة والمنى ... فأطع ولاة الأمر في حسن امتثال

٢١٦ - اهمية التربية لدى الأمم الراقية

التربية طريق النجاح وسبيل الهدى والفلاح ، بها يرتفع الإنسان من حضيض الهمجية الى ذروة المدنية ، وبها تستنير الافهام ويعلم الحلال من الحرام ، بهـا

يعرف الإنسان ما ينفع وما يضر ويحزن ويسر ، بهـا يعلم المرء ما عليه وما له ، وهي التي تصلح شأنه وتحسن حاله ، بهـــا يعلم الخير فيقتنصه ويحرزه والشر فيجتنبه ويتجاوزه وهي زينة الشباب وحلية المشيب ، بها يزدان المرء في جميع أدوار عمره ويتحلى بها في صغره وبعد كبره . فكلما وجد في الامة دعاة نصبوا أنفسهم لنشر الفضائل بين بنيها ، وخصصوا ثمين أوقاتهم لغرس بذور التربية في مروج أذهانهم ، وعرجوا بهـم عن مناهج اضداد الكمالات الإنسانية من حيث هي مبادىء إلهية ، كلما ركزت فيهم الملكات الفاضلة وانطبعت فيهم الغرائز الكريمة ، ومالوا عن الشرور الى الخيرات ـ وكلما تقوى هذا المبدأ الشريف بين أفراد الشعب كلما أخذوا في الارتقاء الى معارج الفلاح وتدرجوا الى أعلا مراتب النجاح . قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ . فمــا أطيب ثمار التربية والتعليم وما احسن غرس بذور العلم في نفوس الناشئين والناشئات ، أما اذا انفصمت عرى هذا المبدأ وتداعت قوائمــه وتناسى القائمون بالدعوة شأنها وأهملوا أمرها فأغفلوا النداء لأمهات الأخلاق السامية وغضوا النواظر عن تقويم الافكار وتثقيف العقول وتهـذيب النفوس بالتربية والآداب أسرع الفساد الى افراد الامـــة وتمكنت من نفوسهم الرذيلة وتغلبت عليهم الشهوات السافلة فتنجح ميولهم دائماً الى الشر وتحل النقيصة منهم مــكان الفضيلة وتنحل جامعتهم فيكونون قلوباً شتى لا رابطة تربطهم ولا جامعة تجمعهم ـ وهنا تنحط الامة الى اسفل السافلين .

فسعادة الامم والمجتمع الإنساني إنما يكون بالتربية الفاضلة وتهذيب النفوس ودعوتها الى الخير ودربتها على الكمالات الإنسانية حتى تصير لها ملكات وغرائز، وانه يستحيل ان تتوجه أمة من الامم الى الوجهة المثلى وجهة الفلاح إلا بطريق التربية التي هي تثقيف عقـــل الابناء بالمبادىء الفاضلة (من العلوم والمعارف) وتروض روحهم بالأخلاق الطاهرة ، وتعود أنفسهم على العادات النافعة وتهذب أفكارهم بالآداب السامية وآداب الشريعة والدين ودستور البلاد، ذلك هو منهاج الفلاح ومعراج النجاح ، هذا هو سر استواء هذه الامم على عروش السعادات ، هذا هو الينبوع الذي سوغ للغربي ان ينتحل لنفسه حق الرئاسة على الشرقي .

وبالجملة ـ فالتربية رأس مال لا يفنى وهي نوعان : نفسية وجسمية، فتربية

النفس تكون بقلع الرذائل منها وغرس الفضائل فيها ، وهي من الاسرار التي عليها مرقاة السعادة الدنيوية والأخروية، وإنما تفيد ببث روح العقائد الدينية في قلوب الناشئين وعدم اكراههم على تحمل الاذى حتى يشب المرء على حسن الخلق وصفات الكمال كالمروءة والشجاعة والصدق والكرم، ويكون بعيداً عن المنكر والشرور لا يكدر وجه الآداب كي يصبح مألوفاً محبوباً يهدي الى الهدى ويصد عن الهوى .

وعوامل التربية كثيرة منها الأم والأب والمؤدب والمكاتب والمدارس وهي أهمها ـ ولذا تجد التربية تتفاوت إلا أنها أعظم من التعليم ـ إذ بصلاح التربية تصلح الامم وبفسادها يفسد الكون ، فويل لأمة لم تعتن بها ، ووالله ما امتلأت السجون ويتّمت الاطفال واستحكمت حلقات الجهل وعمّ الضلال إلا بترك التربية ـ وان الشخص الذي يهمل ليكون من اشد الوحوش الضارية واحط من البهائم ـ ومن تربى تربية صحيحة خليق بـه ان يقود الامم ويرفعها الى أوج السماكين ، ويكون من الداعين الى اعلاء كلمة الحق ورفع منار الإسلام ببيان اسراره واوامره ونواهيه وزواجره التي هي أس كل عـدل وناموس كل عصر ونظام كل ملة .

والتربية أنجع ما تكون في الصبا الذي بفواته يفوت المرء ما يؤمله من طلب السعادة ـ ولذا كانت فيه من أهم المطالب ، فإن المرء في صغره كالغصن في اوانه يقبل التقويم والتعديل .

ولذا قال محيي الدين بن العربي .

لا تسه عن أدب الصغـيـر وإن شكا ألم التعب
وذر الكبير فإنه كبر الكبير عن الادب

لأنه متى اخذ في مبدئه بالتهذيب والتطبع بالاخلاق الفاضلة والمقاصد الشريفة انقاد الى ما يوحي الى فطرته الاولية ، ونشأ على ما تعود وجبل وسهل عليه فيما بعد صنيعة الخير بقدر بُعده عن الشرور والرذائل ـ ومعلوم ان التربية النفسية افضل من التربية الجسمية إذ ان الاولى راجعة الى الروح ـ والثانية راجعة الى الجسم .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
انهض الى النفس واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

٢١٧ - لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب

من دلائل الحكمة وأفضل الفضائل المهمة ، الصمت وقلة الكلام احترازاً عن الوقوع في الآثام ، لان من كثر لغطه كثر سقطه ، ومن تكرر مقاله سئم ومن كثر سؤاله حرم ، فكلام الإنسان بيان فضله وترجمان عقله وكل يعرف بقوله ويوصف بفعله ، ورب قول أنفذ من صول وطعن اللسان أنفذ من طعن السنان، وجرح الكلام اوجع من جرح الحسام .

فالاولى فالإنسان صون اللسان وهو صغير الجرم كبير الجرم .

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فالكلام دواء إن قلّ نفع ، وان زاد وكثر صدع .

إن القليل من الكلام بأهله حسن وإن كثيره ممقوت
ما زل ذو صمت وما من مكثر إلا يزل وما يعاب صموت
إن كان ينطق ناطق من فضله فالصمت در زانه ياقوت

الخطأ بالصمت يختم والخطل بالكلام لا يكتم . قال عليه الصلاة والسلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او يصمت » .

الصمت يكسب أهله صدق المودة والمحبة
والقول يستدعي لصا حبه المذمة والمسبة

وقال بعض الحكماء : الزم الصمت تعد في نفسك فاضلاً وفي جهلك عاقلاً وفي قدرتك حليماً وفي عجزك حكيماً، وإياك وفضول الكلام فإنها تظهر عن عيوبك ما بطن ، وتحرك من عدوك ما سكن .

وقال آخر : اعقل لسانك إلا عن حق توضحه او باطل تدحضه او كلمة تفسرها او حكمة تنشرها .

الصمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

فلئن ندمت على سكوتك مرة   فلتندمن على الكلام مزارا

٢١٨ - إذا أراد الانسان السفر برأ فما الذي يستخدمه من الحيوانات الجمل أم الحصان ؟

ان المولى سبحانه وتعالى كرم بني آدم حيث جعل له السلطة العامة على جميع الحيوانات وسخرها كيفما اراد ، فسخر الخيل للركوب ولحمل الاسلحة عليها في الحروب تسبق السيل في السير معقود بنواصيها الخير وراكب ظهورها فارس ، وهي اجل حافظ وحارس وزينة وعز وكنز وحرز . قال تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ . وسخر أيضاً الجمال لحمل الاحمال الثقال وقطع المراحل الطوال ، مع مكابدة الكلال والصبر على مر النكال ولا يعتريها من ذلك ملال ، تسير في الفيافي والصحراوات ، وتتكبد الآلام والمشقات ، زهداً وفقراً وجلداً وصبراً على العطش والجوع حتى تحل في أعطانها .

وحينئذٍ فالجمال أفيد في المواصلات كما اشار المولى الى ذلك في الآيات : ﴿ وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس ﴾ . فهي مطية الصحراء ومركب البيداء ، يتمكن راكبها من النوم عليها وتنقاد لمن بين يديها ، بخلاف الخيل فانها وان كانت تقتحم الطريق اقتحام السيل ، وتحوز قصبات السبق في ميدان السباق إلا انها ليس لها طاقة على المشاق والصبر على الجوع والعطش بضع ساعات كما تصبر الجمال جملة ايام معدودات .

٢١٩ - الطب والأطباء في الهيئة الاجتماعية

الطب علم تحفظ به صحة الابدان ، وهو كنز ثمين لما فيه من الفوائد الجليلة والمنافع العديدة التي تعود على الهيئة الاجتماعية بالخيرات والبركات المفيدة ، وواسطة لقطع دابر الامراض الوبائية واستئصال جرثومة الاوبئة الردية التي تكاد احياناً تفتك بالنفوس فتكاً سريعاً وتزهق بأرواح العباد زهقاً مريعاً ، وحينئذٍ صناعة الطب تهم كل طبقات الناس ، والطبيب هو مطمح أنظار كل انسان ، رفيعاً كان او وضيعاً ، والانسان من حيث انه يميل بالطبع الى البقاء ويخشى الفناء ، كان مدفوعاً بالطبع أيضاً الى الحرص على الصحة التي هي دعامة الحياة وقوامها والحرص على الصحة يتوقف على الاطباء الذين هم ركن عظيم في

انتظام حـــال البشر ـ كيف لا وبعلومهم ينال المرء الهناء في عيشه والتمتع بصحته ، والصحة من اكبر النعم على الإنسان بعد الوجود والإيمان .

وقصارى القول ـ ان الطب مهنة سامية وحرفة شريفة عالية وان الطبيب رجل الشعب تتوقف عليه ارواح العباد ، ولا يستغني عنه فرد من الافراد فـله المقام الاسمى والدرجة الرفيعة في المجتمع الإنساني ما دام متصفاً بمكارم الاخلاق وامهات الفضائل مبتعداً عن قبائح الصفات والرذائل .

بالطب صحت جسوم الناس من سقم وبالاطباء اضحى الكون معموراً

٢٢٠ ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا

المال روح تحيا به اجسام الممالك وسراج يضيء بـــه ظلام الخطوب الحالك وسلطان قوي الشوكة والبطش شديد العزيمة والبأس عليه قوام الصنائع وابراز مكنونات العلوم ونجـاح الاختراعات والمشروعات وقضاء الحاجات في جميع المهمات ، فأي شخص رزق مالاً لحظته السعادة وامتدت عليه غصون السيادة ، فللمال الافضلية والاولوية في المنفعة على البنين .

وبديهي ان الحامل للمرء على جمع الاموال والسعي وراء اكتسابها ، إنما هو الحصول على ما يقوم بـــه اود حياته من مأكل ومشروب وملبس ، وكل ذلك مقدم على أمر التناسل وحب الابناء .

وكيف يكون للبنين فضل على المال وانهم بدونه لا يصلح لهم حـــال ولا يستقيم لهم شأن ولا بال .

قال بعض الحكماء : العاقل يتخذ المال قبـل العيال ، والجاهل يتخذ العيال قبل المال ، وقيل اني اعجب ممن له عيال وليس له مال ، وقيل العيال سوس المال .

وقال الشاعر :

شيئان لا تحسن الدنيا بغيرهما المال تصلح منه الحال والولد
زين الحياة هما لو كان غيرهما كان الكتاب به من ربنا يرد

يعني قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ .

وقصارى القول ـ ان الطبيعة البشرية لا ترى أفضل من المال ولا أعز منه

لا يماثله شيء في الوجود ، فمقام صاحب المال ليس كمقام صاحب الابناء .

٢٢١ - وصف اللسان

اللسان أداة يظهر بها البيان ، ومخبر يخبر عن مكنون الجنان وحاكم يحكم بفصل الخطاب وناطق ينطق بالصواب ،وهو اعظم واصف تعرف بوصفه الاشياء واكبر واعظ يأمر بالعرف وينهى عن الفحشاء ، واصدق شاهد يستدل به على الغائب واعز شافع تدرك بـه المطالب ، واحسن سمير يسر به الخاطر وألطف مؤانس لمحاسن الاخبار ذاكر ، ارق نديم يرتاح اليه الخليل واجل مادح يشكر فعل الجميل ، وهو زارع ينبت الوداد وحاصد يذهب الضغائن والاحقاد ، بـه تنكشف الحقائق وتتبين الدقائق ، به يعرف مقدار العقل ، وتتضح نتيجة المرء في الفضل . فاللسان للمرء كمرشد امين وترجمان للكلام ، اذ به يفصح عمـا في ضميره ويحفظ الروابط والعلائق مع غيره ، ويكفيه شرفاً ان ليس من الاعضاء شيء ينطق بذكر الله غيره ، فالإنسان بدونه كبهيمة سائمة او صورة ممثلة .

قال بعضهم : مـــا الانسان لولا اللسان الا صورة ممثلة او ضالة مهملة او بهيمة مرسلة .

وقال الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فـلم يبق الا صورة اللحم والدم

ومضار اللسان لا تحتاج الى برهان ، فمن لم يسجنه أوقعه في الذل والهوان - فأعقل الناس من كف فكه وفك كفه - وشر الناس من كف كفه وفك فكه - وقد قيل : (مقتل الرجل بين فكيه) .

وقال بعض البلغاء : اللسان أجرح جوارح الإنسان .

وقال الشاعر :

يصاب المرء من عـــثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته بالرجـــل تبرا على مهل

٢٢٢ - عز من قنع وذل من طمع

القناعـة من أوثق أركان العبادة وأقوى أُصول الديانة المؤدية الى السعادة ،

وهي ذخيرة لا تبلى مدى الأيام وكنز لا يفنيه مرّ الدهور والأعوام ، بل هي جنة عالية قطوفها دانية ، فمن طلب العز طلبه بالطاعة ، ومن طلب الغنى طلبه بالقناعة . قال عليه الصلاة والسلام : « القناعة شرف المؤمن في الدنيا ، ومنزلته في الآخرة » .

وقال بعض الحكماء : من قنع بماله استراح وأراح .

وقال الشاعر :

أفادتني القناعة كل عز ... وهل عز أعز من القناعة

والطمع رق مؤبد ووثاق ذل موطد ، ومن يكن هذا شعاره يكن الجشع دثاره ، قال عليه الصلاة والسلام : « خيار المؤمنين القانع وشرارهم الطامع » .

وقال الشاعر :

طمع الفتى ذل وعزة نفسه ... عزو كم شرّه يجر الى شرك

وقصارى القول ـ ان القناعة رأس الصلاح وأس الفلاح ومصدر الفوز والنجاح ، والطمع من اقبح الخلائق وأذم العلائق يدل على الاخلاق البهيمية والغرائز الرديئة الدنية ، لا يزال صاحبه أبداً مذموماً وبأقبح الصفات موسوماً قد تملك الجشع طباعه ، فلا تعرض له القناعة ، ولو كانت الدنيا بأسرها متاعة ، بل شأنه أكل الدنيا خضماً وقضماً ، ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهماً .

أقنع بأيسر رزق أنت نائله ... واصبر ولا تتعرض للإرادات
فما صفا البحر إلا وهو منتقص ... ولا تعكر إلا في الزيادات

٣٢٣ ـ لا نجاح لأمة نبذت آثار أسلافها

إن أفضل ما استدل عليه الخلف على أعمال السلف ، الآثار المصرية التي هي من أهم العاديات فائدة وأعمها نفعاً من جهة العلوم والفنون ، فإنها ترشد الى الوقوف على فن التاريخ وتهدي الى قديم عهد الأمة المصرية ، وما لها من الذخائر التي انتفع بها من بعدها وما وضعته من الأساس الذي انبنى عليه التقدم لمن تأخر عنها ، فقد كان لها اليد الطولى على أهل القرون الأولى ، يشهد بذلك ما بقي بعدها من الآثار وما نقل عنها في كتب الاخبار من الابنية الجليلة والصنائع

الجميلة ، فإن ذلك يعرب عن مزيد قدرتها وشدة مهارتها وعلو أفكارها ـ هذه الاهرام من الآثار الجليلة التي جعلها المصريون محلاً لمعارفهم وأثراً يستدل به من أتى بعدهم من الأمم على ما كان لهم من الأبهة والفخار والعظمة والاعتبار ـ فهو أثر يدل بصورته وشكله على قدر مـا وصلوا اليه من العلوم الهندسية وعلم جر الأثقال وفنون أنواع العمارة ، ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه رؤياه على انه أثر فلكي تعين بـه الجهات وتعرف الفصول والانتقالات فالمصريون كانوا بالغين النهاية في الفنون الهندسية ، وكل من دخل أرض مصر وتأمل مـا بقي فيها من الآثار التي هي من أغرب العجائب يقف متحيراً ويطرق متفكراً ، فلذا اعتنت الحكومة المصرية بشأن تلك الآثار والحرص عليها وحفظها من ان تتولاها يـد التلف والضياع او يعتريها التغيير والتبديل .

وقصارى القول ـ ان بقاء الإنسان بالآثار ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً .

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

٢٢٤ ـ مضار الغيبة وقبائحها

ان الغيبة أذم الأفعال مقصداً وأخبث الاقوال معتقداً وأسوأ الاخـلاق مذهباً وأصعب الاحوال مركباً ، بـل هي الداء العضال الوبائي الفاشي . قال تعالى : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيـه ميتاً فكرهتموه ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « الغيبة أشد من الزنا ومن شرب الخمر » .

وقال بعض الحكماء : « من عاب وضيعاً فقـد رفعه ومن عاب رفيعاً فقد وضع نفسه ». فالغيبة « وهي ذكر إنسان آخر بما يكره ». شيمة الأوغاد وهي مجلبة للخراب والفساد ، وجهد العاجزين وسمار الفاسقين ـ وليت شعري ـ كيف يأكل الإنسان لحم أخيه بحية فيه ، فإن كان من وصفه فيه ما ذكره فقد اغتابه ودحره ، وأظهر قبيحاً كان مستوراً وهتك ستراً كان مسدولاً وفضح ستراً مكتناً وأحل أمراً محرماً وما رعى ذمة ولا حفظ حرمة ، وان كان بريئاً ممـا أبان فإفك وبهتان وكلاهما تمزيق أعراض وآثام وأمراض ، وهـذا إذا كان الموصوف تقيـاً لا فاسقاً جهنمياً وإلا حلت غيبته واسقطت درجته وهيبته

لتهتكه بالمنهيات والمعصيات .

ما أقبح الشيم المخلة بالفتى ... وأشد منها شيمة الكذاب
وأشد من هذا وهذا أن يرى ... لهج اللسان بغيبة الغياب

٢٢٥ ـ مضار الحسد وأسبابه

ان الحسد أصل كل عداوة وأساس كل بلية ورأس كل خطية وسبب كل ملامة وجالب كل ندامة ، بل هو نداء دوي وعرض خبيث دني يدل على فساد الدين وقلة اليقين ، وما زال صاحبه كدر النفس نكد العيش قليل الانس قد فارق القناعة وخزل الطاعة فهو حليف هموم وغموم ظالم في زي ظالم . قال تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « ان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

وقال الشاعر :

كل العداوة قد ترجى إزالتها ... إلا عداوة من عاداك بالحسد

فالحسد (وهو تمنى زوال نعمة المولى عن احد خلقه) وصف مذموم وصاحبه من الخيرات محروم ، وكيف لا وهو كبيرة من الكبائر وجرثومة الفساد ومجلبة السوء بين العباد يجمع خصالاً مذمومة ، ويقتضي احوالاً منكرة وأسباباً مشؤومة منها بغض الحسود لغير سبب والحقد عليه دون ذنب وجب ، ومنها انكار الحق وان ظهر واظهار الباطل وان استتر ، ومنها الاعتراض للفضيحة والتجافي عن النصيحة والتصدي لكل قبيحة ، ومنها الامتناع عن جميع ما عند المحسود من الخير ، وان كان مفضل اليه .

قال بعض الحكماء : حاسد النعمة لا يرضيه إلا زوالها ولا يشقيه إلا انتقالها وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاً ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغماً ولا ينال عند الشرع إلا شدة وهولاً ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة وهواناً ونكالاً .

وأظلم أهل الأرض من كان حاسداً ... لمن بات في نعمائه يتقلب

٢٢٦ - العاقل يعول على أدبه ، والجاهل يعتمد على نسبه

أيها الفاخر جهلاً بالحسب إنما الناس لأم وأب
إنما الفخر بعقل راجح وبأخلاق حسان وأدب

الأدب كلمة جامعة لمحاسن الأفعال وأحاسن الأقوال وهو اكرم الخصال ورافع الاحساب ، به يحصل المرء على الرغائب الجليلة ويتوصل الى نجاح المقاصد الجميلة ، يرفع العبد المملوك ويجلسه في مجالس الملوك ، وهو زيادة في الفضل ودليل على العقل ، وصاحب في الغيبة وأنيس في الوحدة ، وجمال المحافل وزينة الأفاضل ومن لم يكتسب بالأدب مالاً اكتسب به جمالاً ، ومن قعد به نسبه نهض به أدبه والمرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت ، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد ، وبآدابه لا بثيابه وبفضيلته لا بفصيلته وبعقله لا بعقائله وبآبائه لا بأبنائه وبكماله لا بجماله .

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول هأنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

قال بعض الحكماء : لا يكون الشرف بالنسب ألا ترى ان اخوين لأب وأم يكون احدهما اشرف من الآخر . ولو كان ذلك من جهة النسب لما كان لأحد منهما فضل على الآخر ، لأن نسبهما واحد . ولكن ذلك من قبل الأفعال ، لأن الشرف إنما هو بالفضل لا بالنسب .

أبوك أبي والجد لا شك واحد ولكننا عودان آس وخروع

وقصارى القول ـ ان من الناس من يتكل على حسب آبائه فيفتخر به لدى جلسائه واخلائه في صباحه ومسائه ، ولا ينهض لمأثره ولا يصبو الى مخفره ، بل شأنه ان يقول في كل مجال . ان أبي كان ذا فضل وجاه ، وجود وإحسان حتى سارت بحمده الركبان ، وشدا بمديحه كل قاص ودان ، وهكذا يبني اوهامه ويضيع لياليه وأيامه ومن الناس من يقر بخسة اصل اجداده ، حتى ولكنه يفتخر بجده واجتهاده حتى يحاول ان يستر بفضله ما بدا من عيب اصله ، فإذا ذكر لأحد حسب ، قال لا حسب إلا الأدب ولا فخر للمرء إلا بنفسه لا بأصله

وجنسه ، وهذا القول في نفس الأمر صواب وهو الذي يعتمد عليه كثير من ذوي الآداب ، وهو رأس مال الذين لا حسب لهم وعليه يجعلون معولهم ، إلا انه لا ينكر ان للأصول تأثيراً في الفروع عظيماً ، فـلا تكاد ترى ذا اصل زكي إلا وتتوسم فيه خلقاً وسيماً وشأناً كريماً ، فإذا اجتمع الأصل والفعل واقترنا ، كان ذلك غاية المنى ، والا فإن الثاني خير من الأول واكرم منه وأفضل .

وبالجملة ـ ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس دون طائفة ولا بأهل حرفة دون حرفة ، بل الفضل صفة تكون بالإنسان على قدر ما يحوز من العلم والأدب فكما تكون في المهندسين والحكماء وكما تكون في التجارة وأهل الصنائع ، تكون في آحاد الخلق من الفلاحين والصناع ، فليس الإنسان بأصله وحسبه ، بل بكمال عقله وحسن أدبه ـ فكم من امرىء مقطوع النسب وصل بأدبه الى أعلى المناصب والرتب ، وكم من ذي نسب واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل ، وكم من حقير أزال بكمال عقله دناسة أهله واصله .

لكل شيء زينة في الورى   وزينة المرء تمـام الأدب
قـد يشرف المرء بآدابه   فينا وان كان وضيع الحسب

فالأدب مصباح النجاح وراح الأرواح وظرف اللسان ولطف الجنان .

٢٢٧ ـ أيهما أفضل في بلادنا المصرية الصيف أم الشتاء ؟

الصيف خفيف المؤونة جليل المعونة كثير النفع قليل الضر راحـة الفقراء والمساكين ناشر زهور الرياحين ونبات البساتين .

مصيف له ظل ظليل على الورى   ومن حـلا طعماً وحلل أخلاطاً
يعالج أنواع الفواكه مبديـاً   لصحتها حفظاً يعجز بقراطاً

فالصيف فصل الخيرات والبركات وموسم ضم المحصولات التي هي أرزاق المخلوقات وأوان تكاثر المعاملات .

والشتاء كأس الهناء فيه تبرد المياه التي هي مادة الحياة ويتميز الفقير وصاحب الجاه ، وينقطع الذباب والبعوض والهوام ويؤمن على الطعام والشراب والأجسام طول لياليه فرصة الكتاب والأدباء وتمار الاصحاب والاحياء ، وغالبـاً يتمالك

الإنسان صحته في فصل الشتاء .

ليت الشتاء يعود لي بنعيمه ان الشتاء غنيمة الكتاب
قصر النهار وطول ليل ممتع فيه يـــلذ بقينة وشراب

وحيث ان بلادنا المصرية في أعظم نقطة متوسطة في القارة الافريقية معتدلة الهواء في فصل الشتاء تقصدها السياح من جميع الانحاء ، ويحلو للكل فيها كاس الصفاء ، لا يكاد أحد ينكر فوائد الشتاء في هـذه البلاد ـ ولا يجهل فرد مضار الصيف الذي تكثر فيه الأمراض الوبائية لجميع العباد، وينتشر فيه البلاء المصور والهواء الاصفر الذي أورث الحكماء الحيرة المسمى عندهم بالكوليرة .

قال بعض الحكماء : لا مرحباً بالصيف من ضيف ، فهو عون على الحيات والعقارب وناشر للذباب والخنافس والمصائب .

يتمنى المرء في الصيف الشتاء فـــإن جاء الشتاء أنكره
ليس يرضى المرء حال واحد قتل الإنسان ما أكفره

٢٢٨ ـ صغار الأمور يولد كبارها

ترق الى صغير الأمر حـــتى يرقيـك الصغير الى الكبير

لا يخفى ان الجزئيات أساس المركبات ، والأمور الصغيرة مصدر الكبيرة ، وبقدر الاعتناء بالشيء تكون الثمرة ، فالمعتني بصغائر الأمور يجني من كبارها الفرح والسرور ، والمهمل لصغائر الأعمال يلعق كأس الذل والوبال ـ لأن المبني على الصحيح صحيح ، والمبني على الفاسد فاسد .

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة ان البعوضة تدمى مقلة الاسد
وفي الشرارة ضعف وهي مؤلمة وربمـــا أضرمت ناراً على بلد

فيلزم العاقل الاعتناء بالأشياء الصغيرة قبل استفحال الأمور الكبيرة الخطيرة ولا يسول له الشيطان أنهـــا أمور حقيرة ، فكم آفات طامة كبرى ومصائب مدلهمة عظمى ، نشأت من عـــدم الاكتراث بصغائر الأمور فأمطرت عليهم الخطوب مدرار الشرور .

كل الحوادث مبداهـا من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بـــلا قوس ولا وتر

وأعظم شاهد برهان العيان الذي لا يختلف فيه اثنان .

فكم شاهـــدنا حروباً خطيرة كانت لأسباب صغيرة ، وكلمة بسيطة جرت دماراً وخربت دياراً ، وشرارة ضعيفة أضرمت ناراً .

ولا غرو ان الاستهانة تجلب الندامة ولا ينفع الندم حيث زلت القدم ، وان الاعتناء حصن منيع وحرز رفيع يتقي بـــه العاقل صدمات الشرور ويحفظ نفسه من مخالب الدهور .

وبالجملة ـ ان الحياة مؤلفة من أُمور صغيرة شأن كل عظيم في الدنيا ـ ولا نجاح في مطلب من المطالب إلا باعتبار دقائقه الصغيرة ولو لم يكن لهـا قيمة في نفسها ، والذين يقصرون نظرهم على كبار الأمور ويهملون صغارها لا يسلمون من الفشل .

أي أمر أقل اعتباراً في عين السياسي المحنك والفيلسوف النقريس من تنظيف البيت وما فيه ، ولكن نظافته تجيد صحة ساكنيه وتحسن اخلاقهم ـ وأي نفع أعظم من هذا من كل ما ألفه البشر في السياسة والفلسفة ، واهتمام الناس بصغار الأمور يدل على اهتمامهم بكبارها .

قال حكيم : محك الرجال صغائرهم الأعمال .

٢٢٩ ـ النميمة مصدر الضلال والفساد

النميمة من أقبح الخلال الذميمة تدل على نفس سقيمة وطبيعة لئيمة ، مشغوفة بهتك الاستار وإفشاء الاسرار ، وربمـا أدت الى سفك الدماء وانتهاك المحارم ، وهي جامعة بين النم والغيبة .

فكل نمـــام مغتاب ، وليس كل مغتاب نماماً . قال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « شر الناس عند الله يوم القيامة ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث » .

وقال بعض الحكماء : لم يمش ماش ، شر من واش .

وقال الشاعر :

تنح عن النميمة واجتنبها فـإن النم يحبط كل أجر
يثير أخو النميمة كل شر ويكشف للخلائق كل سر
ويقتل نفسه وسواه ظلماً وليس النم من أفعـال حر

فمن أوجب الأشياء على العاقل الحازم ان يحترس من النمام جهـــده ويجتنب مخاطبته ويعاف مجالسته ويزهـد في صحبته ويرغب عن ممازجته ولا يثق به في حال من أحواله ولا يأتمنه في شيء من أقواله وأفعاله ، فـــإن صحبته ضلال ومخاطبته خطر .

وقصارى القول ـ ان النميمة « نقـل كلام الناس بعضهم الى بعض على وجه الافســاد بينهم » من أعظم الذنوب عند الله تعالى .

كيف لا تكون النميمة من أعظم الذنوب وأقبح العيوب وهي المفرقة للقلوب والباعثة للخطوب والمنزلة للكروب .

٢٣٠ ـ فوائد البريد (البوستة) والأسلاك البرقية (التلغراف)

المخترعات في الدنيا كثيرة ، وقد صارت سهلة بعد ان كانت خطيرة وأحسن عظيم اخترع وأفيد شكل غريب ابتدع (البريد) فقد قرب البعيد ، « وجمـــع شمل الاحباب وحفظ روابط الالفة بين الاصحاب، وبه وقف التجار على حقيقة تجارتهم ، مما راج وكسد ومما هبط وصعد ، لا سيما ما أنجمه السلك البرقي من سهولة تعاطي الأخبـار وايصال نتائج الأفكار الى جميع القرى والأمصار على تنائي البلاد والديار وبعد المزار ، فأصبحت بـه البلاد المتنائية وأقطار الأرض الشاسعة والأماكن القاصية متصلة ببعضها حتى تيسر للإنسان ان يخاطب صاحبه في كل جهات الأرض ويخابره ويحادثه مواجهة مشافهة وقربت الصلات التجارية والسياسية ، وسهل على التجار معرفـــة الاسعار في جميع الاقطار بأقرب من لمح الابصار » .

حقاً انه بواسطة البريـد والإشارة الكهربائية في البر والبحر صارت جميع بقاع الارض متصلة ببعضها ، والاخبار واردة من جميع جهاتهـا ـ ففي الاربع

والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع جهات المعمورة ، فما أعظم مخترعات هـــذا العصر وما أجمل فوائدها .

٢٣١ - السباحة في الماء تبعث على الرياضة والشجاعة

ان ممـــا يفيد الشبان صحة في الجسم ونشاطاً وقوة في الاعضاء والعضلات (السباحة) إذ هي كافلة بالاستحمام وتقوية الاعصاب والاجهزة البدنية ، فـــإن حركة الذراعين توسع الصدر وتقوي الرئتين لذي الشهيق والزفير - وقد اعتنى بها الامم القديمة والحديثة بتعليمها للأبناء، فكان الرومانيون يجعلون السباحة من جملة العلوم التي تأخذ بهـا الابناء ، وبلغ شغفهم بها الى أنهم كانوا يضربون المثل للجاهل الذي لا يعرف شيئاً بقولهم ، هو لا يعرف القراءة ولا السباحة وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى الامصار بتعليم الابناء العوم والفروسية .

وترى أغلب سكان اوروبا يأمرون الابناء بتعلمها .

فسكان السواحل يقيمون على البحار حمامات مخصوصة للسباحة، وأما سكان المدن التي لم تكن على البحار فيقيمون ضمن حماماتهم محـــلاً متسعاً أشبه بميضأة عميقة ومستطيلة لتعليم السباحة أمـام معلمين ومعلمات ، وقد قال أحد فلاسفة اليونان : الصلاة للأديان والنجوم للأزمان والسباحة للأبدان .

٢٣٢ - آثار الرياضة البدنية في الأمم

قد ألف جل شأنه بـــين الجسم والنفس فكل يشارك الآخر في احواله من السرور والحزن والقوة والضعف ، فـلا تكاد ترى من ضعفاء الجسم قوة النفس وخفة الروح ومضاء العقل ودوام العمل ومن انصاع الى الدعـــة والسكون ، وأجاب داعي الكسل والخمول عاش ولا ريب كثير الامراض لا يفرح بالوجود ولا يلذ بالحياة .

والحركة البدنية داعية الى صحة الجسم والى نشاطه حيث تبعث فيه قوة على تحمل التأثيرات الجوية ليكون بعيداً عن الامراض وتكسبه رشاقة القد وحسن القوام وجمال الاعصاء وتحفظ من إرادة الإنسان وتضبط من تخيله وتوليه نفوذاً وسلطاناً على الجسم وميلاً الى العمل والدوام عليه وسروراً بقبول الآثار الظاهرية

وارتياحاً الى مصادمتها، وقد قررت الاطباء ان عمل العضلات يدعو الى دوران الدم وسيره في سائر الاعضاء فتتخلص الرئة والاجهزة الباطنية ومركز مجموع الاعصاب من كثرة الدم، وان عدم الانتظام في سير الدم يوقع الجسم في الامراض ويضعف اعضاء التحليل ، وبذلك يجد الإنسان من نفسه ميلاً الى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة ، ويؤدي ذلك الى عدم القدرة عليها فيما بعد ، وتستولي عليه السوداء ويصير قليل الصبر قلق الخاطر كثير الهواجس ويلحظ الدنيا بعين ملؤها سخط وكراهية الى غير ذلك من الأمراض الجسمية والعقلية التي تكدر صفو المعيشة وتجعل الحياة مرة .

وكانت الرياضة البدنية لدى الأمم القديمة ، ولم تزل الآن في أمم أوروبا أهم موضوع لتربية الأبناء فكانت هي والموسيقى الأساس الوحيد للتربية لدى اليونان ، فالموسيقى لتهذيب نفوسهم وترويحها وتربية ذوقهم الأدبي ـ والرياضة البدنية لتقويم الجسم حتى تكون صورته مشخصة للنفس المهذبة في جسم صاحي الحواس نشيط الاعضاء .

وكانت العرب كثيري الرياضة والألعاب دعاهم الى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والزود عن الشرف والميل الى الحروب والمبارزة والركض وركوب الخيل وحب النشاط وسرعة إجابة المستغيث ، ثم ان للرياضة البدنية أنواعاً كثيرة كالعدو (أي الجري السريع) وتسلق الجبال وحمل الاثقال والرمي الى الهدف ولعب الكرة وركوب الخيل والسباحة والتجذيف وأعمال الفلاحة والصناعة وحركة الجمباز .

٢٣٣ ـ تأثير السياحة ماديا وأدبيا وصحيا في نفوس السياح

سح في البلاد إذا أردت تعلماً ان السياحة في البلاد تفيد

ان ميزان الاخلاق ومنهل الارزاق ومحيي الاموات في جميع الاوقات، هو السفر الى بعيد الاماكن ومفارقة المساكن .

بلاد الله واسعة الفضاء ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوان إذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

إذ أول مزايا السفر معرفة المرء طوائف الرجال واكتساب حميد الخصال ،

فيقارن المرء اخلاقه بأخلاقهم وعاداته بعاداتهم فما باين اخلاقهم الفاضلة هجره ، وما شذ عن عاداتهم الكاملة كفره فتنسج أخلاقه على منوال الفلاح وتوزن بميزان النجاح وتتحلى بزينة الفضل وتتخلى عن وصمة الرذائل .

سافر إذا حاولت قدراً   سار الهلال فصار بدراً

وثاني مزاياه أن يعرف أساليب الارزاق ميسورة الوفاق قريبة المنال كثيرة النوال ، بعيدة المواقع جليلة المنافع ، فالسفر أحد أسباب العيش التي بها قوامه وعليها نظامه ، فبالأسفار ترى العجائب وتجلب المكاسب ، تزيدك علماً بقدرة الله وحكمته وتدعوك الى شكر نعمته .

وإن نبت بك أوطان نشأت بها   فارحل فكل بلاد الله أوطان

وثالث مزاياه ان يرى الإقرار بفضائله وحسن شمائله ، لأنه في بلده مهجور وفي غيرها مشهور كما هي سنة الإنسان في كل مكان وزمان ، وفي محله لا تعزى اليه فضيلة ولا تنسب اليه جميلة ، فإذا جاوز الإنسان بلاده نال ما أراده .

وما بعض الاقامة في ديار   يهان بها الفتى إلا بلاء
وبعض خلائق الاقوام داء   كداء البطن ليس له دواء
ولم أر كامرىء يدنو لخسف   له في الارض مكث وانثواء

فالماء العذب إن ركد خاب وإن جرى طاب .

الماء ينتن إن أقام وإن جرى   خلصت جواهره من الاقذار

٢٣٤ ـ ورق النصيب ومضاره

أمر النصيب معروف عند العامة فضلاً عن الخاصة ، وهو بالحق فكرة إبليسية يقصد بها ابتذاذ الاموال بإغراء وإغواء ، فمن الناس الذين لا عقل ولا دين لهم يطلبون السعادة من يد البخت والنصيب لا من يد الكد والتعب ، ولا يلتفتون لقول الشاعر العربي :

ليس الحياة بأنفاس نرددها   ان الحياة حياة الفكر والعمل

ويعتقدون ان القدر أضمر لهم حظوظهم ، فيفحصون عن هذه الحظوظ ان

سعادة او شقاء في اوراق النصيب وغيرها من انواع القمار .

ومعلوم ان العيش لا ينال إلا بعرق الجبين،لأنه يستحيل ان يحصل كل إنسان رزقه من أرباح النصيب ، والا فمن يقوم بالاشغال الاخرى التي عليها مدار البقاء وبها حركة المجتمع الإنساني .

وبالجملة ـ فتحريم (ورق النصيب) كتحريم (الميسر) واتخاذها وسيلة لجمع الصدقات عمل غير مأجور ولا مبرور ولا مقبول عند الله تعالى ، والذنب فيه على المتصدق مضاعف ، لانه يتصدق بحرام ويطعم المتصدق عليهم حراماً وهم لا يعلمون « ليتها لم تزن ولم تتصدق » .

٢٣٥ ـ الاستقامة من أقوى أسباب النجاح

الاستقامة هي الاعتدال في جميع الأمور من الاقوال والافعال والمحافظة على جميع الاحوال التي تكون بها النفس على أفضل حالة وأكملها ، فلا يظهر منها قبيح ولا يتوجه إليها ذم ولا لوم، وذلك إنما يكون بالمحافظة على الشرع الشريف والتمسك بالدين والوقوف عند حدوده والتخلق بالأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة كاجتناب المحارم والتعفف عن المآثم ولين الجانب والصدق وإنجاز الوعد وبذل النصيحة والشفقة على مخلوقات الله وأداء الأمانة لمن ائتمنه منهم وكف اليد واللسان عن أذيتهم وبذل الشفاعة والعفة والورع وغير ذلك . قال تعالى : ﴿ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ . فهي من أفضل الخصال وأجمل الخلال فيها كمال المروءة وتمام الإيمان ، وبها تكسب الفضائل وتسلب الرذائل وتحمد السيرة وتحسن السريرة . قال تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ﴾. فما أحسن الاستقامة وأجلبها للخير وأدرها للرزق. قال تعالى: ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ .

حيثما تستقم يقدر لك الله نجاحاً في غابر الأزمان .

فالاستقامة قاعدة نظام الأعمال، فإذا انتفت اختل ذلك النظام،وعلى مبدئها الصحيح تروج تجارات التجار ، وتجري أعمال جميع العمال وأصحاب الأعمال في سبلها ـ ومهما كان المرء شريراً وكان مستقيماً في معاملته دار دولاب عمله .

وبالجملة ــ إن آمن طريق يسير فيها من يرمي الى العلا هي طريق الاستقامة والقيام بالواجبات، طريق الهدى والابتعاد عن اللهو واللعب ــ هي الطريق التي سار فيها الذين سادوا بحق ــ هي الطريق التي نزلت بها الشريعة الغراء .

٢٣٦ ــ الفحم من لوازم الحياة الضرورية

الفحم جسم صلب هش سهل السحق أسود اللون ، ويكون إما بتقطير الخشب او إحراقه في الهواء المطلق إحراقاً غير تام كما هي عادة تحضيره ، وإما بتكليس أي إحراق العظم في إناء مغطى ويكون الفحم ثقيلاً متى كان متحصلاً من الخشب الصلب الكثيف وخفيفاً متى حصل من الخشب الأبيض الخفيف ، ويختلف احتراق الفحم باختلاف خفته و كثافته،فكلما كان خفيفاً سهل احتراقه والتهابه ، وبضد ذلك إذا كان كثيفاً ، ولذا يستحسن استعمال الفحم الخفيف لعمل البارود .

وأما المضار التي تتسبب عن احتراق الفحم ويجب التحرز منها ، فهي إذا أحرق الفحم في حفر النار أو في المناقد تولد عن ذلك غاز يسمى أوكسيد الكربون ــ وذلك إن كان مقدار الفحم المتقد زائداً او تولد عنه غاز حمض الكربونيك إن كان مقداره قليلاً او تولداً معاً وكلاهما سم قتال ، فإن بهما او بأحدهما تحدث آلام في الرأس وثقل ودوخان، وابتداء اسفكسيا (أي اختناق) وذلك كله إن كان إيقاد الفحم في محل محبوس الهواء، وليس الهواء متجدداً فيه وإنا نرى كثيراً من أرباب البيوت يستعملون الفحم وقوداً في بيوتهم للتدفئة في زمن الشتاء خصوصاً في المحال المحبوسة الهواء كالخزائن الصغيرة والمناظر والحمامات . فالذي ينبغي لهم في هذه الحالة ان لا يدخلوا الفحم المتقد في موضع من المواضع المذكورة إلا بعد ان يلتهب جميعه في الهواء المطلق ويصفو بحيث ينقطع دخانه ، وبذلك يكون الإنسان آمناً على نفسه من مضراته الهائلة وغازاته القاتلة .

وأما منافع الفحم فعديدة ــ منها استعماله وقوداً في البيوت وفي الصنائع ، ومنها دخوله في تركيب أنواع البارود ، ومنها امتصاصه المواد الملونة والغازات (خصوصاً الفحم النباتي) بواسطة مسامه أي أخليته الكائنة بين جزئياته وهذه الخاصية صيرته نافعاً في الصنائع لإزالة المادة الملونة من بعض المحاليل كما في صناعة

السكر وكما في الاعمـــال الكيماوية ولإزالة العفونة من السوائل والأطعمة ، فإذا وجد الماء منتناً وأريد زوال عفونته واستعماله للشرب او خلافه يرشح على طبقة من الفحم . وإذا أنتن الطعام وجعل الفحم في خرقة نظيفة وأغلي مـــع الطعام أزل عفونته وصيره صالحاً للأكل ، وكذلك ينفع الفحم لحفظ الماء من التعفن ، ولذا تجد البراميل المعدة لحمل المـاء في السفر يطلى باطنها بالفحم خفيفاً لتحفظ الماء من التغير زمناً طويلا ومن منافعه أيضاً حفظ المواد العضوية من التعفن ، وله استعمالات طبية باطنية وظاهرية وغير ذلك والله أعلم .

٢٣٧ - الهواء حق مكتسب لجميع العالم

بديهي أن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بدون الحصول على مقدار معـلوم من الهواء ، فهو غذاء ضروري به تنعش القوى وتتنبه الحواس وضرورته كضرورة الطعام والشراب، بل أهم لأن الإنسان يمكنه المكث من غير أكل أياماً ولا يمكنه الاستغناء عن استنشاق الهواء لحظة .

قال بعض الحكماء : كيف يكن الهواء يكن الدم وكيفما يكن الدم تكن الصحة .

وقال بعضهم : إن زهرة الإنسان أحوج الأزهـار الى الهواء والشمس . ألا ترى ان سكان الأرياف مع عدم جودة غذائهم أصح منسكان المدن أبداناً وأقوى أعضاء ، وما ذاك إلا لجودة الهواء الذي يعيشون فيه .

نعم إن الهواء من أجـــل النعم التي أنعم الله بها على جميـع المخلوقات لشدة لزومه للحيوانات والنباتات ، إذ مدار حياتها عليه بحيث لو انقطع عنها مـدة وجيزة لمات الجنسان بلا توان .

ومعلوم ان الإنسان قد يعيش أكثر من شهر بلا تناول طعام وبضعة أيام بلا شرب ماء ، ولكنه لا يعيش أزيد من خمس دقائق تقريباً إذا انقطع عنه الهواء ولـما كان الهواء من الضروريات الشديدة للزوم حياة كل ما أوجده الله تعالى من حيوان ونبات ، جعله عاماً منتشراً في جميـع المحال، فلا يخلو منه موضع ، حتى ما نظنه فارغاً مثل الإناء الذي ليس فيه ماء ولا غيره فإنه في الحقيقة ليس فارغاً بل مملوءاً بالهواء .

ومن كرمه سبحانه وتعالى ان جعل وجوده سهلاً لاندفع له عوضاً ولا نبذل له ثمناً .

٢٣٨ ـ تأثير التمثيل الجدّي في المدنية والحضارة

التمثيل مرآة ترينا أطوار الأقدمين في أشباح المتأخرين ، وتاريخ يطلع فيه الخلف على عوائد السلف ، بل حلم في يقظة نرى فيه أحوال الأجيال الغابرة في الآونة الحاضرة ، وعظة بأغرب العبر لقياس ما يأتي على ما عبر ، بل هو صورة تظهر فيها العواطف والأخلاق مرسومة بمداد الملامح والأحداق ، ففي المشهد يتجسد ملاك الحب وتتآنس آلهة الجمال متسربلة بحلل الكمال، وفي المشهد تتجسم الفضيلة والرذيلة وتتناظران ، ويشخص الوفاء والإخلاص والعفاف وكل سجايا الإنسان ، فما التمثيل الجدّي إلا معرض تستعرض فيه العواطف والفضائل والرذائل والعوائد والأخلاق ، فكما يبتهج النظر باستعراض المناظر الجميلة ، هكذا تبتهج النفس باستعراض العواطف الواضحة في صور الملامح البدنية ، ولا يخفى ان العواطف تتفاهم بلغة الملامح ، فبقدر ما يجيد الممثلون في إظهار احساساتهم وانفعالاتهم المقتضية أدوارهم يتأثر المشاهدون وتتحرك عواطفهم تبعاً لملامح الممثلين ، فالتأثر من التمثيل غير متناه لأن الإجادة فيه غير متناهية أيضاً ، ولهذا لا نعجب اذا رأينا الحاضرين في الملعب يذرفون الدمع مدراراً اشفاقاً على الممثل،اذ يمثل دوراً محزناً او يطرقون فرحاً مع الممثل اذا كان فرحاً مسروراً لأن العواطف تحاكي نظراءها . ألا ترى أنك تبكي مع الباكين ، وان لم يكن الداعي الى البكاء لا يعنيك ، وترثي للتعساء وان كنت سعيداً وتفرح مع الفارحين وان كنت لست من ذوي الفرح .

وبالجملة ـ التمثيل الجدّي من أعظم البواعث على تأديب النفس وحسن تهذيبها وبذلك كبرت فوائده وعظمت مزاياه التي لا تحصى ولا تستقصي .

٢٣٩ ـ الاستمرار والثبات في الأعمال سبيل النجاح

الثبات في الاعمال يكون بالمثابرة عليها ، ومقابلة الاهوال والمشقات والصعوبات التي تعرض لهفي أثناء سعيه وراء النتيجة المقصودة له من تلك الاعمال بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى يحصل عليها وينال أمنيته منها ، فإذا عرض له

ما يظن معه صعوبة الوصول الى النتيجة المطلوبة له، فلا يكون ذلك حائلا دون الاستمرار في العمل ، فإنه لا صعب مع الاجتهاد وتوجه النفس والرغبة في ذلك الشيء المطلوب ، كل ذلك مع تدقيق النظر والفكر ، والتؤدة في العمل وتخير الوقت المناسب في الحالة المناسبة ، وعدم الميل الى جانب الافراط فإنه ممل ومتعب ، ولا الى جانب التفريط لعدم نجاح العمل معه ، فمن لازم الثبات بهذه الكيفية وجعله أساساً في سائر أعماله كانت السعادة احدى خطياته والنجاح أسير خطواته والفلاح قرينه والعز بيتاً هو قطينه ومن استفزته الاهواء ، وطوحت به الحوادث فاشتغل كل يوم بعمل وكد غير حكيم واجتهد غير عليم ، فلا شك انه لا يجني غير الشقاء والتعاسة والعناء بدون ثمرة تعود عليه او فائدة ترجع اليه .

فالثبات هو الاستمرار في العمل بلا انقطاع عنه الى البطالة ، وفي الاقوال المأثورة (الثبات عنوان النجاح) . ولا شك في ان الذين نجحوا هم الذين ثبتوا في أعمالهم ولم يضيعوا أوقات العمل في اللهو والبطالة .

وبالجملة ـ فالدنيا ميدان تتسابق فيه الهمم وتتبارى عليه الامم فمن سبق فاز بالحسنى ، وكانت يده في هذا الوجود هي العليا ، ومن قصر وونى ، كانت يده هي الدنيا ، وعاش عيشة الازل الادنى ، وانما ينال السبق بالثبات والصبر وعدم التقلب والضجر ، وليس في الوجود عمل الا ويحتاج الى الثبات بنسبة ما فيه من المشاق، ولا يحول دونه من العوائق التي لا يزيلها الا المثابرة عليه والثبات له . وفي الحقيقة والواقع ، ما أفاض نور العقل على نفس الإنسان من هدى ، وما حرك الآمال فدفع بالرجال الى جلائل الاعمال ، فتناولوا أسرار الطبيعة من كبد السماء ، واستخرجوا كنوز الغنى والثروة من بطون الارض ، وما عمر الارض وأحياها وشيد دعائم المدنية وبناها ، وما مكن في النفوس رغائب الحياة، فتنافست بمحاسن الاعمال واستمسكت بعروة الجد فبلغت منتهى الكمال الا بالثبات الذي هو قوة في النفس تحتاج الى سبق الإرادة وصدق العزيمة مع التصميم الذي لا يشوبه التردد في الرأي .

وما قام لوجود البشر وجود ، وقرب طريق السعادة للإنسان كالثبات .

وفي المثل : من ثبت نبت ومن صبر ظفر .

والمتصفح صفحات التاريخ يجد ان الثبات من أهم دواعي سيادة الأمة الإسلامية على الامم وترقيها في معارج المجد .

وهكذا الحال أيضاً في كل أمة كان الثبات رائدها وقوة العزيمة سندها ، وهل ظهر أفراد الرجال الا بالثبات ، وهل خدمت المدنية قوة كالاختراع والتفنن بالابتداع ، وانما هي قوة لا تصدر عن غير أهل الثبات لما يلاقونه في سبيل العمل من المصاعب والمتاعب التي لو خالطها شيء من الملل والتردد لما نجح أربابها ولخاب عمل أصحابها ، ولكن بالثبات بلغوا أقصى الغايات .

ولقد بلغ الثبات عند الأمم الغربية مبلغاً عظيماً ، بـه خدموا بلادهم وأخرجوها من ظلمات الجهالة الى نور المدنية وتحملوا لأجله المكاره والمشاق وأنواع العذاب وسوقهم الى السجون واذاقتهم كأس المنون .

٢٤٠ - القمار معول الخراب والدمار

القمار مصيبة عظمى وطامة كبرى وهو داء عضال سرت سمومه في عروق كثير من الرجال فأضاعت نعمتهم وسلبت ثروتهم فاضمحل أمرهم وسقطوا عن مراتب الجاه الى أسفل درجات الذل والهوان ، وأصبحوا على قوارع الطرق يتسولون. قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ .

أخسر خلق الله منا صفقة ... من يطلب اليسر بلعب الميسر
يجني حراماً ان جنى وقلما ... يبلغ الا حسرات المعسر
فغنمه جرم وأما غرمه ... ففقد ميسور وفقر موسر

فالميسر مهلكة للأمم ومضيعة للدين ، فكم خرب من قصور وكم التهم من أموال ، كيف لا وان المقامرة تقود الى كثير من الرذائل لأن الرابح يستفزه الربح الى امتطاء متون الشهوات فيخوض عباب اللهو والبطالة ، ويندفع الى حمأة الرذائل فيخسر صيته وصحته وصلاح اخلاقه واسراف أمواله .

فالقامر سواء ربح أم خسر لا بدّ له من الانفاق من ماله الحرام ، ومال الحرام أثقل من الزئبق اذا وضع في الجيوب فلا يلبث ان يفتقها وينتثر منها ، وهكذا مال المقامرين تراه يجول بين جيوبهم .

ففي الصباح ترى اكياسهم ملأى بالاصفر الرنان حتى اذا تتبعتهم في بحر النهار وآناء الليل تراهم يحسبون دنانيرهم واذا هي في الاكياس كالثمالة في الكاس فتأخذك الدهشة ويستوقفك العجب ، ويجول في ضميرك سؤال (أين ذهب الذهب) ومما لا شك فيه ان القمار معول الخراب الذي لا يحب ولا يستطاب ، فهو رسول الفاقة الذي ينزع البركة ويعطل الحركة ، بل هو الموت الأحمر والعار الاكبر ولاعبه في الهيئة الاجتماعية لا يذكر ، لأنه عار من الآداب والفضائل ملبس بالجرائم والرذائل ، ساقط المروءة والهمة عديم الشرف والذمة .

لكل نقيصة فى الناس عار	وشر معائب المرء القمار
هو الداء الذي لا برء منه	وليس لذنب صاحبه اغتفار

وبالجملة ـ ان لكل داء دواء الا المقامرة فانها أُعيت من يداويها ، وذلك لأن الإنسان يميل بالطبع الى اللهو على شغفه بتحصيل المال والثروة عفواً ـ فاذا لاح له بارق الامل من خلال البخت والنصيب ، وكان في يده ما يسعفه على إجابة سؤال النفس الأمارة بالسوء ارتطم في هذه الورطة ، وسواء ربح أو خسر فهو لا يزال مواظباً على اللعب آملاً تعويض الخسارة او زيادة الربح حتى تصير المقامرة فيه ملكة راسخة متمكنة لا تقوى عليها نصائح الناصحين ونواهي الشرائع والدين ، فهي كالداء العضال لا ينجع فيه دواء حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وجنون المقامرين فنون وقصصهم عجائب وغرائب وهم منتشرون في كل مكان معروفون في كل زمان مقذوفون بكل لسان، محكوم عليهم في كل الشرائع والأديان، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا يزدجرون، فإن القمار كان من قبل منتشراً كثيراً بين الرومان .

فالمقامرة تخلب العقول فلا يبصر المقامر الهاوية تحت أقدامه ، لأن بريق الذهب يبهر نظره فهو كالظمآن في الفلاة يرى السراب فيظنه ماء فيجد السير اليه ولا يزداد إلا ظمأ وكلما قرب منه ابتعد عنه حتى يعتريه الكلال فيهلك ، وعلى هذا النحو يجد الذي يحضر اللعب من نفسه دافعاً يحمله على اقتفاء أثر غيره

والتحدي بأصحابه ، وهو يرى من خـلال الامل بريق الثروة والسعادة فكم من رجال حضروا مجالس المقامرة لمجرد رؤيتها فعادوا من أكبر المقامرين ، ومن لعب مرة اضطرمت فيه محبة اللعب حتى لا يعود يقوى على دفعها، ولذلك قيل: «المقامرة لجة يغرق الغائص فيها لا محالة لأنها لا قرار ولا ساحل لها» ، ومما نقش على باب أحد بيوت القمار : « لهـذا الكهف بابان باب الامل وباب الإثم والهلاك يدخل اليه من الأول ويخرج من الثاني » . فالمقامرة لا سبيل الى اجتناب ضررها إلا بالابتعاد عنها وأفضل طرق الوقـاية منها مجانبة الكسل والبطالة والبعد عن بيوت المقامرة ومصاحبة المقامرين ، وهذه ذكرى للغافلين وتبصرة للعاقلين .

٢٤١ ـ فوائد الاجتهاد ومضار الكسل

الاجتهاد حياة البلاد وأس نجاح الأعمال الوسيلة الى ارتقاء درج الكمال فكم وضيع باجتهاده صار رفيعاً وكم أمير بكسله أصبح وضيعاً ، فمن اتخـذ الاجتهاد شعاراً وواظب عليه وتعوده دثاراً توج بتاج السعادة ورزقه المولى الحسنى وزيادة.

وإذا هممت بأي أمر فاجتهد   فيه فإن لكل مجتهد نصيب

والكسل والترفه والتعود على كثرة العقود وترك العمل مضر بالجسم ووظائف أعضائه ومؤد الى ضعف العصب واسترخاء العضل لأنه موجب لضعف الحركة العضوية وانحطاط القوة الحيوية فيكون سبباً لبلادة الذهن وخمود وظائف البدن.

على كل حال فاجعل الجد عـدة   تقدمها عنـد النوائب في الدهر
فـإن نلت حظاً نلته بعزيمة   وان قصرت عنك الحظوظ فعل عذر

وإن الكسل سبب الفشل ومبطأة للعمل ومخيبة للأمل .

لبس البطالة والكسل   بالجالبين لك العسل
فاعمل فان الله قـد   حث المطيع على العمل

ومنشأ الكسل عـدم تربية الابناء بتحسين أحوالهم وتهذيب أخلاقهم ، وتعويدهم من الصغر على الاشغال والتخلد على المشاق وتدريبهم على اكتساب فضائل الرجال وهمة الابطال وتنوير عقولهم وإرشادهم لمـا فيه صحة أبدانهم وحفظ أُمور دينهم ،خصوصاً بترك محبة شهوة البطن، ولا يتمتع صاحبها بالعيش

الهنيء وتكون سبباً لضعف الهمة وقلة المروءة ، إذ لا يخفى ان العدد الاكثر من الكسالى ، إنما جاءهم الكسل من الافراط في المأكل والمشرب ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « لا تميتوا القلوب بكثرة الاكل والشرب ، فان القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء » .

فنحن كسالى في أعمالنا وفي أقوالنا وفي أفكارنا وفي رياضتنا نحن كسالى في جميع أطوار الحياة ومظاهرها ، نحن كسالى في الجد وكسالى في الهزل وكسالى أمام المصائب وأمام الافراح وتلقاء النافع وإزاء الضار ـ نحن كسالى في الصباح وفي المساء ـ نقوم من النوم كسالى ونذهب الى النوم كسالى ، ونعيش بين هذين الوقتين كسالى ـ انظر الى تاريخ حياة كل فرد منا تجده مملوءاً بالاكل والشرب والنوم والاقوال الفارغة ـ وقد لا تجد في صحيفة واحدة من صحف أحدنا عملاً يذكر .

وليس المقصود ان نعمل ما فوق الطاقة او ان نأتي بالعجائب والغرائب، بل اننا نعمل الاعمال العادية التي بدونها لا يمكن الحفاظ على سلامة الجسم وصحة العقل ، فعيبنا الكبير الذي يشاهد بوجه التقريب عاماً بيننا ، ويكاد لا يخلو منه أحد ، وإن كان يختلف قلة وكثرة هو الكسل .

وقصارى القول ـ ان الاجتهاد استفراغ الطاقة في تحصيل أمر مستلزم للكلفة والمشقة ، والعمل والاجتهاد في كفتي ميزان .

إذا خف الاجتهاد هبط العمل، ومتى أصيب المرء بداء الكسل ضعفت همته ووهنت عزيمته ، وأصبح لا يستطيع العمل الحقير بعد ان كان يتقاعد عن العمل الخطير فقط ، وأصبح آخر القوم في سبيل الحياة وعاش مرذولاً .

شمر وجد لأمر أنت طالبه إذ لا تنال المعالي قط بالكسل

٣٤٢ ـ خزان اصوان وما جلبه من المنافع العامة للزراعة

ان أرض مصر من أهم الاراضي الزراعية ، فلذا منحها المولى تبارك وتعالى ماء عذباً (ماء النيل السعيد) وحفظاً لهذه المياه من ذهابها سدى في البحر الابيض المتوسط شيد خزان عظيم في اصوان ليعم الري جميع اراضي القطر المصري ، وحينئذٍ سهل زرع الاراضي العالية مرتين بعد ان كانت تزرع مرة

واحدة في كل سنة ، ولتحفظ البلاد من الشرق والغرب ، وتكثر الفائدة وتنمو الخيرات وتنشر البركات وتزيد المحصولات وتقدم التجارات ، ويرتقي الشعب ويمحق اسم السلب والنهب ، ويعيش كل فرد سعيداً يودّع عيداً ويستقبل عيداً.

وفي الحقيقة والواقع لما كان النيل الذي هو قوام الحياة في هذه البلدان، عليه مدار الخصب والعمران، اعتنت بـه ولاة الامور وسجنته بقناطر هائلة تنزله بقدر مقدور في أوقات مخصوصة بانتظام ، كفلت الراحة للخاص والعام .

اخزان مصر انت ام هرما مصر اجـل وأسمى في المكانة والقدر
وهيهات ما اهرام مصر وان سمت بأرفع رأساً من حضيضك لو تدرى
ومـا انت خزان المياه وطميها وأبليزها بل خازن الدر والتبر
تدفقت بالخـيرات من كل جانب وجمعت أقطار المنافـع في قطر

وحينئذٍ تسنى للحكومة بذلك ان توزع مياه النيل الذي هو روح حياة مصر وسبب سعادتها توزيعاً عـادلاً ، وان تحفظ ما زاد من حاجاتها في وقت الفيضان الى أيام انخفاض مياهه وقصوره عن ري ما ارتفع من واديه ، وبذلك امكن المصريون ان يزرعوا اراضيهم عدة مرات في السنة الواحدة وان ينتفعوا بثمرات جهات ما كانوا ينتفعون بها من قبل، فازدادت ثروتهم واتسعت تجارتهم وغنيت حكومتهم ، ولعمر الحق ان واحداً من تلك الخزانات التي تتدفق مياهها بالخيرات عند اولى الالباب لخـير من الف هرم ، فشتان ما بين آكام ضيع فيها نفيس الزمن ، وقوى الرجال وقناطير الاموال ، وبين كنوز الذهب وعيون النشب ومواحق الجدب وطلائع بشائر الخصب .

٢٤٣ - تأثير المطابع في انتشار العلوم والمعارف

الإنسان يفتقر الى ثلاثة اغذية: غذاء النفس وهو العمل الصالح وتقوى المولى تبارك وتعالى . وغذاء الجسد وهو ما طاب وحل من نبات وحيوان . وغذاء العقل وهو العلم والمعرفة . وهـذا الغذاء الاخير مفضل على الغذائين السابقين إذ به يمهد السبيل اليهما ويقتدر المرء على اتقانهما فضلاً عما يستفيده من رفعة الشأن وحسن الحال في المبدإ والمآل .

ولم يتيسر العلم للإنسان ولا عمت منافعه حتى تمكن من اثبات خواطره على

القرطاس ونقل مـا يكنه صدره الى ما بين ايدي الناس ، وكان لأول عهده في الكتابة يقاسي المشاق فيحفظ ما يكتب وادخار ما يقتبس من شوارد المعارف وشتات العلوم ، وكان القدماء اذا ارادوا اخذ علم من العلوم طووا البيد والقفار وتجشموا الاخطار تقرباً ممن احرز العلم وامتاز به . ولم يكن من سبب يدفعهم الى مقاساة عناء الاسفار الا قلة الوسائط التي تساعد على نشر العلم وبثه في جميع انحاء المعمورة ليستفيد منه كل قاص ودان ، واستمرت الحال على هذا المنوال ، الى ان حنت دواليب المطابع حنين الناقة على الفصيل ، واخذت تدر للإنسان البان العلوم والمعارف .

ان المعارف للرقي وسائـل   لا تبصر الاشياء بلا اعيان
واذا المعارف اشرفت في أمة   نالت أمانيها بغير توان
ان المطابع للعلوم وسيلة   والشمس لم تحتج الى برهان

وقصارى القول ـ ان للمطبعة اياد تذكر فتشكر وللخط مساوي لا تغفر ، اذ الخط يعتريه التجريف لغـير جناس ، والطبع ينتج الصحة بدون قياس ، والناسخ اسير النقل ، وذو الطبع ينسج على منوال الفضل ، والمطبعة تعمل في بضع ايام، ما لا يعمله الكاتب في اعوام، ولعاب القلم يمحوه اللسان، وأثر الطبع لا يغيره الزمان ، فذاك كالنقش على التراب ، وهـذا اثبت من الوحي في الصم الصلاب ، وثمرة الخط تجني بيد المال الكثير ، وزهرة الطبع يشمها الغني والفقير والخط لو كان انفاً لكان اجدع ، والطبع لو كان شكلاً لكان مربعاً ، والخط لو كان جماداً لكان حجراً صلداً ، والطبع لو كان جوهراً لكان جوهراً فرداً .

٢٤٤ ـ الحديد أنفع أم الذهب ؟

الحديد فيه منافع للناس على اختلاف الاجناس، منه تصنع السكك الحديدية والاسلحة والآلات الحربية والادوات الزراعية والسفن البخارية ، بـل متوقفة عليه كافة المنافع العمومية، كيف لا هو الحافظ للأرواح البشرية والقاهر للأعداء والحاكم بين الملوك والامر. قال تعالى: ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾. وحينئذٍ فهو انفع من الذهب الذي يستعمل في الحلى للزينة ويستعمل نقوداً للمعاملة ، ويمكن ان يستغني عن ذلك بعملة الورق المستعمل الآن وخلافه.

بخلاف الحديد فــلا يمكن لأحد ما الاستغناء عنه بحال من الاحوال ، اذ منه الكبـاري والجسور وآلات الحرث والري والزرع والحصد والطحن وسقوف المنازل وهلم جرا من كل ما تتوقف عليه مصالح العباد في كل زمان ومكان .

٢٤٥ ـ الحلم أشرف الأخلاق الطاهرة

الحــلم من اكرم الخلال واتم الخصال وافضل شمائل الرجال واعلى مراتب الكمال، وهو اصل من أُصول الدين، وحصن من حصون الايمان حصين ، وركن من اركان الشرع متين ، من استند اليه وتمسك بـه واعتمد عليه ، استنارت له الظلم ، وأمن عثار القدم وعصم من مواقع الندم، وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس وبعد الهمم ، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم ، يسمو بصاحبه في الدارين الى ارفع الرتب ، ويطفى من الإنسان جمرة الغضب .

قال تعالى : ﴿ ان ابراهيم لحليم أواه منيب ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « تعلموا الحلم قبل العلم فما جمع شيء لشيء أحسن من علم الى حلم » .

ألا ان حــلم المرء اكرم نسبة　　　يسمو بهـــا عند الفخار حليم
فيا رب هب لي منك حلماً فانني　　　أرى الحلم لم يندم عليه كريم

والسفه من الشيم المبغوضة والخلال الرديئة المرفوضة الدالة على خسة الطباع وشمائل الاوضاع ، وصاحب السفاهة لا يثبت على حال ولا يقف على حقيقة من الاقوال والافعال. قال تعالى:﴿ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه﴾.

وقال بعض الادباء : من غرس الغضب في ارض السفاهـــة شجراً وارسل عليها العجلة مطراً ، اجتنى منها الندامة ثمراً ولم يعدم في عواقبها ضرراً .

وقال الشاعر :

اذا نطق السفيه فــلا تجبه　　　فخير من اجابته السكوت
حلمت على السفيه فظن اني　　　عييت عن الجواب وما عييت

وبالجملة ـ فالحلم « وهو سكون النفس عند دواعي الغضب مع ترك الانتقام » من اشرف الاخـــلاق واكرمها واعلى مراتب الكمال واعظمها ، يبلغ صاحبها ذروة المجد ويكسبه جميل الحمـد ويصون الإنسان عرضه ولا ينال منه السفيه

غرضه ولا يكون الإنسان حليماً، الا اذا كان عالماً عاقلاً صبوراً جامعاً بين عظم القدر وسعة الصدر مترفعاً عن الشباب ، فان ذلك يدل على شرف النفس وعلو الهمة ويدرك بالرفق ما لا يدرك بالعنف ، واحتمال السفيه خـير من مشابهته والإغضاء عن الجاهل خير من مناضلته، به تكثر الانصار وتدفع الاشرار ، فمن غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم .

قال الأحنف بن قيس : ما آذاني احد الا اخذت في امره باحدى ثلاث : ان كان فوقي عرفت له فضله ، وان كان مثلي تفضلت عليـــه ، وان كان دوني اكرمت نفسي عنه .

٢٤٦ ـ لا تكن ليناً فتعصر ولا يابساً فتكسر

لكل انسان غرائز شتى مختلفة كالحـلم والجود والبخل والسرور والحزن والغضب والرضا واللين والشدة وهـلم جرا ، والمتصرف في تلك القوى والحاكم بينها بالقسط واضعاً كلا موضعه هو (العقل) فيه تدرك مواضع (اللين والشدة).

فاللين سهولة الاخلاق في جميع المعاملات، والشدة قسوة القول والفعل في كافة الصفات ، ومن بنى جميع اعماله على احداهما ألقى بنفسه الى الهــلاك والضلال، وباء بالخسران والدمار والوبال، ومن قرأ التاريخ يرى العجب العجاب ويقف على اسباب التغير الناتج من احداهما والانقلاب . هـذا الحاكم بأمر الله الفاطمي اتخذ الشدة عادته في جميع اعماله وسائر احواله ، فوقع في ارتباك شديد .

وهذا المنتصر بن الظاهر الفاطمي اتخذ اللين ديدنه والسهولة شيمته ، ولذا كان لا يبالي بما يقع في الدولة من الاخطار الجسيمة ، فانتشر الفشل في الرعية ووقع النزاع بين جيشه وقامت الحروب في البلاد واشتد القحط واكل الناس بعضهم بعضاً حتى ابتاعوا الكلاب والقطط بعشرات الدنانير وكلما كانت توجد.

وهــذا اسكندر ذو القرنين وضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ، فبشدته غلبت فئة اسكندر القليلة فئة (دارا) الكثيرة وملك البـلاد وقهر الاجناد ، وبلينه ملك القلوب واستقام له الملك .

فما احسن من وضع كلا في موضعه وانزل كلا في درجته وموقعه .

أرى اللين ضعفاً والتشجع هيبة ومن لا يهب يحمل على مركب وعر
وما كل حين ينفع الحلم أهله ولا كل حين يدفع الجهل بالصبر

ومن قصرت بصيرته وزاغت عقيدته فلم يهتد للصواب ولا يعرف من أين يطرق الباب ، ولم يميز بين من يقومه الحسام وبين من يصلحه الكلام ، فالأولى به سلوك طريق اللين فقط ، اتقاء من شدة الاخطار والوقوع في المصائب والمضار ، ولذا نرى كثيرين اتبعوا خطة اللين لأنه أقوى تأثيراً في النفوس ، ولأنه خير الأمرين وأقوم الطريقين وأعدل الحكمين .

قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾. وقيل الماء مع رقته ، فتت الحجر مع شدته .

ولي فرس للشر بالشر ملجم ولي فرس للخير بالخير مسرج
فمن ام تقويمي فإني مقوم ومن رام تعويجي فإني معوج
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتي الى الحلم أحوج

٢٤٧ ـ ما هو الغرض من قدوم السياح الى بلادنا المصرية

بلادنا المصرية أحسن البقاع تربة وهواء وأصفاها سماء وماء وأوسعها مرتعاً وفناء ، وأقدمها فخراً وآثاراً وأشهرها معارف وأفكاراً وأكبرها رجالاً وأفضلها أبطالاً ، تركوا بعدهم الآثار التي تدهش الابصار . لهذا نرى السياح يجوسون خلال ديارنا وينسلون الى هذه الآثار من كل حدب أفواجاً في فصل الشتاء ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء الجيد وفراراً من البرد القارس في بلادهم الذي يكاد يقضي على حياة كثير منهم واستكشافاً لآثار بديعة الصنع محكمة الوضع ، بقيت على الدهر وقد بادت قرون وهلكت عصور .

ومن نظر الى الاهرام التي مضت عليها القرون الطوال ، وهي شباب يندهش لبه ويتحير عقله في كيفية بنائها وقطع أحجارها ورفعها الى ذروتها ، ويشهد لهؤلاء ببراعتهم في الهندسة وقوة اختراع الآلات المتينة الصنعة كما أنهم شادوا المعابد العجيبة الوضع والاسبلة العميمة النفع .

وقد يستغرب المرء ان يكون من هذا الأثر الصامت كل هذه الفوائد والمزايا، ولكن من ينظر الى معنى الآثار بعين الإمعان يطلع على خفايا ثمينة تتجلى للباحث المستقرىء الذي لا يعبأ بزخارف الامور ، ولا يقف عند حد النظر السطحي .

ولم تنشأ المتاحف الاجنبية ولم يبذل الاوروبيون النفس والنفيس في جمع الآثار القديمة لمجرد وضعها في البيت او المتحف زينة أو أثراً جليلاً ، بل هم يتوخون من وراء ذلك فوائد جمة .

وكثيراً ما كشفت لهم الآثار المصرية غوامض العلوم وخفايا الصناعات ، وكانت مورداً للعلماء ونموذجاً للصناع ، أولئك يدونون منها تاريخ الحضارة القديمة ، وهؤلاء يحاكونها في طريف المصنوعات ، فعادت هذه الآثار على العلم والصناعة بأفضل فائدة وأجل عائدة .

والفوائد التي تعود على بلادنا من قدومهم رواج التجارات ونشر الصناعات ، بل اتساع دائرة المعاملات وربح الفنادق ، وغير ذلك .

وقد يتوهم كثير ان متاحف أوروبا غاصة بآثار اجدادهم المتقدمين او ملوكهم السابقين، وما هي إلا مشحونة بآثار المصريين والشرقيين فهم يفاخرون بما يهون لدينا .

يقصد الاجنبي مصر من بلاده السحيقة لينظر آثارها النائية ويحمل من كنوزها ما يظفر به ، فيعود الى بلاده فرحاً مسروراً يحدث الناس بما لاقاه وما شاهده وما اشتراه،فيسخر مواطنوه من جهلنا وإهمالنا وعدم اكتراثنا بالصنائع والفنون .

ولقد جبلنا معشر الشرقيين على عدم الاهتمام بالمفيد ، فلا نعبأ بالدر داخل الصدف لأن في فتح الصدفة لاستخراج الدرة مشقة وعناء .

والآثار – إما بناء كالمعابد والمساجد والمدارس والجوامع والاهرامات والرباطات والزوايا والبيوت والابراج والقلاع والقناطر والاسبلة وما شاكل ذلك ، او نقوداً كالدنانير والدراهم ونحوها ، او نقوشاً كالتي في جدران المعابد وما اشبه ذلك ، او صناعات كتطعيم أواني النحاس من الذهب والفضة ، وكتطعيم الخشب بالعاج والابنوس والصدف وخلافه،او صباغة كدهان السقوف

والجدران وغيرهـــا ، او كتباً ككتب الطب والصناعة والتاريخ والمصاحف الشريفة ، الى غير ذلك من العلوم والفنون .

٣٤٨ - فوائد تعلم اللغات الأجنبية

بقدر لغـات المرء يكثر نفعه | وتلك له عند الشدائد أعوان
فبادر الى حفظ اللغات مسارعاً | فكل لسان في الحقيقة إنسان

تعلُّم اللغات حفظ للذات من جميع الآفات ، فمن تعلم لغـة قوم أمن من مكرهم ووقف على خيرهم وشرهم وعرف اخلاق ذويها وسيرتهم ، وما هم عليه من الآداب والمحاسن الإنسانية ، فيأخذ منها ما يكون صالحاً لأمره نافعاً لقومه مفيداً لوطنه، ويصير بمنزلة كثيرين من الافراد وان كان واحداً في نفسه ، كيف لا وانه يكون جامعاً أوجه الانتفاع مادياً وأدبياً لبني جنسه .

حفظ اللغـات علينا | فرض كفرض الصلاة
فليس يحفظ دين | إلا بحفظ اللغـــات

وبالجملة ـ ان الالمـام باللغات الاجنبية يعرف الإنسان ما لهم من طول الباع في المخترعات واتقان الصناعات ، ومن أين تجلب التجارات وكيفية الطواف حول الارض في السياحات ، ويدرك بمـاذا تقدمت هذه الامة وتمشت الحضارة والمدنية في نفوس افرادها ، وبم تأخرت تلك الامة وأضاعت بلادها وخسرت رجالهـــا وفقدت شريعتها واتحادها وفخرها ومجدها ، وبذلك يتمكن حب الوطنية في قلبه ويذب عن حوضها بسلاح شرفه .

وما الوطن المحبوب إلا يتيمة | وباقي المعالي كالدراري التوائم

٣٤٩ - هل الرزق بالسعي أو بالحظ ؟

السعي حركة الإنسان في ظروفه الزمانية والمكانية لإصابة الرزق والراحة والجاه ، فإذاً لا مرية في ان بقاء الإنسان وارتقاءه يتوقفان على سعيه أولاً وعلى عمله ثانياً ، لأن العمل خاتمة السعي الذي هو ناموس للبقاء والارتقاء . ومـا من أحد إلا وهو فازع الى سعادة يطلبها بجهد ، ومن طلب شيئاً وجدّ وجد ، ومن قرع الباب ولجّ ولج .

قال تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ . ومن سعى رعى ، ومن جال نال . قال تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ .

وجاء في الحديث النبوي عن الاعرابي الذي أراد دخول مسجد النبي ﷺ وناقته بيده فقال : يا رسول الله أأرسل ناقتي توكلا على الله عز وجل أم أعقلها؟ فقال النبي ﷺ : « أعقلها وتوكل » .

ألم ترى ان الله قال لمريم وهزي اليك الجزع يساقط الرطب
ولو شاء أدنى الجزع من غير هزها جنته ولكن كل شيء له سبب

وقال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « ما اكل رجل طعاماً قط خيراً من ان يأكل من عمل يداه وان نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده » .

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني ، وقد علم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وان الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض » .

وفي التوراة « ابن آدم خلقت من الحركة وأنا معك ، ابن آدم أمدد يدك الى باب من العمل افتح لك باباً من الرزق » .

وفي بعض الحكم : هل يجوز في وهم او يتمثل في عقل او يصح في قياس ، ان يحصد زرع بغير بذر او تجنى ثمرة بغير غرس او يورى زند بغير قدح او يثمر مال بغير طلب ، وقد جعل الله طلب الرزق مقصوراً على الخلق كلهم من الإنس والجن والطير والهوام منهم بتعليم ومنهم بالهام ، فأهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز ، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال ، ثم إذا نظر المتأمل الى الحالة الاولى من الهمجية وما صارت اليه الحالة الحاضرة من التقدم والعمران بواسطة الجد والاجتهاد ، وما وصلت اليه اميركا من الاكتشافات والاختراعات ، بل وجميع الغربيين ما ارتقعوا إلا بالجد والكد .

ومـا طلب المعيشة بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء

ولا تقعد على كسل التمني تحيل على المقادر والقضاء
فان مقادر الرحمن تجري بأرزاق الرجال من السماء
مقدرة بقبض او ببسط وعجز المرء أسباب البلاء

ومن الجهال الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم يعتقدون ان الاعمال والمساعي كلها عبث والرزق في الدنيا بالقسمة الازلية ، ويستدلون بقوله تعالى : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، والله خلقكم وما تعملون ﴾ . وبقوله عليه الصلاة والسلام : « الرزق عين ساهرة لعين نائمة » .

وبقول الشاعر :

ليس ما يحوي الفتى من عزمه لا ولا ما فات يوماً بالكسل

ويتعللون بألفاظ لا يفهمون تخريجها ولا تأويلها ، فاذاً ما يسمونه بختاً وحظاً وسعداً ونحساً ليس إلا أضغاث احلام .

كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة وابتغاء في الامل
والمرء يغلط في تصرف حاله فلربما اختار القعود على العمل

٢٥٠ - مقارنة بين سكني المدن والقرى

لا شك في ان المدن مركز العلوم والمعارف ومعدن الظرائف واللطائف ، ومنبع التمدن والآداب وحصن الأمن والاستتباب ، فيها اسباب الراحة والرفاهية التامة والحرية لجميع الافراد عامة ، فيها ما تشتهيه النفس وتقربه العين وتنشرح به الصدور ، فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت من انواع الطرب والسرور ، بخلاف القرى فانها بعكس ذلك على خط مستقيم ، اذا الفرق بينهما ظاهر جلي ، لأنه من البديهي ان القرى مأوى اللصوص ومجمع العصابات ، والدليل على ذلك القضايا الجنائية ، فان اغلبها بل كلها مقام على اهل القرى ، والسبب في ذلك تسلط الجهل عليهم وسوء تربيتهم وعدم تدينهم وغلظ طباعهم وفظاظة اخلاقهم .

فلذا يروى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه انه قال لبعض اصحابه : « لا تسكن القرى يضع علمك » .

ورب قائل يقول : ان القرى هي المورد الوحيد الذي تستمد منه المدن جميع لوازمها الضرورية وانها جنة الله في ارضه ، اذ فيها الماء والخضرة والهواء ولذة العيش والصحة وبساطة الضمير .

وكما يقول الشاعر :

تلك القصور وان راقتك زينتها   دون التمتع في بحبوحة القصب
فاربأ بنفسك ان تبقى مخلدة   بين الستور وبين السجف والحجب
واقصد خلاء تسر العين فيه لما   يروقها من نضير الجو والعشب
واترك غمار ذوي الحاجات في بلد   يموج بالناس والساري على القضب

حقاً إننا لا ننكر ذلك ، ولكننا نقول : إن ذلك حاصل في المدن أيضاً زيادة على ما فيها من المزايا الكثيرة ، وان جودة الهواء ليست مختصة بكل القرى ، كما انها ليست ممتنعة عن كل المدن ، فكم قرية أردأ هواء من مدينة وبالعكس .

٢٥١ - مقارنة بين القلم والسيف

القلم منبع العلم والحلم والحكمة ، وهو الرسول بين الملوك والأمراء والصادق الامين بين الاحبة والاصدقاء وقرة اعين الادباء والظرفاء وجليس العلماء والحكماء فهو اليد والساعد والعضد المساعد ، يترجم عما في الجنان بأفصح بيان ، ويفهم الحاضر والغائب وتأثيره اشد من تأثير الجيوش والكتائب .

قوم اذا خافوا عداوة امرىء   سفكوا الدما بأسنة الأقلام
ولضربة من كاتب ببنانه   امضى وانفذ من رقيق حسام

وحق من علم بالقلم ، ان فضله اشهر من نار على علم و كفاه فخراً ان الله أقسم به في محكم كتابة ، فقال : ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ .

اذا افتخر الأبطال يوماً بسيفهم   وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب فخراً ورفعة   مدى الدهر ان الله أقسم بالقلم

بالقلم - علم الإنسان ما لم يعلم ، وبه ادركنا احوال من سبقنا من الامم ، وبه

كتبت كتب الله المقدسة ، وبـه خرج الإنسان من دائرة الهمجية الى عالم الترقي والحضارةوالمدنية ، به سطرت جميـع العلوم والفنون ، وهو للملوك عين العيون ، ومنار الدين والدنيا ونظام الشرف والعليا .

قلم يفل الجيش وهو عرمرم والبيض ما سلت من الاغماد
وهبت له الآجام حين نشابها كرم السيول وصولة الآساد

قال بعض الأدباء : « القلم هو أحد اللسانين ، وهو المخاطب للغيوب بسرائر القلوب ، على لغات مختلفة من معان معقولة بحروف معلومة ، متباينات الصور مختلفات الجهات ، لقاحها التفكر نتاجها التدبير » .

ولي قلم في أنملي إن هززته فما ضرني ألا أهز المهندا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره فان صليل المشرفي له صدا

والسيف آلة قاطعة مفرقة للأجزاء، به تفتح البلدان وتنشو الأديان، وسلاح القوة الحاكمة، ومنعتها وشرفها، لولاه ما انتظم العمران ولا نشرت راية الراحة والأمان ولا استتب الأمن والاطمئنان في جميع الامصار والبلدان .

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بـين الجد واللعب
بيض الصفائح لاسود الصحائف في متهونهن جـلاء الشك والريب

ولكن لا يخفى على المتأمل ان حرب الاقلام أشد تأثيراً في النفوس من حرب الحسام ، والتاريخ أعدل شاهد ، كما حصل في واقعة الملك (دارا) ملك الفرس مع مملكة (التتار) حيث تغلبت هذه الاخيرة على مملكة الفرس وهزمت جيشها بالحيلة بدون ان تشهر عليها سلاحاً ـ وهذه دولة انكلترا في الشرق، وكثيراً من الممالك والشرائع قد فتحت وتأسست بغير السيف الذي لا يحمل إلا على الشمال، بخلاف القلم الذي يحمل على الرأس ويجلس على اليمين، فلا مرية في انه جليل القدر وهو أحق بأن يقول : أنا سيد السيف ولا فخر .

٢٥٢ ـ الخمر وتأثيره في العقول والأجسام

واهجر الخمرة إن كنت فـتى كيف يسعى في جنون من عقل

الإنسان أكمل من سائر المخلوقات وأحسن صورة من جميع الحيوانات ، إلا

انه ليس اسعد من غـــيره من الموجودات ، لأنه عرضة للتأثر بالمؤثرات الجوية وتقلبات الزمان ، فهو مشترك معها في اعدامه الحيـــاة ، وليست سلطنته ولا تدبيره لها في الحقيقة ونفس الأمر إلا لما خصه الله به من الصفات المعنوية التي هي أسرار الناطقية ، وأفضل ما في الإنسان عقله ولسانه وحسن قوامه ، فهو كما انه باعتبار خاصيته الحيوانية مجبور طبعاً بتغذية جسمه ، كذلك باعتبار خاصيته الإنسانية يجب عليه تغذية عقله بالمعارف وتحليه بالآداب ، ولكن لسوء الحظ لم يقتصر على هذه الأسباب النافعة ، بل تجاوزها واتخذ أسباباً تعاكسها ليست من ضروريات طبيعة الإنسان ، بل هي من مضعفات الجسد والعقل ، ومن أقوى هـــذه الاسباب تعاطي المسكرات التي هي متلفة للبدن مفسدة للعقل مذهبة للأموال جامعة لجميع العيوب والذنوب ، مفتاح كل شر طريق كل ضر ، منبع كل خصلة شنيعة ورذيلة فظيعة تورث الجنون لبعض الناس وتحدث مرض السل الرئوي واحتقان الكبد .

قال بعض الحكماء : من السموم الخفية المشروبات الروحية .

وقال آخر : السكر رأس المعاصي .

وبالجملة ـ فالسكر آفـــة الاستقامة وعدو الشرف والأمانة ومجلبة الذل والاهانة يدعو صاحبه الى ارتكاب الموبقات والاقدام على جميع المحرمات .

من تقرع الكأس اللئيمة سنه فلا بدّ يوماً ان يسيء ويجهلا
ولم أرَ مطلوباً أخس غنيمة وأوضع للأشراف منها وأخملا

٢٥٣ ـ فوائد ومضار الورق المستعمل بدل النقود

ان للأمم اصطلاحات غريبة كثيرة في المواد المستعملة نقوداً .

فالصينيون كانوا يستعملون مكعبات صغيرة من الشاي المضغوط عليـــه ، وبعض قبائـل أفريقيا يستعملون الاصداف البحرية وغيرهم المواشي وغيرهم ملح الطعام . أما الأمم المتمدينة لهذا العهد ، فيستعملون الذهب والفضة لسهولة حمله وقسمته وحفظه بدون نقص في قيمته .

وكثيراً ما تستعمل في العملة قطع من الورق عليها وعد بالدفع بدل النقود ،

ويستحسن ذلك في حالة ما إذا كان المبلغ جسيماً ، لأن الورق سهل الحفظ خفيف الحمل ، فورقة البنك المرقوم عليها خمسة جنيهات تعهد البنك الذي وضعها بدفع هذا المبلغ لمن يحملها ، ولذا يقال ان الورق قابل للتحويل فيما لو أمكن مالكها استبدالها بالنقود في أي وقت يريده ، ففي هذه الحالة تكون بمثابة النقود ، بل أفضل ، وغاية ما يخشى منه ان البنك الذي وضعها لربما يعجز عن ابدالها بالنقود في بعض الاحيان ، وكثيراً ما يحدث ذلك للبنوكات فتتوقف عن الدفع ولا تفي بما تعهدت به .

ومع ذلك فقد تقوم الاوراق مقـــام النقود ولو تعسر وجود عملة أخرى ، وحينئذ يقال لهذه الاوراق أنها غير قابلة للتحويل ، او انهـــا عملة فيقبلها كل إنسان لعلمه ان غيره لا يقدر على رفضها لو عرضت عليه .

٢٥٤ ـ حالة الأمة إذا فقدت لغتها

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

ان فقد اللغة فقد للشعور وتضييـع للدين وانحلال لعرى الفخر والمجد المتين ، وموت للإحساس والشرف والحرية ، واستئصال لما يجول في عروق الشعب من الحضارة والمدنية .

قال ابن خلدون : « اللغة ملكة صناعية متقررة في العضو الفاعل لها » .

وقال عبد الله النديم : « إضاعة اللغة تسليم للذات » .

وقال غيره : « استقلال الأمة موقوف على حفظ لغتها » .

وقال آخر : « اللغة هي عنوان الأمة » فحياة الأمة بلغتها طبعاً .

واللغة آلة مادية تقوم بهـــا مبادلة الأفكار بالمعاني بين أفراد الإنسان عموماً وخصوصاً ـ فـإذا أهملت اللغة سادت الفوضى والإخلال بالنظام ، وعم الفساد بين كافـة الأنام ـ والويل ثم الويل لأمة أضاعت لغتها ، والثبور ثم الثبور لأمة أضاعت منعتها وعزتهـــا والشقاء ثم الشقاء من اضمحلالها وتقهقرها وانحطاطها وتأخرها وتصير في عذاب أليم وتستمر طول الأبد في شقاء جسيم ، هـذه أمة اليهود مشتتة في كل واد ، وعرضة للاسترقاق والاستعباد وهدفاً لسهام التعصب والاضطهاد ، وما ذلك إلا لفقدها لغتها العبرانية ففقدت الشعور والإحساسات

وأصبحت أمة فوضى لا تألفهم أمة من الأمم . وهكذا إذا أنعم الإنسان نظره في كثير من الأمم الذين نبذوا لغتهم ظهرياً يجدهم في اضمحلال .

٢٥٥ ـ من عفا عمن يستحق العقوبة كان كمن حرم من يستحق المثوبة

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً　　　فليقس يومـــاً بالذي لا يرحم

من تأمل في تاريخ العالم رأى ان الاعمال بني آدم أقرب الى الشر من الخير ، وإن كان الخالق سبحانه وتعالى أودع فيهم بصيرة ترشدهم الى الخير وتنهاهم عن الشر إلا ان الشهوات والأغراض تستدعي مخالفة أمر البصيرة ـ وجعلهم بالحقائق هو منشأ آخر للمصائب والخطايا والذنوب ـ وهـذه الذنوب على أنواع شتى وضروب مختلفة ، فمنها ما يحسن الصفح عنها والعفو عن عقاب من وقع فيها.

من ذا الذي ما ساء قط　　　ومن له الحسنى فقط

وذلك لكل عالم هفوة ولكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة .

وأغفر عوراء الكريم ادخاره　　　وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

ومنها ما لا يحسن إهمـــال الضرب على أيدي مرتكبيها ، بل ينبغي زجر مقترفيها ، ومنها مـــا يجب عقاب آتيها ، وإلا انتشر الفساد في جميع البلاد وإزهاق أرواح العباد .

لعمرك ما تلك الحياة رخيصة　　　فصنها فمـــا بعد الحياة حياة

وقال تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أُولي الألباب ﴾ .

إذ المراد أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل امتنع عن القتل ، ويلزم من ذلك حياته وحياة غيره .

قتلنا لأجل النفس نفساً بفعلها　　　وقد قادنا للقتل إذ ذاك قرآن
عدمنا إذاً نفسين حفظاً لأنفس　　　وهذا لعمر الحق عدل وإحسان

وبالجملة ـ فـــلا بدّ من عقاب من يستحق العقوبة حفظاً لكرامة الهيئة الاجتماعية ، كما انه لا بدّ من إثابة من احسن صنعاً مكافأة له وتنشيطاً على عمـــل ما هو أنفع منه ، فيرغب غيره لمباراته ومنافسته فتعم المنافع ، بخلاف التهاون

في المكافأة، فينشأ عنه فتور الهمم والتقاعس عن الاعمال المفيدة فيجلب الكسل والفساد لا يقل عنه الفساد الناشىء عن إهمال من انغمست يده في الجرائم حتى طغى وبغى وانتهك المحارم .

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
ووضع الندي في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فحقيق وجدير بالحكام ، الضرب على أيدي هؤلاء الأشرار اللئام .

لا تلطفن بذي لؤم فتطغيه واغلظ له يأت مطواعاً ومعوانا
ان الحديد تلين النار قسوته ولو صببت عليه البحر ما لانا

٢٥٦ - فوائد التصوير الشمسي

إن هذه الصناعة من ألزم الأمور لتقدم العلوم والفنون ولإتقان فن الحرب ولتشخيص بعض الأمراض ومعرفة شكل النجوم وحجم الميكروبات ولأمور أُخرى كثيرة ملازمة للتمدن مرافقة لأشكال العمران . من ذلك ان تصدير الافلاك والنجوم والشمس والقمر (بالفوتوغراف) صار اليوم أكبر آيات التقدم في معرفة الاجرام السماوية وشكلها ، واستنتاج النتائج عما فيها من الجبال والانهار، وغير ذلك مما يمكن معرفته بتكبير الصور ، ومن فوائده أيضاً تصوير المجرمين نشر صورهم بين الناس ، وبين رجال الضبط حتى يتعسر عليهم الهرب والفرار ، وتصوير الخدمة وغيرهم ، والفضل في ذلك لرجل فرنسي من مدينة شالون يدعى (ببيبس) اكتشف بعد امتحانات عديدة بعض خواص الحجرة المظلمة ، وهي كناية عن خزانة او صندوق صغير مغلق اغلاقاً محكماً لا ينفذ اليه النور إلا من نافذة صغيرة تدخل منها الاشعة الشمسية فتنعكس صور المرئيات الخارجة على لوح موضوع لهذه الغاية عند أسفل الخزانة ، ثم أخذت في التقدم شيئاً فشيئاً الى أن وصلت الى ما هي عليه في عصرنا الحاضر .

٢٥٧ - أيهما أنفع للانسان العزلة أو الاجتماع ؟

ان الناس مدنيون بالطبع - أي لا بدّ لهم من الاجتماع والمخالطة ، لأن

الفرد الواحد لا يمكنه ان يستقل بجميع حاجاته ولوازم حياته فهو مضطر بحكم الضرورة الى الاجتماع والمبادلة ـ فلا مرية ان بقاء الإنسان لم يكن إلا بالاجتماع الإنساني ، وإلا فما الفرق بينه وبين الوحوش الضارية .

والناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وان لم يشعر واخدم

فطرة الله التي فطر الإنسان عليها أليفاً أنيساً ميالاً للمحادثة والمحاضرة ، مضطراً للانضمام الى اخوانه لتبادل المساعدة والمنفعة .

وقد قيل : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، فلا بدّ للناس من الاجتماع الأدبي الذي عليه مدار الحياة والصفاء والسعد والهناء فيعود عليهم وعلى بلادهم بالتقدم والارتقاء ، بخلاف العزلة فإنها وأيمن الحق مكسبة للهم والهوان ، ولو كان فيها نفع للإنسانية لترك المولى آدم وحيداً في الجنة .

وقد قيل : الشيطان مع الواحد وهو عن الاثنين أبعد ، ويد الله مع الجماعة .

ويقال : إياكم والعزلة فإن في لقاء الناس معتبراً نافعاً ومتعظاً واسعاً ، ومجالسة أفاضل الرجال تجلو البصر وتطرد الفكر .

إذا لزم الناس البيوت رأيتهم عماة عني الاخبار خرق المكاسب

فحينئذٍ الاجتماع الأدبي أفضل من الوحدة والعزلة . وأما اذا كان الاجتماع لأكل لحم الناس وسب عرض الاحرار وانتهاك المحرمات ولثم الراحات بالراحات وارتكاب المنهيات والمعصيات فلا ريب في ان العزلة أفيد والانفراد أولى وأسلم .

وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده
وجليس الخير خير من جلوس المرء وحده

فالعزلة والانفراد خير من مجالسة السوء ، لأن المعاشرة الرديئة تفسد الاخلاق الحميدة .

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً سوى الهزيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا لأخذ العلم او اصلاح حال

وبالجملة ـ الانقباض عن الناس مكسبة العداوة ، والانبساط اليهم مجلبة

لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط . فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة ، ويختلف ذلك باختلاف الاحوال .

٢٥٨ ـ الأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة

لو أنـني خـيّرت كل فضيلة ... ما اخترت غير مكارم الاخلاق

إن ينبوع السعادة ومصدر السؤدد والسيادة وأنفس الاعراق حسن الاخلاق فبه يشرف الانسان ويتميز عن سائر أفراد الحيوان في كل زمان ومكان ، وما زال صاحبه يستميل بحسن شيمته النفوس ويجذب بمكارم اخلاقـه الافئدة والقلوب وينال من عدوه قبل صاحبه كل مرغوب ومطلوب .

أحب مكارم الاخلاق جهدي ... وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلماً ... وشر الناس من يهوي السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا

فالأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة .
قال عليه الصلاة والسلام : « أحبكم الى أحسنكم أخلاقاً » .

لا تقعدن عن اكتساب فضيلة ... أبـداً وإن أدت الى الاعدام

وفي الانجيل (سعة الاخلاق كنوز الارزاق) .
وقال بعضهم : الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في أمن وسلامة والسيء الخلق من نفسه في تعب ، والناس منه في عناء وجهد وبلاء .

إذا لم تتسع اخـلاق قوم ... تضيق بهم فسحات البلاد

قال سقراط : حسن الخلق يمنع من ارتكاب القبائح فإنه لا يشاكلها ، ومن كلامه أيضاً: حسن الاخلاق يورث المحبة ويؤكد المودة ويقود الى الفعل الحسن.

وقال أرسطاطاليس : حسن الخلق حليـــة النفوس كما ان حسن الخلقة حلية الجسد .

وهل ينفع الفتيان حسن وجوههم ... إذا كانت الاخلاق غير حسان
فلا تجعل الحسن الدليل على الفتى ... فما كل مصقول الحديد يماني

وبالجملة - حسن الخلق أعظم حلية يتحلى بها الانسان ويعيش عيشاً رغداً بين مواطنيه لأن (من أساء خلقه ضاق رزقه) . وفي الحقيقة والواقع ان أخس صفة في الشخص الخلق الدنيء واللسان البذيء ، ولا يخفى ان من واجبات الدين حسن الخلق والسخاء ، فالحسن الخلق من نفسه في راحة ، والناس منه في سلامة وتراه قد كثرت مصافوه وقلت معادوه ، وتسهل عليه الأمور الصعاب وتلين له القلوب الغضاب ، وأما السيء الخلق فتراه يا للعجب ويا لضيعة الأدب، قد جهل قدر نفسه ولم يفرق بين يومه وأمسه ، وهو من نفسه في عناء ويعيش العمر في شقاء وترى الناس منه في بلاء .

ومن أراد أن يجعل ذكره مدوناً في صحيفة حسن الاخلاق فعليه ان يكون سهل العريكة لين الجانب طلق الوجه قليل النفور طيب الكلمة لا يستفزه تقلب الأحوال وجريان الاقدار ولا يغره غناه فيسوقه الى ارتكاب الإثم ، وإذا كان متولياً أمراً فلا يجزع ولا يستبدل حسن الخلق والصبر بالهلع والبذاء لأي سبب عرض أو لأي أمر طرأ .

٢٥٩ - وصف حريق هائل

بينما كانت السماء مشرقة بالأنوار ، إذ بدخان قد ملأ الجو والفضاء وحجب كواكب القبة الزرقاء ، فتغيرت الأفراح بالأتراح ، وتبدل كأس الهناء بالشقاء وذهب الصفاء ضحية العناء ، ورأيت الناس فوق الديار يقولون النار ، النار ، فأسرعت الى الخروج من المنزل لأستكشف هذه الاخبار فوجدت لكل إنسان شأناً يغنيه ، يوم يفر المرء من أبيه وأُمه وأخيه وزوجته وبنيه وأصحابه وأهله والناس في هرج ومرج، ولا دخول ولا خروج ، وفي شدة وضجة ورعدة ورجة سكارى وما هم بسكارى ، بل من شدة النيران حيارى ، ولما وصلت محل الحريق رأيته منظراً يفتت الاكباد ويقطع شامخ الاطواد، رأيت القصور الشاهقة ، قد أمست قبوراً والمنازل العامرة قد باتت قفوراً ، ومع ذلك كله فالنار زادت وتأججت كأن الجحيم قد سعرت ، وامتدت ألسنتها وطالت وتطاول لهيبها وصالت ، فاشتد بين جميع الناس الخطب ، واستغاثوا بجنود المطافىء فحضروا وضربوا عليها الحصار وصاروا يخلصون المنكوبين من مخالب النار ، ثم أتوا بالمضخات وشنوا الإغارة عليها بالطلمبات ورموها بالخراطيم والميازيب وقذفوا

عليها المياه من فوهات الأنابيب ومـــا تزداد إلا عتواً وفساداً وتلتهم الإنسان والحيوان قسوة وعناداً فاستمرت الحرب بينهما مـــدة من الزمان وهي تكافحهم بأقوى جنان وأحدّ سنان ، حتى فرقت أيدي سبا كل من حضر ، وبددت الاموال والامتعة شذر مذر ، فعززت فرقـــة المطافىء رجالها بعدد عظيم من الجنود كأنهم أُسود ، فشنوا عليها الغـارة بكل شجاعة وجسارة ، وقاوموها مقاومة الابطال وأخمدوا لهيبها في الحال .

٣٦٠ - وصف يوم شم النسيم

شم النسيم عيد قديم ، تخرج فيه الناس وحداناً وزرافات ، وقد سالت بهم الطرقات واكتظت أحشاء الفلوات ونزحوا الى الحدائق والمنتزهات ، وغادروا المعاقـل الى حيث الربى والخمائل كأنهم مطر درّته الغمائم او جراد زفته الرياح السمائم ، او مجتمعوا أسواق لا يروج فيها إلا الفسوق تجتمع فيه الغواني والرفاق والساق على الساق والفم قريب من الفم يتلاقون الى جانب اليم ، يتبادلون التحيات بالحواجب ويشفقون على القلوب فيضعون الايدي فوق الترائب يختلسون النظرات وتحتها سهام صائبات والغواني بين تلك الشعاب يتهادين تهادي الحباب ويتراسلن بالعيون ويتحادثن والحديث شجون وتفنن القوم في اللبـاس تفننهم في الارجاس ، فمن عمامة بيضاء فوق هامة سوداء .

ما كل من لبس العمامة سيد	ما كل من لبس القباء أمير
ما كل ذي لب يدير مصالحاً	حتى يهـــذب بيته ويدير
ما كل ذي حسب شريف إنما	شرف الرجال يسوقه التدبير
ما كل أفراد البرايا واحد	ولكل فرد في الحياة نظير

ومن طربوش أحمر على شعر أصفر ومن حلة خضراء على قامة سمراء واشرأبت البرانيط على قوم شماميط ثم دارت رحا الافراح بـــين العقول والراح وتحكمت الكؤوس في الرؤوس ودبت الصهباء في الاعضاء ويلثمون الراح بالراح ويأكلون ويشربون ويضحكون ويلعبون بـــين نغمة الحديث الرخيم ونشوة المدام النديم ونغمات الاوتار تدعو الى اغتنام الاوطار تهدي الارتياح الى الارواح وتبـــدل الافراح من الاتراح .

٢٦١ - لا ينجح الأمل إلا بالعمل

ان الطبيعة البشرية قــد أودعت في نفس كل امرىء أملاً فطرته عليه ، فهو مجبول على حب الرفعة والعــلاء ، يحدث نفسه دوماً بالارتقاء الى أسمى المناصب وأعلى المراتب،ومدفوع لاقتحام الاهوال والاخذ بناصية الاعمال حباً في الوصول الى المرغوب والحصول على المطلوب ، وهــذه الرغائب تختلف باختلاف الهيئات والمنازع التي يتطبع الإنسان عليها ويترعرع في مهد الميل إليها ، فقد تكون (مالاً) يفرغ كنانة الجهد في تحصيله او (علماً) يحث مطايا الجدّ في إحرازه او (سؤدداً) يشحذ غرار الكد في نيله . وقد تكون تلك الرغائب بعيدة عنه حين شروعه في معاطاة أسباب تحصيلها ، فما الذي يقصر مسافاتها المترامية ويسهل صوب مسالكها المتنائية ، ويطوي بينها وبينه مشقة البين ويجعلها منه معقد الإزار ، وأقرب من الحاجب للعين بل أدنى من قاب قوسين ، ويصير حصولها متحققاً كمضي أمس او كطلوع الشمس هو (الأمل) تلك العاطفة التي أثار بهـــا الحق جــل جلاله نفس الإنسان وجعلها له في وادي الاتعاب خير عزاء وأعظم سلوان . فالأمل مدعاة الاقــدام ومجلب الجرأة والبأس ومزيل القنوط ومبدد اليأس والحافظ بناء الاعمال من السقوط ومساعي الرجال من الحبوط والماحي من الافكار ظلمات القنوط ، فبــه تنتعش القلوب وتحيا النفوس ويشد العزائم ويقوّي الهمم .

أعلل النفس بالآمـــال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

ولكن هل ينال الغنى بالمنى او يجنى الثمر من غير زرع الشجر وهل تأتي الأرض بالاثمار بدون حرث او بذار او تنسج الثياب بدون يد او دولاب حاشا فلا ينجح الامل إلا بالعمل .

وإلا كيف يتأتى للمؤمل من الدهر الارتقاء الى المناصب العليا ان ينال آماله بفتوره وإهماله، تالله لو ظل طول الدهر على هذا الحال لما أدرك شيئاً من الآمال.

فعلى الإنسان أن يقرن الامل بالعمل ، بحيث لا يألو جهداً في ذلــك وأصلا ليله بنهاره غير مكترث بالمشقات والاتعاب، ولا مبال بما يقتحمه من الصعوبات

والاهوال، فإن من كان ديدنه العمل وشيمته الصبر لا بدّ ان يدرك مناه ويحظى بما يتمناه .

لأستسهلن الصعب او أدرك المنى ۔ فمـــا انقادت الآمال إلا لصابر

٢٦٢ - حياة الأمم برجالها العاملين

لا ريب في ان كل أُمة حياتها موقوفة على الاعمال النافعة التي تؤدي بهـــا الحقوق الوطنية ولا يكون ذلـك إلا اذا صدرت الاعمال من رجالها الحقيقيين الذين تبعثهم الطبيعة الى القيام بها .

فالأمة لا نجاح لهـا في الحال إلا اذا كان الماضي قد أعد لها رجالاً يديرون أعمالها ، فإن لم تكن كذلك اضطرت الى استعمال رجال من غير بنيها ، وهم وان قاموا رسمياً بالواجب عليهم نحو وظائفهم فـلا يقومون إخلاصاً بالواجب عليهم نحو الوطن والأمة .

وعلى هذا يكون الغرض من الاعمال فاقداً صفة الكمال ومسؤولية هـــذا النقص عائدة على الماضي ورجاله يعاتبهم عليه التاريخ، وليس في الامكان تدارك هذا النقص حالاً بخلافه استقبالاً فانه يمكن ان يتدارك بتهيئة الرجال الاكفاء من الآن ، والمسؤولية في ذلك عائدة على الحاضر وبنيه، فلا يكتفي في مؤاخذتهم بالتاريخ لأن المسؤول حي قائم تطالبه الامة والوطن والتاريخ ، فـلا يخلصون من هذه التبعة إلا بالاهتمام بالاعمال الحالية ، وتنظيم إدارتها في الدوائر على اختلاف فروعها مع اقامة قسطاس العدل ، وهو آفـة الجور ومراعاة الأعمال وتطهيرها بالتربية لينزع من القلوب الحقد والتحاسد والتباغض، فيموت من الأمة الانشقاق والاختلاف ، وتعقد الضمائر على الولاء والمحبة ليطرد من بينها العـدو الباطن الذي هو أشد فتكاً بالجامعة من العدو الظاهر ، لأن ذاك العدو يتخذ المماراة والمداراة والنفاق حبائل لغاياته ، فيخدع بظواهره البسطاء بخلاف الثاني فهو مجاهر ظاهر يسيل الاحتراس منه ، فإن تم لها ذلك وجد الاتحاد الذي هو روح حياة الاعضاء وداعية التعاضد والتكاتف الواجبين لغاية الاصلاح ، وهـذه كلهـا معدات لتهيئة الرجال القادرين على استلام زمام الاعمال في المستقبل ، والساعي في ذلك إنما يعمل لحياة الامة ، ومن أحياها فكأنما أحياء الناس جميعاً

وانظر ما قدر هذا العمل المبرور ، وما جزاؤه عند الله وعند الناس والتاريخ .

كفاني فخراً أن أموت مجاهـداً وحب بلادي قائدي منذ نشأتي

وعلى الضد من ذلك من يسعون في تبديد هذه المعدات وإضاعة تهيئة الرجال للمستقبل ، فإنهم بذلـك يحاربون الله ورسوله والأمة والوطن ويجنون أعظم الجرائم وشر الجنايات ، فما جزاء هؤلاء إلا أن يقتلوا او يصلبوا او تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزي في الحياة الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

ولقد أخطأ من يظن أن مجد الأمة وسلامة المملكة بالمال والحرية لأن المال لا ينهال من السماء ، والحرية لا تنبعث من الينابيع والجداول ، وكلاهما لا يأتي إلا من طريق العزم والحزم ، ولا يغرس في الأمة إلا بأيدي كبار رجالهـا الذين يحبون أن يروا شعبهم متحلياً بجلباب السعادة والرفاهية في أعين الشعوب .

وهذا مما يوجب على أفراد الأمة التمسك برجالها أصحاب المبادىء الصحيحة الذين يحبون البلاد وسعادة أهلهـا ويسعون في جلب الخير إليهم وفتح أبواب الأعمـال لهم ، لأن إخلاص الأمة لكبار رجالها موجب لتقوية الرابطة الوطنية لما فيه من فضيلة الشكر على محاسن الاعمال .

ولقد قالت الحكماء : إن أعظم شيء تسود بـه الامة محبة كبار رجالها والإخلاص لهم إذا عملوا ما يجب عليهم .

وسبب ذلك أن من يعمل الخير ليحمد يجب أن يحمد ليوفي حقه ، وأما من يعمل الخير لأنه خير فيجب أن يضاعف له الحمد، والأمة التي تعرف قدر الافراد وتعرف لهم ما يعملون تختط بذلك طريقاً الى تكثير رجالهـا وتقوية روح الارتباط فيهم وتستجلب بذلك مرضاة أعاظمهم ، وبذلك تتحد إرادة جميع الافراد ، فيعمل الواحد صورة يتمم بها عمل الآخر، وهذا هو الغاية التي تتمناها لنفسها مع رعاياها الحكومات المنتظمة .

ولا يخفى أن توحد الإدارة من أهم الامور لنجاز الاعمـال العظيمة الشريفة التي يصعب على أكبر الأمم القيام بهـا ، وهذا لا يحتاج الى بيان ، فإن العاقل يعرف أن عشرين رجلاً تختلف إرادتهم في نقل حجر صغير لا يتسنى لهم نقله

مهما أضاعوا من الزمان ، بخلاف ما لو اتحدت إرادة سبعة منهم مثلاً على نقله الى محل معين فإنهم ينقلونه .

ولو استعمل كل واحـد منهم واسطة لأن الغاية واحدة والإرادة متحدة ، وهذا من أعظم المبادىء التي يجب على الامة الالتفات إليها وتعويد نفوس النشء عليها ، فإذا اتحدت إرادتهم مع إرادة كبار رجالهـم اتجهت بهم تلك القوة العظيمة الى الاعمال النافعة وسعدوا بأنفسهم وفازوا فوزاً عظيماً .

وحيث كنا معاً نرمي الى غرض فحبذا فاضل منـا ومفضول

ولأجل أن يتعلم الإنسان هـذا المبدأ يجب عليه أن يحرص على جميع أعمال كبار الامة الذين أخذوا على أنفسهم القيام بعظائم الاعمال وسعوا جهدهم الى نفع بلادهم وبنيها فيجعله درسه حتى يتبين منها اتجاه قوى إرادتهم الصالحة ، وحينئذٍ لا يألو جهده عن السير على مقتضى تلك الخطة التي تشيد لوطنه الفخر والمجـد وتمنحه السعادة والخير مهما اعتوره من المخاطر والاهوال متمثلاً بقول من قال :

ولست أبالي حـين أقتل مؤمناً على أي جنب كان في الله مضجعي

٣٦٣ ـ هل الأنفع لمن عنده مال أن يصرفه في تعليم أولاده أو يبقيه ميراثاً لهم بعد مماته

المال مادة الحياة وقوام ضروريات الإنسان وحاجياته وكمالياته من المطاعم والملابس والزينة ، فلولاه ما بقي للحياة عين ولا أثر ، وكما ان عليه مبنى وجود الجسم ، كذلك به يحصل حياة الروح وكمالات النفس ولذة العقل ، وهو الواسطة لتحصيل لوازم تعليم الفنون والعلوم النافعة ، ومتى تعارض على المال خطة صرفه في سبيل التعليم في الحال او إبقائه في المآل وجب صرفه في الوجهة الاولى ، إذ العلم غذاء العقل وهو أشرف من الجسم ولنعم العوض ، على ان ما فات من ادخار المال يناله أضعافاً مضاعفة بواسطة العـلم ، وناهيك بمنافع دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة ولذة عالية وآثار باقية ورفعة قدر ونباهة شأن وشرف منزلة ، وهـل يقاس ما يتناهى وهو المال بما لا يتناهى وهو العلم ، وما شرف الماديات في جانب المعقولات ، وهل يذكر الدينار في جانب الافكار ، او يقاس الصامت بالناطق والميت بالحي ، بل مثل ما ينفق في سبيل التعليم كمثل حبة أنبتت سبع سنابل

في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

على أن العلم يجري من المال مجرى الروح من البدن ، والحاكم من المحكوم والحارس من المحروس ، بل والفارس من المفروس ، وهل خلد التاريخ في صفحاته إلا أهل العلم وأرباب الجدّ في الأدب وأنصار البحث في الحقائق ، فمنهم السياسيون والملوك العادلون ، وبهم استقامت البلاد وانتظمت الدول واستتب العدل ، ومنهم العلماء والحكماء والمخترعون والمكتشفون هدى للناس ونوراً ، وهل رأيت لأحد منهم فيه ذكراً او سمعت له قط فيه شكراً .

ففز بعلم تعش حياً بـــه أبداً   الناس موتى وأهل العلم أحياء

وبالجملة ـ فنحن بالطبيعة نشعر بالسرور التام ، حينما يرى الواحد منا أن له ولداً يؤمل فيه النجاح ويرى عليه دليل الفلاح ، فينفق ما استطاع أن ينفق ، وذلك لأن النفوس من طبعها تميل الى العلا ، ولو كان كما يقول بعض النـاس ان ميول الإنسان الى الشر أكثر منها الى الخير ما كنا نشعر بهذا الشعور ، وما كان لدينا هذا الإحساس ، ولكانت الأزمنة الهمجية باقية الى الآن .

علم الله ان المال الكثير الوافر ليس بشيء بجانب نجاح الاولاد وتهذيبهم ، بدليل أنه يهون على الرجل ان يكون سفر اليدين بجانب نيل هـذا المبتغى ، كما نجد ان صاحب المال الذي لا اولاد له منكود الحظ منغص العيش .

وأكثر من هذا حزناً على الشخص الذي له اولاد لا بركة فيهم ولا نجاح لهم فيحسب لانحطاطه الف حساب ويتمنى لو مات هؤلاء الاولاد حـــتى يستريح فؤاده ويحفظ شرفه ، والحقيقة ان لا عار أعظم من فساد الاولاد .

إذاً الرجل الذي ينبغي ان يعيش سعيداً في أولاه وأخراه ، يجب ان يبذل كل نفيس وغال في تهذيب اولاده حتى يموت آمناً على بيته من الخراب ، وعلى عرضه من ان يثلم وسيرته من ان تقبح هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى يضمن بقاء العز لأولاده وجميل الذكر لنفسه إذ الناس يثنون عليه ويطلبون له الرحمات كلما نالهم خير من أولاده ، كما ان المال الذي أنفقه عليهم يأتي بأضعاف اضعافه. وكلمـــا طالت حياتهم زادت ثروتهم ، ولو كان كل رجل يعتني بتربية أولاده لكانت الامة راقية حية إذ كل واحد يعرف حقوقه ويمكنه ان يدافع عن نفسه

وعن أُمتّه ، فإن الأمة ما هي إلا الافراد فإن كانوا أحياء كانت الامة حية وان كانوا أمواتاً كانت كذلك .

نعم الإله على العباد كثيرة وأجلهن نجابــة الاولاد

٢٦٤ ـ الكفاف مع العمل أهنأ أم الثروة مع البطالة ؟

خلقنا لنعمل لطلب الخــير ونتحرك للوصول على الرزق ، لأن الله اوجدنا الحكمة ، وهي ان نعمل فنعبده ونعظمه ، شكراً له على نعمة الوجود ، وعــلى بقية النعم الجليلة التي تفضل بهــا علينا حتى يكون هذا العمل سبب سعادتنا في الدنيا والآخرة ، وأمرنا ان نسعى في طلب الرزق بقوله عز شأنه : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾. بأن نشتغل فندرس العلوم ونفلح الأرض وندير التجارة ونحسن الصناعة ، لتكون هذه الاعمال سبب سعادتنا وراحتنا في هذه الدنيا ونكون قد أدينا الثمرة المطلوبة منا والغاية المفروضة علينا ، وهي العمل والشغل ، تأمل تجد ان الله خلق الاشياء وجعل فيها ثمرة تؤديها فثمرة النباتات حبوبهــا وأزهارها وثمرة الاشجار فواكهها وثمارها وظلالها وأخشابها ، وثمرة الحيوانات ألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها ولحومها ونتاجها وركوبها وجر الانقال ، وثمرة الطيور بيضها وريشها ولحومها ، وليس للإنسان ثمرة من تلــك الاثمار ، وإنمــــا ثمرته شغله وعمله ، فاذا لم يعمل ويشتغل كان أحقر الحيوانات وأصغر النباتات ، وأخس الطيور خيراً منه . انظر الى النحلة التي هي من اصغر الحيوانات تعلم ان الله امرها ان تشتغل وتتخذ لها البيوت من الجبال والاشجار وتأكل من كل الثمار لتؤدي المنفعة المطلوبة منها وهي العسل ، فهل يليق بالإنسان سلطان المخلوقات ان يكون اقل شأناً منها او من غيرها ، كلا .

وصفوة القول ان الله خلق الإنسان ليعمل ويسعى ، وناط بعمله قوام الوجود واساس النظام وجعل اكثر الأمم غلبة في الأرض احسنهم عملاً وادومهم سعياً في مرافق الحياة ، فالعمل روح الحياة ومصدر الغنى ومنشأ العمران ، فالذي يعمل ويجد طالباً عظائم الأمور واسمى المراتب ، واضعاً نصب عينيه « السماك او الهلاك ، العلاء او الفناء النصر او القبر ». فلا بدّ ان ينال ما يطلبه ويبلغ ما يؤمله ، ويجد الراحة مع الهناء ، ويعيش محترماً محاطاً بكل أنواع العز والصفاء.

وغنى البـلاد نوابغ يهدونها   نعم الحياة ويدرؤون شقاءها

وما المثري الذي لا يعمل شيئاً إلا عضو فاسد في المجتمع الإنساني يجب بتره وقطعه قبل تفاقم الداء فيعسر الدواء .

وما للمرء خـير في حياة   إذا ما عُدّ من سقط المتاع

٢٦٥ - الاحساس والشعور دليل رقي الأمة

الإحساس - إما ظاهري وهو شعور النفس بالآثار الظاهرية عند وصولها من الجسم إليها ، وإما باطني وهو شعور النفس بآثارها الباطنية .

والشعور الباطني هو أثر ينشأ عـن هبوط او صعود التصورات الحاصلة والمشعور بها في النفس .

وبعبارة أُخرى - الإحساس أثر تبادل وتوارد التصورات صعوداً وهبوطاً ، فالأثر الحاصل على الصعود يسمى إحساساً ارتياحياً .

وعن الهبوط يسمى إحساساً غير ارتياحي ، مثال ذلك لو أعملنا الفكر في تذكر اسم شخص ، فإما أن تصعد فنتذكرها ، وحينئذٍ نجـد من أنفسنا أثراً يرتاح إليه ، وإما أن تهبط فـلا نتذكرها ، وحينئذٍ تشعر النفس بأثر لا تطمئن إليه .

وبحكمة ارتباط الإحساسات النفسية بالتصورات يلزم من أراد أن يحدث إحساسات ارتياحية أو غيرها أن يولد لها تصورات .

والإحساسات صورية ومادية : فالإحساسات الصورية تنشأ عن الارتباط بين تصورين أو اكثر من جهة الصورة ، وذلك كالانتظار والرجاء والكد والفزع والدهشة والشك والملل والانس .

والإحساسات المادية هي الشعور بكيفية التصورات ومادتهـا وتتنوع الى إحساس بالحقيقة وإحساس بالحسن وإحساس بالآداب وإحساس بالدين .

فالاحساس بالحقيقة : هو البحث عن نتائج الاعمـال من جهة مادتها ، والاحساس بها ارتياحي إذا حصل عليها ، وغير ارتياحي إذا حصل على الخطأ

في إصابتها او كانت غير واضحة .

والاحساس بالحسن او القبح: هو الاحساس بالاستحسان المطلق أو الاستقباح المطلق اللذين هما بمعزل عن الغرض الذاتي وموضوعها الاشياء الطبيعية والصناعية من حيث مادتها وصورتها وما نستحسنه مطلقاً نسميه حسناً ، وما نستقبحه مطلقاً نسميه قبيحاً .

والاشياء المحسوسة خاصيتها لا مادتها أو صورتها ، فإن كان الاحساس بها ارتياحاً سميت مقبولة أو لطيفة ، وإن كان غير ارتياحي سميت غير مقبولة أو غير لطيفة .

والاحساس بالآداب : هو الشعور بالخير أو الشر ، فجل أماني الانسان أن الحسن والخير يلزم أن يحصلا ، وان القبيح والشر ينبغي ألا يكونا ويحصل ذلك بواسطة التربية والتعليم والمعاشرة وترقب الانسان لأعمال نفسه وغيره، والغرض بالاحساس بالآداب ان تجتمع أفراد الانسان على إرادة واحدة .

والاحساس بالدين : هو شعور الانسان بذات موجودة أزلية أبدية قائمة بنفسها - كيف لا - والدين هو الناموس الباطني المرشد الهادي الى خطة الفلاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فحاجة البشر الى الدين كحاجة الجسم الى الغذاء ، فكما ان الغذاء حياة الجسم وقوامه ، فكذلك الدين حياة للنفس لا تطيب إلا به وقد أثبت التاريخ ودلت الآثار على ان الدين مربي الانسان ومرشد الأمم الى طرق المدنية منذ تكونت جمعيات البشر حتى أننا لا نرى الآن أمة على وجه الأرض إلا ولها دين معروف وشريعة خاصة بها .

فلا نجاح لأمة نبذت دينها ظهرياً ، ولا فلاح لقوم استعبدوا لشهواتهم .

إذا سلم الدين القويم من الأذى   فكل أذى فيما سواه سلام

وعلى هذا، فلا بدّ لكل أُمة من دين، ولو كان من وضع البشر كما هو حاصل عند بعض الشعوب الذي أهمل أمر دينه وفقد أُصول الشرائع الالهية ، ثم رأى ان لا حياة إلا بالدين ولا اجتماع إلا على كلمته، فاضطر الى الوضع بأي وجه كان.

فسبحان الله ما أعظم منته وأعدل عمله ، افترقت الشعوب فجمعها وتغالبت الأنفس فهذبها وتباينت المقاصد فوحدها وافترقت القلوب فألف بينها،فانضمت

الأقوام الى ما شرع من شرائع ارتبطت بها مصالح الأمم ، واتحدت كلمة الشعوب فذللوا المصاعب ومـــدوا ظلال العمران وشيدوا الممالك فوضحت لهم طرق السعادة فسلكوها وتوصلوا الى نعيم الحياة فتمتعوا به .

ولذا قال بعض الفلاسفة في تعريف الانسان : إنــه حيوان ديني ولم يكتف بالنطق لأن التدين يستلزم النطق الصحيح ومن لا دين له قريب من البهائم « ان هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » وصفوة القول ان النفوس لا بدّ لها من مقوم والعقول لا تكفي في أن تسير أصحابها على النمط الذي يرضى الخالق جل وعلا لأن من صفاتها الشر الغالب على الخير إن لم يكن هناك عون له عليه ولا عون أقوى مما كان من عند الله .

فبهذه الجامعة العظمى والرابطة المثلى ، تألفت قـــلوب الأمم المتنافرة ، وتضافرت قوى الشعوب المتفرقة ، فاندفع الاسلام في أطراف البسيط الأرضي يدوخ أهله الممالك ، وينشرون الدين واللغة والمدنية ويبسطون نور العلم والتربية والتهذيب ، كل ذلك فعلوه في أقــل من قرن بواسطة (جامعة الدين) ورابطة الحق اليقين .

٢٦٦ - يد الله مع الجماعة

قد اقتضت الحكمة الالهية أن يكون للإنسان السلطان والتصرف في الارض لا لأن يكون ظالماً جباراً بــل عادلاً يستعمل الكائنات فيما خلقت لأجله بالقدر الذي يقتضيه العــدل وناموس الحكمة ، وحيث ان الانسان نوع ذو أفراد تحتاج بالفطر الى نمو المادة ، وأنه ليس في طاقة الواحد الحصول على ما تنمو به مادته من الحاجيات اندفع بالطبع الى طلب المساعدة والائتلاف بأبناء جنسه .

والناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه وإجماع الأمة آية رضاء الله .

ومـــا المرء إلا بإخوانه   كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة   ولا خير في الساعد الأجذم

فالأمة التي يتحد أفرادها ويكون شعارهم « الواحد للجماعة والجماعة للفرد ،

والفرد يفدي الامة ، والامة تحمي الفرد » تسلك سبيل السعادة والهناء .

كونوا جميعاً يا بنيّ اذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحـــادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسراً واذا افترقن تكسرت أفرادا

فـــإذا كان اجتماع أفراد العائلة قلباً وقالباً داعية القوة والمنعة وعزة الجاه والجانب والظهور على المغالب والظفر بالعـدو والمحارب ، فهو لا شك في الامم روح جثمانها ودعامـــة حياتها وسلم ارتقائها وسيف احتفاظها بنفسها وغرار فتوحها ، بل تاج عظمتها وصولجان سلطانها ، ومـــا الوطن إلا عائلة كبيرة أعضاؤها عائلاتنا الصغيرة إذا حل بأفرادها نعمة تمتعوا بها جميعاً، وإذا نزل بهم بـلاء اقتسموه ، فالوطن له حقوق على ابنائه ، له حق في إخلاص كلي في أمانة تامة فإذا هدد له أن يطالبنا ببذل دمائنا وأموالنا فنترك عائلتنا ظهرياً ونخرج لحمايته ودفع ما يحوطه من المكاره .

ولست أبالي حـــين أقتل مؤمناً على أي جنب كان في الله مضجعي

فسحقاً لمن دخل العدو بـلاده عنوة واقتداراً ولم يدفعه عنها الى آخر نسمة من حياته مجاهداً في استخلاصها من قبضة يده .

كفاني فخراً أن أموت مجاهـــداً وحبُّ بلادي قائـدي منذ نشأتي

ولأمة النشيطة ذات النفوس الكريمة تصبر على القلة والجوع أكثر من صبرها على الهوان والخضوع ، ان مثل من باع بلاده وخان وطنه مثل الذي يسرق من مال أبيه وأخيه ويطعم اللصوص فلا أبوه يسامحه ولا اللص يكافئه .

وصفوة القول ان الاتحـاد دعامة السعادة وينبوع العزة والسيادة وهو اليد العليا في الحياة الدنيا وبدونه تحل بالامة الطامة الكبرى .

إذا رغبت في شرف مروم فلا تقنع بمـا دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيم

٢٦٧ ـ عدو عاقل خير من صديق جاهل

العاقل إذا والى بذل في المودة نصحه ونصره ، وإذا عادى رفـع عن الظلم

قدره فيسعد مواليه بعقله ويعتصم معاديه بعدله، ان أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر، وان أساء اليه مسيء سبب اليه أسباب العذر او منحه الصفح والعفو، وأما الاحمق فضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر ، مجالسته محتقرة ومعاتبته مبتذلة .

ولأن يُعادي عاقــلاً خير له   من أن يكون له صديق أحمق

وورد في امثال الاوائل ، عدو عاقل خير من صديق جاهل لأن همة العاقل لا تتعلق إلا بطلب الكمال ، فهو يقــدر الامور حق قدرها ويوقفها عند حدها اللائق بها ، فإنه ينظر بقلبه وخاطره لا بمجرد عينيه وناظره، فله من عقله رادع عن التسرع اذا أثيرت عواطفه بما يكدره من عدو تظاهر عليه بالعدوان معلقاً خاطره بأقوال النبهاء والافاضل الاذكياء ، وغير ذلك من النظم والقوانين التي يجعلها دائماً نصب عينيه دواء لغضبه ، أما الأحمق فليس عنده نظر في العواقب وهو جهول بالشرائع ، فالاقتراب منه ندامة والبعد عنه سلامة .

يقول لك العقل الذي يزن الفتى   إذا لم تكن تقدر عدواً فداره
ولاقه بالترحيب والبشر والقرى   وبارك له ما دمت تحت اقتداره
وقبل يد الجاني التي لست قادراً   على قطعها وراقب سقوط جداره

ذو العقل في معرك الاقدار مقتدر   لكن ذا الجهل مغلوب ومغلول
وعقل ذي الحزم مرآة الأمور بها   يرى الحقائق والمجهول مجهول

٢٦٨ - فوائد رجال الشرطة « البوليس »

لا بدّ لكل أُمة من حكومة ، ولكل حكومة من نظم وقوانين تسير عليها وتعمل بها ، وإلا اختل نظامها وانفرط عقدها .

والأمــة هي مجموع الافراد القاطنين في قطعة معلومة من الأرض والخاضعين لحكومة واحدة .

والحكومة هي جسم اجتماعي يعتبر كأنه شخص واحد ، له ماله من الإرادة والفكر والعمل ، وكل جمعية إنسانية خاضعة لقوانين ونظام عام تكون جسماً اجتماعياً يسمى بالأمة .

وكما ان الجسم الإنساني يحتاج لفكر يفتكر به ، ونفس يريد بهـــا وأعضاء يعمل بها، كذلك يجب ان يكون في هذا الجسم الاجتماعي إرادة وفكر وأعضاء مادية ، ويتعين على كل حكومة النظر في أعضاء الجسم الاجتماعي، وهم عبارة عن أفراد تلك الأمة ، ولهـذا يجب أيضاً على كل حكومة أن تحافظ على أن تكون العلائق بين أفرادها مؤسسة على العدل الذي يجده كل إنسان في نفسه ، ولا يجوز لها أن تترك القوي يظلم الضعيف وغير ذلك .

وكل فرد في المجتمع الإنساني لا بدّ وان يشتغل بعمل ما ، ولهذا احتاج الى القوة والمهارة والعـــلم ، وعليه واجبات يؤديها لنفسه وللمولى سبحانه وتعالى ولعائلته ولوطنه ، ولا يتسنى له القيام بذلـك إلا بقوتين : قوة قضائية ، وقوة تنفيذية ، فالأولى ما تقوم بهـــا رجال الشرطة والقصد من إيجاد الثانية توطيد الأمن والنظام والحرية العمومية .

ويدخل في اختصاص الشرطة أُمور كثيرة .

منها مراقبة مجاري المياه التي ليست من الامـلاك الخصوصية فلكل إنسان الحق فيها على حد سواء، وليس لأحد أن يستعملها استعمالاً مضراً بالصالح العام.

ومنها مراقبة القنص والصيد بحيث تكون تحت قواعـــد مخصوصة حتى لا ينشأ عنه مـــا يكدر راحة سكان الارياف أو يكون سبباً في إتلاف الزرع والغيطان ، وكذا صيد البحر يجب أن يكون على نظام واحد حتى لا يتأتى منه إهلاك الحيوانات المائية .

ومنها مراقبة الصناع في المعامل والمناجم والمصانع، فلا يجوز أصلاً أن تنهك قوى العمال خصوصاً النساء والاطفال .

ولذلك وجب ان تكون مدة الشغل فيها محدودة .

ومنها مراقبة المكاييل والموازين والمقاييس حتى لا يتأتى للبائع غبن المشتري.

ومنها مراقبة الأشياء الذهبية والفضية لأن المشتري لا يكون معه في العادة ما يتمكن به من تحقيق مـا إذا كانت الأشياء التي تباع إليه نقية او خلطاً من معادن حقيرة تقلل قيمتها .

ومنها مراقبة المواد الغذائية التي تباع في الاسواق بحيث تكون من نوع جيد

خالية من الغش حفظاً لكل إنسان .

ومنها مراقبة منع انتشار الامراض المعدية بالتقويمات الصحية .

ومنها مراقبة بيع الحيوانات وصحتها ودواب النقل للرفق بها .

وصفوة القول أنه يجب على رجال الامن العام ان يبذلوا النفس والنفيس في جلب الراحة والامان والاطمئنان والسعادة في ربوع عموم المدن والقرى والبلدان فبهم يبلغ الوطن من حسن نظام المعيشة الغاية ومن الحضارة والمدنية النهاية .

٢٦٩ - فوائد الشجاعة ومضار الجبن

الشجاعة من الفضائل الجوهرية ، لأنها من الوسائط العظيمة الضرورية لحفظ الذات ونوال الغبطة والسعادة ، فالرجـــل القوي النفس الشجاع الباسل يأبى الضيم ، ويذب عن حياته وشرفه ودينه ووطنه بكل ما أُوتي من قوة ، ويأنف أن يأتي الظلم .

ليس المروءة أن تبيت منعما وتظل معتكفاً على الاقداح
ما للرجال وللتنعم إنمـــا خلقوا ليوم كريهة وكفاح

نعم انه بشهامته وعلو نفسه في عمله يحصل على رزقــه من وجوهه الشريفة المشروعة ، ويعيش بسلام مطمئن الخاطر قرير العين غير هياب ولا وجل ، وإنه لقوة إيمانه وشجاعة نفسه اذا نابته النوائب التي لا يقدر على دفعها قابلها بالصبر الجميل واحتال للخلاص منها بتؤدة وحكمة حكيم .

فالشجاعة من هذا القبيل من أعظم الفضائل ، ولهـــذا جعلها القدماء من أُمهاتها ، وهي غريزة يضعها الله فيمن شاء من عباده « ان الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية » .

قال بعض الحكماء : الرجـال ثلاثة فارس وشجاع وبطل ، فالفارس الذي يشد اذا شدوا ، والشجاع الداعي الى البراز والمجيب داعيه ، والبطل الحامي لظهور القوم اذا ولوا .

ولو أن الحياة تبقى لحيّ لوددنا مكانهـــا الشجعانا

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تكون جبانا

أما الضعف والجبن فهما رذيلتان من شر الرذائل ، لأنهما قد تصاحبهما في نفس صاحبهما آلاف الاوهام والخزعبلات .

يرى الجبناء ان الجبن عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم

فالجبن الضن بالحياة والحرص على النجاة .

يفر الجبان من أبيه وأمه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

فالرجل الضعيف الجبان يعيش في الأوهام والمخاوف الدائمة فيضني صحته بالفزع والوجل من لا شيء ، وهذا الخوف أو الوهم والوسواس إنما هو آفة له قد يكون بها أسير اوهامه ورفيق كل من يريد هضم أعماله ، وهو استعباد قواه واذلالها فينتقص شأنه ويفسد عليه عيشه ، حتى انه ليجعل حياته طوع ارادة وهوى من يخافه ويتملقه .

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

الجبن عار وفي الاقدام مكرمة والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

على ان اكثر هذه الصفات قد تكون وراثية أي أنتجتها احوال سابقة للأمم والافراد ، غير ان التربية قد تصلح من تلك الصفات على تمادي الأجيال متى ما قصدت الأمم اليها ، وعرفت ما ينقصها منها ، لأن كثيراً ما يتعلق ارادة البشر اصلاح احوالهم وانما تعوزهم العزيمة والثبات ، لأننا بمعرفتنا ما ينقصنا من الاخلاق وشعورنا بالنقص فيها يمكننا أن نسعى الى احيائها في نفوسنا بحيث نهيىء ذرارينا لها بإصلاح احوالنا على قدر الطاقة .

وصفوة القول ـ ان الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم منارها وقطع روابط الأمم فحل نظامها وأوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية على أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال المذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، ويوطن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والاحتمال والتجلد . الجبن يلبس النار عاراً دون

احتماله موت أحمر عند كل ذي روح ذكية وهمة علية ، يرى الجبان وَعر المذلات سهلاً ، وشظف العيش في المسكنات رهفاً ونعيماً ، لا. بل يتجرع مرارة الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال ، وان لم يبقَ له الا عين تبصر الأعداء ولا ترى الاحياء ونفس لا يصعد الا بالصعداء واحساس لا يلم به الا الاذلاء ، هذه حياته أضاع كل شيء في القناعة بلا شيء ، وهو يظن أنه أدرك الغاية وحصل على النهاية ، كيف لا والجبن انخذال في النفس عن مصادمة كل عارض لا يلائم حاله ، وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية .

ان الشباب والفراغ والجدة　　　مفسدة للمرء أي مفسدة

الشباب مطية الجهل ومركب الذنوب وشعبة من الجنون ، ولذا قيل : سكر الشباب أشد من سكر الشراب .

قال النابغة الذبياني :

وان يك عامر قد قال جهلا　　　فإن مطية الجهل الشباب

والمال فتنة ـ قال الله تعالى : ﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ .

فالمال ميال للهوى ، بل سبب حتف الإنسان كما ان الطاووس قد يذبح لحسن ريشه .

ألم ترَ ان المال يهلك ربه　　　اذا جمّ آتيه وسدّ طريقه

فمتى وجد الشاب مالاً كثيراً وثروة عظيمة بلا تعب ولا كدر ، وكان وقته خلواً من الأعمال ، لم يلبث ان يتطرق اليه الفساد من حيث لا يدري ولا يشعر ويلحقه الدمار والوبال من حيث لا يفهم ولا يعقل تأمره نفسه الدنيئة بالسوء والرذائل ، فيخضع للشهوات واللذات ويسبح في بحار الضلال ويتيه في وديان الغواية الظلام ، ويصرف نفيس وقته في التفنن بضروب المفاسد طوعاً لأوامر الشباب وخضوعاً لسلطان الغرام ، ويضيع تلك الأموال الطائلة ويبدد تلك الثروة الهائلة في غير مصارفها المباحة ، فتفسد أخلاقه ويرتكب أخس الدنايا ويحمل ذميم السجايا ويتجاهر بالفسق والفجور ويتباهى بالزنا وشرب الخمور ، ويجتمع حوله كثير من اخوان السوء وأعوان الشيطان الذين لا حظ لهم في

مجالسته ومصاحبته سوى اختلاس امواله وإضاعة ثروته ، فلا يلبث ان تنفد تلك الثروة وتذهب ادراج الرياح ، ثم يلتفت يميناً وشمالاً لينظر اصحابه فـلا يبصر أنيساً ولا جليساً ويصبح خالي الوفاض ، بل يكون الحزن حليفه والكدر اليفه والفقر قرينه والذل دثاره والهوان شعاره .

هـذا الذي إن عاش لا يعتني به وإن مات لم تندب عليـه أقاربه

ويصبح من أموات الأحياء عالة على المجتمع الإنساني كئيب الحال كاسف البال .

ليس من مات فاستراح بميت إنمـا الميت ميت الأحياء
إنمـا الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليـل الرجاء

فالشخص الذي لا يعمل عملاً ينفع به نفسه ووطنه ما هو إلا عضو فاسد في المجتمع الإنساني يجب بتره قبـل تفاقم الداء فيعسر الدواء ويتسع الخرق على الراقع .

عدوى البليد الى الجليد سريعة والنار توضع في الرمـاد فتخمد

كيف لا ، وان الإنسان لم يخلق ليلعب ويمرح ويلهو ويترك مـا خلق لأجله وهو العمل .

صدقت ان الرزق يطلب أهله ولكن بسيرة متعب مكدود

وصفوة القول ان الشباب والمال والفراغ دعائم الفساد ورأس الضياع وطرق الوقوع في الحفر البعيدة الغور ـ فإن الشاب الغني الذي كثر ماله وعظمت ثروته ولم يتقيد بعمل من الأعمال لا يتطلع الى شيء من معالي الأمور ، فـإن الفراغ منشؤه عدم تقويم نفسه في صغره وعـدم تعليمه وبث روح العمل فيه ، فينشأ كارهاً له غـير مدرك قيمته ومن نشأ على شيء صار عادة له ، والعادة طبع ثان والطبيعة تصعب محاربتها .

وقائد الإنحطاط لذلك الشاب الذي لا عمل له وجود المال عنده ، فلا يحجم عن أي عمـل تسوّله له نفسه الامارة بالسوء ، ولا يزال يتحرك طوع شياطينه حتى تلتجىء نفسه الى ما لم تكن تعهده من الذل والهوان .

وإن رأيت الشغل يوماً مجهده فإنمـا الفراغ قطعاً مفسدة

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا صلاح إذا جهالهم سادوا
تهدي الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

ولاة الأمور من أعظم واجبات الحياة ، فهم قوام الدين والدنيا وعليهم في حركة الاعمال مدار البركة العليا وبدونهم يختل نظام العالم ، فلولا ولي الأمر لما قدر العالم على نشر علمه ولا الحاكم على تنفيذ حكمه ولا العابد على عبادته ولا الصانع على صناعته ولا التاجر على تجارته ، ولولاهم لانقطعت السبل وتعطلت الثغور وكثرت الفتن والشرور ، ولولا ردع الملوك لتغالبت الناس وطمع بعضهم في بعض واستولى الاقوياء على الضعفاء وتمكن الاشرار من الاخيار فيضطرون الى التشرد والتفرد ، وفي ذلك خراب البلاد وفناء العباد فالملك كالروح والرعية كالجسد ، ولا قوام للجسد الا بروحه .

ونظام العمران محتاج الى قوانين ، احداهما القوة الحاكمة الجالبة للمصالح الدارئة للمفاسد. وثانيها القوة المحكومة وهي القوة الإلهية التي لا تسود ولا تنمو الا بالقوة الحاكمة التي تكون من العلماء العاملين الذين تدربوا وتمرنوا وتعودوا الإصابة في الرأي والاجادة في الحكم والنظر في العواقب والرفق بمخلوقات الله تعالى ـ وحينئذ فلا ينبغي ان يكونوا جهلاء ، فان الجهل هو العقبة الكؤود في تقدم الافراد بل في تقدم الامم ، ولم يوقع الناس في الازمان الغابرة في العداء والشقاء والتفرق والظلم والاستبداد الا هو ، ولم يلههم عن البحث فيما يقدمهم وعن الخيرات التي لم تخلق الا ليتمتعوا بها سواه ، وقد قيل : (الناس على دين ملوكهم) فاذا كان الملك جاهلاً خائر العزيمة كانت أُمته كذلك ، وان لم يكن الملك عارفاً واجباته دارساً سياسة ملكه ، فلا يلبث ان يضيع من يده فيقعد ملوماً محسوراً ، وقد قيل : (جهل الرئيس يضل المرؤوس) .
واحتياج الملك للعلم ليس بأقل من احتياجه للعدل فانه أساس الملك وان لم يكن متوجاً به تألبت عليه الرعية واسقطته من فوق عرشه وكذا التدبير والحزم ، والا تداخل اعداؤه في شؤونه وأفسدوا عليه أموره .

نعم ، يجب أن يكون الملك نموذجاً للرعية ومثالاً للكمال والاستقامة من كل وجه حتى ترغب فيه أُمته وترجو له عمراً طويلاً وملكاً كبيراً وتحرسه وتفديه بأرواحها وأموالها .

٢٧٠ ـ وصف نهر النيل وفوائده في مصر

نهر النيل من أعظم أنهار الدنيا طولاً وأعذبها ماء وأعمها نفعاً وأرواها ، يأتي الديار المصرية كل سنة من بلاد السودان والحبشة ، فيفيض عليها بدائع الخيرات وأجمل البركات بما يأتي معه من الزبد وطين الطمى وهو مكون من امطار غزيرة ، ولولاه لما عاش في مصر انسان ولا حيوان ، يزيد عند الحاجة وينقص كالرجل المدبر فيأتي الى الارض في اشتداد الحر ويبس الهواء وجفافها فيسقيها ويرطب الهواء .

كأن النيل ذو عقل ولب — لما يبدو لخير الناس منه
فيأتي حين حاجتهم اليه — ويمضي حين يستغنون عنه

فهو سلطان الانهار وحياة هذه الديار وروح جثمانها وانسان عين احسانها اذ لولا وجوده لما كان لها وجود ، ولولا وجوده لما اخضر لها عود .

فرح الانام بنيلهم — اذ صار احمر كالشقيق
وتبركوا بشروقه — فكأنه وادي العقيق

وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد ويأتي من جهة الجنوب الى الشمال ، فيكون فعل الشمس فيه دائماً وتأثيرها على اصلاحه متواصلاً فأكسب أرض مصر الخصب والنماء واهلها الراحة والهناء حتى صارت منبع الخيرات وأم الثمرات .

٢٧١ ـ وصف يوم ذهبت أنواره وكثرت أمطاره

بينا كان الجو صافياً والغزالة مشرقة بأنوارها مضيئة نهارها اذ اكفهر وجه الافق واشتدت العواصف في الشوارع والطرق وتوارت الشمس بالحجاب وتلفعت السماء بأذيال السحاب والرعد يزجره ويسوقه بين يديه ، فاذا قصر صاح به وزجر عليه والبرق يلمح ويلمع ويمنح ثم يمنع وقوس الغمام للجو نطاق ، لا بل تاج على مفارق الآفاق يزهو بلجينه وعسجده ويفخر بياقوته وزبرجده فلبس

ذلك اليوم حلة السواد وتسربل بثوب الحداد عبوس قمطرير كشر عن ناب الزمهرير أرضه مفروشة بالقوارير اللامعة وهواؤه كالزنابير اللاسعة تراكمت فيه السحائب والغيوم وأسبلت الستور على النجوم ووضع عليها أعظم غطاء من الصباح لغاية المساء ، وما نشعر إلا وقد أغرورقت مقلة السماء فأرسلت الامطار أمواجاً والامواج افواجاً فسالت به الاودية والصحاصح كما سالت بأعناق المطي الاباطح فبتنا بليل ماطر وأصبحنا بين ماء غامر فلازمنا المنازل ثلاثة أيام بلياليها حتى عادت المياه الى مجاريها .

٢٧٢ ـ فوائد النار ومضارها

ان اعمال الانسان متوقفة كل التوقف على النيران التي لولاها لما نضجت اطبخة ولا تركبت اشربة ولا صيغ ذهب ولا فضة ولا نحاس ولا رصاص ولا قزدير ، ولا غير ذلك مما يتوقف عليه منافع العباد كالحلي والاواني وآلات الحروب والطبع والغزل والحرث والحصاد والري والتجارة والسفن البخارية والسكك الحديدية ، ولولاها لما كان يتهيأ للخلق من الذهب والفضة والمعدن نقوداً ولا زينة ولا منفعة .

قال الله تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

كيف لا ـ والحياة للإنسان بدونها غير ممكنة في الاقطار الباردة كبلاد سبرية ومعظم بلاد الروسيا وأميركا الشمالية فيدفعون بها ضرر الثلوج والرياح الباردة ، ويستضاء بها في غسق الليل ويهتدى بنورها ، ولما علم المولى سبحانه وتعالى ان كثرتها ولبثها في العالم مفسدة جعلها الله بحكمته محصورة حتى اذا احتيج اليها وجدت واستعملت ، وينبغي الاحتراز دائماً منها لأنه يحصل بسببها مصائب عظيمة وأخطار جسيمة (ومعظم النار من مستصغر الشرر) .

٢٧٣ ـ رب قول أنفذ من صول

لما كان اللسان آلة للتفاهم بين الناس ، كان مصدر كل تأثير سواء كان في الخير أو الشر ، ولهذا حذر الحكماء من فضول القائل ونددوا بحصائد الألسنة

واستعاذوا من السلاطة والهذر كما استعاذوا من العي والحصر ، لأن الصمت والسكوت خير من القول بالجهل والتكلم بالشر ، والقول مع العلم والتكلم بالخير هو غاية المنافع القصوى ودرجة المآثر العليا ، وعليه حث العلماء والمحققون .

قال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : لا خير في الصمت مع الحكم كما انه لا خير في القول بالجهل .

وقال امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ترك الحركة غفلة وطول الصمت يفسد اللسان ، وقيل : اذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبدلت نفسه وفسد حسه وذوقه ، ومـا إخالهم أرادوا بذلك إلا لأن النطق من لوازم العقل بما جعل اللسان مترجماً عن الضمير وضابطاً للفكر ومقيداً للخواطر ، وان شأن المعاني التي تختلج في النفس وتتصل بالفكر ان يتحيزها النطق فيبرزها الى عـالم التفاهم ليؤتي على الغاية المقصودة من اجتماع بني الإنسان ، وتحصل الفائدة المودعة في جوهرة هذا اللسان .

كذلك لو قصر الإنسان على التكلم في موضوع من المواضيع دون غيره ، أو حظر عليه الكلام إلا في معنى خاص بحيث يحال بينه وبين ما حرم عليه بحجاب كثيف ، فتوصد في وجه أبوابه وتتصرم معـه أسبابه وتنقطع عنه مواصل الاطلاع من جهة ذلك المعنى ، فحكمه بالعلم بـه حكم من عاش وحده لا يفقه ولا يعي إلا بقدر ما يتاح له من استطلاعه غفلة واستشرافه خلسة مما يسفل عن رتبة العـلم وينحط عن درجة المعرفة ، بخلاف ذلك تراه في الموضوع الذي منحت له حرية التكلم فيه ، وقد اختبر أمره وأكنه سره وقلب بطنه وظهره ووقف على سره ومكنونه ودرى اصوله وفروعه وأحاط بأطرافه بما يتفرغ له من المفاوضة بشأنه واستعمال أداة التفاهم التي تقفه على رأي غيره وتريه منزلة رأيـه عندهم بحيث تكون له مرآة عقلية يرى فيها ما لنفسه وما لغيره .

ولا يخفى ان الإنسان اذا اتقن العلم بشيء من الاشياء فحيث كان لهذا الشيء اتصال بعالم التصرف ، وكان العلم هاتفاً بالعمل رأيت المرء احذق في شأنه واعلم باتيانه ، ولو نظرنا في حال الرجال المشاهير بحسن سيرتهم وسداد أعمالهم ونبل افعالهم لرأينا في كلامهم الخاص من البلاغة والإحاطة والدليل على شدة امعانهم

في اسرار الامور وتعمقهم في بواطن الاشياء ما يقصر عنه وصف الواصفين وتشهد به أذواق العارفين .

وبديهي ان اتقان العلم باعث على اتقان العمل ما وجدت الهمة وتوفرت العزيمة .

واذا كان هكذا حكم الفرد من الاشخاص فهو حكم الامة التي هي بمجموعها على حد الفرد بلا فرق سوى الزيادة في النتيجة انظر الى حال الامم التي اطلقت فيها حرية الخطابة واتسع عندها مجال القول ، كيف عم فيها العلم وشاع الفهم وتنورت العقول واستضاءت الالباب بما اتصل بها من المعاني الرفيعة والمواضيع العالية والمقاصد السامية ، وما تيسر بذلك من وسائل الارشاد وطرق التبليغ واسباب الدعوة ، وما انفتح به ابواب الاشارة والاستشارة والمشاركة في ثمرات العقول ونتائج الافكار ، ولا سيما في الامور العامة والخطوب الطامة حتى شقة الخطبة من الخطب لأنها ما يقال عند الامور العظيمة ، واذا كانت الامة على هذه الدرجة من سهولة الاطلاع والكشف كانت على غاية من الانتباه والحذر والتيقظ لمصالحها والتبصر بحوائجها والتحفز على درء مضارها بحيث تكون اسبق الامم قدماً الى منازل العز وألمحها بصراً الى معالي الامور واسدها تدبيراً فيما تباشره من الاعمال ومن ثم تحرز الغبطة والبسطة والجاه والثروة وتحوز الغلبة على من سواها .

وحسبنا شاهداً في كل زمان الامم التي اشتهرت بالرئاسة والسيادة والسداد والقوة والجاه والحكمة ، منها امة اليونان في الازمان القديمة بلغت ما بلغت من الشهرة في العلوم والحكم وحسن السياسة وتثقف العقول وادب الطباع ، بما كان فيها من حرية التكلم وتعميم العلم بالخطابة ، ولقد كان مشاهيرها اساطين الحكمة وسلاطين الكلام وملوك المقال والمتمكنين من ازمة البيان ، ومنها امة العرب الى عهد السلام وما بعده بقليل بلغت حد الاعجاز من البلاغة ، وتجاوزت طور الامم في البيان ، وفي لسانها من التعابير والتراكيب والامثال الدالة على شدة تسلطها على المعاني وقبضها على المواضيع واحرازها لظواهر الاشياء ما يقضي بالعجب العجاب .

ومن انعم النظر في خطب عمر بن الخطاب او علي بن أبي طالب مثلاً او غيرهما من امراء الجيوش وعمال الاقاليم الذين عاشوا في صدر الاسلام وعلم ان

مثل تلك البلاغة الشاهقة والحكمة السامية مما كان مألوفاً عند افهام العوام في تلك الأيام ، وهي مما يعجز عنه اليوم مدارك الخواص ، تمثلت له حالة البيان في ذلك الزمان ولم يعجب لباهر تدبير هؤلاء الرجال وشدة نفاذهم على الامور ، فإنهم سطوا على الاغراض فأحرزوها وتمكنوا من الحقائق فأبرزوها وذلت لأفهامهم المشاكل وخضعت لأفكارهم المقاصد وانقادت لخواطرهم الشوارد ، ومن كان هذا شأنه من الفهم والتفهيم بين أحوال العالم وأموره ، فقد بلغ به العقل السعادة التامة والحكمة العامة والمنزلة الخاصة دون البشر .

ومن هذا القبيل الشعوب الاوروبية ، لهذا العهد أدركوا الغاية القصوى من النجاح وتسنموا المعرفة العليا من الفلاح ، وصاروا الأشد طولاً والأوفر حولاً والأغزر مادة والأكثر بضاعة من كل صنف من أصناف المعالي والمراتب والمنافع والمكاسب ، وذلك بعد ان اطلقت عندهم الحرية وأجيز القول بكل نوع من أنواع النصيحة والتنبية لكل فرد من افراد الامة ، فعم عندهم مشرب الحب الوطني ، وصارت كل امة منهم بمثابة الشخص الواحد تتطرب بكليتها للمصلحة وتتجه بأجمعها الى المقصد ، ويتم هذا الاتحاد في الرأي والعمل حتى تكون الامة كلها على نبإ من خطبها فتتهيأ لتلقيه بالتي هي أحسن، ولا يكون ذلك إلا باتخاذ المجالس والنوادي والمحافل السياسية ومنابر الخطابة والجرائد والصحف والاجزاء المنشورة ، وسائر وسائل اللسان والقلم فترى الامة اذا أصابها خطب أو دهمتها نازلة من النوازل قامت قائمتها من كل جهة لاسترجاع الحق ودفع الاذى فصعدت الخطباء الى المنابر وصعدت الكتاب بالجرائد وانبسطت المسألة الواقعة للجميع بما يستعرض الافكار ويستدرج الآراء ويستوري زناد الروية ويستمطر سحاب القريحة للعمل بالاولى واتخاذ الخطة المثلى، فتندفع المملكة كلها في مداركة الخطب وملاقاة اليأس ، ولا يزال العويل قائماً والنفير متلاحقاً واصداء المحافل متجاوبة بالمناقشة والمحادثة وأوراق المطابع متزاحمة بالمجادلة والمباحثة حتى تتمحص جميع الوسائل والادوية ، وينتهي الأمر باختيار الأنفع وارتضاء الانجع وأما الرأي العام المعروف فلا سبيل الى انعقاده إلا هذا الطريق ، وهذه الحالة هي الآخذة بطرفي المنفعة المادية والأدبية الماسكة بناصيتي المصلحة العمومية والخصوصية ، وذلك فضلاً عن تحري السداد والفوز بالنجاح في انتهاج هذه الطريقة في أمور المملكة ، يصبح كل واحد من الامة عالماً بالشأن الذي ينبغي له

ضليعاً في الامر الذي عين عليه ، وانه ليقوم الخطيب في القوم مرتجلا إرتجالاً ، فتأتيه المعاني إرسالاً فيأتي على موضوعه كله ، لا يدع وجهاً إلا قلبه ولا رأياً إلا كاشف به ، ويجيء الكاتب لإنشاء فصل من الفصول ، فلا يتناول القلم إلا وقد تداعت عليه المعاني من كل جانب ، وكل عندهم يخمد ويضرم وينقص ويبرم اذا اشرأبت الى رأيه الاعناق وارتاحت الى رشده النفوس ، ولهذا صاروا أبصر الجميع في لوازمهم وأنجحهم في مطالبهم وأنشطهم الى مصالحهم ، فشمروا عن ساق الجدّ وانصلتوا في السير الى المجد ، ونالوا الحظوظ الوافرة وأصبحوا على ما نراهم في حالة تبهر العيون وتملأ الصدور .

وكثير من الشعوب بفساد امرائهم واستبداد رؤسائهم وتحكم ملوكهم وتخونهم لحقوق عامتهم ، مما نشأ عنه سوء تربية الاشخاص وتعطل اخلاقهم وانقلاب فطرهم وانعكاس خلقهم قد حرموا منفعة الخطبة والتكلم في الامور العامة مما ينوّر عقولهم من جهة ويسدد أعمال دولهم من جهة أخرى ، فهم لا ينشطون لمقال ولا ينشطون من عقال ، وذلك انه جرت العادة عند الملوك القدماء المستبدين أنهم متى فسدت طباعهم وارخو العنان لاهوائهم ، فجروا في الاغتصاب والانتهاب كل مجرى ، وذهبوا في الحيف والجور كل مذهب لم يطيقوا سماع مندد بأهوائهم معدد لأسوائهم ذاكراً لقبح صنيعهم تعجرفاً وكبراً منهم عن ان ينظروا قبائحهم بأعينهم او ضعفاً عن اصلاح سيرتهم ، فضربوا بين رعيتهم وبين الحرية ستاراً ، حتى اذا حولوا الابصار عن النظر في اعمالهم وصرفوا الخواطر عن التأمل في حركاتهم انطلق بهم جماح الشهوة الى حيث شاءوا بلا معارض ولا منازع ، واعتنوا بتضييق الواسع على رعاياهم ليتمادوا في الغباوة ويرتكسوا في الضلالة ويسقطوا في الظلمات فيستضيمون حقوقهم ويتحكمون في اعناقهم وارزاقهم وهم صاغرون ، ولهذا اخلوا دولهم من المجالس الشورية الدستورية ، وانحصرت الأمور العمومية التي عودتها على ألوف الألوف بل الملايين من البشر في رأس شخص واحد او اثنين ليس لغيرهما حق في ان العلم ما هو مصيره وأمته ، ولا ان يبحث في شأن من الشؤون العامة أصلاً فترى الاهالي وقد كبحتهم حكمة القهر عن التكلم في مصالح المملكة وغمست منهم الاخبار السياسية ، وطويت المسائل المهمة في أدراج السكوت في أسوأ حالة من الجهل بأمورهم والغفلة عن مصالحهم وقلة الاستعداد لدرء الملمات وإزاحة الكروب ،

والقصور عن الجد في منفعة وطنية بما غلّ أيديهم من سلاسل الاستعباد وارتفع على اعناقهم من نير الاستبداد ، ولما صار الى هذه الدرجة جهلهم بأنفسهم بما حجب عنهم من العلم ، واطيل من ذلك الحجاب سكنت هممهم وماتت نفوسهم.

٢٧٤ ـ هب أنك وليت الملك فماذا تعامل أمتك لتكون محبوبا عندهم

إي والله أكون الملك العادل قوام كل مائل وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ومفزع كل ملهوف ، وأكون كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع المهلكة ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والبرد وكالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها تفرح بعافيته وتغتم بشكايته وكالأب الحاني يسعى لأولاده صغاراً ويعلمهم كباراً يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته .

وما المرء إلا ذكره وفعاله   وكل مقام غيرهن حقير

أيرضى الوالد الرحيم أن يأكل ويشرب أطيب المأكول والمشروب ويلبس الكسي الفاخرة وأولاده يقتنعون من دهرهم بالخسيس من المطعم والملبس . أيرضى ان ينام على فرش وثير وأبناؤه يتوسدون الثرى .

ولذة ساعة ذهبت وولت   وأبقت بعدها حسرات دهر

وأكون موجهاً نظري في عمارة الأرض قبل توجيه نظري الى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ولا عمارة إلا بالعدل (فالعدل أساس الملك) ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً .

فما ابن آدم إلا ذكر صالحة   او ذكر سيئة يسري بها القلم

فالملك الذي يسلب أموال رعيته ويثقل كاهلها بالضرائب ، مثله كمثل من يأخذ الطين من أصول حيطان بيته فيطين به سطوحه فيوشك ان يقع عليه البيت .

وليس يعين الظالمين بظلمهم   سوى أدنياء تستلذ المثالبا
فهم مثل كلب الصيد يتبع ربه   ليلتذ لا نفعاً جنى بل متاعبا

ومن آثر الدنيا على حسن سمعة — وذكر له يبقى ويبقى المناقبا
فذاك كمن عاف النعيم مخـــلداً — بلذات دنيا برقها كان خالبا

وإني أخاف الله تعالى فلا أسلك بأمتي سبيل الظالمين ولا أسلط المستكبرين على المستضعفين ولا أنظر الى قدرتي الدنيوية ، ولكن أنظر الى قدرتي الأخروية وأنا مأسور في حبائل الموت وموقوف بـــين يدي ملك الملوك الأعلى سبحانه وتعالى .

غداً توفي النفوس مــا كسبت — ويحصد الزارعون مــا زرعوا
ان احسنوا احسنوا لأنفسهم — وان أساءوا فبئس ما صنعوا

وأكون موجهاً نظري الى نشر العلوم والمعارف في أنحاء المملكة ، فقد قال فيكتور هوجو : « علموا الجهال ما استطعتم ، فإن أعظم جرائم الحاكمين أنهم لا يجعلون التعليم مجاناً ، والجهل ظلمة وان تبعة الذنوب التي تجري في هذه الظلمة عائدة عليهم ، وليس المجرم من يقترف الذنب ، بـل المجرم من ينشر الظلمة على الأرض » .

ولا أسلب أُمتي الاستقلال والحرية فإنه لا سعادة إلا بالحرية ولا معنى لحياة العبودية ، فالحرية فطرة طبيعية مغروزة في قلب كل حي .

قال امير المؤمنين عمر بن الخطاب : « اتريدون ان تستعبدوا الناس وقـــد ولدتهم امهاتهم احراراً » ؟

فعلى عهد الله وميثاقه ان اواصل الليل بالنهار في اصلاح شؤون أُمتي مــا استطعت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه انيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
وصف ليلة عرس	٦١
من عمل صالحاً فلنفسه	٦١
رأيت الناس قد مالوا الى من عنده مـــال	٦٢
خير للصانع في الانام صناعة تنبو بحاملها عـــن الاذلال	٦٢
فوائد إنشاء المتنزهات في المدن	٦٣
فوائد الخيالة السينما توغراف	٦٣
فوائد دور التمثيل عند الامم الراقية	٦٤
مدنية الشرق والغرب	٦٥
من فتح مدرسة أغلق سجناً	٦٥
القطن المصري	٦٥
وصف الامم الراقية	٦٦
وصف الامة العربية	٦٧
وصف الشرف	٦٨
ليس الرجل بماله وإنما الرجل بأعماله	٦٨
أساس نجاح المرء في حياته اعتماده على نفسه وعدم الثقة بغيره	٧٠
قليل المـــال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد	٧٢
الدين أشد أنواع الفقر	٧٤
حب الوطن من الايمان	٧٥
العاديات والآثار القديمة	٧٧
لا خير في علم بلا عمل	٧٨
لا تصحب من لا يحمد حاله ولا يدلك على الخير مقاله	٧٩
ما يجب أن يكون عليه المعلم بين تلاميذه	٨١
على من تلقى مسؤولية التربية	٨٣
الحرية وأثرها في الهيئة الاجتماعية	٨٥
الحرية الشرقية والحرية الغربية هل يستويان	٨٨
المساواة وأثرها في الحضارة	٨٩
الإخاء ضروري للبشر	٩٢

الموضوع	الصفحة
مكافأة العمال سر النجاح وداعي التقدم	١٢٠
حكمة فرض الله على الأغنياء زكاة اموالهم للفقراء	١٢١
وبالوالدين إحساناً	١٢٢
الإحصاء العام وآثاره في مدنية الامم	١٢٣
الدرهم الابيض ينفع في اليوم الاسود	١٢٤
لا تؤخر عمل يومك الى غدك فلكل يوم عمله	١٢٥
ليس الرجل بثيابه وماله وإنما الرجل بآدابه وكماله	١٢٥
لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا	١٢٦
التمثيل الهزلي	١٢٧
مضار التبغ والدخان	١٢٨
ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب	١٢٨
غنى المرء في الغربة وطن وفقره في الوطن غربة	١٢٩
رب أخ لك لم تلده أمك	١٣٠
أعط القليل ولا تمنعك قلته فكل ما سد فقراً فهو محمود	١٣٠
التقليد في الفضيلة سبيل النجاح	١٣١
الأدب وسيلة الى كل فضيلة	١٣٢
الحلم سيد الأخلاق	١٣٤
الصدق يرفع أهله والكذب مرتعه وخيم	١٣٦
الحياء دليل الخير كله	١٣٩
التواضع دليل العلم	١٤١
لن تنالوا ما تحبون إلا بالصبر عما تكرهون	١٤٣
الاقتصاد في الأمور مملكة	١٤٥
العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق	١٤٦
العفو من مكارم الاخلاق	١٤٩
المروءة رمز الإنسانية الكاملة	١٥١
القناعة كنز لا يفنى	١٥٣
العفاف حلية الأشراف	١٥٦

الموضوع	الصفحة
المشورة وسبيل النجاح	١٥٧
من جعل مطيته الروية والتؤدة كان خليقاً بالنجاح ولو أحاطت به الاخطار	١٦٠
الأمانة سر النجاح وداعي التقدم	١٦٢
العدل أساس الملك	١٦٤
العدل بين الاجرام وسائر الاجسام	١٦٥
عدل الإنسان مع نفسه	١٦٥
عدل الراعي مع رعيته	١٦٦
عدل الرعية مع راعيها	١٦٧
العدل مع الاكفاء	١٦٧
من ضيع الأمانة ورضي الخيانة فقد بريء من الديانة	١٦٨
الأخلاق الفاضلة وأثرها في رقي الامم الحية	١٦٩
أساس نجاح الامم الراقية تربية أبنائهم	١٧١
الاعمال قيم الرجال	١٧٣
فوائد المزاحمة والمسابقة وأثرها في الارتقاء البشري	١٧٥
لم لم تؤثر الخطباء والكتاب في نفوس المصريين	١٧٧
الصحف السيارة وأثرها لدى الامم	١٧٩
التدبير نصف المعيشة	١٨٠
اذا رزقتم أموالاً عظيمة ففيم تصرفونها	١٨١
البيت مملكة تديرها المرأة	١٨٣
أذكر طرق المعيشة واختر لنفسك منها طريقاً	١٨٨
الناس من خوف الفقر في الفقر	١٩٠
فوائد صناديق التوفير	١٩٤
هل الفوائد الناتجة عن تأليف الشركات في بلادنا من الاجانب مشتركة بيننا وبينهم او عائدة عليهم فقط .	١٩٦
لا سرف في الخير كما لا خير في السرف	١٩٧
اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل	١٩٩
الفلاح روح العمران	٢٠٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
ان النفس لأمارة بالسوء	٢٣٧
من كتم سره فقد ملك امره	٢٣٩
الشحاذة وخطرها على المدنية والحضارة	٢٤٢
اكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع	٢٤٤
تجنب الفحشاء لا تنطق بها	٢٤٥
الغيبة والنميمة وما ينجم عنهما	٢٤٦
الحقد والحسد واثر ضررهما في الهيئة الاجتماعية	٢٤٩
وصف روضة غناء	٢٥٢
طاعة أولياء الأمور مقياس رقي الأمم	٢٥٢
النور وأثره في الإنسان والحيوان والنبات	٢٥٤
فوائد اللغة العربية	٢٥٥
ما هي الحاجة الماسة لحفظ اللغة العربية الفصحى	٢٥٦
فوائد تمهيد الشوارع ونظافتها وانارتها	٢٥٧
إنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى	٢٥٨
اذا قعدت وأنت صغير حيث تحب قعدت وأنت كبير حيث تكره	٢٦٠
فوائد ومضار الانتقاد	٢٦٢
فوائد ومضار التقليد	٢٦٣
الربا نذير الخراب والدمار	٢٦٥
اختبار الزوجين لبعضهما سر الحياة الاجتماعية	٢٦٦
المرء قليل بنفسه كثير باخوانه	٢٦٨
فوائد الوقار ومضار الاحتقار	٢٧٠
ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .	٢٧٢
هل نحن في عصر المدنية	٢٧٣
هل الأفيد اجبار كل شاب على الجندية او اطلاق سراح الموسر الذي يفدي نفسه بماله وأسر المعسر	٢٧٥
مدارج الإنسان في معترك الحياة	٢٧٧

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع		الصفحة
الاحساس في الشعور دليل رقي الأمة		٣٦٧
يد الله مع الجماعة		٣٦٩
عدو عاقل خير من صديق جاهل		٣٧٠
فوائد رجال الشرطة (البوليس)		٣٧١
فوائد الشجاعة ومضار الجبن		٣٧٣
ان الشباب والفراغ والجدة	مفسدة للمرء أي مفسدة	٣٧٥
لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم	ولا صلاح اذا جهالهم سادوا	٣٧٧
وصف النيل وفوائده في مصر		٣٧٨
وصف يوم ذهبت أنواره وكثرت امطاره		٣٧٨
فوائد النار ومضارها		٣٧٩
رب قول أنفذ من صول		٣٧٩
هب انك وليت الملك فماذا تعامل أمتك لتكون محبوباً عندهم		٣٨٤